أبو عبد الرحمن الكردي

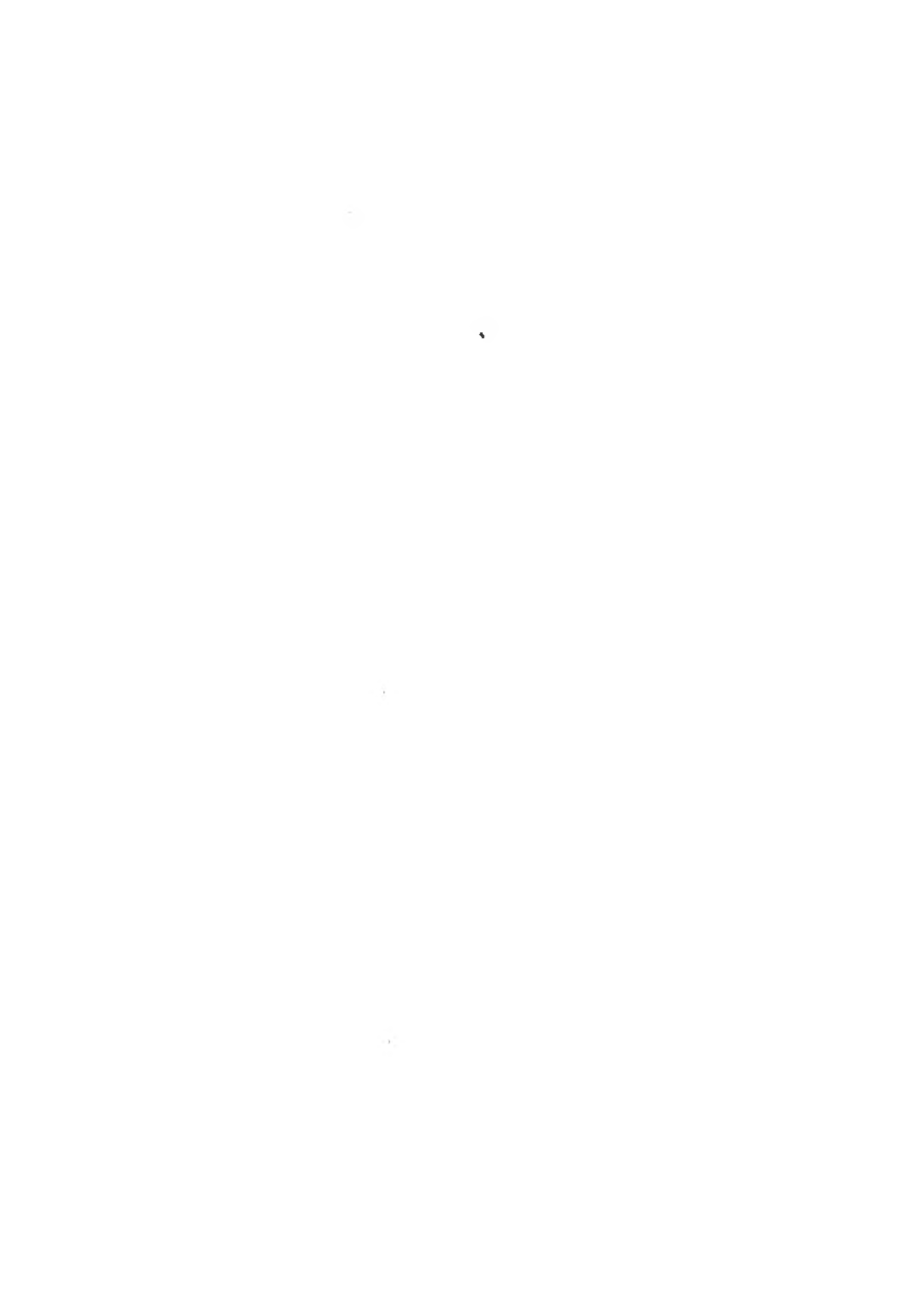
راندال بيكر

مملكة الحجاز

الصراع بين الشريف حسين وآل سعود

ترجمة : صادق عبد علي الركابي







الأهليّة للنشر والتوزيع

المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان
وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمّان / الأردن
e - mail : alahlia@nets.jo

مملكة الحجاز
الصراع بين الشريف حسين وآل سعود
راندال بيكر
ترجمة : صادق عبد علي الركابي

الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠٤
حقوق الطبع محفوظة

تصميم الغلاف : زهير أبو شايب / الأردن

سكتم سيسم ®

الصفّ الضوئي :
إيمان خطّاب

راندال بيكر

مملكة الحجاز

الصراع بين الشريف حسين وآل سعود

ترجمة : صادق عبد علي الركابي



مقدمة المترجم

◘ يتناول هذا الكتاب قصة حياة الملك حسين بن علي ودوره في قيادة الثورة العربية الكبرى في عام ١٩١٦، ونشوء مملكة الحجاز وسقوطها، وكيفية استيلاء الملك عبدالعزيز بن سعود على المدن الحجازية الواحدة تلو الأخرى. ويتطرق كذلك إلى مقاومة الحسين العنيدة للمطامع البريطانية والفرنسية في المنطقة لا سيما مخططاتهم إزاء فلسطين، حيث كلفه التزامه بمبادئه فقدان عرشه ومملكته ونفيه إلى جزيرة قبرص ليقضي فيها بقية حياته كهلاً محطم النفس مظلومًا من الجميع، ويصل المؤلف إلى استنتاج مفاده أن الحسين لم يخن القضية العربية، رغم أن بعض العرب قد عارضوا وجهات نظره، ولم يكونوا يودون أن يصبح ملكا عليهم، إلا أنه قد مثل قضيتهم بأمانة ولكن بثمن باهظ.

مؤلف هذه الدراسة هو الدكتور راندال بيكر من مواليد بريطانيا ١٩٤٤، وخريج جامعتين ويلز و(إيست أفريكا). وهو متخصص بدراسة المجتمعات البدوية. وقد قضى جزءاً من حياته بين أوساط مربي الماشية في شمال أوغندة، ونشر عدة دراسات عنهم. وفي سنتي ١٩٧١، و١٩٧٢ قام بجولات عديدة في منطقة غرب

المملكة العربية السعودية أي مملكة الحجاز سابقاً، وفي الجمهورية العربية اليمنية، وكتب عدة دراسات عن التاريخ الحديث للحجاز.

تأتي أهمية الكتاب من كونه تقييم موضوعي لتجربة الملك حسين في قيادة الثورة العربية الكبرى لتحقيق الدولة العربية الموحدة في بداية القرن المنصرم (القرن العشرين). وقد تعرض دوره للتشويه من قبل البريطانيين وقسم من العرب. والمؤلف لم يحاول بدراسته هذه أن يرتدي زي المحامي عن الملك أو أن يشهر بغيره، بل جاءت دراسته، بحكم منهجه الأكاديمي، رصينة، جادة، زاخرة بالمعلومات، التي تسلط الضوء على جوانب عديدة من حياة الملك ومملكته.

وفي الختام، أود أن أعرب عن عظيم امتناني وشكري إلى السيد علي حسين حسن الذي كانت لجهوده الأثر الكبير في إخراج الكتاب بهذه الصورة.

* * *

المترجم

صادق عبد علي طريخم الركابي

موضوعات الكتاب

تصدير

◘ هذه قصة حزينة، تثير قراءتها الكآبة في نفس من يثق بدور بريطانيا في التاريخ. لقد أنجز الدكتور راندال بيكر دراسة دقيقة متقنة، وقد جعلت نزاهته الهادئة من اليسير علينا النفاذ إلى قلب الحقائق.

ومما يؤسف له حقًا أن الحكومة البريطانية قد ألزمت نفسها خلال الحرب العالمية الأولى بعدد من الوعود غير المحددة لجماعات وحكومات مختلفة والتي إذا قبلت حسب قيمتها الظاهرة، لغدت متناقضة. فعن طريق المندوب السامي البريطاني في مصر، تم إفهام الشريف حسين بن علي في مكة والأحزاب العربية القومية في سوريا. إن الأقطار العربية الآسيوية ما عدا لبنان ستكون حرة في تقرير مستقبلها السياسي بعد الحرب. ولم تتم الإشارة إلى حدود معينة بالضبط بل نوقشت المقترحات حسب عن طريق الرسائل المتبادلة بين السير هنري مكماهون والشريف حسين بن علي.

لم توقع معاهدة أو اتفاقية أبدًا، مع ذلك فإن الشريف قد احتفظ بهذا الانطباع وكثيرًا ما أبلغ الحكومة البريطانية بأنه فهم وعودها على هذه الشاكلة. لم تكن بياناته متناقضة. فعلى أساس اقتناعه بصدق الوعود المقطوعة إليه، ثار

الشريف حسين على الأتراك في عام ١٩١٦. وقد أدت الثورة العربية فائدة عظيمة للحلفاء الغربيين.

إلا أن الحكومة البريطانية والفرنسية والروسية قد وقعت في نفس الوقت اتفاقية سرية لتقسيم الإمبراطورية التركية. وعندما وقعت روسيا اتفاقية سلام مع ألمانيا، انحصرت هذه الاتفاقية بالتفاهم الإنكليزي - الفرنسي والذي سمي فيما بعد باتفاق سايكس - بيكو. وقد كانت هذه الاتفاقية الوثيقة ذات عبارات مطاطية كما تم عقدها من دون علم العرب الذين كانوا قبلاً حلفاءنا، الأمر الذي يعتبر غدراً.

وفي تشرين الثاني ١٩١٧، أذيع ما يسمى بإعلان بلفور الذي أوضح أن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين رغم أن هذا البلد يدخل ضمن الوعود التي أعطيت إلى الشريف حسين الذي لم يتم إبلاغه أن المفاوضات جارية حول الموضوع مع اليهود. وقد تتبع المؤلف بأمانة جميع هذه الوعود ذات العبارات المفككة والمتناقضة غالباً.

ومهما يكن الأمر فإن هناك مظهراً آخر لهذه الأمور المأساوية التي أعتقد أنها لم تكن مفهومة تماماً في بريطانيا. لقد تكونت الإمبراطورية البريطانية في آسيا قبل الأيام التي ظهر فيها التلغراف الكهربائي، حيث كان يستغرق الإبحار إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح شهوراً عدة. وكان على تلاميذ المدارس العسكرية الذين يذهبون إلى الهند في منتصف القرن التاسع عشر أن يخدموا خمس عشرة سنة قبل أن يحصلوا على إجازتهم الأولى في إنكلترا.

في مثل هذه الظروف كان على الموظفين البريطانيين أن ينشأوا بيوتاً لهم في ذلك البلد وأن يتغلغلوا داخلياً في شعبه. وعن طريق الهند انتشر الضباط السياسيون والموظفون البريطانيون إلى بورما وسنغافورة وساراواك وموريشيوس والخليج العربي والشرق الأوسط.

العديد من هؤلاء الرجال لم يعودوا إلى بريطانيا وآخرون عادوا ولكن خلفوا أبناءهم وأحفادهم في آسيا والذين غالبًا ما كانوا يدخلون نفس الكتائب العسكرية مثل آبائهم أو يستقرون في نفس الأماكن التي أنشأتها عوائلهم سابقًا. وهكذا نشأ جيل كامل من البريطانيين الذين ولدوا في آسيا وأرسلوا ليتعلموا في إنكلترا ولكنهم عادوا أخيرًا ليقضوا بقية حياتهم في الشرق ولربما كان هؤلاء من الطبقة الحاكمة ولكنهم كرسوا حياتهم لخدمة شعوبهم من السيخ أو البنجابيين أو الكوركا أو الملاويين أو العرب أو أية صفة كانت. كان العديد منهم من المسيحيين المخلصين ويشعرون بمسؤولية عميقة وتعاطف عالٍ مع الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها، أمثال جون نيكلسون أو السير هنري لورنس. وبالمقارنة مع الأتراك العثمانيين في سنواتهم الأخيرة أو بالنسبة إلى أي شكل من أشكال الحكومات التي قامت في الشرق، فقد حظي الضباط والإداريون البريطانيون بإعجاب كبير.

وأتذكر في الثلاثينيات عندما كنت أقضي فترة ما بعد الظهر مع رئيس بلدية نابلس العربي في فلسطين وهو الآن شيخ كبير، أخبرني بأنه قبل عام ١٩١٤: "كنا نعتقد أن كلمة الرجل الإنكليزي هي وثاقة، فعندما كنا نريد أن يقنع أحدنا الآخر بصدق ما نقوله، كنا نستخدم شكلا من أشكال القسم، فنقول (كلمة إنكليزي، أنا أقول الحقيقة). فهذا القسم يبدد كل الشكوك. كنا نعتقد أن الإنكليز لا يستخدمون أساليب الكذب أو الخديعة أبدًا. ولكن في الحرب العالمية الأولى عرفنا أن الإنكليز هم أسوأ كذابين على الإطلاق".

أدت التغييرات التي حدثت في النظريات السياسية السائدة في بريطانيا منذ الحرب العالمية الأولى إلى إغفال ذكر الإداريين البريطانيين في آسيا في القرن التاسع عشر أو إلى سوء فهمهم. وبلغة السياسة الحديثة، كان هؤلاء الرجال استعماريين ويستغلون أهل البلاد، والحقيقة أنهم كانوا دائمًا محترمين وموضع ثقة بل وحتى محبوبين من قبل الشعوب التي عملوا فيها.

وما هو أكثر من ذلك، كانت لندن تمارس طيلة القرن التاسع عشر السيطرة عن بُعد فقط. فالرسائل كانت تأخذ أسابيع وأشهر للوصول والعودة، لذلك كان الرجال في موقع الأحداث ملزمين بالعمل على مسؤولياتهم الشخصية. ولكن مع ظهور التلغراف، أصبح رجال السياسة قادرين على التدخل ساعة بساعة ويصدرون أوامرهم في مواقف لا يفهموها. من الناحية الظاهرية قد يبدو أن الاتصالات المتطورة تقوي الإمبراطوريات. ولكن في حالة الإمبراطورية البريطانية فإنها أدت إلى تحطيمها.

كان الشريف حسين أحد الضحايا الرئيسيين لهذه التغييرات. وقد وفق السيد راندال بيكر في التوصل إلى حقيقة أن الشريف قد قبل ما قاله البريطانيون كتعهد وجاهي لأنه كرئيس بلدية نابلس كان يعتقد أن كلمة الإنكليزي هي وثاقة. لقد كان تحرره من أوهامه أكثر الأمور مأساوية. وربما كان محقاً في حالة الرجال الذين كان يتعامل معهم. حيث لم يكن وينكيت أو مكماهون أو اللنبي هم الذين خانوه، بل رجال السياسة في لندن.

إننا لا نبدي في هذه الأيام الاهتمام المطلوب بالأشياء غير الملموسة. فنحن نحصي نفوس شعبنا وناتجنا القومي وأسلحتنا وقواتنا. هذه هي الإلهة التي نعتمد عليها.

والحقيقة أن إحدى الموجودات العظيمة التي كانت تمتلكها بريطانيا قبل عام ١٩١٤ هي الاعتقاد أن كلمة الإنكليزي هي وثاقة. كيف تخلت بريطانيا عن هذه القيمة، هذا ما ستتناوله صفحات هذا الكتاب.

* * *

جون غلوب باشا

مقدمة

▪ تتطلب دراسة التاريخ القصير لملكة الحجاز ومؤسسها الحسين بن علي التخلي عن قدر كبير من التحامل طويل الأمد. أعتقد أن من العدل القول أن الحسين كان من وجهة نظر معظم العرب ذا ميول تقترب نوعًا ما من الطموح الأقرب إلى الخيال، والزهو الأقرب إلى الغرور، ولذا ولأنه هكذا، فقد كان بعض العرب ينظرون إليه نظرة غير حقيقية ملؤها التآمر والخديعة، بل إن بعضهم ذهب إلى أبعد من ذلك عندما قالوا بأن دولته العربية كانت (متداعية وفاسدة وظالمة وغير جديرة بأن تكون حامية للمدن المقدسة - مكة والمدينة المنورة -).

وقد ساق أصحاب هذه الآراء دليلاً لتأكيد ما ذهبوا إليه، فقد كان الحجاج يتعرضون باستمرار للسرقة والاستغلال من قبل قطاع الطرق من البدو حيث لا يمتلك الحسين المال أو القوة للسيطرة عليهم في حين أن الحجازيين لم يروا أي أثر لتطور مادي أو اجتماعي خلقته الحكومة الحجازية. وقد انتهت تلك السلبيات بعد الإصلاحات التي تلت عملية ضم الحجاز من قبل عبدالعزيز بن سعود في عام ١٩٢٥-١٩٢٦. فقد مارس الملك السعودي نظام حكم قوي يتناقض بشدة مع شخصية الحسين الحساسة والقاسية في بعض الأحيان.

ومهما كانت عواطف المرء الشخصية، فإنه من الصعب إنكار أن ضم الحجاز من قبل السعوديين كان أمرًا ضروريًا ومرغوبًا به بالنسبة إلى الحجاج الذين

تفاقمت معاناتهم قبل ذلك. وبغض النظر عن دور الحسين كملك، فإنني أشعر أنه قد ظلم كثيرًا من حيث مكانته في التاريخ بصفته ممثلاً اختاره العرب في محاولتهم تقرير مصيرهم بعد انهيار الحكم العثماني. وباعتقادي أنه إذا كان الحسين مذنبًا بأمر ما، فهو اقترافه خطيئة كونه كان ذا باع قليل في عصر كانت فيه السياسة السمة البارزة فيه. وأرى أنه قد أشير عليه بمشورة سيئة من نجله الثاني عبدالله الذي يخفي طموحات تنسب عادة إلى والده. كان الملك يحمل وجهات نظر معتدلة تجاه العالم ومكائد السياسة التي شهدها أول الأمر في اسطنبول، وكذلك في دبلوماسية الكلمة الموجهة والتفاهم والالتزام. لذلك أصبح لقمة سائغة في أفواه الدول الأوروبية التي كانت تقاتل في حرب ليس فيها اعتبار للمعاهدات أو الحياد أو ما شابه ذلك.

من الممكن القول أنه مهما كان الحسين قاسيًا كملك للحجاز، إلا أنه كان مخلصًا وناطقًا صلبًا باسم القوميين العرب الذين عهدوا إليه مسؤولية تقديم مطالبهم. وبخصوص موضوع فلسطين فقد ظل مخلصًا لإيمانه بأنها أرض عربية. وقد رفض التوقيع على أية معاهدة سلام مع بريطانيا تحتوي على عبارة تعترف بوعد بلفور أو وضع الانتداب في فلسطين. وبالنتيجة وبسبب معاداته لبريطانيا بتلك الطريقة، حرم نفسه من أية مساعدة ضد الجيش السعودي، بل اكتسب سمعة سيئة بكونه متصلب وعنيد. ربما لعله كان رجلا محترمًا فقط، ولكن من في أوروبا ١٩١٩-١٩٢٥ يقيم وزنًا لذلك؟

لذلك أشعر أنه من الضروري تحقيق نوع من التوازن في تقييم الحسين ومملكته. فمن جانب تبين لنا دراسة التاريخ القصير لملكة الحجاز، أنها كانت فوضى إدارية ومجال خصب لكل أشكال الدجل واللصوصية، والأنكى من ذلك أنها كانت عاجزة عن حماية الحجاج وإدارة شؤون الحج. ومن جانب آخر من الخطأ إدانة الحسين أكثر من كونه ملكا على الحجاز. إن دوره في موضوع الاستقلال العربي هو دور مشرف وشجاع حيث عرض حياته للخطر وفقد عرشه وخاصم

أبناءه الأكثر منه ولعًا بالدنيا وحرصًا على مظاهر الفخامة. ليس من العدل لقضية القومية العربية ولتاريخ الكفاح العربي من أجل الاستقلال وصف أول ممثل رئيس لها بأنه مخادع. إنني أشعر عكس هذا تمامًا، ولدى العرب أسباب كثيرة تجعلهم يفخرون بالموقف الذي اتخذه الحسين نيابة عنهم. أتمنى أن أكون موفقا في تقييم دور الحسين الذي شعر أنه قد تعرض للظلم كثيرًا كممثل عن العرب. وأشعر أنه من المحتم والمطلوب أن يحل محله عبدالعزيز بن سعود ليسود النظام والتقدم الأراضي الإسلامية المقدسة. ومن المؤكد أن الوقت قد حان لكتابة تاريخ هذه المملكة منذ تأسيسها لغاية سقوطها. في معظم الكتابات حول الموضوع ينتهي الاهتمام بالحجاز مباشرة بعد دخول الجيش العربي إلى فلسطين ثم يعود ثانية بعد سقوط مكة وجدة وانتهاء الحكم الهاشمي في الجزيرة العربية. وسنتجنب هنا الخوض في موضوع الصراع الذي يمتد لأكثر من خمسين سنة داخل فلسطين. ورغم كل شيء فإن الحسين لم يكن يمانع بهجرة اليهود إلى فلسطين التي يجب أن تكون تحت الحكم العربي وأن لا تشكل هذه الهجرة أغلبية يهودية فيها. ونرى أيضًا خلال الفترة القصيرة لاستقلال الحجاز عودة الكولونيل لورنس وهو عازم على إقناع العرب بإعلان بلفور. وأخيرًا من الصعب تصور تأليف قصة أكثر إثارة من قصة الحجاز المشتعل بالحديد والنار والمتميز بالتاريخ الثر كتميزه بالحرارة المرتفعة التي تخيم عليه. وفي هذه القصة التي تدور بين الأعوام ١٩١٦-١٩٢٦، مر بعض من أكثر الناس غرابة بحيث يتشوق أي كاتب للكتابة عنهم.

وبخصوص هذا المطبوع فإن عليّ أن أشكر عددًا لا يحصى من الناس وخصوصًا في الحجاز التي قضيت فيها سنتين لا تنسى أعمل خلالها في التنمية الريفية. وقد حاولت قدر الإمكان إنجاز دراسة تكون مقروءة وتراعي الجانب الإنساني. وقد كنت محظوظا في الحصول على عدد من الصور غير المنشورة.

* * *

راندال بيكر

"دعوني ألفت انتباهكم إلى الجانب الآخر من الموضوع، ولنفترض أن الحكومة التركية قد استجابت لطلبكم كلية، لأنها لا ترغب أن تراك تثير المتاعب لها في الأوقات العصيبة التي تمر بها، ولكن من يمنع الحكومة التركية من تسديد ضربة قاصمة إليكم، عندما تنتهي الحرب بانتصارنا".

جمال باشا إلى الشريف حسين في ١٩١٥

"قررت بريطانيا قبول العون من الحسين.. فالحرب يجب كسبها".

روبرت. أو. كولينز / يوميات عربية. ص٩.

الفصل الأول

الحجاز وإمارة مكة - تعريف -

■ من الصعوبة تحديد بداية ونهاية حدود الحجاز بدقة، فالاسم قد أطلق في مختلف الأزمان على مجموعة مختلفة من الولايات والمشيخات، وأخيرًا أطلق على المملكة مدار بحث هذا الكتاب. وببساطة شديدة يعني الاسم في العربية "الحاجز أو الحد" ويشير إلى الجرف العالي الذي يرتفع كالحائط خلف مكة ويسير موازيًا للساحل حتى حدود اليمن. وبالنسبة إلى البدو تعني الحجاز عندهم المنطقة الجنوبية وأخذ الاسم فيما بعد يتسع ليشمل المنطقة الواقعة إلى أقصى الشمال والمحاذية إلى حدود الأردن الحالية.

وعند حدودها العديمة المعالم، تتلاشى الحجاز داخل صحراء النفوذ الكبرى وهضبة نجد المترامية الملتهبة وجبال الجنوب الوعرة. على أية حال أن وسط الحجاز هو الذي أعطاه أهميته التاريخية والعالمية. حيث تقع فيه أقدس مدينتين إسلاميتين هما مكة المكرمة والمدينة المنورة. ويعتبر مأثرة عظيمة ظهور تجمعات سكانية في هذه المنطقة المقفرة ذات الطبيعة القاسية. مع ذلك انتعش هذان المركزان مدة ألفي عام. كانت هذه التجمعات في بداية الأمر عبارة عن واحات تنبع من صخورها البازلت السوداء عيون ماء حيث تستريح عندها القوافل وهي في

طريقها من أرض التوابل في جنوب الجزيرة العربية إلى مصر وبلاد الشام. وتنتشر مدن الحجاز المحصنة وترتبط ببعضها بقوافل الجمال المحملة مثل حبات خرز على خيط مسبحة.

لقد أضفى ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي الأهمية للحجاز على مدى الدهر. فقد عزز فرض الحج كركن خامس من أركان العبادة في الإسلام الأهمية السياسية والاقتصادية لهذا الجزء من ساحل البحر الأحمر.

أصبح المتحدرون من نسل الرسول محمد أي الأشراف بالعرف هم حماة الحرمين الشريفين بالوراثة. وهم يرجعون إلى ابنته فاطمة وزوجها علي. ورغم أن للرسول ذرية من الذكور إلا أنهم ماتوا وهم صغارًا لذلك استمرت ذريته من خلال حفيده الحسن. والاسم العائلي المستخدم للمتحدرين من نسل الرسول هو (الهاشمي) الذي جاء من اسم جد الرسول. ولهذا عرفوا بالهاشميين الذي هو لقب الأسرة الحاكمة حاليًا في الأردن.

وقد كان للأشراف دائمًا السيطرة على الحجاز وعادة ما يمارسون الحكم تحت حماية قوة خارجية. في البداية وعقب وفاة الرسول ظلت السلطة في الحجاز خلال الفترة القصيرة التي حكم خلالها الخلفاء (حماة الدين والشرائع الإسلامية) في المدينة المنورة. وبعد ذلك انتقل مركز السلطة إلى دمشق أولا مع الأمويين (٦٦١-٧٤٩م)، ثم إلى أبهة البلاط العباسي في بغداد (٧٤٩-١٢٥٨م). ومنذ انتهاء الحكم العباسي حتى الآن تعرضت سلطة الخليفة إلى تحديات كبيرة للسيطرة على المدن المقدسة بما تضفيه من هيبة كبيرة على حاميها. وفي ١٠٢٧م أعلنت الأسرة الشريفية بشخص محمد العلوي أكبر أفرادها، استقلال الحرمين وإنشاء إمارة مكة. وقد تعززت سيطرة الهاشميين على المنطقة بفعل الشخصية القوية للأمير قتادة الذي جاء إلى الحكم في ١١٧٤م وقام بتوسيع الإمارة شمالاً وجنوبًا.

سيطر أبناء الأشراف مدة أربعة قرون بعد قتادة على إمارة مكة حتى واجهوا تحدي الأسرة العثمانية في تركيا. وفي ١٥١٧ بايع شريف مكة الشريف بركات السلطان التركي كخليفة للمسلمين وأهدى إليه مجموعة من الآثار المقدسة كإجلال لسلطته، مع ذلك كانت السيطرة التركية غير مباشرة ولم تحد من حرية الأشراف. والواقع أن الإعانات المالية الجديدة الواردة من تركيا قد مكنت الأشراف من شراء ولاء البدو وإدارة شؤون الحج. وقد انتهى هذا النظام الذي أعطى الأمير قوة حقيقية مقابل منح السلطان مجد لقب "حامي الديار المقدسة"، نهاية مفاجئة على يد طرف ثالث في عام ١٨٠٣. ففي ذلك العام خرجت من قلب الجزيرة العربية جماعة أصولية إسلامية عنيفة عرفت بالوهابيين بهدف إنقاذ الحرمين من التدنيس والانتهاك. أطيح بأمير مكة الشريف غالب. ومن المفيد استذكار أن أحفاد هؤلاء الجماعة قد أطاحوا بحكم الأشراف في الحجاز بعد مئة واثنين وعشرين عامًا.

لم يقبل الأتراك أن يمر هذا التحدي لسلطتهم بسلام خاصة في منطقة حساسة كالحجاز حيث يتأكد ضعفهم عامًا بعد آخر طالما تدير قوة أخرى شؤون الحج. استدعى السلطان العثماني حاكم مصر، وهو جندي الباني محظوظ يدعى محمد علي، لتجهيز حملة وإخضاع الحجاز مجددًا إلى الحكم التركي. يرتبط محمد علي نفسه أسوة بأمراء مكة بنوع من الاتحاد المنفلت مع السلطان في اسطنبول، ولكنه كان يضمر طموحات بإنشاء إمبراطورية عربية. لذلك قرر في عام ١٨١٣، وبعد طرد الوهابيين من الحجاز، تعيين مرشحه أميرًا على مكة والسيطرة على هذه المنطقة من الجزيرة العربية. فاستغل لتحقيق ذلك الانشقاق الحاصل في صفوف الهاشميين حيث يوجد فرعان متنافسان هما الزيدي وهو الأكبر والعوني وهو الأصغر. تم التخلص بهدوء من غالب وهو من الفرع الزيدي وذلك بسقيه السم في سالونيكا وحل محله أحد أفراد الفرع العوني. ونتيجة انشغال

الأشراف بالانشقاقات العائلية الطويلة، أصبح التلاعب بالأمراء وفقًا لأهداف القوى الخارجية ممارسة اعتيادية. وبعد ابتداء محمد علي لهذه الممارسة، واجه الأمراء المعينون تحدي الفرع الآخر من الأسرة الهاشمية.

في عام ١٨٤٠، أخفق محمد علي في تحقيق غايته وعاد في الآخر إلى الحظيرة التركية. وأعاد السلطان الإمارة إلى الفرع الأكبر - الزيدي - حيث كانت لهم الإمارة منذ ١٠٣٧ وبشكل متواصل. في ذلك العام أقر الأتراك الحجاز كولاية في الإمبراطورية وعينوا واليًا عليها تدعمه قوة مشاة تتمركز في المدن الكبيرة. إلا أن الحجاز تختلف عن غيرها من الولايات من حيث أنها لا تدفع الضرائب ولا تخضع للتجنيد الإلزامي وتستلم إعانات سنوية من السلطان.

وليس من الغريب أن تكون السيطرة التركية على الحجاز غير مباشرة بحكم مصاعب الاتصال بين مكة واسطنبول. لذلك تأتي القوة الفعلية في الحجاز من صراع الإرادات ومكر الوالي أو الأمير مع تدخل السلطان بين مرة وأخرى لتعيين أمير جديد من فرع هاشمي آخر. كانت تكتنف حياة الوالي في الحجاز صعوبة كبيرة بحكم الحرارة اللاذعة لمكة المكرمة والرطوبة الشديدة لجدة (والواقع من الضروري تقديم حوافز فورية للموظفين الأتراك من أجل تشجيعهم على الذهاب هناك). هذا دون الحديث عن الصراعات المتواصلة المشحونة بالمكائد مع الأمير. ومن أجل إغراء الوالي للذهاب إلى هناك، كان يتم تعيين أمير مطيع. من المفترض أن تكون مسؤوليات الطرفين محددة بشكل جيد، حيث يمتلك الأمير السلطة على البدو وشؤون الحج فقط، أما الواقع فإن الأمور كانت غالبًا مختلفة عما قدر لها.

كان هذا هو ميدان الصراع المعقد الذي دار فيه الصراع النهائي على السلطة وكسب فيه أمير مكة الحسين بن علي الاستقلال التام للحجاز قبل أن

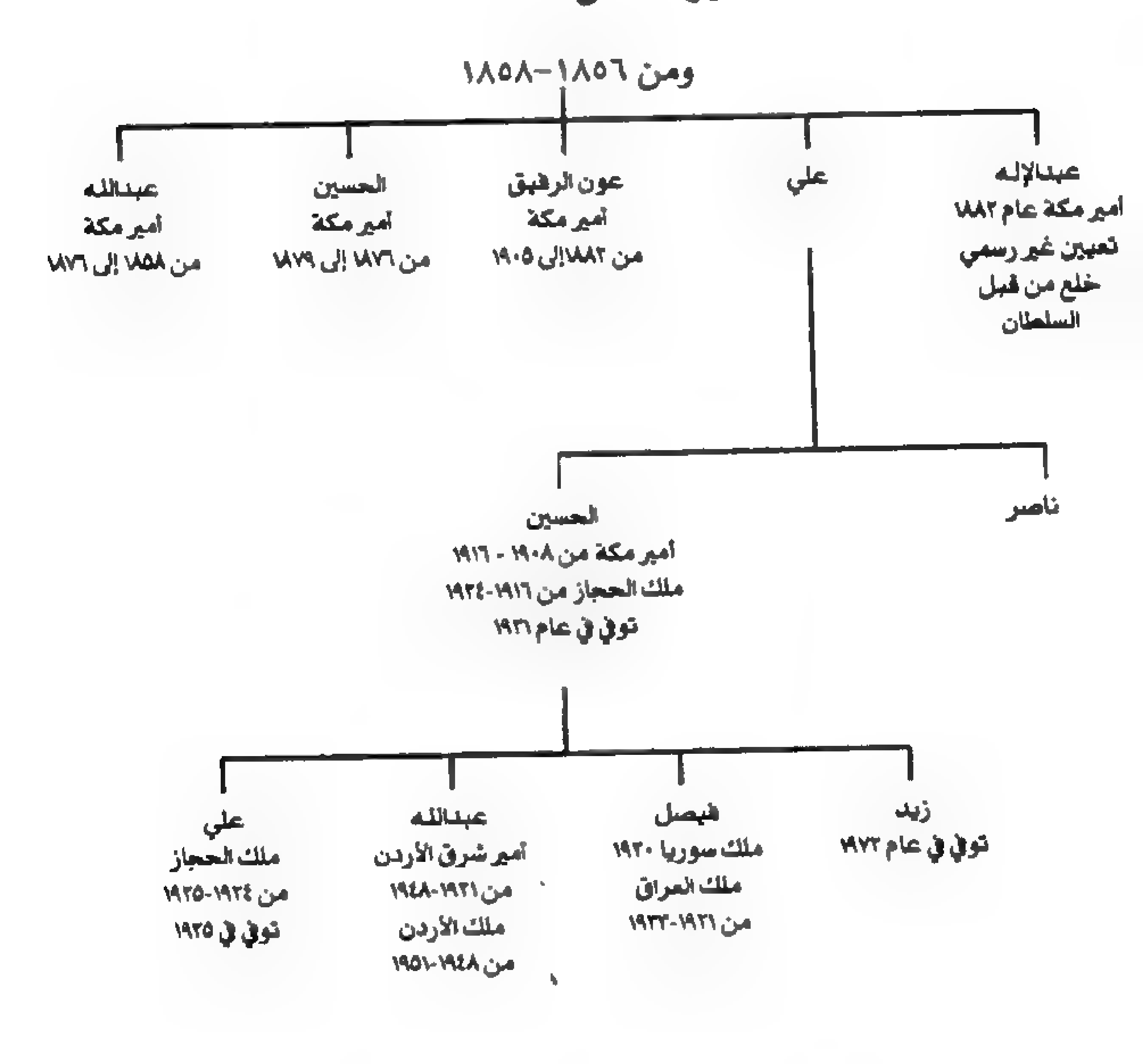
ينتهي الاستقلال الحجازي والحكم الشريفي نهاية مفاجئة. وصراع مثل هذا تعتبر فيه الشخصيات جميعًا ذات أهمية، ولعبة فيها النظم غير مكتوبة.

أمراء مكة من ١٨٢٧-١٩٢٥:

محمد بن عون	(عوني)	١٨٢٧-١٨٥١
عبد المطلب	(زيدي)	١٨٥١-١٨٥٦
محمد بن عون	(عوني)	١٨٥٦-١٨٥٨
عبدالله بن محمد	(عوني)	١٨٥٨-١٨٧٦ (خلع)
الحسين بن محمد	(عوني)	١٨٧٦-١٨٧٩ (اغتيل)
عبد المطلب	(زيدي)	١٨٧٩-١٨٨٢ (خلع)
عون الرفيق	(عوني)	١٨٨٢-١٩٠٥
عبدالإله بن محمد	(عوني)	١٩٠٥ (توفي في اسطنبول بعد تعيينه مباشرة)
علي بن عبدالله	(عوني)	١٩٠٥-١٩٠٨ (خلع)
الحسين بن علي	(عوني)	١٩٠٨-١٩١٦ (أصبح ملكًا على الحجاز في ١٩١٦ حيث ألغيت إمارة مكة. وفي تلك السنة عين الأتراك علي حيدر بن جابر (زيدي) ليحل محل الحسين إلا أنه لم يستلم منصبه فعليًا).

الفرع العوني من السلالة الهاشمية

محمد بن عون



* * *

الفصل الثاني

الحسين بن علي ١٨٥٣-١٩٠٨

▫ ولد الحسين عام ١٨٥٣ في اسطنبول. ووالده الرابع من خمسة أخوة وهو الوحيد من بين الخمسة الذي لم يستلم إمارة مكة وذلك لوفاته المبكرة. كانت أمه أرملة يمنية، ويقال أن والده تزوجها قبل انتهاء مدة عدتها والبالغة ستة أشهر. رغم أن هذا قد جعل بعض العناصر المنافسة من الأسرة الهاشمية تتردد باعتباره من الأشراف، إلا أنه يبدو أن هناك اقتناعًا بأن تلك الأقاويل غير صحيحة. ينتمي والده إلى الفرع العوني أو الفرع الأصغر من نسل الرسول، ولكن بسبب المكائد السياسية أصبح ستة من أسلاف هذا الفرع أمراء على مكة رغم وجود الفرع الأكبر وهو (الزيدي).

وفي الثالثة من عمره، قام الحسين بزيارته الأولى إلى الديار الإسلامية المقدسة التي ارتبط بها مستقبله. كان ذلك عندما عين جده (محمد بن عون) أميرًا على مكة للمرة الثانية سنة ١٨٥٦. وقد جلب والد الحسين جميع أفراد أسرته للعيش معه في القصر الشريفي بمكة. كانت الرحلة شاقة واستغرقت خمسة

وأربعين يومًا على ظهور الجمال وعبر صحراء رمضاء وجبال وعرة، كان ذلك قبل افتتاح قناة السويس وإنشاء سكة حديد الحجاز.

كانت فترة مكوث الحسين هذه المرة قصيرة حيث توفي جده بعد ذلك بسنتين أي في ١٨٥٨، حيث عادت العائلة إلى اسطنبول. وقد آلت حياتهم الأسرية الوادعة على شواطئ البسفور إلى نهاية مفاجئة وذلك بالوفاة المبكرة لعلي - والد الحسين - وذلك بعد ثلاث سنوات. وقد ورث عمه الأكبر (عبدالله بن محمد) الإمارة في ١٨٥٨ وقرر أن تعيش أسرة الحسين معه. وهكذا أمضى الحسين الأعوام المهمة في تكوين شخصيته بين العرب وأصبح يعرف تفصيليًا حياة البدو الذين فشل عمه في السيطرة عليهم. وخلال هذه الفترة أيضًا طور حبه للعلوم الطبيعية ومعرفته الموسوعية بحيوانات ونباتات الصحراء وولع البدو بالتعابير الشاعرية، رغم أن كتاباته كانت دائمًا مثقلة بالقواعد والتراكيب التركية المعقدة.

كان بلاط عمه الأمير عبدالله يماثل البلاط التركي في نقطة هامة واحدة هي كونه مسرحًا دائمًا للمكائد. في مثل هذه الأجواء وبقدرها في الصحراء، اكتسب الحسين تعليمه، مصغيًا إلى النقاشات الطويلة الملتوية عن ألاعيب القبائل البدوية وابتكار الخطط لإحباط سلطة الوالي التركي. لم تكن العلاقات بين الأتراك وعمه عبدالله على ما يرام، فقد تأزمت الأمور طيلة فترة حكمه، ولكنها وصلت إلى ذروتها في عام ١٨٧٦. إذ اكتشف في ذلك العام أن عبدالله يدبر مؤامرة مع إمام اليمن والإدريسي - حاكم إمارة عسير الصغيرة جنوب الحجاز حيث لم تكن للأتراك هناك قبضة قوية. وعندما وصلت أعمال الأمير حد الخيانة، خُلع من قبل السلطان (هناك دلائل تشير إلى أنه كان يشجع التمرد في تلك المناطق النائية). حل محل الأمير المخلوع عبدالله شقيقه الحسين وليس أحدًا من أفراد الفرع الزيدي المنافس. إلا أن المؤامرات سرعان ما استؤنفت ثانية في آذار ١٨٨٠، عندما كان أمير مكة (الحسين) في زيارة إلى جدة، اندفع أحد القتلة أمامه وطعنه. كان

جرحه بليغًا وتوفي في مبنى القنصلية البريطانية حيث كان ذلك على ما يبدو مبررًا معقولاً للأتراك لاتهامهم إياه بأنه كان يتآمر مع البريطانيين.

في هذا الوقت أزاح السلطان الفرع العوني عن الحكم وعيّن عبدالمطلب من الفرع الزيدي. وقد شعر الحسين بالحنق على هذا الازدراء لفرع العائلة، كان يبلغ آنذاك السابعة والعشرين من العمر، وأدرك أنه لا يستطيع فعل شيء في مكة، خاصة وأن الأمير الجديد سيضع مراقبة شديدة على الفرع المنافس للعائلة. سافر الحسين إلى اسطنبول مع ابن عمه علي (ابن الأمير الراحل عبدالله) وعمه عبدالإله، لمعرفة ما إذا كان بالإمكان ممارسة ضغوط هناك.

وفي العاصمة أثيرت حولهم شكوك السلطان، الذي أبلغه جواسيسه المنتشرون في كل مكان أن الثلاثة المشار إليهم، يقومون بزيارات للبعثات الأجنبية وللسفارة البريطانية بشكل خاص. أصدر السلطان إرادة سلطانية تفيد: "إنه إذا رغب الأشراف عبدالإله وعلي والحسين إقامة علاقات حسنة معي فعليهم أن يتصيدوا في مياه نقية". غادر الحسين بعد ذلك تركيا وعاد إلى مكة ولكن لم تطل المدة حتى أطيح بالأمير الزيدي بعد أحداث بالغة الأهمية وأكبر من كونها مؤامرة محلية.

كان السلطان الحاكم في تركيا في ذلك الوقت هو عبدالحميد الثاني الذي جاء إلى العرش عام ١٨٧٦ في أعقاب الوفاة المريبة للسلطان عبدالعزيز ومن أجل الحد من الكراهية المتزايدة للدول الأوروبية من الأعمال الوحشية التركية، سنّ السلطان عبدالحميد دستورًا تحرريًا لتخفيف غضب القوى العظمى. ويعتبر هذا عملاً ضروريًا مناسبًا لو كانت تركيا تريد استعادة سيطرتها على شؤونها الداخلية. لم يكن السلطان يكره ويزدري هذا الدستور فحسب، بل إنه كان يضمر نفس تلك المشاعر تجاه واضعه مدحت باشا. وحالما أدى الدستور أغراضه وهدأت

القوى العظمى، تخلى السلطان عنه إلا أنه لم يشعر بالراحة طالما أن واضعه مدحت على قيد الحياة. من جانب آخر كانت القوى العظمى ترى مدحت - الذي كان حاكمًا سابقًا في البلقان - نجمًا لامعًا في سماء داكنة وموضوع قتله سوف لن يمر بسلام خاصة إذا كان في اسطنبول. وفي عام ١٨٨١ نفي مدحت عن العاصمة بعد اتهامه بالاشتراك في جريمة الموت الغامض للسلطان السابق عبدالعزيز. لم تكن تلك التهمة غريبة فحسب، بل ومتناقضة مع نتائج التشريح الذي أجراه فريق دولي من الأطباء بناءًا على طلب من المحكمة التركية. على أية حال كانت تلك وسيلة مناسب تلائم أغراض السلطان الخبيثة.

عقدت المحكمة جلستها في الوقت المحدد لها، وأحضر شهود للإدلاء بأنهم تلقوا مبالغ من مدحت لقاء قتل السلطان. وحالما انتهت المحاكمة، أعفي عن الشهود، ومنحوا معاشًا ثابتًا، وحكم على مدحت بالإعلام. فحدثت احتجاجات عنيفة فورية من قبل الدول الأوروبية التي لم يكن بمقدور عبدالحميد تجاهلها، وأستبدل حكم الإعدام بالنفي إلى الجزيرة العربية. وقد عاد ذلك بالضرر على العونيين، أو هكذا فهموا، لأن مدحت كان صديقًا حميمًا للأمير الزيدي عبدالمطلب. وعند وصوله إلى الحجاز، ذهب مدحت للضيافة عنده. وسرعان ما ثارت شكوك السلطان حول هذا الحلف غير المقدس. ويذكر أن رسالة وصلت باليد فورًا من اسطنبول إلى أمير مكة تفيد "إنه إذا كنت تطيع أوامر السلطان.. فإنه يمدك بأن تبقى إمارة مكة لك ولأبنائك.. وسوف يسجن أو ينفي أفراد الفرع العوني الذين يكيدون باستمرار ضدك"، تتضمن الأوامر السلطانية قتل مدحت بحادث مدبر.

رفض الأمير عبد المطلب الاستجابة لهذه الدسائس أو التضحية بصديقه الذي يكن له كل الاحترام. أما الحسين فقد أخذ من جانبه يطلق الإشاعات المثيرة إلى اسطنبول بخصوص الأمير وقد دخلت هذه المعلومات في ذهن السلطان عن

طريق عم الحسين عون الرفيق. شعر السلطان الذي كان قلقًا دائمًا على مركزه بالحاجة إلى عمل مفاجئ وحاسم. يرى علي حيدر وهو من أفراد الفرع الزيدي أن الحسين قد مارس نوعًا من التقرب المدروس أنهى به مدحت باشا وأعاد الفرع العوني إلى حكم مكة. ويشير حيدر إلى أن الحسين قد تحالف مع عصمان باشا القائد العسكري العام ووالي الحجاز من أجل إقناع حامل أختام عبد المطلب لختم عدة أوراق بيضاء بأداة التوثيق الخاصة بالأمير. حيث كتب على وجه الورقة رسالة تورط الأمير في جريمة الطلب من البريطانيين وضع الحرمين تحت حمايتهم. وإذا كان في هذا الأمر شيئًا من الصحة وأكثر من مجرد إشاعة، فإنه يعتبر عملا ملفقا تعوزه البراعة، إذ إن احتمال اعتزام بريطانيا فرض سيطرتها على الأراضي المقدسة يعتبر أمرًا بعيد الوقوع. لأن ذلك قد يؤدي إلى هياج واسع النطاق بين الملايين من رعايا الإمبراطورية البريطانية المسلمين.

ومن المثير للسخرية حقًا لو أن الحسين قد استخدم فعلاً (تهمة المفاوضات السرية مع البريطانيين)، كدليل على خيانة عبد المطلب، فإنه حتماً سوف يُدان بنفس التهمة من قبل العرب في وقت لاحق من حياته.

وبمساعدة الحسين أو دونها، اتخذ السلطان الإجراء المطلوب، حيث حاصر عصمان باشا مقر الأمير الصيفي في الطائف وطلب استقالته واعتقاله. أصبح بعد ذلك مصير مدحت مسألة وقت. لم تفلح مناشدات البريطانيين عن طريق قنصليتهم في جدة إلا بازدياد قناعة الأتراك باتصالات مدحت المشبوهة مع الأوروبيين. وقد حاول السلطان تبرئة نفسه من الكيد بمدحت وذلك باحتجاجه على نتيجة "المحاكمة" المهزلة، إلا أن هذا لم يفلح في إقناع البريطانيين. لذلك لم يترك السلطان شيئًا في هذه المرة للمصادفة، وفي ليلة ٢٦ تموز ١٨٨٣، شنق مدحت باشا في سجن الطائف. وقد قيل أن رأسه قد أرسل إلى السلطان في اسطنبول في صندوق كتب عليه (عاج ياباني) كدليل على تنفيذ العملية. ذكر علي حيدر أيضًا

أن عصمان باشا قد استلم رشاوى من عم الحسين مقابل خلع الأمير، وهذا أيضًا يبقى مجرد تخمين. إلا أنه ربما يكون هناك شيئًا من الصحة في هذه الإشاعة، إذ أعلن عصمان باشا بعد خلع الأمير (عبد المطلب) مباشرة تنصيب عبد الإله بمنصب الأمير الجديد. كانت تربط عبدالإله والحسين علاقة طيبة. وكان يبدو هذا الإجراء ملائمًا لكل الأطراف. إلا أن السلطان كان كعادته مرتابًا منه، كونه يتمارض مع سياسة فرّق تسد، لذلك خلع عبدالإله وعيّن محله شقيقه الأكبر عون الرفيق. ورغم أن الإمارة قد ظلت في الفرع العوني الذي كان عون الرفيق أكبر فرد فيه، إلا أن هذا قد أفشل خطط المتآمرين في الحجاز، لأن عون الرفيق كان ذا شخصية قوية لا تقبل تدخل العناصر الأصغر في العائلة في سلطاته.

ظل الأمير الجديد كما متوقع صاحب السلطة الفعلية والأكثر قوة واحترامًا من بين الأمراء منذ ١٨٤٠ وحتى وفاته في ١٩٠٥. لقد وجد الحسين قوة أكبر من أن يستطيع ممارسة الدسائس وتحقيق طموحاته على حسابها. مع ذلك، فقد عمل بهمة من أجل تقويض سلطة عمه عن طريق إثارة الشكوك والنزاعات مع البدو وتمرير سيل من الشكاوى من أهالي الحجاز إلى اسطنبول. ولم يكن ذلك أمرًا صعبًا خاصة إذا علمنا أن عون الرفيق كان قد قرر إنهاء أسوأ أعمال التعسف في الحجاز منها الاستغلال المستمر للحجاج، مما أضر بالعديد من الأسر البارزة في الحجاز التي نمت خلال عدة أجيال.

استجاب السلطان لتلك الشكاوى بإرساله العميد البحري راتب باشا لاستقصاء الأوضاع. أصبح راتب بعد ذلك واحدًا من أبرع سادة الدسائس والمكائد في الحجاز. وقد أصبح يشكل في تلك المرحلة تهديدًا خطيرًا لعون الرفيق. ويبدو أن الحسين قد أخطأ في تقدير الرجل لأن عون قد عقد اجتماعًا مع راتب باشا قبل إجراء الاستقصاء، وبإعانة من (٦٠٠) ليرة، ضمن عون التقرير المرفوع إلى اسطنبول لصالحه. وقد نجح الرجل وأمر الحسين بمغادرة الحجاز فورًا والإقامة

في العاصمة التركية حيث سيحل ضيفًا على السلطان تحت المراقبة المشددة. وهكذا غادر على متن السفينة (عز الدين).

وفي شباط ١٨٩٣، وبعد تسع سنوات من العمل السياسي، وجد الحسين نفسه ثانية في تركيا. وقد وصف أحد التقارير المرفوعة إلى السلطان عبدالحميد الحسين بأنه "قوي الإرادة، صلب، عنيد، ويخفي آراءه الخاصة ولا يفصح عنها إلا نادرًا، وآراؤه تدل حين يفصح عنها بأنه ذو تفكير أصيل مستقل وهذا أمر خطير". إلا أن ذكرى المصير المروع لمدحت باشا ماثل في ذهنه عند محاولته القيام بأية مناورة قريبة من العرش التركي. وبدلاً من ذلك اختار أن يعيش حياة فيها الكثير من الاحترام والوقار. أصبح عمره الآن أربعين عامًا، ورغم قامته النحيلة، إلا أنه كان منتصبًا ومهيبًا. كان عادة ما يرتدي الجبة التقليدية فوق رداء أبيض وعمّة مكيّة تعزز هامته العالية، لقد كان سلوكه وظل حتى الآخر، عالي التهذيب. ومما لا شك فيه أن كل من التقاه قد أعجب به. كان الآخرون يقدرونه كعالم في الدين، وعادة ما يطلبون مشورته في شؤون العالم. أهم علاماته الجسدية المميزة هي يداه حيث كانتا غاية في الرقة والتناسق، وعيناه الكبيرتان، إلا أنهما باردتان. كان متحفظا في نقاشه وعنيدًا لأن لديه أفكارًا محددة عن كل ما هو صحيح وما هو خاطئ. كانت شخصيته قوية وإرادته حديدية.

عندما جاء إلى تركيا، كانت ترافقه أسرته المكونة في ذلك الوقت من زوجته الشريفة عابدية ابنة عمه عبدالله وأولاده الثلاثة علي وعبدالله وفيصل. توفيت زوجته في بداية إقامته في تركيا وتزوج أدله هانم وهي سيدة شركسية ذات جمال رائع، ولدت له ابنه الرابع زيد في عام ١٨٩٦.

أهم ما ميّز فترة الخمسة عشرة عامًا التي قضاها في اسطنبول هي التقدير والاحترام العالي له. ورغم شكوك السلطان به، وخصوصًا حول سبب وجوده في

اسطنبول، إلا أن السلطان قد عيّنه بوظيفة "مستشار الإمبراطورية". إلا أنه لم يتخلى عن طموحه بأن يصبح أمير مكة، حيث شكّل الاحترام والتقدير الذي ناله، مصدر قوة لبلوغ غايته. وحانت الفرصة في عام ١٩٠٥ عندما توفي عون الرفيق بعد ثلاثة وعشرين عامًا من الحكم في مكة. كان الوريث الطبيعي للإمارة هو عم الحسين عبدالإله، إلا أنه كان موضع شك في تركيا لاشتراكه في دسائس عصمان باشا المنحرفة في ١٨٨٢. إن عنصر الشك الذي حام حول آخر أعمام الحسين الخمسة هو الذي فتح باب التنافس على الإمارة إلى الجيل الثاني الذي كان هو أحد عناصره. أصبحت بعد ذلك مشكلة الحسين الرئيسية هي علي بن عبدالله الأمير الذي خُلع في عام ١٨٧٦. ولا ننسى بالطبع المنافس من الفرع الزيدي علي حيدر الذي كان مبتعدًا عن السياسة وصديقًا للحسين. وقد ضاع أمله بالإمارة بزواجه من امرأة إيرلندية (الآنسة إيسوبيل دان)، رغم أنها أسلمت بعد خطوبتها لتصبح الأميرة فاطمة حيدر.

حدثت معظم المناورات خلف الكواليس في الحجاز نفسها بينما الحسين بعيدًا في اسطنبول. كان أيضًا العميد البحري راتب باشا - الذي يبدو أنه لم يغادر لزيارة أهله قط - يخطط لتأسيس قاعدة مريحة عن طريق التلاعب بوراثة الإمارة وتنصيب عميله عليها. كان علي هو الرجل المفضل لديه، ويقال أن علي قد عرض على راتب مبلغ (٧٠) ألف ليرة مع طقم مائدة ذهبي وأحجار كريمة مقابل ضمان تعيينه. وبهذه الطريقة كسب علي التعيين وعمل مع راتب لمصلحتيهما المتبادلتين. وقد امتعض الحسين كثيرًا من نتيجة الصراع لأن علي كان أصغر من معظم الأمراء ويهدد بإشغال المنصب طيلة الفترة المتبقية من حياة الحسين الفاعلة (أصبح الآن في الثانية والخمسين من العمر). كان يعرف جيدًا أن علي قد أمّن المنصب من خلال التنسيق مع الوالي. وعندما جاء علي حيدر لمناقشة ما تمخضت عنه الأمور في بيت الحسين، أخذته الدهشة من غضب الحسين العارم

وهو يناقش النتيجة، ويذكر أنه قال بغضب: "سأجاهد بأقصى طاقتي للإطاحة بعلي وتحطيم نفوذ راتب باشا". وقد فوجئ علي حيدر بمرأى الحسين وهو في حالة من الهياج. وعندما سأل الحسين علي حيدر إن كان سيتعاون معه، أجاب: "لا يمكن أن أقوم بأي عمل ضد علي". عند ذاك، دهش الحسين، وأنهى النقاش بشكل مفاجئ بمغادرته المكان.

كان على الحسين أن ينتظر طوال ثلاثة سنوات، ولكن الأحداث التي جاءت به أخيرًا إلى الحكم الذي طمح إليه، كانت أكبر من المناورات البسيطة للسياسة في مكة. لقد جاء إلى السلطة بفعل أحداث هزت مجمل الإمبراطورية العثمانية من جذورها وقد تغير كل شيء بالنسبة لجميع الأطراف، الحسين والسلطان وعلي وراتب في سنة غير اعتيادية هي سنة ١٩٠٨.

* * *

الفصل الثالث

عـــام ١٩٠٨

▫ كانت تركيا ترزح بحلول عام ١٩٠٨ تحت وطأة الهزائم المتتالية والتي أدت إلى تفشي السخط في أوساط الشباب، هذا إلى جانب القمع المعتاد وفساد الأجهزة الإدارية والسياسية الداخلية. وبعد سلسلة من المعارك العنيفة مع الدول الأوروبية، فقدت تركيا القوقاز وأجزاء من أوكرانيا عام ١٨٧٧، والتي ضمت إلى الإمبراطورية الروسية. وفقدت تركيا سيطرتها الفاعلة على صربيا والجبل الأسود والبوسنة والهرسك وقبرص وبلغاريا في معاهدة سنتو ستيفانو بعد عام من ذلك وتخلت عن تونس إلى فرنسا عام ١٨٨١ وقبلت سيادة إسمية على مصر بعد سنة من ذلك إثر معركة تل أكبر وبعد الاحتلال البريطاني، وأكثر الأمور إذلالاً هو تسليم جزيرة كريت إلى مجموعة من القوى الكبرى بعد أن دحرت القوات اليونانية في المنطقة الجيش التركي ذي التدريب البروسي. إضافة إلى ذلك أنشأت الدول غير الإسلامية نظامًا للامتيازات الأجنبية في تركيا لا يختلف عن مثيله الذي أذلّ الإمبراطورية الصينية. يخضع الأجانب بموجَب هذا النظام إلى قانون بلدانهم ويحاكمون في المحاكم القنصلية، وبشكل عام منح الأجانب مكانة متميزة في الإمبراطورية تعلو مكانة مواطنيها.

كان التآمر مقتصرًا لفترة طويلة على فئة صغيرة من اللاجئين الساخطين في باريس الذين كانت فاعليتهم السياسية غير مؤثرة. وكان أي تذمر في داخل الإمبراطورية يقمع بقسوة، وبلغت ذروة ذلك في المذبحة المروعة للمسيحيين الأرمن على يديّ الأكراد في ثمانينيات القرن الماضي. ومن أجل الحصول على المعلومات عن الاضطرابات الحاصلة في أنحاء الإمبراطورية، نشر السلطان شبكة من الجواسيس، يقدر عدد العاملين فيها أكثر من (٢٠) ألف رجل، يقدمون تقاريرهم بانتظام عن الأشخاص والأحداث الجارية. مع ذلك أدى الهاجس الذي يتملك السلطان بضرورة قراءة جميع تلك التقارير بنفسه، إلى دفنه تحت ركام من المؤامرات المصطنعة، مما أبعده عن الوصول إلى الحقيقة وإلى وقوعه تحت رحمة مخبريه الشخصيين، كان خوفه من الدسائس مرضيًا، فقد كان على سبيل المثال مسلحًا على الدوام، وأطلق النار أكثر من مرة على ساكني القصر نتيجة سوء فهم غير طبيعي. كان يغير أسرّته على نحو عشوائي وأصبح استخدامه لمتذوقي طعامه وحراسه وجواسيسه حكاية أسطورية. كان يشعر بالأمان وهو يقبع خلف الجدران الرمادية لقصر يلدز كيوسك على الجانب الأوروبي لمضيق البسفور، طالما أن شبكة مخابراته تعمل بنشاط والقوى العظمى مجزأة. ومن أجل إراحة ذهنه المتعب، كان يعزف إحدى مقطوعات أوفنباخ على آلة البيانو الموجودة لديه، أو أن يعود لقراءة شخصيته المفضلة في القصص: شارلوك هولمز.

وبما أن تركيا تعتمد في بقائها على التنافس المستمر بين القوى العظمى خصوصًا روسيا وبريطانيا، لذلك أثارت مخاوفها نتائج اللقاء البريء ظاهريًا بين الملوك في البلطيق. فقد التقى إدوارد السابع مع قيصر روسيا على ظهر اليخت الإمبراطوري (ستاندارت) أثناء عبوره البحر. وقد تمخضت المباحثات التي جرت بين الطرفين عن عقد حلف بين الإمبراطوريتين الروسية والبريطانية. وقد أضفي *الطابع الرسمي للاتفاقية في مؤتمر ريفال. وبعد ذلك وفي اجتماع للبرلمان* البريطاني، أعلن السير إدوارد كرى تعيين حاكم أوروبي على مقاطعة مقدونيا

وتقليص الجيش التركي في ذلك الإقليم الذي يعتبر من الأقاليم العثمانية، جرى كل ذلك دون اشتراك الأتراك.

كان هذا بالنسبة إلى الشباب الواعي والضباط آخر درجة من الذل. كانت قد تأسست في مقدونيا حركة عرفت باسم جمعية الاتحاد والترقي يقودها ضابط قدير ونشيط وذو تدريب ألماني يدعى أنور بك. لقد جسدت هذه الحركة أهداف الثورة الفرنسية ودرست بدقة النتائج الدستورية للثورة الروسية في عام ١٩٠٥. إلا أن الحركة لم يكن في ذهنها كما هو الحال بالنسبة إلى الفرنسيين في عام ١٧٨٩، إزالة الملكية بل تقليص نفوذها والقضاء على تجاوزاتها السيئة. وقد قوبلت أخبار مؤتمر ريفال وإنشاء الحلف من قبل الإصلاحيين الأتراك بخوف شديد. فقد أدى ذلك إلى اختلال التوازن التقليدي، هذا دون ذكر المهانة التي أصابت سياسة تركيا الداخلية التي أمليت عليها مرة أخرى من الخارج. كان الأتراك يخشون أن تحقق روسيا حلمها القديم في احتلال اسطنبول طالما أن المنافسة الإنكلو-روسية التي حافظت على وجود تركيا تبدو الآن قد انتهت. وطالما أن (٦٠٪) من البضائع الروسية المصدرة عن طريق البحر والتي تتكون بشكل رئيس من صادرات القمح من أوديسا، تمر عبر البسفور، فإن الأتراك يشعرون أن الروس سوف لن يقاوموا هذا الإغراء. وقبل ذلك في عام ١٨٧٧، كان جيش القيصر يعسكر على بُعد (١١) ميل فقط عن العاصمة العثمانية، وقد كانت المناورات الدولية وعدم ثقة بريطانيا بنظام الحكم الروسي هي وحدها التي منعته من دخولها. والآن يبدو أن لاشيء يقف في طريقه.

وأحد أغرب حالات نظام الحكم العثماني هي سرعة سقوطه رغم جميع أعمال الحيطة والحذر التي أتقنها عبدالحميد. ففي الأسبوع الثالث من شهر تموز عام ١٩٠٨، استلم أنور بك قيادة مجموعة صغيرة مؤلفة من (١٥٠) جندي في مقدونيا الشرقية وبعد ذلك بقليل قتل قائد حامية موناستر، ثم انضمت إلى

المجموعة القوات التي أرسلت لقمع التمرد حالما وصلت إلى بؤرة التوتر في سالونيكا. وفي الآخر انضم معظم الجيش الثالث في تركيا الأوروبية إلى الثورة. حصلت أحداث موناستر في ٢٢ تموز عام ١٩٠٨، وبعد ذلك بيومين، تم توجيه إنذار إلى السلطان إما بإقرار دستور أو التنازل عن العرش، مستخدمين التلغراف الذي نصبه عبدالحميد ليكون على علم بأي تمرد محتمل داخل الإمبراطورية. لم يرغب أحد بإيصال الرسالة إليه، فسلمت له من قبل منجم البلاط.

في ذلك اليوم، وافق عبدالحميد للمرة الثانية على الدستور وارتدى ثانية لباس الحرية، ربما كان قلقا من شبح مدحت باشا. لقد قلصت عودة دستور ١٨٧٦ من نفوذ السلطان وأحلت الطابع البرلماني على الحكم، مما مهد الطريق أمام حركة تركيا الفتاة لاستلام السلطة. لقد بقي عبدالحميد سلطانًا ولكن بنفوذ ضئيل وميزانية مقننة وبقية من حريم فقط.

خلقت التغييرات المفاجئة والمثيرة في اسطنبول خوفًا كبيرًا في الحجاز، حيث خاف راتب باشا والأمير علي على امتيازاتهما. كان راتب واثقا أن تجاوزاته ستكشف بعد فقدانه لأصدقائه في البلاط، وبذلك سيتم استبداله. كانت سمعته في تركيا كشخص رجعي تثير استياء الجمعية لذلك فإنه لجأ إلى أسلوب إما كل شيء أو لا شيء للحفاظ على سلطته. وقد كشف (علي) أيضًا عن موقفه إزاء الأحداث في العاصمة التركية وذلك بجلده لمجموعة من الرجال في الطائف لتحدثهم حول موضوع سن دستور. وقد كان راتب وعلي يحسبان أن السلطان سيسقط الدستور في الآخر حالما يجمع قواه، كما فعل عام ١٨٧٦. ويمثل هذا الاعتقاد، شجعوا قوات الجيش السابع على التمرد. إلا أن الأوضاع قد تغيرت كثيرًا عن عام ١٨٧٦، فوجد الثنائي سيئا الحظ نفسيهما وحيدين. وباستخدام سكة حديد الحجاز المكتملة إلى حد ما، استطاع الأتراك إرسال التعزيزات إلى المدينة المنورة وسحقوا التمرد قبل

أن يبدأ. وألقي القبض على راتب، وفرّ علي إلى الحجاز، تاركًا للمرة الثانية منصب الإمارة شاغرًا.

وفي الحال صدر فرمان (مرسوم ملكي) بتنصيب أمير جديد. كان الرجل المعيّن هذه المرة هو سيئ الحظ عبدالإله الذي قاسى خيبتين سابقتين من نفس المنصب في عامي ١٨٨٢ و ١٩٠٥. كان آخر أعمام الحسين الأربعة يعيش في ذلك الوقت في اسطنبول وكان عاجزًا لكبر سنه. وإدراكا منه بأن هذه قد تكون آخر فرصة له لوداع أقاربه الراحلين، ذهب إلى قبور الأسرة. وهناك وعلى ضريح ولده أصيب بنوبة قلبية. وبعد قضاء عدة أيام في بيته على البسفور، توفي آخر وأطول أمراء مكة عمرًا.

وبعد أن اختفى الجيل الأكبر من الأسرة الهاشمية، أصبح احتمال حصول صراع داخل الأسرة للبحث عن وريث أمرًا واردًا. تركز الصراع حول شخصيتي علي حيدر والحسين. كان علي حيدر حفيد عبدالمطلب، أمير مكة المعتدل الذي نصبه عبدالحميد في عام ١٨٧٩ كدلالة سياسية لها معنى. وكان علي حيدر أيضًا كالحسين مدعوًا إلى اسطنبول ليحل "ضيفًا" على السلطان وهو في عمر السابعة واحتجز كرهينة لجده الذي يعتبر صاحب ميول مؤيدة للبريطانيين، وتشير بعض الدلائل إلى إيمان علي حيدر بالليبرالية.

هناك الكثير من الغموض يكتنف دسائس الصراع من أجل الإمارة في ذلك الوقت. كان لكل من الراديكاليين من تركيا الفتاة الموجودين خارج النظام السياسي، والحرس القديم الذين لم يبعدوا عن السلطة بشكل نهائي في أحداث عام ١٩٠٨، مرشحهم الخاص. ذكر الملك عبدالله في مذكراته أن جمعية الاتحاد والترقي كانت تفضل علي حيدر المعروف بأنه متحرر وتقدمي، وقد عبر سابقا، ولو على نطاق محدود، عن عدم اقتناعه بأساليب السلطان، كان الحرس القديم الذي يقوده رئيس الوزراء كامل باشا يريد كبح تأثير الجمعية ويفكر بتعيين المنصر

المحافظ الحسين. في عام ١٩٠٨، كان تعيين أمير مكة من صلاحيات السلطان. والمؤكد أن لدى الحسين أصدقاء في أوساط البلاط وتحالفات مؤثرة كالسيد حليم باشا. والذي أصبح فيما بَعد رئيسًا للوزراء، وهو واقعاً حفيد محمد علي، الجندي الألباني الذي أسس الأسرة المالكة المصرية. لاشك أن قدرة الحسين على إخفاء آرائه خلف مظهر خارجي محترم، هي التي دفعت الذين اختاروه للاعتقاد بأنه سيضيف طابعًا من الاحترام المهيب إلى النظام الجديد. وقد فزع علي حيدر وغضب كثيرًا عند سماعه اختيار الحسين للمنصب. وقد أخذت الجمعية أيضًا بالمفاجأة عندما ظهر التعيين كأمر واقع. سجل علي حيدر الأحداث بمذكراته بالتالي:

"... كانت دهشتي كبيرة لاختيار الحسين للإمارة، وكنت أعتقد أن العدل قد تحقق بإعلان الدستور الجديد، ولكن أين هو الحق وأين العدالة؟ في إحدى ليالي رمضان، زرت كامل باشا وسألته بصراحة لماذا انتخب الحسين بدلا مني؟ أجاب: (إنها ليست مسألة تفضيل، إن الحسين هو أكبر منك). أجبته: (نعم، إنه الأكبر سنًا والأكبر في فرعهم من الأشراف، ولكن أنا الممثل الرئيسي لفرعي من الأشراف). أجاب: (في السياسة مثل هذه الأمور ليست ذات أهمية، إنك الآن وريث الإمارة). ثم أبدى ملاحظات كثيرة لا معنى لها وغادرته غاضباً".

إن استخدام كامل لتعبير (في السياسة) له دلالة مهمة إذا ما قبلنا توضيح الأمير عبدالله في مذكراته من كون تعيين الحسين قد جاء كعمل دفاعي من جانب النظام القديم.

المؤكد أن السلطان من خلال تجربته لا يمتلك سببًا واحدًا يجعله يثق أو يفضل الحسين، ولكن هناك مرشحين اثنين فقط من الأسرة الهاشمية ينتظران استلام الإمارة، أحدهما علي حيدر الذي تدعمه جمعية الاتحاد والترقي. والآخر

الحسين الذي يدعمه الحرس القديم. وبذا بات واضحًا إلى أي جانب يتعاطف مع السلطان. ومن المحتمل أن يكون قد لعب مع كامل لعبة تعيين الحسين من أجل إحباط أي امتداد لنفوذ وتأثير تركيا الفتاة في شؤون الإمبراطورية. لم يكن لدى عبدالحميد أي دافع يجعله يتحمس لتعيين الحسين ويذكر أنه قال أن "الحجاز ستخرج الآن من قبضتنا". ولكن يبدو أن أسلوبه في التفكير كان على نمط أن العدو الذي تعرفه خير من العدو الذي وضعته أمامك جمعية الاتحاد والترقي.

مع ذلك، لم يكن أحد يتصور نتائج هذا الاختيار والثمن الذي سيدفع مقابله، لأن ذلك كان عهدًا آخرًا.

* * *

الفصل الرابع

استلام المنصب

■ عُيّن الحسين رسميًا أميرًا على مكة في ١ تشرين الثاني ١٩٠٨، وهو في الخامسة والخمسين من العمر. وشرع حالاً بالتحضير لرحلته، ولكن قبل أن تتم أعمال التحضير، وصل مبعوث يطلب حضوره فورًا إلى مقر السلطان. وقد التقى المتنافسان لأول وآخر مرة بشكل سري. تحدث إليه السلطان بصراحة عن خشيته من العزل أو حتى الإعدام وشكه من أن تعمل قوى الإلحاد ضد الإسلام من خلال الجمعية. وهو يرى من خلال مركزه الديني والدنيوي أن تركيا تهوي الآن في مستنقع الإلحاد والتطرف. وقد وجد الحسين نفسه نتيجة إيمانه القوي بالإسلام والقيم التقليدية وبضمنها فهمه لدور الحكام، على أرضية مشتركة مع عبدالحميد. وقد وعد الحسين الحاكم التركي أنه إذا ساء حظه ثانية، فعليه أن يأتي إلى الحجاز حيث وعد الحسين بتأمين الحماية له. وبالمقابل طلب السلطان من الحسين أن يتصل به مباشرة وليس من خلال رئيس الوزراء الذي لم يعد قادرًا على السيطرة عليه. كان الإجراء سيقوي مركز الحسين كثيرًا لو كان السلطان قد استمر في الحكم. إلا أن عبدالحميد قد وصل إلى نهايته المحتومة بعد ذلك بأقل من ستة أشهر.

كان الحسين يفكر بموجب تخطيطه الأولي بنقل عائلته إلى المدينة المنورة عن طريق سكة حديد الحجاز التي افتتحت في بداية العام. وقد أصبحت هذه السكة، رغم أنه لم يكن يتصور ذلك، المادة الأساسية في النزاع بينه وبين الأتراك. ولأنها لعبت دورًا رئيسيًا، فمن المهم دراسة بداياتها والغرض منها باختصار.

كانت السكة تمثل حلم خمسين عامًا للحكم التركي وشكّل تاريخها العديد من العوامل الرئيسية في الجغرافية السياسية للحجاز. يسهل هذا الخط المرور إلى أقاليم الحجاز وعسير واليمن كما أنه يجعل الحج أمنًا وسريعًا إلى حوالي (١٠٠) ألف حاج من خارج المنطقة. لقد وضعت الفكرة الأساسية للخط عام ١٨٦٤ لتخفيف عناء الحجاج في رحلة الأربعين يومًا عبر جبال ميديان الوعرة وصحراء النفوذ والحجاز المقفرة. يشكل الحجاج بعد تجمعهم في القاهرة أو دمشق قافلة يقودها أدلاء من البدو ليعبروا بهم على ظهور الجمال أو على الأقدام من مورد ماء إلى آخر في رحلة لا يعود منها الكثيرون. ورغم أن الموت يعتبر مباركا عند أداء الحج، حيث يؤمن ذلك الدخول إلى الجنة، إلا أن المصاعب التي قاساها الحجاج في رحلاتهم طيلة الاثني عشر قرنًا الماضية كانت خارج حدود التصور. فقد كانوا تحت رحمة أدلائهم القساة، وكان اللصوص يهاجمونهم باستمرار، ولم يترددوا لوازع من أخوة دينية في قتل الحجاج في سبيل ملء خزائنهم. وكان الحجاج يتحملون قسوة الجفاف وشدة الحرارة والرطوبة.

بقي مقترح إنشاء سكة الحديد في ١٨٦٤ مجرد فكرة حتى عام ١٩٠٠، عندما افتتح باب التبرع في أنحاء العالم الإسلامي لإنشاء الخط الذي سيصبح (وقفا) أو أمانة خيرية. ذهب جامعو التبرعات من باب لآخر يستلمون الهبات نقدًا أو بشكل بضائع في حين أخذ رجال الدين يذكرون المصلين أيام الجمع بمسؤولياتهم نحو أكثر الأعمال برًا. كان هذا الأسلوب هو الأكثر إرضاءً للسلطان ليس لأنه سينشئ هذه السكة الاستراتيجية، بل إنه سيقبض من أجلها المال الكثير

دون المطالبة بتسديد سندات الضمان أو فتح حساب مدين مع المصارف الأوروبية. كان المخطط الأساسي للسكة أن تمتد من دمشق إلى المدينة ومكة وجدة وربما إلى ميناء الحديدة اليمني. كذلك إن مدّ هذه السكة ينهي اعتماد تركيا في مرورها إلى حامياتها المحصورة في المناطق المنعزلة من الجزيرة العربية على قناة السويس التي يسيطر عليها البريطانيون. ومع الزمن أيضًا يكسب عبدالحميد الصيت والسمعة بالتقوى في أنحاء العالم الإسلامي.

في عام ١٩٠٠، بدأ مسح الطريق ميدانيًا، وتقرر اتباع طريق الحجاج السوري القديم المعروف باسم (درب الحج) حيث يتوفر الماء للقاطرات التي صنعت في مدينة (النمور) كذلك توفر سلسلة الواحات أسباب الحياة للحجاج في الطريق. كذلك يجب ملاحظة أن هذا الطريق سيجنب السكة خطر المدافع البحرية الثقيلة التابعة لأسطول البحر الأحمر البريطاني الذي يتولى حراسة مواقعه في عدن ومصر.

اتبع عمال مدّ السكة تعليمات فرق المسح الميداني، وعمل الجميع تحت وطأة حرارة صحراء النفوذ وجبال الحجاز. كان المهندس المسؤول ألمانيًا ذا ثبات وجلد وقدرة كبيرة على التحمل يدعى مسنر باشا. وقد تأكد للجميع بعد فترة وجيزة أنه من المتعذر رفع عدد المجندين للعمل من القبائل البدوية المنتشرة في المناطق التي تمر بها السكة، حيث اضطروا إلى جلب فريق من الجيش تعداده (٥٦٠٠) رجل. وكما هو متوقع، سرعان ما وقع هؤلاء الذين اغلبهم من فلاحي الأناضول، ضحية الحرارة والعزلة والرتابة والغارات المستمرة للبدو الذين يختفي أثرهم في الصحراء قبل أن يدرك الجنود أنهم قد تعرضوا للهجوم. ومنذ البداية تم تحصين الخط وبنيت المحطات من الحجر المحلي وجهزت بملاجئ ضد الرصاص وأحيطت بإحكام بالأسلاك الشائكة. وبالمقارنة مع سكك الحديد الأخرى في العالم تبدو شبيهة بخط سكك حديد بافاريا إذا أغفلنا تجهيزاتها الدفاعية. وستأتي لاحقا

أهمية هذه التحصينات الصغيرة حيث ستكون هدفًا لهجمات مستمرة وعنيفة من قبل البدو أولاً ثم الجيش العربي ثانيًا.

وفي الآخر، وعندما وصل الخط إلى مدائن صالح المحاذية لأراضي الشريف، وهي مدينة نبطية معزولة، كان على مستر باشا العودة لأنه قد وصل الحد الذي لا يسمح لغير المسلمين اجتيازه. وفي تلك المرحلة أخذ الأتراك العمل حتى وصل الخط إلى محطة المدينة في مستهل عام ١٩٠٨.

ومن أجل الحيلولة دون استخدام قوات العدو لسكة الحديد، استخدم الأتراك قياسًا فريدًا من نوعه هو ١٠٥ سم. وقد وصلت عربة المقياس التي صنعت معداتها في بلجيكا وألمانيا في عام ١٩٠٤ أي عند افتتاح خط سكة حديد دمشق — معان، في ذلك الوقت الذي غادر فيه الحسين إلى الحجاز، ليس من الحكمة نقل بضاعة ذات أهمية باستخدام هذا الخط وذلك لسببين: أولاً لأن المدينة المنورة محاصرة من قبل البدو الذين يقطنون الضواحي ويرون في سكة الحديد تهديدًا لحياتهم كملتزمين للنقل، وثانيًا لأن رحلة القوافل من مكة إلى المدينة تقتضي المرور عبر أراضي قبيلة حرب التي تثير الفزع ولها سمعة عريضة بتسليب الحجاج.

في نفس العام أي ١٩٠٨، وخلال الوقت الذي غادر فيه الحسين إلى مكة، سافر رحالة آخر إلى نفس المكان وترك لنا وصفا عن حالة البلاد. لقد سافر مخاطرًا بنفسه، كونه أحد الكفرة المتنكرين الذين يخاطرون بأنفسهم من حين لآخر للقيام بزيارة إلى مكة المكرمة المحظورة على أمثالهم، وهو الرحالة ضابط الجيش الإنكليزي أي. جي. بي. ويفل الذي تنكر بزي حاج من زنجبار وكتب ما يلي:

"اعتزمنا أن نبدأ رحلتنا في الخامس عشر من الشهر، ولكن كان علينا تأجيلها حتى الثامن عشر منه، لأن القطارات كانت مشغولة بالقوات المرسلة (من دمشق) لتعزيز حامية المدينة المنورة التي ذكر أنها كانت هدفاً لهجمات مكثفة. فقد تحولت المشكلة التي أثيرت مع القبائل البدوية خلال عيد الفطر إلى حرب شاملة".

لقد كشف ذلك بشكل جلي طبيعة الحكم التركي في الحجاز الذي كان مقتصراً على المدن فقط، لأن الجيش التركي لم يكن يمتلك الوسيلة لملاحقة البدو الذين لا يخلفون أي أثر خلفهم في صحراء صعبة الاختراق. كانت المعارك التي شهدها ويفل بعد وصوله المدينة المنورة دلالة منذرة بقيام الثورة العربية فيما بعد وبالأساليب التي ستستخدم خلال الصراع.

غادر الحسين بيرا (اسطنبول) وسط احتفال مهيب اشتمل على توديع رسمي من قبل عبدالحميد والذي لن يراه الحسين ثانية. وقد ذكر رئيس الوزراء كامل باشا، الحسين بالروابط التقليدية بين الإمارة والسلطنة وأبلغه بأن لا ينجرف مع التيارات السائدة. ركب الحسين على ظهر باخرة صغيرة تدعى (طنطا) وأبحر نحو السويس والبحر الأحمر. وفي ٣ كانون الأول ١٩٠٨، وصل إلى تهامة حيث تتلاشى الصخور الساحلية ويصبح الإبحار سهلاً نحو ميناء جدة الخاضع للحماية.

وأثناء وقوفه على دكة الباخرة (طنطا) شاهد الشريف السور المرجاني الذي يحيط المدينة في ذلك الوقت وفيه مداخل مزخرفة تؤدي إلى البحر والمدينة المنورة واليمن. وترتفع على الأسوار أبراج بيضاء من الطراز المنتشر في أراضي حضرموت الحضرية.

كانت السفن الراسية قليلة وهي عبارة عن بوارج تركية متروكة منذ زمن طويل، بعضها لا تعمل لأنها تحولت إلى صخور بسبب توقفها المزمن. وقد تجمع عدد من الناس على الرصيف تحت الحرارة الرطبة، للترحيب بأميرهم الجديد. كان من بين المستقبلين الوالي والقائمقام ووفد صغير يمثل الفرع المحلي من جمعية الاتحاد والترقي. وقبل وصوله، حدد الحسين الأسلوب الذي ستسير فيه الأمور وذلك بتعيين ممثله في المدينة المنورة دون التشاور المعتاد مع المسؤولين الأتراك.

وفي خطاب الترحيب، حيّت الجمعية في جدة الأمير ووصفته بأنه (الأمير الدستوري) وأشارت بوضوح أنها ترى فيه اختلافاً بارزًا عن الماضي، خصوصًا عن المتمرد علي الذي أعلن معارضته للدستور. وجاء في الخطاب: "إن البلاد إذ تحيي سيادة الأمير، فإنها تحيي فيه الأمير الذي أدرك روح العصر والتجدد المطلوب للعمل تحت ظل الدستور الذي هو نبراس السلامة". وإذا كان ذلك ما تصورته عن دور الأمير الجديد، فإنها سرعان ما تحررت من سوء الفهم هذا.

وخلال خطاب رد التحية أوضح الحسين بجلاء أنه يضع نفسه في الدور التقليدي لأمير مكة وفق قواعد أبي نعمي. وبموجب هذه الامتيازات التي منحت إلى الشريف أبي نعمي من قبل السلطنة العثمانية، أصبح موقع الإشراف بين عامة الناس كالتالي:

- لا يمارس الشريف العمل عدا بيع وشراء الجمال والطعام.
- إذا ما قتل أحد الأشراف، فيقتل أربعة بالمقابل.
- من يضرب الشريف، تقطع يده.
- يستلم الشريف ثلث دية القتيل.

وهكذا تسير الأمور في (٣٦) فقرة. وبذلك وضحت الصورة أمام جمعية الاتحاد والترقي بالنسبة للأمير الدستوري الجديد. وقد تلاشت جميع الأوهام

المتبقية بتصريحه: "لاشك أن هذه هي أرض الله، ولا حكم يسري فيها سوى حكم شريعة الله.. وإن دستور هذه الأرض هو الشريعة الإلهية وسنّة الرسول".

وبعد استراحة في الدار الأنيقة الشاهقة للتاجر ناصيف في جدة، شرع الحسين مع حاشيته في رحلته إلى مكة، وقد امتطى ظهر حمار، وهي واسطة نقل يفضلها كثيرًا، واتجه شرقًا عبر بوابة مكة وسط غناء وتهليل الأهالي تاركًا خلفه لجنة الاتحاد والترقي في حيرة من أمرها.

وبعد أن اتخذ الحسين مقره في قصر محمد علي الفخم المكوّن من ثمانية أدوار، استعد لخوض صراع شخصي كان يعرف انه سيكون حتمًا إذا ما أراد أن يصبح الحاكم المؤثر في الحجاز. وكما ذكرنا سابقًا، تتميز طبيعة الحكم في الحجاز بشيء من المرونة، كونه يعتمد على قوة الشخصية وسعة التأثير والمكائد التي يدبرها المتخاصمان الرئيسيان وهما الوالي أي الحاكم العثماني لولاية الحجاز، وأمير مكة.

تختلف مسؤوليات الطرفين، من الناحية النظرية، عن بعضها. حيث يكون الوالي مسؤولاً عن أهالي المدن، بينما تنحصر سلطة شريف مكة على البدو، وتشمل أيضًا توزيع هبات الحنطة القادمة من مصر. كذلك يمتلك الوالي سلطات إضافية مثل، جباية الضرائب والدفاع وتطبيق القانون والأمن إضافة إلى كونه ممثل الحكومة العثمانية في الإقليم. إن هذه التركيبة المزدوجة من الحكم ليست غريبة على الإمبراطورية، فهناك أمثلة أخرى، كالأسرة الشريفية في مراكش والباي في تونس والإدريسي في ليبيا. وفي مصر مثال متطرف لنظام الحكم الازدواجي حيث تحكم سلالة وراثية البانية باسم السلطان، لكنها تحت سيطرة دار الاعتماد البريطاني.

تقلصت سلطات أمير مكة بشدة في أعقاب فترة الحكم الشريفي القوي أبان حكم عون الرفيق ١٨٨٢-١٩٠٥، وبعد استلام علي - عميل راتب للإمارة. وعندما وصل الحسين إلى مكة، وجد نفسه دون سلطة فعلية أو قدرة على تأمين موارد مالية. لذلك شرع في تصحيح هذا الوضع. كان الوالي يعتبر نفسه مشرفاً على الجيش والمحاكم عدا الدعاوى التي تخص رجال القبائل البدوية، وعلى إنفاق مبلغ (٣,٠٠٠,٠٠٠) ليرة، والتصديق على الأعمال العامة. كان الأمير يتقاضى (٣٠٠) ليرة في الشهر، إضافة إلى الطعام الذي يجبى من البدو والأموال السرية المرسلة من الخزينة الإمبراطورية لصيانة الأماكن المقدسة.

إن المهمة التي تواجه الحسين الآن هي تقويض سلطة ممثل الحكومة في مكة بقوة وبسرعة، وتحويل هذه السلطة إلى الأسرة الشريفية. ولعمل ذلك، استخدم أسلوبًا فعالاً، ولا يتعارض مع القانون.

لقد كانت هناك ممارسة قديمة في الحجاز، هي أنه إذا شعر الناس بالظلم من الوالي، فبإمكانهم رفع دعوى إلى السلطان بواسطة بعض التجار المعروفين أو الوجهاء أو أمير مكة نفسه. وعلى سبيل المثال - ساعدت هذه الضغوط في تغيير الوالي عصمان باشا صاحب الإرادة القوية خلال فترة حكم عون الرفيق عندما نشب صراع مماثل بين هاتين الشخصيتين القويتين. شجع الحسين عن طريق دائرة وكلائه الواسعة وأصدقائه ومعارفه عملية رفع الدعاوى والشكاوى بالجملة على الوالي إلى اسطنبول. كان يعزى كل نقص أو ضعف أو فساد بطريقة أو بأخرى إلى تأثير الحاكم العثماني. لم يجار الوالي آنذاك مثل هذه الأساليب لأنه كان حديث التعيين من قبل لجنة الاتحاد والترقي، ولم يألف هذا النوع من الصراع في السياسة الداخلية التقليدية. لم يمض وقت طويل حتى استدعي الوالي ثم خلفه آخر وآخر وهكذا لغاية عام ١٩١٦ وقع ستة ولاة ضحية هذه الأساليب. فكل قادم جديد كان يرفع ضده سيل من الشكاوى والأمور التي لا صلة له بها، ويبقى عمله

الرئيس هو الرد على فيض الشكاوى الساخطة المقدمة من السلطات الشريفية إلى رؤسائها في تركيا.

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه اللعبة السياسية بين الحجاز وعاصمة الإمبراطورية أخذ الحسين يوسع سلطاته داخل الولاية، مركزًا في البداية على تحقيق سيطرة قوية على القبائل. كانت القبائل البدوية المنتشرة في ضواحي المدينة المنورة في حالة ثورة، ولديها (١٠,٠٠٠) محارب مرابط خلف الأسوار، وهذا ينذر بنوع الأعمال التي ستصبح مألوفة خلال الثورة العربية. وقد كلف الحسين أبناءه بمهمة السيطرة على القبائل البدوية، وخاصة قبيلة الحارث التي هي عبارة عن مجموعة من قطاع الطرق الذين يعيشون شمال مكة، وائتلاف قبيلة حرب المولعة بالحروب والمتخصصة بتسليب قوافل الحجاج. فكان أبناؤه الأربعة يشكلون الدوريات في وقت واحد أو أوقات مختلفة ويقودون الحملات ضد القبائل المتمردة لإحلال السلام في المنطقة.

وبالتدريج أخذت عوائد الولاية طريقها شيئًا فشيئًا نحو خزينة الإمارة، واحتكرت تجارة الجمال الحيوية وبيع المياه وجوانب مهمة أخرى في أعمال نقل الحجاج المربحة. كان لتزايد السلطة هذا تأثيرًا مضاعفا، إذ إدراكا من الناس، بما في ذلك القناصل الأجانب، للصلاحيات المحدودة في مثل هذه الظروف، أخذوا يقدمون شؤونهم التجارية والمدنية إلى بلاط الشريف الكبير بدلاً من القصر الحميدي حيث يقيم الحاكم السيئ الحظ.

ورغم الغيوم المغرضة التي تضلل صورة الأمير كما مرّ بنا، إلا أن هناك دلائل بيّنة تشير في هذه المرحلة إلى أنه ليس محترمًا فحسب، بل وشعبيًا أيضًا. لم يصعب عليه أبدًا اجتذاب الناس، فقد كان خطيبًا مفوهًا وشخصية ذات هيبة كبيرة. وتبدو القصص المتداولة في معظم الجزيرة العربية بخصوص فساد الحسين - على سبيل المثال استلامه لجزء من غنائم السلب التي تحصل عليها قبيلة حرب

- لا أساس لها من الصحة في ضوء الدليل المعاصر لذلك الوقت الذي قدمه أي. جي. بي. ويفل في كتابه (حاج عصري في مكة) (١٩١٢).

انخفضت الأهمية الدينية لمنطقة الحجاز خلال فترة الانحلال أبان حكم علي وبفعل تواجد عدد كبير من القوات الأناضولية والشركسية هناك. كان يعرف منذ زمن طويل أن أهالي مكة قد أحالوا الحج إلى مصالحهم الخاصة وعلى حساب الحجاج الفقراء المعذبين.

كان الحسين مع ابنه الأكبر علي متشددين بقوة تجاه أمور الدين والسلوك، وقد بذلا جهداً جباراً لإنهاء مفاسد الحج. وقد كان نجاح أول حج تحت حكمه قضية سياسية ذات أهمية كبيرة، لأنه يدرك أن جمعية الاتحاد والترقي تتربص لاغتصاب هذه السلطة التي تعتبر الحجر الأساس للحكم الشريفي.

أغلق الحسين جميع أبواب المكوس وطلب من أمراء الحاميات إيلاء عناية فائقة بتنظيم قواتهم. كان أول حج تحت رعايته ناجحًا، خاصة عند مقارنته بأحداث العام المنصرم. إلا أنه تحول بعد ذلك إلى سلسلة من الكوارث التي كشفت عن عدم كفاءة الإدارة المحلية. فقد تغير الجو (حيث جاء شتاءً) وسببت الأمطار فيضانًا مكونًا بركًا آسنة من الماء الراكد. وبعد الأمطار حدث الأسوأ، حيث تفشت الكوليرا. كان هذا هو أكثر ما يخشى منه طيلة مواسم الحج، لأنه كشف سوء الخدمات الطبية والحجْر الصحي، فتصاعدت الشكاوى من البلدان الإسلامية، وتملكت الأتراك الحيرة حول الموضوع برمته.

وفي السنة التالية صحا الجو، ولم تحدث إصابات بالكوليرا. ويذكر ويفل أن الحج كان من أنجح مواسم الحج في الذاكرة الحية، رغم الاضرابات التي حدثت في المدينة المنورة. وقد حاول أعضاء الجمعية المحلية الاستفادة من هذه الاضطرابات كذريعة للقيام بحركة يمكن أن تشكل كارثة سياسية على الحسين،

بحجة أنه لم يدر الأمور بحسم. وأعلن قائد حجاج دمشق أنه بسبب انعدام الأمن على امتداد طريق حجاج الحجاز، فإنه سيعود بحجاجه عن طريق البحر. كان أمير الحج أو زعيم وفد الحجاج هو عبدالرحمن اليوسف من أنصار جمعية الاتحاد والترقي واستغل هذه الفرصة ليكشف نقاط ضعف الشريف إلى العالم الإسلامي. إلا أن الحسين أصر أن يعود الفريق برًا إلى دمشق تحت حماية شقيقه ناصر وابنه عبدالله. وعاد الحجاج جميعهم بأمان تام عدا عبدالرحمن الذي جعل من نفسه أضحوكة للآخرين وأصر على العودة عن طريق البحر وعبر قناة السويس.

جرت محاولات أخرى للإطاحة بالحسين، إلا أنها كانت فاشلة بالمثل. فقد حاول فؤاد، أول والٍ تمينه جمعية الاتحاد والترقي، خلق إشاعة خطيرة، سمعت بها زوجته من امرأة أخرى في الجامع. والإشاعة تفيد أن أحد أقرباء الحسين يحيك تمردًا ضد الأتراك في مقر حكمه في الطائف. وقد أعلن الحسين الإشاعة على الملأ وأنكرها تمامًا، وأجبر فؤاد على كشف مصادره، التي كذبته هي الأخرى. فوجد الوالي نفسه مطالبًا بالعودة إلى اسطنبول. جرى ذلك أيضًا للوالي الذي خلفه.

ازدهر الحج خلال فترة حكم الحسين، وقد تحسنت الأحوال خلال فترة توليه الإمارة إلا أنها أصبحت ثقيلة الوطأة عندما أصبح ملكًا. ويذكر أنه عند لقاء اللورد كتشنر مع نجل الحسين الثاني الأمير عبدالله ١٩١٤، شكرت دار الاعتماد البريطاني، الهاشميين على التحسن الكبير في ظروف الحج الذي أحسه الحجاج المصريون العائدون. كان كيتشنر مسرورًا من طريقة إرسال الحملات التأديبية ضد قبيلة حرب والقبائل الأخرى حيث قلل ذلك من مشاكل الغزو. وفي جهوده من أجل رفع المستوى المعاشي للحجاز، كان الحسين محظوظًا بوجود قائمقام قدير في جدة هو العقيد صادق المؤيد الذي بادر بوضع برنامج لإنارة الشوارع ووضع العلامات وحظر البغاء والتفتيش المنتظم على مساكن الحجاج.

وبعد أن أمّن مركزه في الحجاز مستخدمًا الإرادة والمناورة واستعراض القوة، وجه الحسين اهتمامه إلى تثبيت سيادته على جيرانه العرب. ربما كان صادقا في هذه الحملات بادعائه أنه يعمل كخادم للدولة العثمانية، حيث خلقت له مركزًا مستقلا كان يريده لنفسه، كما أنها ترضي طموحه الشخصي.

في عام ١٩١٠، نشب نزاع إقليمي على امتداد الحدود الشرقية للحجاز. ورغم عدم وجود حدود مرسمة لولاية الحجاز، إلا أن هناك منطقة حساسة شرق المدينة المنورة حيث تخضع قبيلتا حرب وعتيبة لمجال تأثير كل من شريف مكة وعبدالعزيز بن سعود. (وقد دخلت فيما بعد تحت نفوذه بشكل تام).

في عام ١٩٠٦، حدث نزاع حول الجزء الشرقي الخصب من المنطقة الذي يعرف بالقصيم: وهو عبارة عن عدة مئات من واحات النخيل المنتشرة على طول طريق القوافل من نجد - قلب الصحراء الكبرى للجزيرة العربية - وحتى ساحل البحر الأحمر. ورغم تدخل قوات المشاة العثمانية وتواطؤ أسرة الرشيد المتمركزة في حائل، حقق عبدالعزيز سيطرته على المنطقة وفرض الضرائب على الأهالي. وكسبيل لحفظ ماء الوجه، منحه الأتراك الاعتراف الرسمي بولايته على هذه المنطقة، إلا أنهم مضوا في العمل دون كلل لمعالجة هذه الإهانة.

بادر الحسين بالعمل بالنيابة عن الأتراك. فقد بعث برقية إلى إمام نجد يطلب فيها دفع الضرائب غير المدفوعة في السنين الثلاثين الأخيرة والمستحقة الدفع إلى الحكومة العثمانية (رغم أنها دفعت في السابق إلى الحكم الشريفي)، وذكر الحسين عبدالعزيز بأنه قد تم الاعتراف به، طالما أنه يعمل على دعم الحامية التركية في القصيم. وقد فشل الحسين في تحقيق هدفه، حيث انسحب الأتراك، بسبب المجاعة، إلى قواعدهم في البصرة من المكان الذي انطلقوا منه. ولم يتلق أي رد على الرسالة، حيث غضب بشدة كون ذلك قد جرح كبرياءه، وفي لحظة غضب أهان عبدالعزيز.

ومن أجل فرض مطالبه بالقوة، هيأ الحسين ولده عبدالله ليقود قوة مؤلفة من (٣٠٠) بدوي لجمع الضرائب. كان في هذه الحملة، كما في الحملة التي تلتها في عسير يؤكد أنه يقاتل في سبيل وحدة الإمبراطورية ضد الانفصاليين والجماعات المنافسة، رغم أن الوالي قد رفض إمداد هذه الحملات بالجنود. ونظرة إلى الحدود التقريبية للحجاز على الخارطة تكفي لإثبات كم من الوهم تصور أن للقصيم صلات طبيعية مع ولاية الحجاز العثمانية، أكثر منها مع إمارات وسط الجزيرة العربية، وذلك لكونها تبعد (٤٠٠) كم شرق المدينة المنورة. وواصل الأتراك القيام بدور المتفرج على الحدث، رغم مطالبتهم بأن استعادة الإقليم يجب أن تتم باسمهم. تحركت الهجانة الشريفية عبر سهل نجد الغربي المجدب نحو أهدافها. كان النجديون على علم بالتهديد القادم إليهم لذا فإنهم جندوا قوة لمجابهة جيش الحسين. سارت الأمور على نحو سيئ مع عبدالله منذ البداية وسرعان ما وقع في مأزق عصيب. وظهر الحسين على الساحة، كعبدالعزيز، وهو يعاني من هزيمتين كبيرتين.

إلى الشرق من مشيخته الصحراوية، كان عبدالعزيز بن سعود مشغولاً باستمرار في مواجهة مطامع أمير عجمان الذي غزا أراضيه أكثر من مرة وحاول إزاحته عن عاصمته الرياض. وبعد أن سارت حرب القصيم لصالحه، سمع قائد الوهابيين القوي أنه قد تعرض للهجوم على جبهة ثانية، وأن عجمان تهدد الرياض. لقد استغل أبناء عمومته الفرصة وشجعوا عجمان على الهجوم، وأصبحت الآن تهدد عاصمته. كان هذا تحديًا خطيرًا لسلطته، التي هي أهم من منصب أمير على القصيم، وهذا عمل يتطلب إجراءًا سريعًا. في ذلك الوقت وعن طريق المصادفة، أسر سعد، شقيق عبدالعزيز من قبَل الحجازيين، وذلك عندما كان يجمع الضرائب ويحرض قبائل القصيم على المقاومة. بهذه الورقة استطاع الحسين أن يساوم على شروطه. ولم يلجأ الحسين إلى ورقته الرابحة الأخرى التي

هي طلب مساعدة أكبر خصوم عبدالعزيز هو ابن الرشيد الشمري، الذي تقع أراضيه شمال نجد مباشرة وكان للحسين معه مراسلات في السابق.

اضطر عبدالعزيز للنظر في شروط أمير مكة وقبل المطلبين التاليين: السيادة العثمانية بواسطة الحجاز على واحات القصيم الفنية بما في ذلك مدينتها الرئيسية بريدة، ودفع (٦٠٠٠) ليرة سنويًا. من المفيد ذكر أن الحسين لم يستلم مليمًا واحدًا من هذه الضريبة. حيث لم يشعر بالرغبة بالمطالبة بها مرة أخرى بعد سماعه انتصارات عبدالعزيز الساحقة على ائتلاف عجمان. إلا أنه أزّم العلاقات ثانية مع السعوديين وذلك بمنحه حق اللجوء إلى بعض أبناء عمومة عبدالعزيز المتمردين. ورغم أن الحسين لم يدرك ذلك، إلا أنه قد خلق له عدوًا كلفه فقدان عرشه بعد اثنتي عشر سنة.

وسنحت في السنة التالية فرصة أخرى للحسين للعمل ضد جيرانه من العرب المتمردين كانت تلك في عسير، إلا أنه قد عمل هذه المرة بالتعاون مع السلطات التركية. وتشكل هذه الحملة نقطة تحول في علاقات الحسين مع الأتراك وبداية ولادة شكوك خطيرة في ذهنه حول استمرار خدمته لتركيا تحت ظل العهد الجديد الذي جاء بعد عام ١٩٠٨. كان لا يزال في عام ١٩١١ يرغب في الوحدة مع دولة إسلامية رئيسية واحدة. لكنه شعر أن القوة المتزايدة لجمعية الاتحاد والترقي تجعل من تركيا غير مؤهلة لأن تكون حامية الإسلام وقائده الكبير.

عسير هي جزء من منطقة تقع بين الحجاز واليمن وتتكون من سهل ساحلي يتسم بالرطوبة وتلال وجبال ذات سفوح حادة ومنحدرات صخرية شاهقة يزيد ارتفاعها عن (٤,٠٠٠) متر. تكفي مياه الأمطار على هذه الخنادق وسفوحها لتكوين عدة مئات من القرى الصغيرة حيث يزرع ساكنوها الحنطة والفواكه على المنحدرات المنظمة بشكل مصاطب. وقد وفد إلى هذه المنطقة في أواخر القرن السابع عشر رجل ورع من مراكش يدعى سيد أحمد الإدريسي وأتم مناسك حجه

إلى البيت الحرام. ثم استقر في هذه المنطقة وأسس دولة ثيوقراطية معتدلة مركزها (عاصمتها) صبيا الواقعة في السهل الساحلي عند موقع التلال في أبها. كانت عسير في عام ١٩٠٩ سنجقًا في ولاية اليمن ويسودها نفس نظام السلطة الموجود في الحجاز؟

فالمتصرف يقابل الإدريسي كما الوالي يقابل الشريف. كان الإدريسي الذي يحكم في عام ١٩٠٩ هو السيد محمد بن علي الذي درس في الأزهر في القاهرة ثم التحق بقبيلة السنوسي الأصولية في شرق ليبيا. وعند عودته، كرّس اهتمامه لتحرير عسير من مستعمريها الأتراك. ولتحقيق ذلك كان يأمل تلقي العون من إيطاليا. كان للإيطاليين قاعدة في أرتيريا عبر البحر الأحمر، وقد باشروا بدعمه سرًا بالأسلحة والذخائر.

في عام ١٩٠٩، أعلن الإدريسي الثورة، وحاصر الحامية التركية في أبها مستغلا الثورة الحاصلة في اليمن المضطرب على الدوام. لم يستطع الأدارسة سحق الأتراك داخل حصونهم بل استطاعوا فقط عزلهم عن خطوط إمدادهم الرئيسية ومن ثم إجبارهم على الاستسلام. طلب الأتراك من الحسين التدخل، وفعل ذلك، حيث كتب إلى يحيى إمام اليمن وتوصلا إلى اتفاقية مشتركة حول استقلال اليمن. إلا أن الاضطراب استمر في عسير. كان في نية الإيطاليين غزو طرابلس، آخر المناطق المتبقية للأتراك في شمال أفريقيا. ومن أجل إنجاح عملية الغزو، أرادوا تحويل انتباه الأتراك إلى جهة أخرى. وظهر لهم أن عسير هي الوسيلة المناسبة، لذا قدموا المساعدة إلى الإدريسي، بما فيها تأمين قوة للحصار البحري.

وبسبب دعم دولة أوروبية، كما حصل بنفس الطريقة بعد خمس سنوات، استمر الإدريسي بصراعه ضد الأتراك. لم يستطع الأتراك إمداد الحامية المحاصرة في أبها، فاستولى الإدريسي على ميناء القنفذة. إن هزيمة تركيا على يد إمارة صغيرة كعسير تعتبر إهانة كبيرة لها. لذلك أمر السلطان في مارس ١٩١١

الحسين بمرافقة حملة تركية لرفع الحصار عن أبها. وقد شعرت الأوساط العربية بالقلق لاشتراك الحسين في هذه الحملة لأنها ترى أنها موجهة ضد العرب الذين يقاتلون في سبيل حريتهم. وعندما طلب خديوي مصر من عبدالله توضيح الموقف أجاب: "ولكن ماذا لو اقتطعت الأقسام الجنوبية من البلدان العربية من قبل أناس جهله يسمحون للأجانب بغزوهم". وبيّن أن والده يسعى لحماية العرب من مخططات الإمبريالية الكافرة.

غادرت القوة المشتركة مكة في صيف ١٩١١. وكانت تتألف من قوة مشاة تركية بقيادة سليمان باشا، متصرف عسير وخليط من الهجانة البدو بقيادة الحسين. رافق الأمير في مهمته ابناه عبدالله وفيصل. قاد الشقيقان القوة المتجهة نحو الجنوب الغربي على طول السهل الساحلي وفي عز الصيف، ووصلا القنفذة بعد أن هلك القسم الأعظم من قواتهما بسبب الملاريا والكوليرا. وتحت لهيب الحر شقّ الباقون على قيد الحياة طريقهم نحو الممر الجبلي الضيق الذي يؤدي إلى أبها. وفي الطريق، وقعوا في كمين نصب لهم في سوق مدينة القز الصغير. وفي رواية لمؤرخ جدة محمد ناصيف، قيل أن عبدالله وفيصل قد أسرا وأعيدا إلى مدينة القنفذة دون ملابسهما، ولكن في ضوء المذبحة الحاصلة، يعتبر الهرب فوزاً عظيماً. أعادت القوات تجمعها ثانية، وبعد خمس عشرة معركة أخرى وصلت إلى أبها بعد ثلاثة أشهر. وحال انتهاء المعركة واحتلال المدينة، رغم عدم حصول هزيمة نهائية للإدريسي، ظهرت الأحقاد والخلافات الشخصية بين سليمان باشا والحسين. لقد بدأ الخلاف منذ أن غادرت القوة المشتركة مكة، وكان يتركز حول من سيتولى قيادة القوات الحجازية. لقد اقترفت القوات التركية عند دخولها المدينة أعمالاً وحشية شنيعة سجلها تي. ثي. لورنس بدقة بعد سبع سنوات وعندما تراجع الجيش التركي عبر سوريا. لقد انتهكت اعتداءاتهم على النساء والأطفال، جميع قواعد الحرب التي يتمسك بها البدو على أنها محرمات ينبغي احترامها.

فعندما تكون أعمال السلب والتخريب جزءًا من الأعمال المشروعة في الحرب، إلا أن هناك قواعد ينبغي التقيد بها بشكل صارم وهي من الذي يقتل ومن لا يقتل. لقد أصاب البدو الفزع من تصرفات الأتراك خصوصًا وأنهم رافقوا الأتراك في هذه الحملة. لقد أصرّ الأمير علي أن يضبط الباشا قواته التي أثارت استياءًا عميقًا بعد دخولها المدينة. فسحب الحسين قواته، بعد أن تعكر مزاجه، وترك الأتراك في موقف حرج. وقد أوضح عبدالله أن الحسين قد بدأ يفكر بالثورة ضد الأتراك منذ ذلك اليوم.

في نفس العام ١٩١١، أعاد الإدريسي تجميع قواته، وثار ثانية بمساعدة الإيطاليين وحاصر السواحل وقذفها بالقنابل مما أدى إلى تدمير الأسطول التركي الصغير. ومرة أخرى طلب الأتراك مساعدة الحسين، حيث أرسل قوة من البدو يقودها فيصل تحركت جنوبيًا على امتداد الساحل، وخاضت عدة معارك غير فاصلة. في نفس الوقت قاد الحسين هجومًا عن طريق الأراضي المرتفعة في أعلى الجروف الصخرية. ورغم أسر قائد القوات الإدريسية مصطفى العطار، إلا أن الموقف لم يحسم بشكل نهائي. والواقع أنه لم يحسم حتى ضمت المنطقة من قبل القوات السعودية في ١٩٢١.

ومن المثير وما يبعث على السخرية في ضوء أعمال الحسين الأخيرة خلال الثورة العربية استذكار خطاب له على شعب أبها خلال الاحتفال بيوم الدستور حيث قال:

"يجب أن تعلموا أنه دون حماية الدولة التركية، ستتعرضون للهجوم كما يهاجم الثعلب الأغنام.. كيف خدعكم هؤلاء الناس الذين يعملون على تدمير بلدكم؟ ألستم الشعب الذي قال فيه جدي الرسول: (الحكمة يمانية)، اقبعوا تحت ظلال السارية العثمانية.. إنكم قوم طيبون ولا تعلمون أن القوى الأجنبية تسعى لتدمير الدين".

وخلال فترة تعزيز سلطته، لم يهمل الحسين جبهته الثانية: الباب العالي في اسطنبول. كانت السنوات من ١٩٠٨-١٩١٤ حافلة بالمخططات والمهازل والدسائس والشكوك، والتي رغم سلسلة الإخفاقات المرة، إلا أنه استطاع بها تكوين دولته الخاصة.

فقد الحسين في مرحلة مبكرة من استلامه السلطة، ما كان يعتبره أفضل سند إليه وهو دعم السلطان عبدالحميد. لم يكن ذلك راجع لسوء الفهم بين الحاكمين المتشابهين من حيث التفكير، بل نتيجة محاولة الأخير استعادة سلطته الشخصية، والتي كلفته عرشه ونفوذه.

ففي نيسان ١٩٠٩، وعندما كان عمر الدستور سنة واحدة فقط، تعب السلطان من هذا الوليد المزعج، وخطط كما فعل تماماً في عام ١٨٧٧ لخنقه قبل أن يشب ويزداد قوة. فنتيجة قضائه معظم سنوات عمره خلف أسوار قصر يلدز العالية معزولاً عن حقائق الحياة بشبكة واسعة من الجواسيس والمتزلفين، الذين يفترض أن يكونوا شريانه الحيوي مع العالم الخارجي، فقد السلطان قدرته في الحكم على سير الأحداث. ولثقته بتأثير سلالته العريقة وولاء دائرة حكمه، قام بتشجيع أي برنامج للثورة المضادة. وقد أنفق لتحقيق هذا الهدف مبالغ طائلة وسعى لاستمالة أي فريق يحتفظ بشيء من الولاء إلى العرش، إن كان هناك موالين. لا شك أنه كان يعتقد أن موقعه كخليفة في أذهان فلاحي وجنود الأناضول البسطاء سيعوضه عن فقدان هيبته على يدي جمعية الاتحاد والترقي. ومن الغريب أنه لم يكن يأخذ بالحسبان أن المرة الوحيدة التي هتف بها الشعب تلقائياً وبصدق، هي التي جاءت في ذلك اليوم المشهود من تموز عندما منح هذا الشعب الدستور الذي طالما حلم به. وقد نجح عبدالحميد في زرع شيء من النفور من الجمعية داخل صفوف عدد من الوحدات في اسطنبول والتي معظم جنودها من

الألبان، حيث استاءوا من أعضاء تركيا الفتاة وغضبوا من نفوذ الضباط الألمان المتعجرفين الذين يتولون أعلى المناصب في الجيش المسلم.

لذلك استيقظت اسطنبول في ١٣ نيسان ١٩٠٩، وللمرة الثانية في أقل من عام على أصوات عيارات نارية في الشوارع؛ وعلى أية حال أحرق السلطان مراكبه ووجد نفسه أنه لم يعبر التيار نحو الطريق المجدي بل معزولاً في جزيرة صغيرة معرضة للغرق في أية لحظة. ومرة أخرى كانت مقدونيا هي سبب سقوطه، حيث تحرك القائد العسكري شوكت باشا لإجهاض انقلاب السلطان بسرعة وأرسل القوات الموالية لجمعية الاتحاد والترقي إلى العاصمة لقمع التمرد نهائيًا.

انتظر عبدالحميد نهايته في تلك الجزيرة وأصبح مقتنعًا أنه سيقتل. وفي ٢٧ نيسان أعلنت الجمعية خلع السلطان، رغم أن ذلك قد جاء بموجب فتوى شرعية صادرة من شيخ الإسلام وليس عن طريق قوة أخرى. وبهذه الطريقة تقبلت الناس حركة التصحيح. وأخرج السلطان من قصره الكبير تحت حماية مجموعة صغيرة من الفرسان. ونقل مع قطته التركية المفضلة إلى مكان منعزل في سالونيكا حيث بدأ جميع مشاكله.

اختارت الجمعية بدلاً عنه رجلاً بليدًا مسالمًا يعوزه الذكاء هو محمد رشيد أفندي ولقب بمحمد الخامس ليصبح السلطان الخليفة للدولة العثمانية. وهذا يعني عدم حصول تدخل من جانب العرش في شؤون الدولة في حين يستمر وجود الدولة وتبقى مؤسسة الخلافة التي تمنح تركيا الأهمية خارج حدودها. لذلك أصبح الحسين الآن في صراع مباشر مع جمعية الاتحاد والترقي.

* * *

الفصل الخامس

الأتــراك والعــرب

▪ عين الحسين أميرًا على مكة في وقت عصيب من تاريخ تركيا، وقد رأينا كيف عمل على تعزيز مكانته في الحجاز بجانب مكانة الوالي. على أية حال، وبعد أحداث عام ١٩٠٨ في تركيا، أدت الإصلاحات الإدارية وتهميش دور اللغة العربية مقابل التركية، وظهور الحركة الطورانية (التتريك) والخطر المحدق بالمبادئ الإسلامية التقليدية بسبب توجهات أعضاء تركيا الفتاة، إلى تعذر حصول تعاون بين الحسين والحكومة الإمبراطورية. وهنا علينا أن ندرس بداية مشاكل الحسين مع الأتراك لأنها جزء من العلاقة المتأزمة بين العرب والأتراك.

إذا أراد أحد أن يبحث جذور الكفاح المسلح من أجل الاستقلال العربي، فلا يجد ما يشير إلى أنها تمتد إلى أبعد من فترة ما قبل ١٩٠٨، وذلك عندما كان الطغيان الحميدي في ذروته. من المؤكد أن هناك تذمرًا بل وحتى أفكارًا تنادي باستقلال العرب، ولكن لم يكن استياء العرب منظمًا حتى استلام تركيا الفتاة للسلطة في عام ١٩٠٨.

عند إعادة النظر في الأحداث الماضية، يتضح أن ما يبعث على السخرية هو أن العرب قد رأوا في ثورة تركيا الفتاة تباشير الاستقلال واحترام الذات. وعندما خابت آمالهم، وأصبحت تركيا الفتاة أكثر تعصبًا قوميًا من العثمانيين، تبلور التحرر من الوهم بشكل مقاومة جدية، وحركة لصنع هوية مستقلة ضمن الإمبراطورية ثم أخذت تتحول إلى تيار يدعو إلى الاستقلال. ربما تكون مفاجأة حصول ثورة ١٩٠٨ وضخامة الآمال التي بنيت عليها، هي التي جعلت تحرر العرب من الأوهام أكثر قساوة وخيبة. عند ظهور النزاع بين العرب والأتراك، من المفيد ملاحظة أن الحجاز، التي سيقع فيها النزاع المسلح في الآخر، قد لعبت دورًا رئيسًا تقريبًا. وقد تحمل شعب الهلال الخصيب الثقل الأكبر في الصراع.

لعب العرب خلال عهد عبدالحميد (١٩٧٦-١٩٠٩) دورًا بارزًا في شؤون الدولة العثمانية وتميزوا بكونهم كانوا موضع ثقة فيها. فعزة باشا، الذي كان رئيسًا للوزراء في تركيا العثمانية لثلاثة عشر عامًا في عهد السلطان عبدالحميد، كان عربيًا وتولى رفاقه العرب مناصب مهمة في الحكومة، مما يشير إلى حجم الثقة التي وضعت فيهم خلال عهد عبدالحميد المصاب بجنون الارتياب. ربما يعود سبب المكانة المتميزة للعرب إلى حقيقة كون عبدالحميد يولي أهمية كبيرة لدوره كخليفة. فقد أنجزت خلال عهده مشاريع عامة كبيرة لصالح العرب والإسلام حيث خصص المال إلى الجوامع والأعمال الخيرية، بلغت ذروتها في المشروع العملاق لمد سكة حديد الحج إلى مكة والمدينة. ربما تفسر دوافعه دائمًا - خصوصًا في حالة سكة الحديد هذه - بطرق متعددة، وربما يكون موقفه تجاه العرب سياسيًا، ربما من أجل قمع الاضطرابات أو إرضاء غروره. لقد عرف عنه أنه كان يتفاخر بمكانته المتوارثة كغاز وخليفة، رغم أنه لم يفعل ما يثبت أنه أهل لحمل أي من هذين اللقبين خلال فترة حياته. صحيح، على سبيل المثال، أنه عندما كان يريد أن يحتفي ببعض العرب ويمتدح تاريخهم، فإنه يطلق العنان

لهوايته في الدسائس، ويرسل الجواسيس المتنكرين بزي مبشرين إلى العرب في العديد من المناسبات.

ما يجب أن نتذكره عند استلام عبدالحميد للسلطة، هو أنه كان ملزمًا بإدخال بعض الإصلاحات الدستورية. فقد تشكلت في تلك الفترة جماعة عرفت باسم (العثمانيين الجدد)، وهي ترى أن الإصلاح يجب أن يأتي في سياق تقوية الإمبراطورية وليس في منح استقلال أكبر إلى بعض الشعوب المتميزة داخل الإمبراطورية. وتبنت موقفًا عدائيًا تجاه الحركات الوطنية، وبررت تفكيرها بالحديث عن (الأمة العثمانية). رغم أنه لا أحد يرى نفسه على أنه (عثماني) وكفى بل (عثمان أرمني) أو (عثماني يوناني).. الخ.

لم يكن واضحًا التحرك نحو تأسيس دولة عربية مستقلة ليمثل قضية ذات اهتمام شعبي كبير بين العرب. من المؤكد أنه ظهرت في بيروت وبعض الأجزاء الأخرى من بلاد الشام من حين لآخر منشورات تطالب باستقلال هذه المنطقة وتعليم العربية كلغة رسمية فيها ولكن تلك الحركة تلاشت في عام ١٨٨٥.

خلال السنوات الأولى من هذا القرن، وعندما تشكلت حركة تركيا الفتاة للقضاء على ضعف الإدارة العثمانية في المجال الدولي والمحلي ومن أجل إعادة دستور مدحت لعام ١٨٧٦، عمل العرب معهم طالما أن مشكلة الطرفين الرئيسية هي النظام الموجود. وبنفس الطريقة التي افترض فيها الحسين في وقت لاحق بأن الخلاف العربي – الإنكليزي سيحل حالما تنتهي المشكلة القائمة. كذلك فشل العرب في الاتفاق حول موقفهم بعد استعادة الدستور. فإضافة إلى تأييدهم العام لرفاقهم الأتراك في مقاومة الفساد ورفض استيلاء القوى الأجنبية على المناطق التركية والفشل التام للنظام الحميدي، كان العرب أيضًا يأملون باستعادة مكانة اللغة العربية. إذ جعل عبدالحميد بعد دستور ١٨٧٦ اللغة التركية لغة رسمية في البلاد ومنع استخدام اللغة العربية في المحاكم والدوائر والمدارس العالية ودواوين

الحكومة. وقد جعل ذلك الأمور صعبة في وجه العرب الطموحين الذين يشعرون باستمرار أنهم لم يستفيدوا عكس الأتراك. واعتبر ذلك أيضًا إهانة كبيرة حيث امتعض العرب أن ترفع التركيةَ لمقام أعلى من لغة القرآن الكريم.

وفي الغالب كان العرب من أعضاء حركة الإصلاح هم من البرجوازية السورية بزعامة صباح الدين، ولكن حتى قبل قيام ثورة ١٩٠٨، لم يتفق العرب مع أعضاء تركيا الفتاة حول موضوع استقلال الولايات العربية. فقد شكل صباح الدين حزبًا ينادي باللامركزية، ولكنه لم يكن أبدًا زعيمًا نشيطًا، ولا يمكن وصفه بأنه يقود حركة شعبية. وقد تلاشى حزبه رغم أن خلافه مع جمعية الاتحاد والترقي حول الاستقلال يجب أن يكون نذيرًا بالذي سيأتي. وفي الآخر اتخذ صباح الدين موقفا إلى جانب من انجرف مع الثورة المضادة وساند عبدالحميد في محاولته الفاشلة لاستعادة سلطته الفعلية في نيسان ١٩٠٩.

كانت تلك هي الحالة بين العرب والجمعية إبان اندلاع ثورة تركيا الفتاة. لم يقرر في الواقع أي شيء. والكل كان يتوقع حصول الأفضل بعد هذا الحدث. وبالنسبة إلى الذين يرون ما تحت السطح، هناك إشارات تنبئ بما سيحدث. وسرعان ما انقلب حماس العرب الذي تفجر عقب إعلان الدستور إلى خيبة مقرونة بالغضب.

لقد أحدث إعلان الدستور في تموز ١٩٠٨، مشاهد من الفرح الانفعالي في شوارع العاصمة التركية وبدا للعديد من المراقبين أنه يبشر باقتراب نهضة العرب. وكان بالنسبة للعديد من الناشطين العرب نقطة تحول في صراعهم من أجل الاستقلال أو في الأقل تشكل موقفا من المساواة، وهم الآن ينتظرون من الجمعية تحقيق وعودها التي قطعتها في اجتماع باريس في السنة الماضية. إلا أنه كما لاحظ أحد المراقبين: "إن المبدأ الأساسي للدستور الجديد هو الانصهار العرقي الذي

ينكر أي أمل بالاستقلال اللغوي أو الثقافي، هذا دون ذكر الأمل بالحرية السياسية التي فقدها العرب تماماً في غمرة الاضطراب الذي أعقب نهاية العهد الحميدي".

كان طبيعيًا أن يشعر العرب والجمعية في البداية بالفخر لنجاحهم في القضاء على المشكلة القائمة وإنهاء السلطة الأوتوقراطية حيث كان هناك شعورًا صادقًا بالأخوة داخل حدود الإمبراطورية. إلا أن العرب كانوا يفهمون هذه الأخوة على أنها الاشتراك مناصفة بالحكم وهذا غير ما تتصوره تركيا الفتاة عن مستقبل الإمبراطورية. فبعد تغيير نظام الحكم في اسطنبول، بدأ العرب بالعودة من منافيهم الاختيارية في العواصم الأوروبية، وفي ٢ أيلول شكلوا جمعية (الأخوة العربية العثمانية) بهدف (توحيد جميع الأعراق في الولاء إلى السلطان ورفع المستوى المعيشي في الولايات العربية على قدم المساواة الحقيقية). وقد تشكلت جمعية الأخوة بمباركة تامة من الجمعية وتشير أهدافها في هذه المرحلة على الأقل إلى أن هدف العرب هو الحصول على اعتراف أكبر بوحدتهم وثقافتهم داخل إطار الإمبراطورية. وأجلت المطالبة بالاستقلال إلى وقت آخر. وأحد أهم الأهداف الرئيسية لجمعية الأخوة على سبيل المثال هو استعادة مكانة اللغة العربية داخل الولايات العربية في الدولة العثمانية.

إن ما حصل للعلاقات بين تركيا الفتاة والعرب جاء إلى حد ما نتيجة لردود فعل الدول الأخرى على الأحداث في تركيا. فرغم الاعتقاد الظاهر للدول الأوروبية من أن جرعة من الليبرالية قد تكون شيئًا مفيداً لتركيا عبدالحميد، إلا أنها استمرت بشكل دائم بعملية قضم حدود الإمبراطورية عقب إعلان الدستور. وفي تشرين الأول ١٩٠٨، أعلنت بلغاريا استقلالها التام عن تركيا في حين ضمت النمسا البوسنة والهرسك إليها وتوحدت كريت مع اليونان. إضافة إلى ذلك، كانت هناك اضطرابات مستمرة في اليمن البعيدة والمتعذر السيطرة عليها. وإدراكا منها أن الحركات الانفصالية هي علف الدول الاستعمارية الجائعة للأرض على الدوام،

قلبت الجمعية مواقفها من التسامح مع الحركات العربية أو لنفس السبب مع الحركات غير التركية / غير العثمانية.

إلا أنه قبل ذلك، كان قد حصل أول تحرر من الوهم والشك وازداد اليقين بأن تركيا الفتاة قد تحولت نحو الاتجاه التركي وليس العثماني. ففي الانتخابات الأولية لمجلس النواب التركي، ضمن الأتراك لأنفسهم في عملية تلاعب، غالبية كبيرة، من مجموع (٢٤٥) نائبًا، حيث انتخب (١٥٠) مرشحًا تركيًا و(٦٠) عربيًا فقط، في حين من مجموع سكان الإمبراطورية الكلي والبالغ (٢٢) مليون نسمة، كان هناك (٧,٥) مليون تركي و(١٠,٥) مليون عربي، وحصل الأمر نفسه في مجلس الشيوخ حيث أعطيت للعرب ثلاثة مقاعد من مجموع (٤٠) مقعد.

وفي غضون تسعة اشهر، تخلوا عن الادعاء والتظاهر وتم حظر جمعية الأخوة وجميع المنظمات غير التركية / غير العثمانية. كان الحزب العربي الآخر، هو الحزب الليبرالي الضعيف الذي يضم في غالبيته أعضاءًا سوريين يمينيين، حيث حطموا حزبهم في الآخر بدعمهم للثورة المضادة الفاشلة في نيسان عام ١٩٠٩. وكما حصل عند إعلان دستور ١٨٧٦، سمحت الجماعة الحاكمة لتعزيز القومية العثمانية التي تنسخ جميع الأحزاب الوطنية الصغيرة، والواقع أخذت القومية الطورانية أو التركية الموحدة بالانتشار بشكل واسع في أوساط تركيا الفتاة. وتفشت الإشاعات عن عودة الآلهة الوثنية (كالذئب الأبيض) الذي يتميز بحضوره القوي في التاريخ الحربي لتركيا الآسيوية. ولم تكن هذه المعتقدات سوى شيئًا بغيضًا لغالبية مسلمي الإمبراطورية الملتزمين،

أجبرت الحركة العربية أن تختفي تحت السطح، وأدركت أنه مع استلام جمعية الاتحاد والترقي للسلطة، لم يتغير شيء لهم عن عهد عبدالحميد. أدى الانقلاب المضاد في ١٩٠٩ إلى فرض القانون العرفي مدة سنتين، لذلك لم يأخذ الدستور دوره. كان السبيل الوحيد أمام العرب هو العمل من خلال المنظمات

السرية والتي اتخذت اتجاهين رئيسيين: النوادي العلمية والأدبية من جانب، والتي أصبحت واجهة للأفكار القومية، ومن جانب آخر كانت هناك الجمعيات السرية كالقحطانية. والتي استقطبت أنصارًا من الضباط العرب، علمًا أن العرب يشكلون ثلث الجيش العثماني، حتى بعد تدهور العلاقات العربية - التركية. وقد سعت هذه الجماعة من اجل تأسيس كيان سياسي شبيه بالنمسا - المجر، حيث تتحد دولتان منفصلتان تحت قيادة ملك واحد.

كان الأتراك يدركون المشاعر القومية المتزايدة في المناطق العربية كما هو الواقع لدى الشعوب الأخرى كالأرمن. وبدلا من السعي لتسوية الموضوع بالتفاوض، فرضت تركيا الفتاة قيودًا لم يسبق لها مثيل وتقلصت السلطة الإمبراطورية بشكل كبير. وقد أغلقت المدارس العربية وفرضت التركية كلغة رسمية وحيدة في الإمبراطورية وأصبح الحديث عن الاستقلال العربي غير مشروع. وجراء هذه الضغوط، عاد العديد من الزعماء، حفاظًا لسلامتهم، إلى ملاجئهم السابقة في أوروبا حيث استأنفوا ثانية عملهم ضد النظام في اسطنبول. وفي منافيهم أبدوا شيئًا من الرضا عن نشاطات الحركات الانفصالية داخل الإمبراطورية، خصوصًا نشاطات الأمام اليمني يحيى. كذلك ظهرت بعض الآراء حول الحسين بأنه زعيم وطني وذو هيبة ومكانة كبيرة، إلا أنها انتهت بعد تدخله المسلح بجانب الأتراك في القصيم وعسير.

وفي عام ١٩١٢، بدا أن القومية العربية ستهيمن ثانية على الأحداث وذلك مع استلام حزب الائتلاف (ائتلاف حزبي السلام والحرية) المناوئ للجمعية، للسلطة في تركيا. فقد استلم الحكم في وقت كان فيه الإحباط العربي والتحرر من الوهم في ذروته، كما كشف عن ذلك رائد في الجيش الهندي يدعى أل. إن. ئي. برى، عندما زار دمشق في عام ١٩١١، حيث استذكر بعد وصوله إلى مدينة الواحة المقابلة التالية:

"خفض أحد الشباب السوريين صوته وسألني بهمس: متى ستأتون أيها البريطانيون لتحرير بلدنا من الأتراك؟ وقد أصابني الذهول وقلت: ماذا تعني نحرر بلدكم؟

أجاب: "إننا نفضل أن نموت على أن نبقى تحت حكم الأتراك، إن وقت استقلالنا لقريب".

لم يتوفر لحزب الائتلاف الوقت لتجسيد سياساته تجاه القضية العربية، حيث أزيح عن السلطة بانقلاب من قبل الجمعية في كانون الأول ١٩١٣. ادعت الجمعية أن حزب الائتلاف قد فشل في تسوية المشاكل الداخلية للإمبراطورية، وظل متردداً خلال حرب البلقان المأساوية الأولى. ومع انقلاب كانون الأول، خرجت تركيا الفتاة من الظل حيث ظلت منذ إعادة الدستور في عام ١٩٠٨، وتسلمت السلطة في الحكومة العثمانية. ومنذ هذا الوقت لم تنفصل عقيدة الجمعية عن السياسة العثمانية. مع ذلك لم تكن هذه التغييرات في قمة السلطة تعني بالنسبة للعرب سوى الشيء القليل، حيث لم تلبِّ أبسط طموحاتهم.

ومع استلام الجمعية للسلطة، تطور اتجاه عنيف نحو العرب. ورغم أنه قد سمح للجمعية الوطنية العثمانية في عقد مؤتمرها في بيروت في عام ١٩١٢، كنوع من التهدئة للمشاعر العربية، إلا أن تركيا الفتاة قد رفضت جميع المطالب التي تمخض عنها المؤتمر وقامت بإلقاء القبض على عدد من أعضاء الأحزاب العربية في بيروت. ونتيجة لذلك أغلقت الأسواق أبوابها وصدرت الصحف بحواش سوداء بارزة كإشارة لاستياء العرب من الاستبداد التركي. وبدا أن الأمور آخذة في التحسن مع إطلاق الوعود باللامركزية والتمثيل المتزايد للعرب في الجمعية الوطنية، رغم أنه ليس لهذه الجمعية أي دور في الشؤون الداخلية تحت ظل الحكومة الثلاثية. وعندما أعلن في الآخر القانون الذي طال انتظاره ويقصد به

اللامركزية أو قانون الولايات في آذار ١٩١٣، لم يحقق ما كان متوقع منه، واعتبر وسيلة لإقامة نظام نابليوني يمحو أبسط أشكال الاستقلال الموجود. يوفر هذا القانون نظام إقليمي موحد للولايات ويركز سلطة أقوى على حكامها من المركز. وقد دعا الطلبة الغاضبين على هذه الازدواجية الظاهرة، حزب اللامركزية في الإدارة العثمانية لعقد مؤتمر لمناقشة الشؤون العربية. تأسس هذا الحزب في القاهرة خلال عام ١٩١٢، وهو يشكل مركز استقطاب للمشاعر والنشاطات العربية.وبتحديده لأهدافه بأنها تحقيق اللامركزية العثمانية، أبقى الباب مفتوحًا للتفاوض مع الأتراك. وفي حزيران ١٩١٣، دعي لعقد مؤتمر في باريس بموافقة الحكومة الفرنسية التي هيأت مكانًا للاجتماع وقدمت شيئًا من الدعم. وقد استغل الفرنسيون حاجة تركيا لمنحها قرض مؤجل في الضغط على جمعية الاتحاد والترقي لإرسال ممثلها إلى المؤتمر. أرسلت الجمعية سكرتيرها مدحت بك الذي أقيمت معه على ما يبدو علاقات ودية. ومن الجدير بالذكر، لم تظهر الحجاز في المؤتمر.

وبعد انتهاء المؤتمر، عادت الوفود إلى العاصمة التركية والتقت عند وصولها في ١٨ آب ١٩١٣ بوفد رسمي. وتظاهرت الجمعية بمساندتها لمطالبهم واقتنعت الوفود بأنها تشهد تغييرًا حقيقيًا نابعًا من الصميم وأن اللغة العربية ستصبح اللغة الرسمية في الولايات العربية من الإمبراطورية وسيمثل العرب أنفسهم في مجلس السلطات وسيكون لهم رأيًا أكبر في إدارة الولايات وسيجري إصلاح نظام الحكم في الإمبراطورية. وقد كتب البيان الرسمي الذي جسد هذه الوعود في نفس الشهر، إلا أنه حين أعلن، سرت موجة من الغضب في أوساط العرب. إذ تحولت جميع الوعود إلى إيماءات غامض لا معنى لها وشعروا أنهم قد خدعوا. واستمر الموقف يتصاعد نحو تأزم خطير متزايد.

* * *

الفصل السادس

الحسين وظهور تركيا الفتاة

▪ رغم فقدان الحسين لحليفه الأكبر في البلاط باسطنبول، إلا أنه واصل أسلوبه التقليدي القوي في مواجهة الضغوط الكبيرة لمناصر الجمعية في الحجاز والعاصمة التركية. وقد كان أسلوبه ناجحًا وذلك لأنه سعى وحتى انقلاب تركيا الفتاة في ١٩١٣ إلى الاحتفاظ بأصدقائه ذوي المناصب الرفيعة في البلاط والباب العالي. لقد خدم الحسين خلال السنوات القليلة من ولايته الإمبراطورية بإخلاص، حيث قاد الحملات باسم السلطان. وانشغل كما فعل جميع الأمراء الذين سبقوه في لعبة سياسة النفوذ مع الوالي. ولكن خلال تولي الحسين للإمارة أضيف جانب آخر إلى الصراع التقليدي. فإضافة إلى طموحه بجعل أمير مكة هو القوة المسيطرة، فإنه قاوم بشدة امتداد نفوذ الاتحاديين والدستوريين بشكل عام، وفي الحجاز بشكل خاص. كانت تحكم تركيا وحتى انقلاب ١٩١٣ حكومات تضم بين صفوفها عناصر من الحرس القديم، رغم أن السلطان معين من قبل الجمعية. كان لتركيا الفتاة تأثيرًا متزايدًا كبيرًا إلا أنها لم تكن هي الحكومة. لذلك استطاع الحسين أن يستمر بشكل مشروع في خوض صراعه المحلي من أجل السيادة في الحجاز في حين يبقى مخلصًا للإمبراطورية بل ويقاتل بالنيابة عنها. لهذا السبب

لم يكن يميل إلى القوميين العرب حيث دحر قوتين عربيتين هما ابن سعود والإدريسي باسم تركيا. وبعد انقلاب ١٩١٢ دخل في صراع مباشر مع تركيا الفتاة، حيث لم يجد مبررًا يجعله مواليًا للإمبراطورية وهي بأيدي الهراطقة والطورانيين وأولئك الذين يريدون تحديث الإمبراطورية على حساب الوضع الذي يعتبروه جزءًا منه.

ازداد تأثير الحسين باطراد منذ عام ١٩٠٨، خصوصًا وأن الولاة لا يمكن أن يعتمدوا على اسطنبول عندما تصل الأمور إلى نقطة المواجهة. لذلك عندما عاد الحسين من حملة عسير، التقى فريقًا بالقرب من الطائف يمثل حكومة الوالي. أبلغ هذا الفريق الأمير سرًا أن الشريف ناصر بن محسن قد أشاع خلال فترة غيابه خبرًا كاذبًا مفاده أن القوات العثمانية قد دحرت وأن الأمير قد قتل. لم يعر الحسين مثل هذه الإشاعات التافهة أي اهتمام جدي إذ أن حضوره وحده يكفي لدحضها. إلا أنه أصيب بالدهشة لوجود الشريف ناصر بين فريق المستقبلين الذي كان على رأسه الوالي حازم بك. طلب الحسين على الفور إبعاد ناصر، إلا أن الوالي رفض طلبه بحجة أن ناصر هو أحد أفراد حاشيته. وقد أصر الحسين والوالي يردد: "أنا ممثل السلطان وأن هذا العمل يسيء للسلطان نفسه". وقد أخرج هذا دائرة الصراع لأول مرة إلى المرأى العام، والحسين لا يمكن أن يدع هذا التحدي يمر بهدوء فأجاب دون أي التزام بالبروتوكول أو الدبلوماسية: "هل تركتم ناحية من السلطان لم تدنسوها؟ أنا ممثل السلطان هنا لا أنتم؟".

وعندما وصلت أنباء هذه المشادة إلى اسطنبول كان رد الفعل غاضبًا. كان يشعر العديد من عناصر تركيا الفتاة أنه يجب وقف التحدي المستمر من جانب الحسين قبل أن يستفحل خطره. وكما جرى في السابق، أذل الحسين السلطات التركية بتغييره الولاة. طلب الأتراك من الحسين تقديم اعتذار، إلا أنه أجاب أن الوالي هو الذي يجب أن يعتذر لأن أفعال ناصر كانت خيانية بشكل واضح للدولة

العثمانية. وفي اسطنبول سعى وزير الداخلية عادل بك، وهو من أكثر الوزراء ولعًا بالأمور الإدارية الاستثنائية، لإصدار بيان بخلع الحسين وتعيين علي حيدر محله. إلا أنه كان لوزير الحربية شوكت باشا تحفظات جدية حول ميول علي حيدر نحو الإنكليز وكان يخشى من ردود فعل البدو في حالة اتخاذ أي إجراء ضد الحسين. كانت تركيا في ذلك الوقت مشغولة بحرب شاملة ضد الإيطاليين في شمال أفريقيا ومن الصعب عليها فتح الجبهة الجنوبية ليدخل إليها الإيطاليون من أرتيريا. ونتيجة لذلك استدعى عصمان بك قائد الجندرمة في الحجاز، علي أكبر أبناء الحسين، وأبلغه بنقل اعتذار رسمي عن أفعال الوالي. وفي هذه الظروف لم يكن أمام حازم بك أي مبرر للبقاء وسرعان ما تم نقله. وعيّن محله أكثرهم مرونة وهو منير باشا أمر موقع الحجاز.

وكما كان الأمر مع الولاة السابقين، حصل ما يشبهه مع (الاتحاديين) أو (نوادي تركيا الفتاة). كانت هذه النوادي بالنسبة إلى الحسين تجسيد حي للشر القادم، لذلك قاومها بضراوة. كان الضغط الذي مارسه شديدًا بحيث أنه لم يعد يسمع في عام ١٩١١ أي صوت لهذه النوادي. ولإظهار ثقته بالتأييد الذي يحظى به من قبل شعب الحجاز، سمح لابنه عبدالله بالاشتراك في انتخابات البرلمان الجديد المشكل بموجب دستور عام ١٩٠٨ الذي يزدريه بشدة. كسب عبدالله وزميله حسن شايع مقعدين أثارا احتجاجات عنيفة من قبل أعضاء الجمعية في الحجاز. فقد احتجوا بكون عبدالله لم يبلغ السن القانونية وأن حسن لا يقرأ ولا يكتب. مع ذلك ثبتهم البرلمان التركي. وفي انتخابات عام ١٩١٢، عاد عبدالله وفيصل وهما نائبان عن مكة وجدة.

أخذ الصراع تدريجيًا يتمحور حول قضيتين أساسيتين، اختبرتا قوة الطرفين، الأولى تمديد سكة حديد الحجاز إلى مكة، والثانية تطبيق قانون الإصلاح الإداري الجديد ونعني به قانون الولايات.

حال وصول خطوط سكة الحديد والتلغراف إلى المدينة المنورة في عام ١٩٠٨، اتخذ الإجراء بفك ارتباط المدينة من الإدارة العامة للحجاز. فبينما كان الحسين خارجًا في إحدى حملاته ضد بعض المتمردين من البدو، أعلن محافظ المدينة المنورة تغيير الوضع القائم. حيث ستكون المدينة من الآن مرتبطة بشكل مباشر بوزارة الداخلية وليس بولاية الحجاز. وبذلك أصبح نائب الحسين في المدينة دون وظيفة. أبلغ عبدالله والده بالموضوع حيث أسرع بإبراق احتجاجه الشديد إلى اسطنبول. وجاءه الجواب ليوضح أنه سوف لن يفقد أي من حقوقه التقليدية أو امتيازاته. وإن هذا مجرد إصلاح إداري يعكس تطور الاتصالات. وهذا ما عزز مخاوف الحسين من أن تمديد سكة الحديد إلى مقر حكمه في مكة سيشذب دائرة سلطته في الآخر لصالح الأتراك، وعليه من الآن أن يتخذ كل إجراء ممكن لمنع تمديد خط السكة هذا.

كان الحسين يستطيع دائمًا وحتى انقلاب تركيا الفتاة في عام ١٩١٣ أن يخوض معاركه على جبهتين: وذلك بتقويض سلطة الوالي في الحجاز وبالاستفادة من أصدقائه رفيعي المستوى من الحرس القديم في الحكومة التركية. ومع مجيء الثلاثي (أنور - طلعت - جمال) إلى السلطة إضافة إلى رئيس الوزراء المتشدد شوكت باشا، تغير الوضع. لم يكن شوكت يحب التسامح مع الأعمال المضادة للسياسة والسلطة الاتحادية. والحسين من جانبه لا يمكن أن ينسى أن شوكت هو الذي زحف على اسطنبول في عام ١٩٠٩ وقمع ثورة عبدالحميد المضادة. وقد كشفت تركيا الفتاة عن أسلوبها في العمل، وذلك عند اقتحام عناصرها خلال الانقلاب، البرلمان وهم مسلحون، وقيام أنور بإطلاق النار على أحد أعضاء البرلمان في فناء هذه المؤسسة الوليدة ذات العمر القصير.

خلال فترة حكم وزارة شوكت، صدر قانون الولايات في ٩ آذار ١٩١٣ وقانون ثانٍ في ٢٦ آذار "هدفه إنشاء إدارات شبه مستقلة يعين والٍ عليها من اسطنبول

يكون على رأس مجلس محلي منتخب... إن هدف الاتحاديين من إصدار هذا القانون واضح وهو إلغاء اللامركزية وفي نفس الوقت الاحتفاظ بالسلطة المحلية للحكومة المركزية من خلال الوالي ووزارة الداخلية، وبالاختصار كان القانون يهدف للتوفيق بين الاستقلال المحلي والوحدة القومية. ففي حين تمتلك العناصر المحلية تأثيرًا أكبر في محيط ولاياتها، إلا أن انتخابات المجالس المحلية تهدف إلى تفضيل العناصر المتطرفة على حساب الزعماء التقليديين للمجتمع العربي".

كان شوكت يعرف أنه إذا أراد لهذا القانون أن ينجح فيجب أن يكون له واليًا قويًا في الحجاز. كان الوالي في ذلك الوقت هو منير باشا الذي يعتبر صديقًا للحسين وعرف أنه لا يتعاطف مع الاتحاديين. وقد تقلصت خلال فترة حكم منير سلطة الوالي. عين الأتراك محله وهيب بك الذي كان يعلن أن القوة هي الوسيلة الوحيدة للتعامل مع الحركة العربية. وقد زوّد وهيب بتعليمات مشددة بأن يضع موضع التنفيذ وبكل حزم قضية مد سكة الحديد وتطبيق قانون الولايات. ولضمان تنفيذ هذه الأوامر دون إبطاء، تم تجهيز الوالي بسبعة أفواج مشاة وكتيبة مدفعية واحدة.

كان هذا أكبر تحدٍ مباشر يتحتم على الحسين مواجهته. ومن الجدير بالملاحظة أن حل هذه الأزمة لم يأت عن طريق القوة. كان الحسين يسعى لإقناع البدو بمعنى إرسال والٍ كوهيب إلى الحجاز بالشكل الآتي: "إذا ما تم ربط مكة مع المدينة بخط سكة الحديد هذا، فسيقضي على البدو. كما أن سهولة نقل القوات من مكان إلى آخر بفضل وجود السكة، سيعني استغناء الأتراك عن شراء السلام من البدو بالذهب. لذلك فأمل البدو الوحيد هو أن يخوض الأمير معركتهم، علمًا أنه قد نجح حتى الآن في إقصاء الولاة السابقين. وشرح لهم أنه إذا تم تطبيق قانون الولايات فسوف يحرمون من وجود أمير لهم ذي تأثير، لذلك عليهم قتال المشاة والمدفعية التركية من أجل حماية أسباب رزقهم". وإزاء هذا المنطق، ضمن

الحسين مساندة البدو التامة. وخشي أيضًا أهالي المدن الحجازية من أن يؤدي فقدان مكانة الحجاز الخاصة إلى إدخال الضرائب إلى مكة والمدينة وازدياد معدلات السخرة.

لم يكن وهيب مستعدًا لهذا المستوى العالي من العنف الذي كان بانتظاره حيث قطع البدو الطرق وأماتوا المدن جوعًا. كانت قوات وهيب التقليدية عاجزة أمامهم. كما أن رئيس شرطته قد اختطف على الطريق بين مكة وجدة. وقد أبرق وهيب إلى اسطنبول يطلب خلع الحسين فورًا. إلا أن الأوضاع قد تغيرت في العاصمة التركية حيث اغتيل شوكت وأصبح سيد حليم باشا رئيسًا للوزراء وهو صديق حميم للحسين. وبينما سعى الاتحاديون لمساندة وهيب، ناور سيد حليم دون كلل لحماية حليفه في مكة. وقبل أن تتطور الأحداث وتصل لاستخدام القوة، استجاب رئيس الوزراء قائلاً أنه سيكتب إلى الحسين وينذره بشدة. وقد سجل علي حيدر الأحداث التي أعقبت ذلك، إذ كانت له مصلحة قوية لكونه البديل المرشح للحسين في رؤية نجاح مساعي وهيب:

لم يكن لهذا الإنذار أي تأثير على الحسين، وأخذ الوضع في الحجاز يسير من سيء إلى أسوأ. وعليه قرر أنور بك العمل، واتخذ الإجراءات بإرسال فوج من الجند من سميرنه (أزمير) ليتمركز في الحجاز ويعمل على تنفيذ إجراءات خلع الحسين. وعندما سمع شروق صولو محمد - وهو عضو في مجلس الوزراء - بهذه الحملة العسكرية، توجه فورًا إلى رئيس الوزراء للاحتجاج. إلا أن سيد حليم أنكر علمه بهذه الحملة، وتملكه الذعر من هذا الاحتمال. ثم التقى طلعت وسأله إن كان له علم بأي شيء من هذا القبيل. أجابه طلعت: "بالطبع لدي علم كامل بهذا وإني متفق مع رأي أنور وأعتبر الحملة شيئًا ضروريًا".

والتقى كلاهما بأنور، حيث أوضح لهما سهولة العمل الذي يعتزم تنفيذه، وأعربا عن دهشتهما لقلق رئيس الوزراء من هذه الفكرة. إذ أوضح سيد حليم

قائلاً: "إننا نريد من الحكومة الفرنسية قرضًا بمبلغ (٣,٥٠٠,٠٠٠) ليرة، وإذا ما وصلهم خبر هذه الحملة العسكرية المتوقعة، فسرعان ما يستنتجون بأننا على وشك شن حرب أخرى وبعد ذلك سيرفضون منحنا القرض. إنني التمس منكم وقف هذه الحملة والانتظار لحين استلام الأموال. بعد ذلك فقط نستطيع العمل كما تشاؤون، لذلك كانت القضية قضية أموال. وقد ساند العديد من الوزراء رأي رئيس الوزراء. إلا أن بعضًا منهم أشار إلى أنه إذا ظل الحسين أميرًا، فسيجلب هذا الكارثة إلى الحكومة التركية. وحدث نقاش كثير، إلا أنني رفضت الانحدار إلى مستوى الدسائس من أجل إسقاط الحسين".

ربما يكون أو لا يكون القرض الفرنسي خدعة من جانب سيد حليم باشا. مع ذلك فشل الأتراك في الحصول على القرض، بسبب وضعهم المالي الميئوس منه، وبسبب حذر المصرفيين الأوروبيين من المخاطرة بأموال أخرى في ظل وضع مالي كهذا. ومهما يكن، فقد أنقذ القرض سلطة الحسين: حيث تخلى الاتحاديون عن مطالبهم. وأرسلت برقية إلى مكة وتليت على الملأ في أحد الجوامع تؤكد للأمير وشعبه أنه سوف لن يجري تمديد سكة الحديد في هذا الوقت وسوف ترفع جميع القيود المفروضة على مؤسسة الإمارة أو شخص الأمير. وقد أعاد هذا الأوضاع إلى طبيعتها السابقة، وأنقذ الحسين ثانية من قبل أصدقائه في البلاط. والمهم تخلى الثلاثة عن سكة الحديد التي اعتبروها أمرًا حيويًا.

بعد ذلك قدمت تركيا الفتاة عرضًا وسطًا طويل الأمد إلى عبدالله لتسوية المشاكل في الحجاز. فإذا وافق الحسين على مد السكة، فسيحصل على نصف عوائده وتكون له السيطرة التامة على القوة البشرية المطلوبة لبنائها وسيحصل على (٢٥٠,٠٠٠) جنيه لتوزيعها على القبائل لإنهاء أي استياء قد يسببه قرار إتمام مد السكة. وكتعويض إضافي، تكون للحسين الإمارة مدة الحياة وتبقى وراثية

في عائلته إلى الأبد. وقد أبلغ طلعت عبدالله: "إنه إذا رأى والدك أن هذا ممكنًا فإننا سنسانده، ولكن إذا رفض فإن عليه أن يرحل".

اعتبر الحسين العرض رشوة ورد ببرقية غامضة مبهمة واعدًا إياهم أن عبدالله سيعود لاستكمال المفاوضات. لم يكن لديه شك حول المعنى الحقيقي لمد السكة أو حول قيمة أية وعود، بعد أن يتمكن الأتراك من إرسال قواتهم مباشرة إلى مكة. أرسل عبدالله ليس إلى اسطنبول هذه المرة بل في مهمة ضد القبائل المتمردة لإطالة أمد المفاوضات من أجل كسب الوقت. وإبان وصول عبدالله في الآخر إلى العاصمة التركية، قتل الأرشيدوق فرانسيس فرديناند وزوجته الأوروبية، وأصبح أمام الأتراك مهمة أكبر من موضوع مد سكة حديد الحجاز.

* * *

الفصل السابع

اندلاع الثورة العربية

١٩١٤-١٩١٦

▫ في شباط، وفي الشهر الذي سبب فيه وصول وهيب باشا كوالٍ جديد للحجاز عصيانًا مدنيًا، حدث لقاء بالصدفة له أهمية كبرى في الأحداث اللاحقة. كان الشريف عبدالله، نجل الحسين الثاني، في القاهرة في طريقه إلى اسطنبول لحضور جلسات البرلمان التركي بصفته نائبًا عن مكة. كانت زيارته تأتي في الظاهر إلى مصر كرد لدعوة مجاملة من قبل الخديوي الذي كان حاكمًا ذا سيادة في ظل السلطان التركي. وخلال الاستقبال، دعا المعتمد البريطاني في مصر اللورد كيتشنر، عبدالله لمناقشة شؤون الحج الذي يلقى اهتمام الإمبراطورية البريطانية بحكم كثرة رعاياها المسلمين.

لذلك لم يفاجأ اللورد كيتشنر عندما رد عبدالله زيارة المجاملة في نهاية الأسبوع الأول من شهر شباط. أشار عبدالله خلال المحادثات التي تلت ذلك إلى العلاقات المتوترة بين والده وجمعية الاتحاد والترقي وبشكل ألمح فيه إلى المؤامرات التركية لإزاحة والده عن السلطة. وقد غامر عبدالله بحذر وسعى للانتزاع من كيتشنر الموقف الذي قد تتخذه الحكومة البريطانية فيما لو تطور النزاع بين

الحجاز والأتراك. أجاب كيتشنر أن بريطانيا تعتبر تركيا دولة صديقة وأن بريطانيا قد دخلت الحرب في القرم في سبيل وحدتها لذلك من غير الممكن التدخل ضد الباب العالي. سأل أنتوني نتنك سؤالاً مثيراً: "إنه إذا كان هذا الكلام صحيحًا، فماذا كان يفعل كيتشنر في مصر وفي منصب ذي صلاحية كبيرة وتحت عنوان غريب هو المعتمد البريطاني؟"

ليس من الصعب إدراك لماذا قام عبدالله، الذي كان دائمًا من أكثر الهاشميين طموحًا وعملا في الحجاز، بهذه المخاطرة الكبيرة بزيارته لكيتشنر وتوجيه استفسارات تحريضية وإن كانت مبطنة، حول احتمال نشوب ثورة للعرب في الحجاز. كان الوضع القوي الذي أسسه الحسين بنفسه يتعرض دون شك للخطر من قبل جهات عديدة في وقت واحد. فقانون الولايات سيحجمه تمامًا ويحيله إلى رئيس صوري يخضع للسيطرة التركية، وثانيًا كان وصول الرجل القوي العدائي وهيب باشا يؤذن بظهور خط متشدد جديد في جمعية الاتحاد والترقي. وثالثًا كانت هناك مؤامرة أنور لإزاحة الحسين بالقوة عن طريق إنزال عسكري من سميرنه (أزمير) والذي تفادى الحسين خطره بتدخل رئيس الوزراء حليم. وأخيرًا كان هناك الخطر الاستراتيجي لسكة حديد الحجاز التي من المقرر أن تمد لتصل مكة. والواقع كانت إقامة عبدالله في القاهرة استراحة قصيرة في الرحلة التي تقله إلى اسطنبول لمقابلة طلعت حول الموضوع الأخير. كان يبدو واضحًا أنه لا يمكن أن تستمر سلطة والده في التوسع دون أن يتم ضبطها. كما أنه من المؤكد استحالة تصور تحدي الحجاز للإمبراطورية العثمانية. ربما كان عبدالله يأمل أن تضع بريطانيا ثقلها إلى جانب انفصال الأطراف بنفس الطريقة التي ساندت فيها روسيا بلغاريا عام ١٩٠٨، ولكن الواضح أيضًا أن عبدالله لا يرغب بأي شكل من أشكال السيطرة غير الإسلامية التي قد تواجه عداءاً مباشرًا من العالم الإسلامي. كانت اتصالاته الأخيرة تشير إلى أنه يبحث عن مصدر للدعم المادي

بشكل أموال وأسلحة وتلويح بالعصا الغليظة من جانب إحدى القوى العظمى لدعم حركة الانفصال أو على الأقل حماية الوضع الذي بناه الحسين لنفسه في الحجاز. إلا أن فقدان بلغاريا شيء، وفقدان المدن المقدسة شيء آخر بالنسبة للأتراك. حيث سينطوي ذلك على شيء من الإذلال السياسي لا يمكن تصوره في دولة مسلمة، فيها السلطان هو الخليفة ويحمل لقب "حامي الديار المقدسة".

وعند عودة عبدالله في نيسان ١٩١٤ بعد حضوره جلسات المساومة في اسطنبول، دعي ثانية إلى دار الاعتماد البريطاني، إلا أن كيتشنر قد تلقى هذه المرة رسائل احتجاج من الأتراك تعبر عن استنكارهم لهذه الاجتماعات. وبعد زيارة المجاملة، لم يلتق كيتشنر بعبدالله ثانية وتركه إلى سكرتيره الشرقي السيد (والسير لاحقاً) رونالد ستورز. وبسبب شعور عبدالله بالإحباط في مساعيه مع الجمعية، أصبح أكثر صراحة مع ستورز وقد سجل ستورز الزيارة بالشكل التالي:

"وبعد سلسلة من الأسئلة الاستدراجية، سئلت بصراحة عما إذا كان بإمكان بريطانيا أن تزود الشريف ببعض المدافع الرشاشة. وعندما سألته عن غرض استخدامها أجابني: للدفاع، وأضاف بأنه سيكون لإحباط هجوم الأتراك. لم أكن أحتاج لتعليمات خاصة لإبلاغه بأننا لا نفكر في تجهيز أسلحة ستستخدم ضد دولة صديقة. ولم يكن عبدالله يتوقع جواباً غير هذا، وافترقنا على ود".

لقد أدت خيبة الأمل هذه، مع المعاملة القاسية التي تلقاها في اسطنبول إلى وضع عبدالله في حالة يأس أكبر، لأن مجال حركته قد أصبح أضيق. وعند عودته إلى الحجاز، رفع تقريره إلى والده مشيراً إلى تشدد طلعت حول موضوع سكة الحديد، واقترح "إنه يمكن للحجاز بمساعدة العرب في الجيش العثماني في سوريا والعراق وبالدعم الدبلوماسي البريطاني، تحقيق استقلاله عن الأتراك وتكوين الدولة العربية المستقلة الكبرى". كانت وسيلته لممارسة الضغط على الأتراك

والدول العظمى ذكية بشكل مدهش. فقد اقترح اعتقال مجموعة منتخبة من حجاج الإمبراطوريات الأوروبية الكبرى وعدم إطلاق سراحهم إلا مقابل وعد بعدم الوقوف بجانب تركيا في المستقبل. وقد عارض فيصل وعلي - وهما دائمًا أكثر إخوانهم حذرًا - الخطة. إلا أنه تم قبولها في الآخر كخيار احتياطي إذا ما فشل كل شيء مع الأتراك. إذ يجب إيجاد وسيلة للمساومة. وفي الآخر كانت القوة هي التي تجبر الأتراك دائمًا على فعل شيء معين.

تركز اهتمام الحسين في هذا الوقت في العمل على كسب الوقت في حين يقوم بمراقبة شاملة للأحداث في الشمال والغرب. أبلغ عبدالله والده بنشاطات الأحزاب القومية في سوريا والعراق. حيث أدى عبدالله في إحدى زياراته إلى مصر في عام ١٩١٤ يمين الانضمام إلى جمعية العصبة العربية. إلا أن والده ظل شخصية تحوم حولها الشكوك. كانت تنقسم الأحزاب القومية في ذلك الوقت إلى مجموعتين رئيسيتين: الأولى أحزاب القرن التاسع عشر الكلاسيكية التي تستند على اللغة والثقافة كجمعية (عرب المشرق)، والثانية انتفاضات الأمراء العرب في المناطق البعيدة كما في نجد واليمن وعسير. كانت هذه الانتفاضات تمثل محاولة من جانب حاكم تقليدي للتخلص من السيطرة التركية الضعيفة. لم يبد الحسين حتى هذه اللحظة أي اهتمام بالحركات القومية المنتشرة في بلاد الشام والعراق بل إنه خاض معاركا لصالح العثمانيين ضد العرب. وقد رأى البعض بأنه كان يستخدم السلطة العثمانية لبسط سيطرته على جيزانه من الحكام. لذلك كان من الغريب أن يظهر الحسين في هذا الوقت بأنه الناطق باسم القضية القومية. ونظرة دقيقة إلى ظروف ذلك الزمان، تبين أنه ليس من الغريب أن يبلغ عبدالله القوميين السوريين بتحرر والده من الأوهام المبنية على تركيا الفتاة. كما كان معظم العرب أيضًا يرون الحسين بأنه العربي الوحيد صاحب المكانة الدولية المرموقة الذي يصلح أن يكون ناطقًا باسمهم. "إذ كان المفكرون الدمشقيون تعوزهم القوة، ورجال

القبائل في الجزيرة العربية تعوزهم الأهداف السياسية"، هكذا وصف السير جون غلوب حقيقة الوضع، إلا أن أهداف الحسين السياسية كانت محدودة في هذا الوقت.

وعندما اندلعت الحرب، أصبح كيتشنر، الذي كان في ذلك الوقت في إنكلترا، وزيرًا للحربية، ولكن رغم الأحداث الوشيكة في أوروبا، إلا أنه لم ينس اجتماعه السابق مع عبدالله. إن لإخراج الحجاز من الحظيرة التركية أهمية خاصة، لأنه سيعزل القوات التركية في اليمن وعسير، وسيقلل من المخاطر التي قد تتعرض لها الملاحة البريطانية في البحر الأحمر. كانت لدى كيتشنر أحلامًا كبيرة. فقد كتب في آذار ١٩١٥، أنه إذا ما حدث تقسيم لتركيا، فمن مصلحتنا قيام مملكة عربية برعاية إنكلترا، يحدها من الشمال نهرا دجلة والفرات وتضم الأماكن الإسلامية المقدسة الرئيسية وهي مكة والمدينة وكربلاء، وبهذه الأحلام أبرق لستورز:

"في ٢٤ أيلول ١٩١٤

إلى ممثل صاحب الجلالة في القاهرة

من اللورد كيتشنر.

أبلغ ستورز أن يرسل من طرفي مبعوثًا سريًا مختارًا بعناية إلى الشريف عبدالله للتحقق مما إذا كان النفوذ الألماني في اسطنبول سيجبر السلطان رغم إرادته والباب العالي على شن الحرب والأعمال العدائية ضد بريطانيا العظمى وفيما إذا كان هو ووالده وعرب الحجاز سيقفون معنا أم ضدنا".

وفي الآخر تم العثور على مبعوث، تنكر بزي حاج، ونفذ أوامر كيتشنر وأجرى لقاءًا سريًا مع الشريف. ولقيمة التقرير الوصفي لظروف الحجاز في ذلك الوقت، فإنه يستحق أن نورده بالكامل:

شريف مكة

تقرير شفهي للمبعوث (س)

غادر المبعوث (س) السويس في ٥ تشرين الأول ووصل جدة بعد ثلاثة أيام. أبلغني أن تفتيش الكمارك كان روتينيًا، وبإنفاق قرش أو قرشين على أكبر تقدير يمكن إدخال لوازم كبيرة. استأجر حمارًا بجنيهين وغادر جدة في الساعة السادسة ووصل مكة في التاسعة من صباح اليوم التالي، حيث سار طوال الليل (يقضي البغل يومين للوصول، بينما يحتاج الجمل إلى ثلاثة أيام). لم يعثر على فندق للمبيت، بل توجب عليه دفع ثماني جنيهات ليحصل على غرفة في منطقة باب السلام لغرض المبيت فيه خلال حجه. أدى طقوس الحج اللازمة، التي عدها مثيرة للضحك، إلا أنها من الناحية البدنية، تعتبر رياضة جمناستيكية جيدة. كانت الأشياء قذرة إلى حد كبير. أكل لحمًا بنصف دولار وشرب قدح شاي في المقهى التركي، وفي الصباح نهض نشطًا ومستعيدًا قواه وإدراكه. كان الشريف الكبير الحسين وأفراد عائلته في الطائف، فسعى (س) للاتصال بوكيله ويدعى الشريف شرف. ويمارس هذا الممثل جميع المهام التي يجب أن يؤديها الوالي التركي الذي يبدو أنه لا أحد يراجعه بخصوص أية قضية مدنية كانت أم جرمية. وقد تملكت (س) الدهشة لرؤيته الرجال الذين التقاهم وهم مدججين بالأسلحة حتى قمة رؤوسهم حتى ولو كانت ملابسهم غير كافية، ابتداءًا من صاحب المركبة أو الحمار أو البغل. وللوكيل محكمة خاصة يحكم من خلالها في الدعاوى المرفوعة إليه، حيث يمارس نوعًا من العدالة الفورية القاسية. ففي حادث شجار استخدمت فيه السكاكين، تم استدعاء اختصاصي الجروح لتقدير عمق وطول الجرح لتحديد مقدار الغرامة في ضوء ذلك، إذ يطرح مبلغ الجرح الأصغر من مبلغ الجرح الأكبر، وعلى مسبب الجرح الأكبر أن يدفع الفرق. وقع (س) تحت رحمة الوكيل، حيث دعي إلى بيته في تلك الليلة وانضم إلى بقية الأشراف لأداء الصلاة. بعدها جرى جدل سياسي أصيب فيه (س) بالهلع لتطابق أفكار الوكيل السياسية مع مثيلتها

لدى المصريين. واظب (س) على زيارة الوكيل في بيته طيلة ثلاث ليال، بعد ذلك استأجر جملا - قبل أن يشفى من تأثيرات ركوب الحمار - بجنيهين لنقل رسالة إلى الشريف عبدالله في الطائف. ذهب الرسول بأقصى سرعة وعاد بعد ثلاثة أيام وطلب من (س) الانتظار يومين وأبلغه أن الشريف يعرف "من أين جاء". لذلك ظل (س) في مكانه واستمر يزور الشريف المحلي كل ليلة. وعند وصول الشريف حسين إلى مكة اتصل هاتفيًا بالوكيل حول (س)، حيث حصل (س) على إذن بأن يكون من بين أول من يزور الحسين ويقبل أذيال جلبابه. وقد استقبله بعض من أتباعه على مسافة مسيرة نصف يوم. عاد بعدها الوكيل إلى بيته والشريف إلى قصره، وهو قصر كبير بارتفاع أربعة أدوار "على شكل جبل". وفي الآخر أخذ الشريف عبدالله ضيفه (س) إلى غرفة صغيرة، وطلب منه تسليمه الرسالة، حيث أعطاها (س) له. قال عبدالله أنه يعتقد أن السيد ستورز مسلم، وقد أيده (س) بذلك لأسباب تكتيكية. لقد توصل عبدالله إلى تلك القناعة بسبب استشهادات السيد ستورز الكثيرة من القرآن والتلميح بأنه أخوه. دعي السيد (س) بعد ذلك إلى غرفة فخمة وكبيرة حيث تناول طعامه مع الشريف حسين وأبنائه الأربعة. وقد استغرق ذلك فترة الصباح وحتى الثانية بعد الظهر. بعد ذلك طلب منه الشريف عبدالله أن يأخذ قسطًا من الراحة، قائلاً أنه سيعطيه مع شكره الكبير رسالة إلى السيد ستورز. بعد عدة دقائق كان خلالها وحيدًا، قدم إليه أحد الخدم ودعاه إلى غرفة أكثر أناقة في أعلى القصر حيث وجد شريف مكة الكبير جالسًا لوحده. قال له الشريف بعد ذلك: "بني، رغم أني غير مدعو في هذه القضية، إلا أنني مع ذلك سأقول رأيي" (لقد أرسلت الرسالة عن طريق نجله عبدالله). ومضى يتحدث وهو يسير جيئة وذهابًا في الغرفة وأصر على أن يبقى مستمعه جالسًا. قال: "إن للإمبراطورية العثمانية حقوقًا علينا، ولنا حقوقًا عليها. لقد أعلنت الإمبراطورية الحرب على حقوقنا، ولست مسؤولا أمام الله عن إعلانها هذا، لذلك لست مسؤولا

أيضًا أمام الله عن إعلاني الحرب عليها". كان يومىء بيديه عندما يتكلم ثم طوى كم ثوبه وقال: "إن قلبي مفتوح للسيد ستورز، وحتى لو مدت لنا الإمبراطورية تطلب يد المساعدة، فإننا سوف لن نساعد هؤلاء الظالمين. بل بالعكس، إننا سنساعد من يفعل الخير. فهذا هو حكم الله علينا: اعمل الخير للإسلام والمسلمين ولا تحاب أو تخف أحدًا سوى الله". قال (س): "يا إلهي، عليّ أن أطيع ما أسمع". وعندما رأى وكيل الشريف المعاملة الاستثنائية التي يحظى بها (س)، اعتذر منه عن تعاطفه مع الألمان، رغم أنه لا يمتلك أية فكرة عن سبب زيارته. وعند عودة (س) رافقه أبناء الشريف في رحلته مع الحجاج المائة وخمسين، لإيصاله إلى جدة في الظاهر، وفي الواقع، من أجل إصلاح الطريق، وهو الشيء الذي لا يتصوره إنسان". وفي منتصف الطريق بين مكة وجدة، وفي مكان يدعى البحرة، رقد الجميع، وهناك قال الشريف عبدالله: "لقد أعطيت تعليماتي إلى أخي فيصل". أعطى فيصل الوكيل سليمان قابل في جدة رسالة (غير معنونة) داخل ظرف آخر معنون إلى وكيل الشريف في القاهرة. وسلمت الرسالة في الآخر إلى (س) من قبل الوكيل على ظهر مركب ياباني كان قد تأخر يومين في ميناء جدة حيث استولت البلدية على فحم المركب من أجل تشغيل الماكنة التي تزود المدينة بالماء. كان (س) يرى أنه إضافة إلى ميل الزعماء العرب الطبيعي إلى إنكلترا، فإنهم يؤمنون أيضًا باستحالة هزيمتها على يدي ألمانيا. تمثل مصر بالنسبة إليهم نظام الحكم المثالي، وكما لو أن هذا البلد هو الجنة الأرضية. كان يوجد في مكة عدد من الضباط الأتراك و(٣٠٠) جندي فقط. ولم يكن أحد يتصور أن الأتراك سيعلنوا الحرب على إنكلترا والحلفاء. إلا أنهم سمعوا أن تبادلاً بإطلاق النار قد جرى بين الإنكليز والقوات المصرية في مصر. وقد نشرت إحدى الوكالات تقارير كاذبة، استطاع (س) أن يفندها ويسخر منها. وقد لاحظ أن عرب مكة يهملون نساءهم ويقضون أيامهم ولياليهم في المقاهي".

التقى عبدالله وفيصل ووالدهم معًا بسرية لمناقشة رسالة كيتشنر وقد عكست تعليقاتهم وجهات نظر مختلفة تجاه الأحداث. كان فيصل متوجسًا لأنه واثق من مخططات الحلفاء ضد الإمبراطورية العثمانية، وقد يستخدم العرب كأدوات لتنفيذ هذه المخططات. وقد اتفق عبدالله الذي يستند في آرائه على اتصالاته مع القوميين العرب، مع فيصل على ضرورة الحصول على ضمانات أكيدة بالاستقلال قبل الارتباط بأي التزام، إلا أنه كان يرغب أيضًا في الاستفادة من مبادرة كيتشنر بسرعة. لم يتخلى الحسين كلية عن آماله بتسوية الخلافات لصالحه مع جمعية الاتحاد والترقي وكان يرغب في نفس الوقت أن يحتفظ بخياراته على هذه الجبهة. ومن جانب آخر، اعترف أنه إذا أراد ضمان وجوده في حالة تحرك الاتحاديين ضده، عليه أن يبحث عن مساندة أحد الحلفاء الأقوياء. لذلك، أبلغ عبدالله أن يرد بما مفاده أن عليه أن يبقى حياديًا من باب الاحتياط ولكنه يلمح أنه إذا ما تلقى دعمًا كافيًا، فإنه سيقود "أتباعه إلى الثورة".

استلم كيتشنر الجواب وهو في لندن، وقد تملكه الحماس إن لم نقل الدهشة، من احتمال نشوب ثورة مسلحة. يبدو أنه كان يأمل فقط أن تبقى الحجاز بعيدة عن الحرب إذا ما اندلعت. قام بالرد على رسالتهم في ٣١ تشرين الأول في اليوم نفسه الذي أعلنت فيه تركيا الحرب على الحلفاء. وفي جوابه أبلغ كيتشنر الشريف أنه إذا ما وقف هو والأمة العربية إلى جانب بريطانيا، فإنه يضمن حقوق وامتيازات أمير مكة وذلك بمنع حصول أي تدخل خارجي في الجزيرة العربية، وأن بريطانيا ستقدم للعرب الدعم اللازم لمواجهة أي عدوان أجنبي. ومن الجدير بالملاحظة هنا أنه عندما كان الحسين يتحدث عن رعاياه الحاليين، كان كيتشنر يتحدث بصيغة (العرب). من الواضح مما كتبه كيتشنر في آذار عام ١٩١٥، أنه كان يتصور قيام مملكة عربية تدور في الفلك البريطاني. أن استخدام كلمة (العرب) في مراسلاته قد زرع لأول مرة في ذهن الحسين بأنه اختير كزعيم لهذه

الطائفة الواسعة من الناس، ويجب أن يأتي تفكيره منذ هذه اللحظة وفق هذا السياق.

ومن الجدير بالذكر أيضًا، أنه في ختام هذه المراسلات، أشار كيتشنر لأول مرة لموافقة إنكلترا على عودة الخلافة العربية. كتب اللورد جورج آرثر في كتابه (حياة اللورد كيتشنر) أن كيتشنر كان دائمًا مؤيدًا للخلافة العربية ومؤمنًا أنها يجب أن تعود إلى قريش. ويفسر موضوع الخلافة الكثير من دوافع وأعمال الحسين. ويعتقد أن موضوع اكتساب هذا اللقب، كان عاملاً رئيسيًا يدفعه إلى إعلان الثورة في الجزيرة العربية، ويعتقد آخرون أن الحسين قد رفض فكرة اللقب رغم أن عبدالله كان يضمر طموحات لوالده وللعائلة الهاشمية في هذا الاتجاه. في ١٩١٦، كتب هوغارث: "رغم أنه لا يبدو أن الحسين كان يسعى إلى الخلافة، إلا أن عبدالله كان يمتلك مثل هذا الطموح". لذلك تعتبر اتصالات كيتشنر ذات أهمية كبيرة لأنها قد خلقت تشويشًا مربكا آخرًا في المراسلات بين بريطانيا والأمير. حتى هذا الوقت لم يذكر الحسين موضوع الخلافة، لذلك من الصعب ملاحظة كيفية استخدامه للبريطانيين في تعزيز طموحاته في هذا الاتجاه إذا ما اتخذوا الخطوة الأولى.

أصبح على الحسين الآن واجب تقصي واقع الأمة العربية، طالما أنه قد اختير ليلعب دورًا أكثر شمولية من مجرد تأمين استقلال الحجاز. كان واجب فيصل هو جمع المعلومات وإجراء الاتصالات الضرورية في سوريا، وعلى الحسين أن يعمل من أجل تأمين ضمانات كافية للثورة.

كان يتوقع، عشية نشوب الحرب بين الحلفاء والإمبراطورية التركية، أن يعجل الأتراك بجهودهم للتخلص من الحسين. وفي القاهرة أصبح عبدالله أكثر قلقا على مستقبل والده نتيجة الضغط المتزايد من قبل جمعية الاتحاد والترقي

للسيطرة عليه أو استبداله. إلا أنه ومما يبعث على السخرية، اكتسب الحسين مع نشوب الحرب أهمية إضافية إلى الجمعية التي كان عليها حمايته لوقت أطول قليلا. لقد وضع الحسين خططه لإعلان الثورة العربية خلال تلك الفترة الأخيرة من اليسر.

كانت الأهمية الإضافية التي اكتسبها الحسين تتعلق بدوره في كسب التأييد الشعبي للدعوة للجهاد ضد الكفار الذين يهددون الإسلام. فقد انشغل المستشارون الألمان في البعثة العسكرية في اسطنبول لشهور عديدة في موضوع إعلان الجهاد وأولوه أهمية مبالغًا فيها في ضوء ما تلا ذلك. إن المضامين الاستراتيجية التي كانت تراها المخابرات الألمانية في الدعوة للجهاد، ثنائية الجانب. فمن جانب تمتحن الدعوة إلى الجهاد ولاء الشعوب الإسلامية الكبيرة في جيوش كل من بريطانيا وروسيا وفرنسا وإيطاليا، وتؤدي كما هو مؤمل، إلى الخيانة وربما إلى التمرد. ومن جانب آخر، فإن الدعوة العامة للثورة ستثير، كما هو مؤمل، المسلمين داخل وحول المدن الكبرى في العالم الإسلامي، وستشغل عددًا كبيرًا من قوات الحلفاء في الكثير من المصادمات المحلية. ويكفي أن يتذكر الألمان أن لبريطانيا (٧٠) مليون مسلم في الهند و(١٦) مليون مسلم في حوض وادي النيل. أن الجيش البريطاني سيكون ضحية الدعوة للجهاد من خلال التمرد الهندي وثورة المهدي وثورة العرب، لذا فإن عليهم، أي الألمان، الضغط على الأتراك بشدة لإعلان الجهاد. فإذا ما ثارت الوحدات الهندية في مصر أو الشعب المصري ومقاتلو السنوسي في النيل الأعلى وشعب الدارفور، فسيكون من الصعب وقف الزحف الألماني - التركي نحو قناة السويس وقطع شريان الحياة للإمبراطورية البريطانية. لاشك أن الألمان كانوا منجرفين بحماستهم بمشورة "خبراء" وزارة الخارجية الذين ظهروا في اسطنبول بأشكال متعددة وغريبة وبمشورة خديوي مصر السابق عباس حلمي الذي فرّ إلى تركيا بعد أن خلعه البريطانيون، فأدلى بمعلومات غير موثوقة كانت طمعًا للألمان.

وبعد أسبوع من إعلان الحرب، صدرت الفتوى من شيخ الإسلام: "على جميع المسلمين في العالم بضمنهم الذين يرزحون تحت حكم بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا أن يتحدوا لمقاومة هذه الدول الثلاث عدوة الإسلام وأن يحاربوها ويحاربوا حلفاءها وأن يمتنعوا مهما تكن الحال - حتى ولو تعرضوا لعقوبة الإعدام - عن مساعدة دول لحلفاء في هجومها على الدولة العثمانية والدول الحامية لها وهي ألمانيا والنمسا والمجر".

أثار الجزء الأخير من الفتوى السخرية من دعوة الجهاد لأنه قد دعا المسلمين إلى الثورة جنبًا إلى جنب مع الكفار لحماية العالم الإسلامي من مجموعة معينة من الكفار. وطبيعي لم تحصل استجابة للفتوى وحصل الكثير من الشك والارتياب وفي بعض الحالات ازدراء يصعب إخفاؤه. "فقد شاهد أمام جامع الأمويين بدمشق بعض الضباط الألمان بين جموع المحتشدين فقال: "لقد أمرت أن أعلن الجهاد، وقد فعلت، ولكن ماذا يعمل هؤلاء الكفار في جامعنا)".

تلا ذلك دعوة رسمية في ٢٣ تشرين الثاني من الخليفة - السلطان بصفته زعيمًا للمؤمنين في كل أنحاء العالم، للثورة والتمرد ضد الأعداء والحكام الكفار. وقد رافق هذه الدعوة زخم كبير من الدعاية الموزعة بسرية في أنحاء العالم الإسلامي، حتى إن البريطانيين قد اكتشفوا في بداية تشرين الأول منشورات متداولة بين صفوف الجيش المصري تدعو القوات إلى التمرد، كما علم أن العديد من المبعوثين يعملون على نشر التذمر بين صفوف السنوسيين ومقاتلي الدارفور في السودان. وسرعان ما نشبت الحرب في هاتين المنطقتين بقيادة ضباط عرب يناصرهم الجيش التركي. ومما يبعث على السخرية أن أحد هؤلاء الضباط هو جعفر باشا وهو عراقي من بغداد لعب في وقت لاحق دورًا عسكريًا كبيرًا في الثورة العربية في الحجاز - بعد أسره من قبل البريطانيين. وقد وضع أنور باشا خطة

لنشر الجهاد وذلك بتقسيم العالم الإسلام إلى خلايا ونشر الثورة انطلاقًا منها. وبعد أسر أحد أعضاء هذه الخلايا على الحدود الهندية - الأفغانية كشفت خلية الحجاز. فألقي القبض على زعيمها في المدينة المنورة ويدعى مولاي محمود حسن وهو معلم هندي.

إحدى الدعامات الأساسية لدعوة الجهاد هي الصرخة المدوية بحماية المدن المقدسة لذلك تجلت أهمية الحسين الآن بصورة أكثر وضوحًا. لا يمتلك السلطان - الخليفة سوى تأثيرًا ضئيلاً على الحياة الدينية في إمبراطوريته حتى مع المساندة العلنية لشيخ الإسلام في تركيا. فقد فقدت الخلافة في ظل الأتراك الكثير من بهائها، كحامية للدين ونواميسه. كما أن للحسين مزية مهمة هي أنه سليل النسل المباشر للرسول محمد وأنه المكلف بإدارة الحج، وأحد الشخصيات التي يلتقيها الحجاج عند رحلتهم إلى المدن المقدسة. إضافة إلى ذلك، فإن مقامه كشريف مكة يكسبه احترامًا أكبر.

لذلك، وحال نشوب الحرب، حوصر الحسين باتصالات عديدة تدعوه لإعلان الجهاد من مكة. وعندما لم تلاقي دعوة الخليفة أية استجابة تذكر، أدركوا أن أكثر ما يحتاجونه هو موافقة الشريف الكبير المحترم. وقد ماطل الحسين حول هذه القضية ببراعة قدر المستطاع إذ أن إعلان الجهاد سيضع الحجاز إلى جانب الأتراك ويضيع أية فرصة للتوصل إلى نتائج طيبة في المفاوضات مع البريطانيين. أضف إلى ذلك وعندما يعلن الجهاد ماذا عن مستقبله بعد ذلك؟ أنه يعلم جيدًا أن فائدته هي مجرد فائدة وقتية. وعندما وصلته الدعوة، رد يقول أنه يساند بعمق الإمبراطورية، إلا أنه لا يعلن البيان اللازم بالموافقة الرسمية على مساندته غير الرسمية. وقد غضب الأتراك وضغطوا ثانية على الحسين إلا أنه كان يناقش بمنطق لا يرقى إليه الشك. فيشير أنه لا يستطيع أن يرمي بثقله إلى جانب الأتراك ويعلن الجهاد رغم أنه يرغب في ذلك كثيرًا، في الوقت الذي يقع فيه البحر

الأحمر تحت سيطرة البريطانيين التامة. إن أسطول البحر الأحمر رغم قدم سفنه، إلا أنه أكثر من ند إلى الأتراك الذين يسيطرون على مضيق البسفور، بينما يسيطر البريطانيون على قناة السويس. فكيف يقاوم الحصار البريطاني، أو في أسوأ الأحوال كيف يقاوم القصف البريطاني بينما لم يرسل إليه الأتراك حتى الآن التجهيزات التي طلب تزويده بها في حالة نشوب الحرب؟ إن مثل هذه الحجج الذكية لا يمكن للأتراك إغفالها بسهولة أو إنكارها خصوصًا إذا علمنا انه أخذ راية الرسول محمد من فوق ضريحه في المدينة المنورة وأرسلها كدلالة حسن نية إلى جمال باشا قائد الجيش الرابع المعين حديثًا في حلب.

مع ذلك، لم تكن تلك الإشارة ذات فائدة كبيرة للأتراك في مخططهم لإشعال ثورة العالم الإسلامي. فلم يمض وقت طويل، حتى نشرت تقارير صحفية ساذجة تعلن موافقة الحسين المتحمسة على الدعوة إلى الحرب، وقد اقتبس جورج أنطونيوس المثال التالي:

"لقد نشرنا أمس نقلاً عن مصادر رسمية أن الأمير عبدالله بن شريف مكة قد تطوع للعمل في سبيل الجهاد ومعه فرقة كبيرة من رجال القبائل الحجازية ويوسعنا الآن أن نؤكد أن شريف مكة قد أعلن الجهاد في جميع أنحاء الحجاز ملبيًا في ذلك رغبة الخليفة وأن القبائل تستجيب من كل ناحية لهذه الدعوة بأسلحتها الكاملة".

الاتحاد العثماني / بيروت - ١٩١٤/١٢/٢٩

وقد أحدث تضليل مشابه قلقًا كبيرًا بين البريطانيين في عدن، وكان يجب أن يعرف بأنه مجرد خداع من جانب الأتراك. وقد أعدت أدلة وبراهين لتثبت "زيف الادعاء التركي بالخلافة" من أجل توزيعها بين المسلمين.

وفي نفس الوقت الذي رفعت فيه راية الرسول أمام الجيش الرابع التركي المتجه لغزو مصر، كان الحسين يتصل بالزعماء العرب لأخذ آرائهم حول موضوع الجهاد. وقد سُرّ من جواب عبدالعزيز بن سعود الذي أشار عليه بمقاومة فكرة الجهاد وذلك بالاحتجاج باحتمال تعرض ساحل البحر الأحمر للحصار، والأسوأ من ذلك، إلى غزو من قبل قوى الكفر، إذا ما تورطت الحجاز بشكل أقوى في حرب تركيا.

ورغم منطقية هذا التبرير، التي لا تقبل النقاش، إلا أن الأتراك لم يستطيعوا الانتظار لوقت أطول لإصدار الفتوى، لأن دعوتهم للجهاد قد باءت بالفشل الذريع. على أية حال لم يكن تبرير الحسين يخلو من الأسباب المادية، سيما وأن معظم القمح الذي يدخل جدة وينبع (ميناء المدينة المنورة) يأتي من الهند، وهو يعتبر بالنسبة للأتراك، من ممتلكات العدو. لذلك توقف رسو السفن. وحصل الأمر نفسه بالنسبة لشحنات القمح المصرية التي ترسل سنويًا إلى الحرمين. وإذا ما استمر ذلك، فإن شعب الحجاز سيضطر إلى الاستسلام، كونه عاجزًا عن تأمين متطلباته الغذائية من أراضيه المجدبة. فاضطر الحسين لاتخاذ القرار.

ومـا يتوجب ذكره، أنه في كانون الأول ١٩١٤،وصلت المرحلة الأولى للمفاوضات بين الحسين والبريطانيين إلى نهايتها وذلك بتقديم بريطانيا ضمانات كبيرة في دعمها لتحقيق الاستقلال العربي. في تلك المرحلة، وجه الحسين اهتمامه إلى داخل العالم العربي في محاولة منه لمعرفة حجم المساندة الفعلية لشعب الشام والعراق في حالة نشوب الثورة. أصبحت الظروف في هذا الوقت عسيرة على الحسين لأن عليه إقناع الأتراك باستمرار موالاته لهم وإقناع البريطانيين بجديته في إعلان الثورة المسلحة، والقوميين العرب بأنه عازم فعلا على شن الثورة وأن تلك ليست حيلة من جانبه أو جانب الأتراك.

ولفرض تهدئة مخاوف الأتراك، بحث الحسين اقتراح إنشاء قوة من المتطوعين التي طلب من عبدالله تشكيلها خلال اجتماعه بطلمت في تموز ١٩١٤. فقد استلم المال اللازم لهذا الفرض وتم تدريب الجزء الأكبر من هذه القوة التي ستستخدم ضد الأتراك في حالة استلام الدعم البريطاني.

في كانون الثاني ١٩١٥، أقيمت أول روابط جدية بين عرب بلاد الشام والهاشميين في الحجاز وذلك بهدف القيام بالثورة. كان من ضباط حاشية الحسين ضابط يدعى فوزي وهو من أسرة البكري الدمشقية التي تزعمت حركة الفتاة القومية السرية. في كانون الثاني عاد فوزي البكري إلى مكة ليقدم تقريره حول الواجب الذي كلف به أثناء فترة إجازته في دمشق، وقد أؤتمن على رسالة سرية للغاية عليه حفظها وعدم كشفها لأي كان عدا الأمير نفسه. وباختصار، كانت الرسالة تشير إلى نية الضباط والجنود العرب أعضاء جمعيتي العهد والفتاة السريتين في القيام بانتفاضة ستشكل بحكم كون ثلث الجيش العثماني من العرب، خطرًا جديًا على الأمن الداخلي للإمبراطورية. وترغب الحركتان أن يكون الحسين على رأس هذه الانتفاضة عند نشوبها. يبدو غريبًا من الناحية المبدئية إناطة هذا الدور بالحسين، خصوصًا إذا ما تذكرنا أعماله بالنيابة عن الأتراك في القصيم وعسير وبعد تدخله في حملة اليمن. رغم ذلك، يرى الكثير أن أعمال الحسين في القصيم وعسير تأتي ضمن سياق حماية وحدة الإمبراطورية الإسلامية العثمانية من التجزئة والاغتصاب من قبل الكفار كالإيطاليين في عسير، بدلاً من كونها قمعًا للعرب. أضف إلى ذلك، عندما كان الحسين يقود حملاته، لم تكن تركيا الفتاة قد استلمت السلطة بعد في اسطنبول، حيث تعرضت القيم التقليدية والدين الإسلامي واللغة العربية ودور الحسين نفسه إلى الخطر. كذلك من خلال اتصال عبدالله ثم عضويته في الحركة القومية السرية، سنحت له الفرصة لتوضيح أعمال والده وتسليط الضوء على الخلاف الحاد بين الحسين وجمعية الاتحاد والترقي حول مسألة عسير وتمداد نقاط الخلاف المتزايد بين الحسين والجمعية. على أية حال،

أعطى اتصال القوميين بعبدالله رؤية متفائلة لهم حول نشوب الثورة التي يتطلع إليها كل عضو من أعضاء الحركة.

وعندما قدم عرض الزعامة إلى الأمير، لم يرد بشكل مباشر على طلب تشكيل وفد، أما من قبلهم ويذهب إلى مكة، أو من قبله ويذهب إلى دمشق. ورغم أن مشاعر الحسين في تلك اللحظة لم تسجل، إلا أنه يجب أن يكون قد قدر التوقيت المناسب لهذا الطلب، لأن تلك كانت بالضبط إشارة الدعم التي كان يريدها من العالم العربي. وهو الآن إذا ما قام بالثورة ضد الأتراك العثمانيين وبمساعدة البريطانيين، فإنه سوف لن يكون وحده. ومرة أخرى، لم يعرف الإجراء الذي قرر الحسين اتخاذه كرد مباشر على طلب دمشق، ولكنه سرعان ما اتخذ القرار بعد الحادث الذي تعرض له الوالي في ذلك الشهر.

وصل وهيب بك - والي الحجاز - إلى الولاية في الوقت الذي جرى فيه أول لقاء بين عبدالله وكيتشنر في القاهرة (بداية عام ١٩١٦). لقد عُد وصول وهيب كنذير شؤم، لأنه قد جلب معه تعزيزات إلى الحامية العثمانية وكان ينهج نهجًا متشددًا في التفاوض. وقد أثار وصوله على الفور العديد من المظاهرات وأغلق طريق جدة - مكة. وقد استلم الحسين إشارة من ابنه الأكبر علي وضعت الأمور في وضع أسوأ. ففي كانون الثاني عام ١٩١٥، وفي نفس الشهر الذي قدم فيه فوزي البكري عرض دمشق، شرع الشريف علي بن الحسين في رحلة إلى دمشق مع مجموعة من المتطوعين المسلحين. وهذه القوة هي أول وجبة من المتطوعين المرسلين للانضمام إلى قوة الهجوم التركي على قناة السويس والمقرر له أن يبدأ في شباط. ارتحلت القوة في المرحلة الأولى من تنقلها بواسطة الجمال عبر الأراضي البركانية والوديان الكبيرة في منطقة عسفان وخليص ورابغ. وفي مكان ما على الطريق، فقد صندوق يعود إلى أحد الأنصار الحجازيين البارزين لجمعية الاتحاد والترقي، وقد أخذت المحتويات طريقها إلى علي. كانت الرسائل التي عثر

عليها غاية في الأهمية لأنها كشفت عن مؤامرة لخلع الحسين يلعب فيها وهيب الدور الرئيسي. حيث سينهي وضع الحجاز الخاص وأبلغنا أحد المصادر أنه تم وضع الخطط لاغتيال الحسين. كان الحسين يعرف نوايا الأتراك لتقليص نفوذه من خلال قانون الولايات وبناء سكة حديد الحجاز وخطة أنور المقترحة للغزو، وكفاح وهيب المستمر من أجل تعزيز سلطته. ولكن هذه هي المرة الأولى التي يحصل فيها على دليل مادي بتورط وهيب، حيث عثر أيضًا على رسائل متبادلة بين الوالي واسطنبول.

ذهب علي فورًا إلى قصر والده تاركًا خلفه قوة المتطوعين في المدينة المنورة، وبذلك حال تأخرهم دون رؤية المشهد المحزن لهزيمة قوات جمال على جبهة قناة السويس في الشهر التالي. وعندما اطلع الحسين على الدليل، اضطرب بشدة. فقد كان لا يزال يحدوه الأمل بأن يجد وسيلة لتسوية الخلافات مع الأتراك في الإمبراطورية العثمانية التي ستقدم ضمانات كافية للاستقلال وستؤمن امتيازات الوراثة لنسله. وظهر أن الخلاف المتزايد مع الجمعية سوف يجعل من هذا الاحتمال بعيد التحقق، لذلك قرر الحسين إرسال ابنه الثالث فيصل ليجد توضيحًا لهذه المراسلات وربما استخدامها في ظل ما تفرضه الحرب من متطلبات، لتأمين هذه الضمانات والتنازلات. ولأن الجمعية كانت تتآمر لإسقاطه في نفس الوقت الذي تؤكد فيه لعبدالله أن سكة الحديد هي المحور الوحيد للخلاف، أصبح أمله ضعيفا في تسوية هذه الخلافات. لذلك، ولغرض فتح باب أمل ثانٍ، طلب من فيصل الرد على رسالة البكري، بإجراء اتصال مع القوميين في دمشق.

في الأسبوع الرابع من شهر آذار، وصل فيصل إلى دمشق في طريقه إلى العاصمة التركية واستقبله جمال باشا بحرارة والذي أصبح رئيس دائرة الحكم في سوريا وقائد القوات المحتشدة لشن هجوم آخر على مصر. كان جمال في ذلك الوقت مؤمنًا بالوحدة الإسلامية، وكان في نظر العرب أقل فسادًا من باقي عناصر

تركيا الفتاة البارزين ذوي الميول اليهودية أو الماسونية أو الطورانية. وكان أيضًا لا يزال محبوبًا من قبل الناس الذين يحكمهم. إذ كانت قوة إيمانه الديني وتسامحه حتى عن الأعمال الخيانية وأسلوبه الصارم غير المتحفظ تستحق الإعجاب الشديد. إلا أن كل ذلك سيتغير خلال الشهور القليلة القادمة. وعند تقديم جمال عرضًا بالضيافة إلى فيصل، برر الأخير أن لديه التزامًا سابقًا بالمكوث لدى أسرة البكري. وفي دار هذه الأسرة الدمشقية؛ أجرى فيصل أولى اتصالاته مع ممثلي الفتاة والعهد. كانت بداية العلاقات فاترة، لأن فيصل، بالعكس من شقيقه المتحمس عبدالله، كان غير معروف ولا يزال الشك يدور بكون أمير مكة عميلا للسلطات العثمانية. وخلال حديثه معهم، كرر فيصل بعض التحفظات التي سبق أن وضعها أمام والده في الطائف عند أول زيارة لمبعوث ستورز في القاهرة. فرغم أن الفساد كان مستشريًا في الإمبراطورية العثمانية، وأنها أصبحت غير مؤهلة لأداء دورها كحامية للإسلام، ورغم أن التتريك يشكل خطرًا على الرابطة التقليدية للقرآن العربي والوحدة المترامية لشعوب الإمبراطورية، إلا أن فيصل كان ما يزال حذرًا للغاية تجاه أي تدخل من جانب الدول الأوروبية التي بانت في الماضي أنها متأهبة للاستيلاء على أية أراضٍ عثمانية عند أول فرصة سانحة. وأي بديل سيكون أفضل من سيطرة الكفار حيث لا يتحقق الاستقلال العربي بأي ثمن". ثم أخذ يضرب على الوتر الحساس لدى القوميين العرب، لأنهم قد اتخذوا قرارًا بهذا المعنى قبل شهور قليلة. كان هذا الخوف هو الذي يفسر المحاولات المستمرة لتسوية الخلافات مع الأتراك بدلا من قطعها. فمن جانب لم يثبت الأتراك جدارتهم بالزعامة الروحية للإسلام، ومن جانب آخر يجب توخي الحذر للحيلولة دون حصول تبديل للأتراك بالكفار. ولم يؤدي وجود الألمان في الجيش التركي إلى إقناع القوميين بأن الكفار لا يريدون استغلال الحرب. إن الفرصة الوحيدة لمقاومة خطر الاحتلال الأجنبي هي البحث عن (ضمانات حقيقية) للاستقلال العربي من دولة معينة. وفي هذا الوقت لم تكن الجمعيتان على علم بالمفاوضات الجارية بين كيتشنر

والهاشميين، ولكن بعد أن أدى فيصل القسم كعضو في جمعية الفتاة، أبلغهم بالوعود التي استلمتها عائلته حتى هذا الوقت. ورغم المخاوف من أن يكون الوعد البريطاني، بعد احتلال البلاد المصرية وسحق القائد العربي عرابي، منطويًا على الخداع، إلا أنه كان الأمل الوحيد بالدعم المادي. وبعد أن غادر فيصل إلى اسطنبول في ٢٣ نيسان، عمل القوميون على إصدار بيان يتضمن أهدافهم وشروطهم من أجل تسليمه إلى فيصل عند عودته.

خلال الفترة التي قضاها فيصل في دمشق، تلقى الحسين رسالة تشجيعية أخرى من الجنرال السير ريجنالد وينكيت - الحاكم العام للسودان - الذي كان يتولى مسؤولية الشؤون العسكرية في منطقة البحر الأحمر. في هذه الرسالة أوضح وينكيت: "تتعهد حكومة صاحب الجلالة، عندما يحل السلام، بأن تبقى الجزيرة العربية والأماكن المقدسة الإسلامية تحت حكم دولة مستقلة ذات سيادة. ويتعذر في هذا الوقت تحديد حجم المنطقة التي تضمنها هذه الدولة". وقد كانت تلك أول إشارة لمشكلة الحدود التي أفسدت العلاقات بين بريطانيا والهاشميين بعد الحرب.

وما هو جدير بالذكر أنه في نفس الوقت الذي كتبت به هذه الرسالة، كانت هناك مسودة اتفاقية في طريقها من ابن سعود أمير نجد عن طريق الهند إلى لندن. في هذه الاتفاقية، وافق الكابتن شكسبير بالنيابة عن بريطانيا في الهند على "الاعتراف وضمان استقلال ابن سعود، وسوف لن تحصل أية روابط بين ابن سعود وأية دولة أجنبية أخرى، وستقدم بريطانيا المال والأسلحة له عند أي عمل يقوم به ضد الأعداء". وقد وقعت هذه الاتفاقية في الأسبوع الأخير من عام ١٩١٥ في العقير على الخليج العربي. من الواضح أن الوثيقتين (الرسالة والمعاهدة) متناقضتان، ولكن هذا ليس غريبًا لو تذكرنا الطبيعة الغريبة للنفوذ البريطاني في الجزيرة العربية.

في البداية كانت معظم أنحاء الجزيرة العربية تقع ضمن ساحة عمل حكومة الهند التي كانت تنظر بعين الريبة إلى العرب بشكل عام. وفي آذار ١٩١٥، ارتبطت منطقة ساحل البحر الأحمر من القنفذة وصعوداً إلى الشمال، بوزارة الخارجية في لندن من خلال ممثلها في مصر. وقد كانت هذه الدائرة أكثر تفهمًا للعرب من سلطات نائب الملك في الهند، وليس هناك أي اتصال مباشر بين هاتين الدائرتين، والمؤكد أن سياستيهما تفتقر إلى الانسجام. وقد كتب نائب الملك بعد أن سمع بآراء وينكيت: "لقد تعرضت مصالحنا في الخليج أخيرًا إلى خطر الألمان في ظل الحماية التركية. وسيكون من الحماقة تكرار هذا الموقف، ولا يفيد العرب القول أن هذا لن يحصل تحت حكمهم، لأن هذا دائمًا ممكن الحدوث، كما أنه ليس للعرب صيت معروف بالشرف". (٢١ نيسان ١٩١٥). وقد وصف توينبي الأوضاع بأنها حالة حرب فعلية بين حكومة الهند والخارجية. "إنهم يقاتلون بالنيابة.. الحل بقوة السلاح، ما عجزوا عن حله بالمخاطبات".

ومن الطبيعي لم يكن الحسين يملم بمفاوضات حكومة الهند مع ابن سعود حول الاتفاقية. وجرت جميع المفاوضات تحت غيوم الجهل بذلك، أصبح الآن الارتباك والفوضى الناشئة من الغيرة الإدارية واضحًا للعيان، وسيصبح أكثر وضوحًا عند تقدم المفاوضات. ويمكن أيضًا الإضافة إلى أسباب الخلاف بين حكومة الهند والخارجية، الأعمال الفردية للحاكم العام في الخرطوم، واستبدال الشخصية الودودة والتي تحظى بالاحترام كيتشنر، بالسير هنري مكماهون، وأخيرًا خسارة ستورز بتعيينه بشكل غير مناسب في وظيفة أخرى. وكان كل تلك الفوضى لم تكن كافية، فلم يتم اطلاع الحلفاء على المفاوضات والاتفاقيات مع الحسين ولم يُطلع الهاشميون أيضًا بالمفاوضات مع الفرنسيين. ومن المشكوك فيه وجود أي شخص لديه الصورة الكاملة.

* * *

الفصل الثامن

اتفاقات وشروط

▪ بعد أن قضى فيصل شهرًا في دمشق، واصل رحلته إلى اسطنبول، حيث سيرفع شكاوى والده عن مؤامرة وهيب إلى السلطان وأنور وطلعت. وقد أخذ معه المراسلات السرية التي عثر عليها في الطريق إلى المدينة المنورة رجال علي. وقد استخدم هذا الدليل لانتزاع تنازلات من الأتراك المضطربين. كما أنه يمثل قبل كل شيء أساسًا جيدًا لإجبار الاتحاديين على إزاحة وهيب باشا. فإذا كان الثلاثي الحاكم يقدر إسهامات الحسين المكنة في الحرب المقدسة ضد الحلفاء، فعليهم حينئذ ألا يتجاهلوا هذا الاعتداء السافر عليه.

وقد سر فيصل بالترحيب المميز الذي حظي به في العاصمة، فقد هيئت له مقابلتان مع السلطان محمد الخامس، وخصصوا له وقتًا كبيرًا من أوقات عمل الوزراء. ورغم أن فيصل قد حقق إحدى الأهداف التي يصبو إليها وهي فتح تحقيق وتشكيل محكمة عسكرية لمقاضاة وهيب ونقله فورًا، إلا أنه لم تتضح أية إشارة عن تنازلات بخصوص وضع الحجاز أو دور الحسين فيه. حيث يبدو أن ذلك يعتمد على الدعوة إلى الجهاد عن طريق مكة والتي طال انتظارها. وقد وصف جورج

أنطونيوس لهجة المفاوضات كما جرت مع فيصل بالشكل التالي: "فلو أن الشريف جاهر علنًا بتأييده لدعوة الجهاد فإن ذلك سيسهل إصلاح الموقف في الحجاز لمصلحته ويستطيع حينئذ أن يطمئن إلى أنه سينال كل ما يرضيه". هذا أكثر ما استطاع فيصل ضمانه، ووعد بأن يبلغ والده بالشروط عندما يعود إلى مكة. وبعد شهر، رحل فيصل وحاشيته إلى سوريا ثانية، وعقدت اجتماعات أخرى مع الجمعيات السرية في دمشق. وعندما دخل في مفاوضات معهم، وجد أنهم قد اعدوا خلال فترة غيابه سلسلة من الشروط التي يجب أن تحكم أية ثورة ضد الحكم التركي. خبئت الشروط، التي نقلت إلى الحجاز، داخل حذاء أحد رجال فيصل. كانت موجزة بحكم الضرورة. إلا أنها كانت محرجة من ناحية المطالب التي توجب على الحسين تقديمها فورًا إلى السير هنري مكماهون – المندوب السامي البريطاني في مصر.

وقد شكلت تلك الشروط أساس مراسلات حسين – مكماهون الشهيرة والتي تتعرض للنقد منذ ذلك الحين. جاء في "ميثاق دمشق" كما سمي فيما بعد، النقاط التالية:

- اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية: شمالاً: خط مرسين – أضنه إلى ما يوازي خط العرض ٣٧ شمالاً ثم على امتداد خط بيريجيك – أورفة – ماردين – مديات – جزيرة ابن عمر – العمادية إلى حدود إيران.
  شرقًا: على امتداد حدود إيران إلى خليج العرب جنوبًا.
  جنوبًا: المحيط الهندي (باستثناء عدن والتي يبقى وضعها الحالي كما هو).
  غربًا: على امتداد البحر الأحمر ثم البحر المتوسط إلى مرسين.
- إلغاء جميع الامتيازات الاستثنائية التي منحت للأجانب بمقتضى الامتيازات الأجنبية.

- عقد معاهدة دفاعية بين بريطانيا العظمى وهذه الدولة العربية المستقلة.
- تقديم بريطانيا العظمى وتفضيلها على غيرها من الدول في المشروعات الاقتصادية.

وهناك بعض النقاط المهمة التي تثيرها هذه الوثيقة الموجزة والتي كان لها تأثيرًا خطيرًا على الأحداث اللاحقة.

أولاً – كما لاحظ ذلك فيصل بسرعة، لا يحتمل أن يوافق البريطانيون على هذه الوثيقة كما هي، طالما أنها لم تشر إلى المعاهدات المعقودة مع ساحل الخليج أي (الإمارات العربية المتحدة في الوقت الحاضر)، ولم تشر إلى "الفتوحات" البريطانية في العراق، كما يبدو أنها تطالب بسيناء والتي كانت على الدوام موضوعًا حساسًا للبريطانيين في مصر. ولم يكن فيصل بالطبع على علم بمشروع المعاهدة التي عقدت مع إمام نجد للاعتراف باستقلاله. كما كانت هناك أيضًا العلاقة الخاصة لبريطانيا مع الكويت. كانت لمخاوف فيصل أساسًا من الصحة، وما تجنبته مراسلات حسين – مكماهون بشكل ملتوٍ سيكشف.

وثانيًا – كان فيصل يخشى أن لا يقبل والده هذه الوثيقة لأنه يطمح بحصول نوع من التسوية للخلافات مع الأتراك، حيث أصبح واضحًا أن وقت هذا قد ولى.

وثالثًا – إضافة إلى المصالح البريطانية في الجزيرة العربية، يجب أن يعرف السوريون أن هناك مصالح كبيرة لفرنسا في هذا الجزء من العالم العربي. إذ ومنذ الحروب الصليبية يرى الفرنسيون أن لهم وضعًا خاصًا في منطقة المشرق (الساحل الشرقي من البحر المتوسط) وخاصة المنطقة الساحلية من لبنان، وقد اتخذ هذا الوضع شكل العمل كحماة للطوائف المسيحية كالمارونيين، وهناك شك متزايد بأن لا تسمح فرنسا بأي نفوذ آخر في المنطقة، خاصة إذا كان مدعومًا من قبل البريطانيين. وفي هذا الشك كان العرب على صواب تمامًا.

أبلغ فيصل أن الانتفاضة ستسندها ثلاث فرق من القوات العربية المتمركزة في دمشق وفرقتان أخريتان إلى الشمال في حلب. وأبلغ أيضًا أن هذه الفرق على أهبة الاستعداد للثورة وأنها تنتظر الإشارة. وكل ما مطلوب، هو الدعم عن طريق إنزال للحلفاء في الإسكندرونة.

على الساحل السوري، حيث يضرب طوق مانع بين القوات العربية والمشاة التركية إلى الشمال. ولم يحصل هذا أبدًا، لأنه في نيسان حصل إنزال الحلفاء في غاليبولي في الدردنيل وشارك فيه أكبر عدد من الرجال في محاولة للتقدم نحو قلب الإمبراطورية التركية واسطنبول. في هذا الوقت كان القوميون السوريون يتوقعون ضربة ثانية في ميناء الإسكندرونة الكبير، وقد خابت آمالهم، ليس من قبل الأتراك، بل بسبب المطامع الاستعمارية الفرنسية.

بدأت تتوضح أيضًا بعض العلامات عن شكل الأوضاع المستقبلية في بلاد الشام أثناء وجود فيصل هناك. فقد نقلت إحدى الفرق العربية (الخامسة والعشرون) (والتي تضم أعدادًا كبيرة من أنصار العهد) من الأراضي العربية لتقاتل في الخط الأمامي، حيث عجزت قوات الحلفاء والقوات التركية عن التقدم. كان هذا النقل جزءًا من التغير الملحوظ في موقف القائد التركي في سوريا جمال باشا. كان قبل هزيمته في السويس متسامحا مع نشاطات القوميين العرب في المنطقة الخاضعة لإدارته. وحتى عندما وجدت وثائق في تشرين الثاني ١٩١٤ في القنصلية الفرنسية المهجورة في بيروت تدين بعض العرب في نشاطات معادية للأتراك، فإنه كان مستعدًا للتغاضي عن الموضوع. إلا أنه عندما استمرت هذه الأعمال الخيانية، خلال الوقت الذي تعرض فيه الجيش التركي لهجمات شديدة على عدة جبهات، تغير موقف جمال واكتسب سريعًا اللقب الواسع الانتشار (السفاح). وتبرز دلالة هذا اللقب بوضوح إلى فيصل خلال زياراته اللاحقة إلى دمشق.

في نهاية المحادثات، اتفق فيصل والقوميون على تقديم هذه الشروط إلى الحسين على أن يعود فيصل بالجواب بأسرع ما يمكن. ثم أدى ستة من الزعماء الرئيسيين يمين الولاء وتعاهدوا على اعتبار الشريف هو ممثل الشعب العربي، وعلى أن تهب الفرق العربية المرابطة في سوريا مرة واحدة، إذا ما اتفقت بريطانيا العظمى مع الشريف على تحقيق الشروط الواردة في ميثاق دمشق.

وهذا هو ثاني تأكيد للثورة يستلمه الحسين، الأول كان في الرسالة المؤرخة في كانون الثاني ١٩١٥، والتي تبين استعداد الضباط المراقبين والدمشقيين وأهالي سوريا للثورة.

قبل مغادرة فيصل لسوريا، اضطر إلى رد دعوة مجاملة إلى جمال والتقاه في القدس. كان اللقاء في الظاهر وديًا، وأدلى فيصل بعدة أحاديث أكد فيها مساندته لهم ضد الحلفاء. "وفي حديث له مع قيادة الأركان، أقسم بروح الرسول محمد بأنه سيأتي مع قواته لمحاربة أعداء الدين حتى الموت". لاشك أن أي من الحاضرين لم يدرك مقدار التهكم الذي يحمله هذا التصريح ومن الذي يراه فيصل على أنه (عدو الدين). وتدعيمًا لأحاديثه، أكد لجمال أنه سيرسل قوة من (١٥٠٠) فارس لتقاتل إلى جانب الأتراك في المعركة التالية ضد البريطانيين في السويس. وعاد الأخ الأكبر علي إلى المدينة المنورة للإشراف على جمع وتدريب قوة متطوعين أخرى.

وبعد أن بدد فيصل الشكوك التركية ووضع الخطوط العامة للمفاوضات مع البريطانيين، استقل وحاشيته القطار المتجه نحو المدينة المنورة، وخبئت الوثائق في مقابض السيوف، والأمتعة والأحذية. كيف ستتأجج نار شكوك فيصل (وهو الأكثر حذرًا دائمًا)، لو كان قد استرق السمع على ما يدور في دهاليز الحكومة البريطانية. ففي نفس الشهر الذي كان فيه فيصل يناقش الإعداد للثورة مع

أعضاء الفتاة، كتب أسكوت، الذي أصبح رئيسًا للوزراء: "إذا ما تركنا بقية الأمم تتزاحم على تركيا، دون أن نأخذ شيئًا لأنفسنا، فسنكون مقصرين في أداء واجبنا". فالواجب يجب تأديته كما ينبغي في الوقت المناسب.

عاد فيصل إلى مكة في ٢٠ حزيران وسرعان ما اصطحبه والده إلى مخفر التل في الطائف حيث أجاب هناك بشكل شامل عن جميع جوانب دعم القوميين والموقف الأخير للأتراك تجاه الإمارة. وابلغ والده بتحوله إلى القضية القومية وعبّر عن تحفظاته وتحفظات الفتاة حول دوافع الحلفاء. وعندما ذكر الحاجة إلى استلام ضمانات، أبلغه والده بالمنشورات التي ألقيت على جدة في حزيران بواسطة أول طائرة مرت في سماء المدينة. وقد أعلن البريطانيون في هذه المنشورات المطبوعة في مصر، للناس الضمانات التي ذكرها وبنكيت في مراسلاته مع الشريف. وأدناه نص أحد هذه المنشورات:

"إلى العرب: إنكم تعلمون أن الحكومة البريطانية لا تريد هذه الحرب، بل أجبرت على دخولها بسبب اعتداء ألمانيا على جيرانها دون مبرر. هذا رغم ضمانات ألمانيا لهذه البلدان بالاستقلال. وإنكم تعلمون أن الحكومة الألمانية استطاعت أن تخدع الحكومة التركية وتدخل الحرب بالوعود والمبالغ الضخمة من الأموال. وبهذه الوسيلة سمت للحصول على أمر من السلطان بإعلان الجهاد ضدنا وضد حلفائنا. وهذا بسبب وجود عدة ملايين من المسلمين تحت حكمنا فقد التحق الكثير منهم بجيشنا بل وإنهم الآن يقاتلون بجانبنا ضد ألمانيا. وتسعى ألمانيا لتحويل جميع المسلمين للعمل ضدنا. لاشك أن أي مسلم مؤمن يرفض أن يكون دمية بيد حكومة أجنبية تضحي به بسهولة. لم تكن بريطانيا فقط أو فرنسا أو روسيا هي التي حشدت جيوشها لنصرتنا في ميدان القتال ضد تركيا، بل أصبح أيضًا شعب تركيا الواعي متذمرًا من أعمال حكومته. ومن المؤكد أن العديد منكم يتساءل عن نوايا بريطانيا بعد انتهاء الحرب، لذا فإننا نعلن لكم ما يلي بوضوح:

قررت حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا والإمبراطورية الهندية أنه من بين شروط توقيع اتفاقية تنهي الحرب هو - أن تكون شبه الجزيرة العربية والديار المقدسة دولة مستقلة ولا يدخل أي شبرٍ منها في ملكيتنا أو ملكية حكومة أخرى. وهذا يعني أنه قد تم تأمين وضمان استقلالكم ونيلكم للحرية. فهل هذا يكفي؟ وإلى الذين يتفقون معنا ويخشون إعلان ذلك نقول: لا تخشوا جانبنا واغتنموا الفرصة عندما تحين، لأنها آتية لا ريب، وعندما تأتي فإنها ستلقي بعيدًا ثوب الظلم وتمرغ الطغيان في التراب. وإن شاء الله سوف لن ندخر وسعًا في تقديم المساعدة إليكم، ونعدكم بإخلاص بأنكم بمشيئة الله ستصبحون أمة مستقلة. إنكم تودون معرفة نوايا بريطانيا بخصوص دينكم، فاعلموا أن الدين الإسلامي كان ولا يزال يحظى بالاحترام الكامل من قبل البريطانيين. والتاريخ أفضل شاهد على هذه الحقيقة، ولهذا السبب اعتدنا أن نمد يد المساعدة إلى السلطان التركي وأقمنا معه علاقات ودية وبمستوى عالٍ، إلا أنه وبعد أن أجبر من بعض وزرائه على إنكار صداقتنا والاعتداء علينا، فلا خيار لديه غير الخضوع لإرادة وزرائه وتقبل النتائج. إن سياستنا هي الاحترام والصداقة مع جميع المسلمين وأفضل دليل على ذلك هو رغبتنا بمساعدة شعب الحجاز من خلال كميات القمح المرسل رغم أن الضباط الأتراك والألمان يقومون بمصادرتها حال وصولها إلى جدة. لذلك فإننا مضطرون لإيقاف شحنات القمح التي تساعد أعداءنا في حين يعاني الشعب المسكين من الجوع. ورغم جميع هذه المصاعب، إلا أن الحكومة البريطانية وبعد أن علمت بما يعانيه الحجاج والعرب الأبرياء، تحركت بدافع الرحمة والصداقة القديمة لإرسال المؤن الغذائية إلى جدة عن طريق البحر. لذا ليعلم العرب أن هذه المؤن هي لهم وعليهم أن يمنعوا مصادرتها بكل ما أوتوا من قوة".

تأتي أهمية هذه الوثيقة من أنها ساعدت مع الأخبار التي جلبها فيصل معه على تعزيز الوعود الخاصة باستقلال العرب بدلا من الاكتفاء بدعم الأمير ضد

العدوان. كان ذلك هو الضمان الوحيد الذي يراه فيصل وزملاؤه الثائرون في دمشق بأنه الأساس لأي تحرك ضد الدولة الإسلامية الرئيسية الوحيدة. إلا أن ضمان الاستقلال يشمل الجزيرة العربية فقط (ولكن ماذا عن عدن والكويت.. الخ). في حين يرى فيصل والقوميون العرب أن السؤال يجب أن يكون حول بلاد الشام والعراق. وقد طلب فيصل خلال مناقشاته مع أسرته في الطائف توخي الحذر مشيراً إلى التحديدات الجغرافية الخطيرة التي تحويها رسالة وينكيت وطلب ممارسة الضغط من أجل الحصول على ضمانات أكثر تفصيلاً من البريطانيين خصوصاً فيما يتعلق بالمسألة المثيرة للجدل وهي الحدود. وعلى الهاشميين من الآن الدفاع عن قضية العرب وليس عن مجرد استقلال الحجاز فقط. أضف إلى ذلك، طالب فيصل بالضغط على الجيش التركي على امتداد جبهة السويس وغاليبولي والعراق لمواصلة إنهاك المقاومة التركية. وقد كان يرغب بعدم إشعال الثورة قبل إنزال الإسكندرونة الذي طال انتظاره عدا أنه سيحمي الثورة العربية الوليدة من الحشود التركية خلف جبال طوروس.

وقد عارض عبدالله، الطموح وكثير الكلام، توخي الحذر. فلم يكن يستطيع أن ينتظر حتى ينهي فيصل كلامه قبل أن يضع تصوراته عن الموقف السياسي والعسكري. وباختصار، فقد أعرب أنه لا وقت للانتظار، وأن علينا تحشيد القوات العربية. فإذا ما انتظر العرب حلول فرصة أخرى مواتية أكثر، وهي سوف لن تأتي أبداً، فعندئذ سيصبحوا جزءاً من الغنائم العامة عند هزيمة قوات الإمبراطورية العثمانية. وحينئذ لا يعد للعرب أي حق في أراضي الإمبراطورية العثمانية المقسمة، وسيقعون ضحية المطامع المعروفة للدول الأوروبية. وطالما أن هذا هو الاحتمال نفسه الذي يخشى منه فيصل، فإن النقطة قد تم تأشيرها جيداً. ولكن من جانب آخر، إذا ما انتصرت دول المحور، فهل يتصور فيصل للحظة واحدة، في الوقت الذي يناقش فيه الآن من موقع القوة الكاملة، أن الأتراك سيسمحون باستمرار استقلال الحجاز؟ فمواقف الاتحاديين معروفة، كما تشير عنها أعمال وهيب بشكل واضح.

سعى الحسين للتوصل إلى نوع من التوافق لتبقى جميع الأطراف راضية، بينما تسير الأحداث إلى نهاياتها. كان من اللازم أخذ ضمانات من البريطانيين بالاستقلال العربي وفق الحدود الموضحة في ميثاق دمشق والمرسل من الحسين إلى مصر. ويجب أن يكون هناك أيضًا بيانًا أكثر وضوحًا عن الدعم المادي المطلوب. فبدون وضع خطوط عامة وواضحة عن كميات الدعم من الأموال والأسلحة، يكون احتمال نشوب ثورة في الحجاز ضعيفًا. إذ ليس من الممكن التحرك ضد الحامية التركية دون المساعدة البريطانية من الأموال والأسلحة الكافية لتحشيد المقاتلين البدو. إلا أنه كان يتفق مع رأي عبدالله بضرورة الإسراع، فجلس يكتب أول خطاب في المراسلات والتي هي الآن أقرب إلى الأسطورة في التاريخ العربي. وفي ١٤ تموز، أرسلت أول رسالة من الشريف حسين إلى السير هنري مكماهون المندوب السامي لصاحب الجلالة في القاهرة، داخل رسالة مرسلة من عبدالله إلى ستورز.

كانت الرسالة تتضمن تقريبًا محتويات ميثاق دمشق عدا إضافة فقرة إلى الرسالة وهي: "على إنكلترا أن توافق على إعلان الخلافة العربية الإسلامية". ومن الملاحظ أن النص الرسمي البريطاني يذكر (الخلافة العربية) فقط، في حين أنها غالبًا ما تترجم أو تذكر بطريقة توحي أن الحسين يطالب بالخلافة إلى نفسه" مع إضافة شرط خاص بالخلافة ينص على أنه إذا بويع عربي بالخلافة فإن على بريطانيا أن تعترف به". ربما يكون هذا هو المقصود، لا كما يذكر دائمًا.

طلب عبدالله من البريطانيين في الرسالة المرسلة إلى ستورز التوقف عن إلقاء المنشورات على جدة والقيام بدلا عن ذلك بإرسال الحبوب المخصصة لهذه السنة مع حصة العام الماضي. وهذه الحبوب هي جزء من المنحة السنوية المرسلة من الحكومة المصرية إلى المدينتين المقدستين لسد حاجة الفقراء فيهما. وقد توقف إرسالها عند نشوب الحرب خشية مصادرتها من قبل الأتراك. فإعادة إمداد المؤن الغذائية الاعتيادية سيعزز كثيرًا من هيبة الهاشميين بين أهالي المدن.

وقبل دراسة جواب السير هنري مكماهون، نجد من الضروري دراسة الأثر الذي خلفته رسالة الشريف إلى المندوب السامي في ضوء ما يعرفونه عن الحركات العربية، ومناورات وزارة الخارجية، ومعاهدات حكومة الهند، والأولويات العسكرية العامة للشرق الأوسط في الحرب الكبرى.

من المؤكد أن السير هنري مكماهون قد فوجئ تمامًا بالرسالة بسبب المطالب الإقليمية التي تحتويها والمحددة بدقة وبشكل شامل. كانت دهشته تعود لاعتقاده أن هذه الرسالة هي مجرد كشف بمطاليب الحسين الشخصية. لا شيء في رسالة الحسين يمكن أن يدفع السير هنري مكماهون ليتحرر من هذا الخطأ، لأنها لا تحتوي أية إشارة إلى ميثاق دمشق. فرغم أن القوميين قد طلبوا من الحسين تمثيلهم، إلا أنه لم يشر إلى ذلك بوضوح في رسالته وهنا يكمن سوء الفهم. لقد بدت الرسالة إلى المندوب السامي على أنها مجرد استمرار غريب لمراسلات كيتشنر والتي كانت محدودة بالحجاز فقط ودورها في الحرب. ووفق هذا السياق بدت مطاليب الشريف بأنها مستحيلة. كتب ستورز عن المفاوضات ما يلي:

"عندما كنت أجهد نفسي في قراءة خطة المعقد (الرسالة الأولى من الشريف حسين إلى مكماهون) بل وحتى عربيته الأكثر تعقيداً، وجدت نفسي أدمدم: (خطأ الألمان في شؤون التجارة إعطاء القليل وطلب الكثير).

كونه (أي الشريف) قد طالب بمعظم جنوب غرب آسيا الناطق بالعربية، باستثناء عدن. لقد كان ذلك رأيي ولا يزال وهو أن الشريف قد فتح فمه واسعاً، وكانت خزينة الحكومة البريطانية وجبة شهية".

... إن ما ورد يؤشر بوضوح الموقف السائد الذي تعامل به البريطانيون مع مطالب الهاشميين، التي عدها البريطانيون مطالب شخصية، في حين من الواضح من مقارنة ميثاق دمشق مع رسالة الحسين الأولى، أن الحسين قد قدم مطالب

القوميين السوريين كما وصلته. أما إذا كان السؤال هو هل يمثل أعضاء الفتاة الروح الحقيقية للقومية العربية فتلك قضية أخرى. وقد وصف كتاب روسي حول التاريخ العربي الروابط بين دمشق ومكة كالتالي:

"يمثل ميثاق دمشق حلفًا بين الإقطاعيين العرب والبرجوازية السورية والفلسطينية والعراقية".

إن ما يعرفه الحسين، هو أن فيصلاً قد أقام روابطًا مع "القوميين"، وأنه قد نقل مطالبهم بأمانة إلى القاهرة.

لم يكن يشكل في تموز ١٩١٥، أي فرق كبير لو أشار الحسين إلى الفتاة أو العهد العراقية الأكثر عسكرية، لأن المخابرات البريطانية لم تكن لديها معلومات كافية عن الحركات السرية في العالم العربي. إلا أنهم وحال استلام رسالة الحسين الأولى، أدركوا طبيعة المعارضة القومية للعرب داخل الجيش التركي. أضف إلى ذلك، ليس هناك من دليل يدعونا إلى الاعتقاد أنهم كانوا يعملون بنشاطات حكومة الهند في عقد الاتفاقيات مع نجد وعسير.

لم يكن المندوب السامي في مصر، كما سيتضح، وحتى زيارة عضو البرلمان السير مارك سايكس في عام ١٩١٦، يعلم بدقة بالاتفاقيات المعقودة مع الفرنسيين والروس بخصوص تجزئة الجسد العثماني في المستقبل.

ورغم أن السير إدوارد كرى وزير الخارجية في ذلك الوقت قد أبلغ الفرنسيين رسميًا في عام ١٩١٢ بأنه ليس لدى بريطانيا اهتمام بالمشرق، إلا أنه من الواضح من تعليقات سكوت أن هذه الحالة الإيثارية قد تم تجاهلها من أجل الحصول على مكاسب ثمينة. ومن أجل منع روسيا من التوصل إلى سلام منفرد مع دول المحور، عرضت بريطانيا على وزير الخارجية الروسية سازانوف أنه إذا

اعترفت حكومة الجلالة الإمبراطورية في بتروغراد بالحدود مع إيران "وتضمن أمن الدولة الإسلامية الفتية في الجزيرة العربية"، فإن بريطانيا ستسمح لروسيا بتحقيق حلمها القديم بحيازة اسطنبول. وقد وافق القيصر في ٢٠ آذار ١٩١٥ على ذلك. والواقع كان الروس أول من أثار مسألة ضم اسطنبول من خلال مذكرة طويلة، مستغلين إنزال الحلفاء في غاليبولي. كانت الشروط البريطانية بالموافقة هي عبارة عن مطالب لتحقيق التوازن مع المكسب الروسي. وقد أدرك الفرنسيون سريعًا خطر إبعادهم عن المنافسة، لذلك ضموا إلى مطالبهم كيليكية وسوريا.

كان يعقد في نفس الوقت الذي استلم فيه مكماهون أول رسالة للحسين، اجتماع للجنة خاصة (لجنة دي بنزن) لمناقشة توزيع غنائم الإمبراطورية العثمانية وقد أوصت بفتح باب المفاوضات مع فرنسا. كان من المقرر أن تبدأ هذه المفاوضات في آب في نفس الوقت الذي يحرر فيه مكماهون جوابه إلى الشريف، مع وصول المسيو جورج بيكو. وجورج بيكو القنصل الفرنسي السابق في بيروت، والذي أدى الدليل الجرمي الذي خلفه وراءه عند مغادرته بيروت، إلى اقتياد عدد كبير من المفكرين العرب إلى أعواد المشانق التركية.

ومن المهم أن نذكر أيضًا التيارين الآخرين اللذين أثرا على مجرى السياسة البريطانية في ذلك الوقت. فقد كان كيتشنر يفضل إقامة دولة عربية حاجزة أو أي حل آخر يؤدي إلى إبعاد الدول الأخرى عن القناة.

في تموز ١٩١٥، صادق مجلس الوزراء البريطاني في اعتراف منه بهذا المطلب، على تدويل فلسطين حيث وافق الفرنسيون على ذلك في وقت لاحق. إلا أنه وفي نفس الشهر حدد الفرنسيون، في تقرير فلاندين إلى مجلس الشيوخ الفرنسي، لتأكيد مطالبهم بسوريا، حدودًا لمطامحهم في المنطقة لتشمل المنطقة الواقعة ضمن خط كيليكية - حلب - أورفة - الصحراء الشرقية - العقبة - رفح. وهذا ما يجعل

الفرنسيين قريبين من سيناء وهذا ما يشكل تهديدًا خطيرًا لها. "إن تمركز فرنسا في سوريا وتطبيق الخدمة الإلزامية هناك، يعني أنها تستطيع زج (١٠٠،٠٠٠) رجل أمام القناة خلال اثني عشر يومًا من إعلان الحرب.أما صحراء سيناء فهي لا تشكل في الواقع عقبة خلال الربيع أو أي وقت آخر، عند مد سكة حديد فيها".

أما التيار الثاني فقد كان يمثله هوغارث ولورنس. فقد كانا يشعران بالقلق من الخطر الذي يشكله الفرنسيون على المصالح الاستعمارية البريطانية، ويرون في الصراع العربي على أنه يأتي في سياق ضرب الفرنسيين. وفي رسالة تنبؤية رائعة، كتب لورنس في ٢٢ آذار ١٩١٥ إلى هوغارث: "أريد أن أجمع دول البحر الأحمر معًا، وأن أوحد سوريا بالحجاز باسم الشريف، فأنت تعلم كم هي سمعته عريضة في سوريا.. نستطيع أن نندفع يمينًا إلى دمشق ونضرب آخر أمل للفرنسيين في سوريا. إنها لعبة كبيرة، وفي النهاية تستحق أن نلعبها. ألا تحب أن تشارك فيها؟ ألا يجن الفرنسيون لو اجتزنا كل المصاعب؟" كم محزنًا أن يعلم القوميون الذين أعدموا في دمشق أن نضالهم قد أصبح لعبة تحتكرها الدول وملموية ببيادق حقيقية ومكتوبة بلغة المدارس المبتذلة.

من الطبيعي نتيجة هذه الفوضى أن يتردد مكماهون في الإجابة بالدقة التي كان يتوقعها الشريف. والحقيقة لم يكن مكماهون يمتلك تصورًا واضحًا عما يدور. فقد أبرق لكيتشنر وكرى وتشاور مع ستورز ولكن لم يكن ممكنًا إعطاء مكماهون أي تصور باستثناء جواب غامض ملتوٍ يكفي لتشجيع الحسين. هذا كل ما زوّد به. وهذا يرجع إلى أن المفاوضات مع الفرنسيين قد بدأت توًا.

كتب المندوب السامي جوابه في ٣٠ آب وأرسله إلى مكة بيد وكيل حجازي موثوق، توجب عليه تهريب جميع الوثائق البالغة السرية من أمام أنظار الموظفين الأتراك. كان الجواب بالنسبة إلى الحسين مهمًا بسبب عدم احتوائه على أية

وعود. فالواضح أن اهتمام الشريف الرئيسي هو التوصل لاتفاقية حول المطالب الحدودية الدقيقة للدولة العربية المستقلة لأنه بدون ذلك يقسم القوميون السوريون بأنهم سيقاتلون دفاعًا عن وحدة الدولة العثمانية. افتتح مكماهون رسالته بتكرار وعود كيتشنر" باستقلال الجزيرة العربية"، ومواطنيها (وهذا المصطلح يعتبر أساس الكثير من اللغط)، واعتراف بريطانيا بالخلافة العربية عند إعلانها". واستمر في رسالته، مما أثار انزعاج الحسين، "وبخصوص قضايا الحدود والتخوم، فيبدو سابقًا لأوانه قضاء الوقت في مناقشة مثل هذه التفاصيل في عز لهيب الحرب، وفي الوقت الذي ترزح فيه أجزاء عديدة منها تحت الاحتلال التركي".

وبعد استلام الحسين لهذه الرسالة، أدرك أن تحذيرات فيصل قد أصبحت أكثر إقناعًا، وبدون الحصول على شيء محدد بدقة، لا يمكن توقع حصول تعاون من جانب أنصار العهد والفتاة. وهذه الرسالة لا تتضمن وعودًا تستحق التضحية في سبيلها. الشيء الوحيد الذي أكدته الرسالة هو استئناف إرسال الحبوب عبر البحر الأحمر إلى الحجاز المحاصر. والواضح أن إشارة مكماهون الواردة في الرسالة بخصوص الخلافة قد جاءت ردًا على إضافة الحسين على ميثاق دمشق. وقد عززت هذه الإضافة شكوك مكماهون بكون هذه المطالب هي مطالب شخصية من الحسين.

حرر الأمير في معرض إجابته، رسالة طويلة، دفعت جورج أنطونيوس يعلق بقوله: "لقد أصبح أستاذًا في هذا الأسلوب الوافي المعتمد على الهذر والإطناب ولكن طول ممارسته له انتهى به إلى أن يسترقه ويستعبده" على أي حال، تناولت الفقرة الأولى من الرسالة موضوعًا اعتبره الحسين ذا أهمية بالغة: "وأوليته أهمية واهتمامًا كبيرين (مشيرًا إلى رسالة مكماهون في ٣٠ آب)، ورغم الانطباع الذي خلفته في نفسي من غموض وفتور وتردد بخصوص موضوعنا الرئيس، فاستميح

العذر والعفو من جنابكم لأقول بصراحة، أن الفتور والتردد الذي أبديتموه بخصوص التخوم والحدود، قد يعني محاولة إبعاد الموضوع أو أي شيء من هذا القبيل". لم يترك هذا مجالاً للشك حول النقاط التي تركز عليها المحادثات بحيث لم يعد بإمكان مكماهون تجنبها. وقد انتهز الحسين هذه الفرصة ليوضح أيضًا أن مطالبه ليست شخصية، ولكن لسوء الحظ لم تذكر رسالته بدقة من هم الذين يمثلهم: "لأن الحدود والتخوم المطلوبة هي ليست لشخص معين يمكن الانتظار لتلبية مطالبه بعد انتهاء الحرب، بل هي حدود شعبنا الذي أقر بأنها أقل حدود أساسية ممكنة ضرورية لحياته الجديدة..".

عندما استلم مكماهون جواب الشريف المؤرخ في ٩ أيلول، كان في وضع أفضل لإدراكه الأساس الحقيقي لمطالب الحسين. في نفس هذا الوقت أي خلال الفترة المحصورة بين رسالة مكة الأولى والثانية، فرّ عضو من جمعية العهد من جبهة غاليبولي يدعى فاروقي. وقد أبلغ السلطات في مصر بأن المطالب التي أرسلتها الحجاز هي مطالب حركة قومية واسعة الانتشار وليست مجرد مطالب شخصية للأمير. ومرة أخرى، أبرق المندوب السامي البريطاني إلى لندن طالبًا المشورة. أشارت عليه وزارة الخارجية أن يواصل عمله منبهة إياه بعبارات عامة حول المفاوضات الجارية بتقدم مع الفرنسيين. لذلك، كان على مكماهون أن يظل غامضًا، إلا أنه وضع في جوابه المرسل في ٢٤ تشرين الأول الخطوط العامة التي تحكم موافقة بريطانيا على الحدود العربية. كان وضعه لا يحسد، لأنه يعلم أن مفاوضات تجري في مكان ما وقد تعطي ما قد يمنحه هو. لم تكن لديه أية تعليمات واضحة، وتتضح تعليمات لندن في جوابه إلى الحسين ونقتبس منه التالي لأغراض الدراسة:

"لا نستطيع القول أن ولايتي مرسين والإسكندرونة وأجزاءًا من سوريا الواقعة إلى الغرب من ولايات دمشق وحمص وحماه وحلب، أنها عربية محضة.

وعليه يجب استثناؤها من الحدود المطلوبة. مع هذا التعديل ودون المساس بالمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض الزعماء العرب، نحن نقبل بتلك الحدود (وهي الحدود المقترحة من قبل الحسين في رسالته في ١٤ تموز). أما بخصوص الأقاليم التي تضمها تلك الحدود، حيث تكون فيها بريطانيا حرة التصرف دون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا، فإني مخول من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم المواثيق التالية وأجيب على رسالتكم بما يأتي:

وقد كان المندوب السامي محقًا في بيانه بخصوص منطقتي مرسين والإسكندرونة، فكلاهما تركيتان أكثر مما هما عربيتان. وكان من المعروف أن الأهمية العسكرية للإسكندرونة كبيرة، وقد عدها لورنس بأنها محورية في استراتيجية الشرق الأوسط. مع ذلك، لم يكن هذا بل البيان التالي هو الذي أصبح أساس نزاع كبير فيما بعد.

ونظرة إلى خارطة المشرق توضح أن أجزاء سوريا التي تقع غرب ولايات دمشق وحمص وحماه وحلب لا تشمل فلسطين. وبما أنه ليست هناك "مراكز" إدارية لحمص وحماة فيجب أن يؤخذ هذا التعبير ليعني "المنطقة" الواقعة غرب هذه المدن الأربعة التي تقع على امتداد يبدأ من الشمال ويتجه نحو الجنوب. وفي رسالة لاحقة (في ١٤ كانون الأول - الفقرة الرابعة) يشير مكماهون بشكل خاص إلى المناطق المستثناة على أنها تقع ضمن ولايات حلب وبيروت. وهذا استخدام صحيح لكلمة ولاية. لم يكن سنجق فلسطين (القدس) المستقل يقع ضمن ولاية بيروت ولم يكن أيضًا يقع "غرب دمشق وحمص وحلب وحماه".

لذلك بالنتيجة لا يمكن إثبات أن فلسطين كانت مستثناة من المنطقة التي وعد العرب فيها بالاستقلال. على أية حال، أثناء تحرير جوابه، قررت لجنة بنزن وجوب التخلي لأسباب استراتيجية عن شمال فلسطين فقط إلى فرنسا. أضف إلى

ذلك رفض الروس أي مطلب قد تدّعيه فرنسا لممارسة السيطرة التامة على منطقة فلسطين على أساس أنها "جزء طبيعي من سوريا"، لأن للروس مدارس وبعثات في المنطقة. وهناك ما يشير، كما سيرد ذلك، في اتفاقية سايكس – بيكو في شباط ١٩١٦، بأنه ليست هناك نية لإقامة دولة فلسطينية مستقلة أو أن تصبح جزءًا متممًا لأية دولة عربية مستقلة. إلا انه من الواضح أيضًا أن رسالة مكماهون إلى الشريف لا تترك أي انطباع بأن فلسطين ستناقش كقضية خاصة. وطالما أنها لم تستثن بشكل خاص، لذلك فإنها يجب أن تكون ضمن حدود الدولة العربية. إن سوء الفهم هذا هو الذي جعل إعلان بلفور أكثر من مفاجأة مذهلة عند إعلانه.

وبالنسبة إلى فيصل والقوميين، فإن رسالة مكماهون يجب أن تكون قد جاءت تأكيدًا لمخاوفهم السيئة. لم يكونوا يعلمون بالاتفاقية التي يجري إعدادها لنقل ولاية عكا الساحلية الغنية إلى الفرنسيين أو أن مجمل منطقة شمال الجزيرة العربية قد قسمت إلى مجالات "نفوذ". ولم يفهموا أن كلمة (الاستقلال) العربي، بالنسبة لبعض المفاوضين البريطانيين، تعني الاستقلال من الأتراك فقط. ويجب أن يكون المعنى الحقيقي لعبارة (حرية التصرف دون المساس بالمصالح الفرنسية) قد صب الزيت على نار الشكوك. فإذا كانت لفرنسا "مصالح"، فليس هناك عربي لا يعلم أين تكمن هذه المصالح – إذ من المؤكد أنها في سوريا.

وواصلت الرسالة تأكيدها بضمان سلامة الأماكن المقدسة من العدوان وتأمين امتيازات للبريطانيين في المواقع الفنية والاستشارية والاعتراف بوضع ومصالح بريطانيا العظمى في ولايات البصرة وبغداد. والنقطة الأخيرة تعني الاعتراف بالأمر الواقع الناتج عن احتلال قوة الحملة الهندية لأراضي بلاد الرافدين السفلى.

وقد رد الحسين بسرعة (في ٥ تشرين الثاني)، لأن القضية دقيقة، أو كما كان يعتقد تتعلق بشروط خاصة. وقد قبل التخلي عن مرسين وعن محاولة ضم أضنة. أما بخصوص قضية الأراضي العربية في سوريا، فقد كان الحسين عنيدًا. وكان يرى تمييز مكماهون بين (عربية محضة) و(عربية غير محضة) أمرًا غير صحيح. وأجاب بأنها (ولايات عربية محضة ولا فرق هناك بين عربي مسلم وعربي مسيحي). ونفس الأمر يجري مع الولايات العراقية، فهو مستعد لقبول نظام إدارةٍ قصير الأمد من قبل القوات البريطانية لها، ولكن بأن لا يفقد السيادة عليها مطلقا.

وعند مواجهة مكماهون لمشكلة المناطق الساحلية لسوريا، سعى ثانية للحصول على تعليمات من رؤسائه، ولكنه أبلغ بتعذر وجود أي حل توفيقي بين الفرنسيين والعرب في هذه المنطقة لأنها حيوية للمصالح الفرنسية. ومن المؤكد أن مكماهون لم يكن يعلم بدقة في هذا الوقت لماذا هي حيوية إلى هذا الحد، والسبب يعود إلى أنه لم يكن يعمل بتفاصيل اتفاقية سايكس - بيكو حتى ربيع السنة التالية. وهذا أيضًا أثار سؤالاً حول الرأي القائل بأن الحسين، ومن خلال فاروقي الذي يتراسل مع الحسين من القاهرة، كان يعلم الكثير عن مصير كل شبر في المنطقة. وهذا الاتهام وجه له خلال مفاوضات السلام في باريس ويعتبر أساسًا لرأي عربي خطير في الوقت الحاضر.

تأخر المندوب السامي قدر الإمكان في الرد، وأخيرًا في ١٤ كانون الأول، حرر جوابًا موجزًا شجع الحسين على اقتراف خطأه القاتل. كتب السير هنري في رسالته:

"بخصوص ولايات حلب وبيروت، فقد تفهمت حكومة بريطانيا العظمى ودرست بدقة ملاحظاتكم ولكن بما أن لحليفتنا فرنسا مصالح فيهما فإن القضية

تتطلب دراسة دقيقة.." لا ذكر الآن لعبارة (عربية محضة) بل الاعتراف الصريح والبالغ الخطورة بالمصالح الفرنسية. كان يجب أن يكون ذلك إنذارًا قويًا للحسين وأن يدفع السوريين، إذا ما صدقنا أدائهم للقسم، للقتال ضد ذلك، بدلا من قتال الأتراك. ليس هناك ظرفا يجعل الحسين يقبل بهذا الشرط.

ومرة أخرى أجاب الحسين بسرعة، ملفتًا النظر إلى أن (قد أوضح ما هي التعديلات الممكنة) فيما يخص المناطق الساحلية لسوريا. واقترف ثانية خطأ قاتلا. إنه نفس الخطأ الذي اقترفه العرب في علاقاتهم مع تركيا الفتاة قبل ثورة ١٩٠٨، حيث قرر تعليق القضية حتى انتهاء الحرب. "إن هذا هو الشعور الذي أجبرنا على تجنب إلحاق أي أذى لعلاقات التحالف بين بريطانيا العظمى وفرنسا والاتفاق المبرم بينهما خلال فترات المحن والحروب الحالية، إننا نجد من واجبنا إبلاغ الوزير مكماهون بأننا وفي أول فرصة بعد انتهاء هذه الحرب، سنطلب منكم ما تركناه الآن لفرنسا في بيروت وسواحلها". أما رأيه الحقيقي بخصوص القضية فهو معروف لأنه، كما يشير، "من المستحيل علينا أن نسلم بأي إجراء يعطي لفرنسا أو أية دولة أخرى شبرًا من الأراضي في تلك المنطقة".

لماذا فعل ذلك؟ يظهر أن هناك سببان: الأول أنه قد حشر في زاوية ضيقة من قبل الأتراك لأن الارتياب الشديد قد أخذ يساورهم وطلبوا منه إرسال أفراد من أسرته كرهائن إلى دمشق. والثاني أن الشريف كان يقدر كثيرًا الأمانة البريطانية. كان يعتقد أن البريطانيين قد لعبوا دورًا في تعيينه على إمارة مكة، ونتيجة مراقبته للعبة السياسة الدولية في اسطنبول، توصل إلى قناعة بأن البريطانيين هم أكثر السياسيين استقامة. وقد تغير رأيه تمامًا بعد الحرب، وأصبحت سمعته الحالية بين العرب هي الثمن الذي دفعه مقابل هذه الثقة. نستطيع أن نصف الأعمال الأخيرة للسير مارك سايكس وتي. ئي. لورنس بأنها

نموذج "للازدواجية". أما بالنسبة للمندوب السامي في مصر، فليست هناك في الواقع، ازدواجية بل إهمالاً، باستثناء قضية فلسطين.

في جوابه في ٢٥ كانون الثاني، أشار السير هنري مكماهون إلى احتمال أن تصبح الصداقة الإنكلو- فرنسية أقوى بعد الحرب. وهذا يعني أنه لا يرى أي تغيير في الموقف بخصوص المناطق الساحلية. لقد كتب هذه الملاحظة، والقضية ستدرس لاحقا بشكل مفصل. بعد ذلك اضطر الحسين للاستمرار دون استلام الضمانات الأساسية لميثاق دمشق. هل كان ذلك خيانة للمصالح العربية كما يشار دائمًا؟ إنني لا أعتقد ذلك، لأنه قد بين مطالبه بشكل واضح. إن خطأه يكمن في الثقة والقرار السياسي بدلاً من أنه خطأ مبدئي. إنه، في أسوأ الأحوال ساذج وبسيط. أما بخصوص قضية فلسطين، فلا لوم عليه، لأنه ببساطة شديدة، ليس هناك من سبب على الإطلاق يدعوه للشك بأن فلسطين قد أخرجت من نطاق السيطرة العربية. والواقع أن رسم مكماهون للحدود يشير بوضوح أنها تقع ضمنها. ومن المستحيل أن يكون السير هنري لا يعرف، وذلك من خلال استخدام الحسين وأخيرًا استخدامه، مضمون تعبير "ولايات حلب وبيروت"، وأن فلسطين لم تخضع للمناقشة. والوارد أن السير هنري لم يبحث موضوع فلسطين على أساس أن استخدامه لتعبير "ولاية دمشق" يغطي جميع المناطق جنوبيًا إلى العقبة. وليست هناك إشارة تفيد أنه يعتزم منحها للعرب. ويبدو أنه لم يقدر غلطته. ففي مرحلة مبكرة، أخرجت فلسطين من الساحة العربية لأغراض اتفاقية سايكس - بيكو. ولا يبدو مؤكدًا أن أنباء ما يجري في لندن قد تسربت إلى القاهرة حيث تدور المفاوضات. ويشير طلب السير هنري بتنسيق المفاوضات مع العرب أنه كان يعرف وضعه المنعزل.

استمرت المراسلات حتى ١٠ آذار ١٩١٦، ولكنها أخذت طابع قوائم التجهيز والشيفرات السرية لتسهيل إمداد الأسلحة ودفع الأموال إلى البدو.

ما الذي كان يجري في لندن وباريس خلال فترة الثمانية أشهر هذه؟ في شباط ١٩١٦ وقعت معاهدة سايكس - بيكو والتي تعني، بخصوص المناطق الساحلية لسوريا، إنه لم يبقى للشريف شيئًا للتفاوض والحصول عليه بعد الحرب. وباختصار، قد أقرت تقسيمًا غريبًا، وبالنسبة إلى العرب، غير منطقي البتة في الشرق الأوسط. من غير الضروري أن نتناول الآن المناطق الممنوحة للروس والإيطاليين كونها تقع خارج نطاق الساحة العربية. قسمت المنطقة العربية الشرق أوسطية شمال الجزيرة العربية وفق المصالح البريطانية والفرنسية وبالشكل التالي:

- منطقة حمراء: وتشمل الحوض الأسفل لبلاد وادي الرافدين وعلى امتداد المنطقة الساحلية الشرقية من الجزيرة العربية (باستثناء الإحساء التركية المحتلة من قبل النجديين) وموانئ حيفا وعكا في فلسطين كمنفذ للعراق إلى ساحل البحر المتوسط. تدار هذه المنطقة مباشرة من قبل بريطانيا.
- منطقة زرقاء: وتشمل غرب سوريا (بما فيها لبنان) وبضمنها المنطقة الساحلية ابتداءًا من شمال يافا، وأجزاء كبيرة من كيليكية، وأخرى من جنوب بلاد الأناضول. تدار هذه مباشرة من قبل الفرنسيين.
- المنطقة (أ) وتشمل الكثير من سوريا الحديثة بما فيها حمص ودمشق وحلب وحقول الموصل الغنية. تعطى نفس الامتيازات الخاصة ببريطانيا في المنطقة (ب) إلى فرنسا في المنطقة (أ).
- المنطقة (ب) وتضم العقبة إلى عمان وحقول كركوك في العراق. تقام في هذا الجزء دولة عربية، تكون فيها المصالح البريطانية مفضلة من الناحية الاقتصادية والإدارية (أي شرط تعيين المستشارين).
- منطقة بنية - وتشمل معظم فلسطين من يافا إلى غزة وتدار من قبل إدارة مشتركة للحلفاء. وهذا حل وسط توصل إليه الحلفاء لمنع فرنسا من كسب

حقوق مطلقة فيها وأبعاد أي عدو محتمل لبريطانيا عن القناة. وبذلك كسبت بريطانيا حجابًا واقيًا.

أصبح الزر الكهربائي في وضع الاشتعال الآن. ومن الغريب أن الأجزاء الأكثر غنى وتقدمًا في الشرق الأوسط قد أعطيت للحلفاء، في حين أكثرها تخلفًا أي المناطق الصحراوية، منحت قدرًا كبيرًا من الاستقلال. وقد أصبحت التوضيحات التي تتعلق بالقضية العربية عن المصلحة المشتركة في وثيقة مكماهون مثيرة للسخرية، وظهر أن مخاوف فيصل العميقة الجذور في محلها.

تشير وثيقتان مخطوطتان بقلم تي. ئي. لورنس (ملازم أول في ذلك الوقت، والتحق في الآخر بمصلحة المخابرات)، إلى التفكير السائد لدى جزء من منتسبي المفوضية السامية في القاهرة:

(إن العرب أقل استقرارًا من الأتراك، وإذا ما أديروا بشكل حسن، فإنهم يبقون في حالة من التنوع السياسي، إنهم نسيج من الإمارات الصغيرة الغيورة غير القادرة على التماسك فيما بينها. إذا تخلينا عنها فستقع تحت سيطرة واستعمار دولة أوربية أخرى ستدخل لا محالة في صراع ضد مصالحنا في الشرق الأوسط).

وواصل لورنس بعد ذلك حديثه في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة"، "كنت أرى أن وعودي للعرب كأوراق الخريف... لقد مارست الخديعة لإيماني بأن المعونة العربية ضرورية لتحقيق نصر مؤزر سريع ورخيص في الشرق، والأفضل لنا أن ننتصر ونخلف وعودنا على أن تلحق بنا الهزيمة".

ملاحظة:

أود أن أعلق على الحجة التي استخدمها خدوري في كتابه (القاهرة والخرطوم والقضية العربية) وفرايدمان في كتابه (مراسلات الحسين - مكماهون

وقضية فلسطين) على أساس أن الحسين قد أبلغ بالرغبة الإمبراطورية عن طريق فاروقي، وأن الأخير قد قدم تنازلات بالنيابة عن الحسين بخصوص أجزاء من سوريا الكبرى. وهذا مستبعد تمامًا للأسباب التالي:

أ) يظهر أن فاروقي كان يتحدث في هذه المناسبات بصفته الشخصية أو كرجل "قومي" إضافة إلى قيامه بنقل تعليمات الشريف. لم يوفد الحسين مطلقاً أية جهة لها سلطة تنفيذية، لذلك ودون وجود أي دليل يشير إلى تعليمات محددة من مكة، يجب إهمال "تنازلات" فاروقي وعدم اعتبارها بأنها ملزمة بأي شكل من الأشكال للحسين.

ب) كان وضع فاروقي غير رسمي، وكان الحسين يرى أنه من المناسب استخدامه كناطق بلسانه فقط، وليس لديه أي تخويل بالتفاوض.

ج) كان فاروقي شخصية غير موثوقة، وقد أورد خدوري المثال التالي ليمزز من أهميته الشخصية وقيمة خدماته، "كان يكتب للشريف بين الفينة والأخرى عن مقابلات مع المندوب السامي لم تحدث طلقاً". ص٢٨٩ لقد طبق العملية بالمقلوب تمامًا.

لذلك يعتبر فاروقي شاهدًا ضعيفًا على الازدواجية الشريفية. ولمزيد من التفاصيل بخصوص هذه النقطة، انظر كتاب (العثمانية والعروبة) لمؤلفه داون. وهناك تشابه كبير بين فاروق والدكتور ناجي الأصيل المعتمد الهاشمي في لندن، والذي سيرد ذكره بالتفصيل لاحقا.

* * *

الفصل التاسع

انتهاء المسايرة

"سيسأل العديد من البريطانيين وأغلب الفرنسيين، لماذا اخترنا خلال الحرب الاعتماد على أمير عربي ضعيف، وبذلك حكمنا بالفشل على أي نهج يهدف لوضع الجزيرة العربية المتحدة بجانبنا بشكل دائم؟ إن جواب الشق الأول من السؤال هو أنه في الوقت الذي لا الأمير الضعيف (الحسين) ولا الأمير القوي (ابن سعود) يمتلك القوة المادية بحيث يشكل خارج نطاق الجزيرة العربية - فرقاً كبيراً في حربنا، فإن الضعيف في القوة المادية يمارس تأثيراً معنوياً كبيراً على العالم الإسلامي، ويمكن أن يجعل، وجعل فعلاً، الفرق كبيراً. كنا نعرف أن قيامه بفصل الأراضي المقدسة عن حرب الخليفة التركي له ردود فعل مختلفة إلا أنه سيخلق في كل مكان انقساماً وتردداً، في الوقت الذي يرغب فيه أعداؤنا بالوحدة والفعل السريع. وبتبنينا لهذه السياسة، لم نكن ننظر إلى أبعد من نطاق الحرب".

دي. جي. هوغارث

٢٧ كانون الثاني ١٩٢٥

من حديث منشور في مجلة شؤون دولية صادرة في نفس العام

في نهاية كانون الأول ١٩١٥، ولتبديد شكوك الأتراك المتزايدة، أوفد الحسين نجله الثاني فيصل إلى دمشق، كانت تلك حركة دبلوماسية من جانبه، حيث سيبعد من خلالها شكوك الأتراك بنشاطاته، طالما بأيديهم رهينة نفيسة كهذه. إضافة إلى ذلك، كانت لدى فيصل أوامر من والده ليصبح حلقة وصل بينه وبين الحركة القومية في دمشق.

لقد سببت الأوضاع التي شهدها فيصل في دمشق هزة عنيفة له. فقد تم ضرب الحركة القومية بقسوة وكانت الأوضاع تثير الفزع. فبعد انسحاب الحلفاء من غاليبولي، استعاد الأتراك الثقة بأنفسهم التي عززها الإنهاك المريع في كوت الإمارة (العراق) حيث حوصرت قوات الجنرال طاونزند وأهلكها الجوع. وقد دفعت هذه الثقة الجديدة الأتراك لاتخاذ خط متشدد ضد المتمردين في الداخل. أضف إلى ذلك، فإنه بعد غزو أنور المتهور للقوقاس، توصل إلى قناعة بأن خسارته لا تعود إلى بؤس حظه في التخطيط والتوقيت السيء بل إلى نشاط الطابور الخامس الأرمني، وما تلا ذلك، كان واحدًا من أعمال الإبادة الجماعية المنظمة والوحشية والتي لو لم تحصل أحداث ١٩٣٩-١٩٤٥، فإنها ستظل عصية على التصديق.

وعلى غرار مذابح الأرمن، أقام جمال منطقة رعب في المشرق، ولعجزه عن اكتشاف جذور التمرد داخل الجيش، تحرك جمال وبسلسلة من أعمال المداهمة، جمع وأعدم علنًا عددًا من الثوار البارزين خلال شهر آب ١٩١٥. لقد أدت عمليات الشنق العلني في ساحات بيروت ودمشق - والتي شهد فيصل بعضًا منها - إلى تفشي حالة من الرعب والهلع داخل العالم العربي، ورغم المرارة التي ولدتها هذه العمليات، إلا أن جمال كتب في وقت لاحق: "نحن مدينون إلى عمليات الإعدام وحدها في عدم حصول أية ثورة في سوريا خلال السنتين والنصف التي تلت إعلان الشريف للاستقلال". وهكذا ظلت الحجاز وحدها تعمل بانفراد لتنفيذ ميثاق دمشق.

كان الوضع بالنسبة للقوميين أسوأ مما حصل بكثير. فاستجابة لطلب من أنور (وزير الحربية) لإرسال قوات إلى جبهة غاليبولي، استغل جمال الموقف وأرسل وحدات تسودها العناصر العربية واستبدلها بقوة مشاة تركية موثوقة. وبهذه الطريقة، تم إضعاف جمعية العهد، ونقلت قواتها المدرعة إلى مكان لم تعد لها فيه أية فائدة للعرب. وانتهت الثورة في سوريا قبل أن تبدأ.

كانت الأوضاع التي شهدها فيصل حوله في المدن والضواحي بائسة إلى أبعد الحدود. وكإجراء عقابي على أية أعمال خيانية ومن أجل إكراه السكان العرب على الخضوع، أعطيت الجندرمة اليد الطولى في القيام بأعمال التحري عن كافة أشكال السلوك المريب. والأسوأ من ذلك، أن الجيش قد استولى على تسعة أعشار إنتاج الحقول من الحبوب، وسرعان ما انتشرت المجاعة في المشرق، والتي كلفت البلاد عشرات الآلاف من الضحايا. كان من المستحيل شراء الطعام أو أي شيء أساسي آخر، لأن العملة قد انخفضت قيمتها وقد تم تحطيم البرجوازية السورية. وكان الموالون فقط أو أصحاب الأملاك هم الذين استطاعوا حماية أنفسهم من تأثيرات المجاعة والعوز.

لقد اتضح لفيصل عندما وصل دمشق مع رجاله الأربعين - الذين يمثلون في الظاهر طليعة قوات المتطوعين -، أن الثورات المتزامنة في كل من سوريا والعراق والحجاز لم تعد ممكنة. فإذا أريد أن تندلع الثورة، فعلى الهاشميين، وبالدعم البريطاني، أن يتولوا القيام بها وحدهم، وينتظروا دعمًا سوريًا لأن منطقتهم هي التي سيجري تحريرها. لم يكن فيصل يدرك في ذلك الوقت أنه قد وضع بندًا أساسيًا في استراتيجية العرب وذلك بالقتال ضمن قوات الحلفاء. فقد خطط العرب طوال الوقت على أساس حصول إنزال للحلفاء موازٍ لطول الساحل السوري في الإسكندرونة، وبدون ذلك، يرون أنهم سيكونون مكشوفين تمامًا أمام الحشود التركية المندفعة من بلد الأناضول. كان فيصل يعرف أن قادة الجيش في القاهرة

يساندون هذا الرأي، إلا أنه لم يكن يعلم أن الفرنسيين قد انتبهوا فجأة إلى خطر فكرة قيام قوة بريطانية بالإنزال في حين لا يملك الفرنسيون قوات هناك لتحقيق التوازن الاستعماري. ويخشى الفرنسيون أن تتهدد "المصالح الخاصة" لفرنسا في سوريا والتي تم التأكيد عليها بشدة في مفاوضات اتفاقية سايكس - بيكو، وقد يؤدي هذا الإنزال إلى حالة الأمر الواقع التي يفضلها البريطانيون. وفي كتاب مرسل من الملحق العسكري الفرنسي في لندن في ١٣ تشرين الثاني ١٩١٥، أعلن الفرنسيون: "إذا ما حاولت الحكومة البريطانية إنزال قواتها في خليج الإسكندرونة من أجل قطع سكة الحديد إلى فلسطين، فعليها أن تأخذ بنظر الاعتبار لا المصالح الاقتصادية لفرنسا في هذه البلدان فحسب، بل أيضًا مكانتها السياسية والمعنوية فيها.

لا يمكن للرأي العام الفرنسي أن يغفل عن أية عملية عسكرية تجري في بلد يعتبر جزءًا من الدولة السورية المقبلة، فهذا لا يتطلب فقط بألا تجري أية عملية عسكرية في هذه البلاد دون الاتفاق المسبق بين الحلفاء، بل إذا ما جرت هذه العملية، فيجب أن يوكل الجزء الأكبر من المهمة إلى القوات الفرنسية وأن يتولى قيادتها الضباط الفرنسيون".

يبدو غريبًا في ظروف عام ١٩١٥، أن يتنازع حليفان حول أهم عملية حربية ضد الأتراك. ورغم دعم كيتشنر وماكسويل والسير جارلس مونرو لإنزال الإسكندرونة، إلا أن الرأي قد استبعد لأسباب سياسية، وتم تبني فكرة شن هجوم جبهوي على قطاع غزة في فلسطين. وقد كلف ذلك في خريف ١٩١٨ (٥٠,٠٠٠) إصابة. أصبح واضحًا بعدها أهمية كسب دعم ومعونة العرب على الجناح الأيمن للجيش عند تقدمه عبر فلسطين نحو دمشق والقدس.

ورغم الإجراءات الأمنية الصارمة التي أحيطت بفيصل خلال وجوده "كضيف" لجمال، إلا أنه حاول إيصال الأخبار السيئة سرًا إلى والده وطلب منه توخي الحذر أكثر من أي وقت مضى. كان والده ينظر إلى القضية بشكل مختلف وقرر أن الوقت قد حان للعمل حتى لو كان هذا يعني أن الحجاز ستتولى المهمة وحدها دون العرب. وحال استلامه لأنباء فيصل، كتب إلى السير هنري مكماهون في القاهرة يبلغه بالتطور غير المتوقع للأحداث:

"لقد استلمنا تقريرًا مفصلاً من فيصل يخبرنا فيه أن استبداد وطغيان الحكومة هناك قد جعل الناس يولونها ظهورهم، بحيث لم يعد لها نصير تعتمد عليه بين صفوف الجند أو غيرهم اللهم إلا فئة قليلة لا أهمية لها".

وأورد ملاحظة فيصل باحتمال نقل (١٠٠,٠٠٠) جندي عربي إلى الموصل (العراق) رغم أن هذه الفكرة، كما يتبين من أعمال جمال في ذلك الوقت، تبدو غير محتملة، وواصل الحسين حديثه في رسالته قائلا:

"إننا نرى من الأفضل إرسال نجلنا الأكبر (علي) إلى المدينة المنورة مع قوة تكفي لتقوية مركز أخيه الموجود حاليًا في سوريا والذي أمامه أنسب فرصة لتدمير سكة الحديد أو تنفيذ أية عمليات قد تدعو إليها الظروف".

واستمر الشريف يدرج طلباته الحربية من الأسلحة والذخائر والأموال... الخ وجميعها يجب أن توضع في بور سودان.

كان فيصل يتعرض لضغط شديد خلال إقامته في دمشق لأن صبر الأتراك على وشك النفاذ، ولم تبق وسيلة من المجاملة والدبلوماسية لم تطرق لإخفاء حقيقة الموقف. وقد أخبر فيصل جمالاً بأن والده سيرسل المتطوعين بأقرب فرصة

إذا ما تم سحب والي الحجاز بشكل نهائي وحولت جميع سلطاته إلى الحسين. إلا أن جمال رفض ذلك.

في آذار ١٩١٦، وصل القائد العام أنور إلى دمشق بينما كان فيصل يستعد لمغادرة المدينة متوجهًا إلى المدينة المنورة لرفع لواء الثورة. ولكن ما أثار دهشته وقلقه الكبير أن جمالاً وأنورًا قد أعلنا رغبتهما في مرافقته في طريق سكة حديد الحجاج إلى مرقد النبي محمد. وقد وصف لورنس الحيرة التي تملكت العرب خلال الأيام القليلة التي أعقبت ذلك، حيث يتناقض الميل الطبيعي للتخلص من قادة العدو مع تقاليد الضيافة العربية.

"وفي الآخر سارت الأمور بسلام، رغم أن سخرية الأحداث كانت كبيرة. فقد راقب أنور وجمال وفيصل القوات وهي تتحرك وتتنقل في السهل الترابي. سأل أنور: ".. هل جميع هؤلاء المتطوعين جاءوا من أجل الجهاد؟ أجاب فيصل: "نعم"، "وكلهم يرغبون في القتل حتى الاستشهاد ضد أعداء المؤمنين؟ "أجاب فيصل ثانية "نعم"، ثم تقدم الزعيم العربي لتحيتهم، فسحبه الشريف علي بن الحسين وهمس في أذنه: "يا إلهي، ألا نقتلهم الآن؟" أجاب فيصل: "كلا، إنهم ضيوفنا".

ومن أجل تأمين الحماية لضيوفه، اصطحبهما فيصل في طريق عودتهما إلى دمشق، ومرة أخرى بدأت المفاوضات وكل مرة تصبح أكثر إلحاحًا وإثارة للشك من سابقتها. كانت الزيارة إلى المدينة المنورة في بداية آذار، وفي منتصفه وصل عليّ إلى المدينة حيث اصطدم مباشرة مع إدارة الحكم فيها، وقد اشتكى الحاكم التركي بصري باشا إلى رؤسائه، كانت المدينة المنورة مرتبطة باسطنبول مباشرة ولا تحكمها ولاية الحجاز. وقد أبرق أنور، الذي عاد إلى اسطنبول، إلى الحسين يطلب منه أمر علي بالكف عن التدخل والعودة إلى مكة وإرسال قوات المتطوعين. وقد فوجئ بجواب الحسين غير المتوقع.

فقد أبرق الشريف سلسلة من مطالبه وأن عدم تلبيتها سيؤدي إلى سحب المتطوعين. كانت مطالبه باختصار بالشكل التالي:

- تحقيق الأماني العربية.
- عفو عام عن السجناء السياسيين العرب.
- اللامركزية في الحكم في سوريا والعراق.
- تأكيد الحكم الوراثي للأسرة الهاشمية لإمارة مكة.

إذا لُبِّيت هذه الشروط، فإن قوة المتطوعين سترسل، وسيعلن الجهاد أيضًا. إلا أنه إذا لم تلب، فليس بوسعه سوى "الدعوة لكم بالنصر فقط".

شعر أنور بالانزعاج الشديد لهذه البرقية، لأنه أحس بأنه قد خدع بإرساله (٦٠،٠٠٠) ليرة أي (٥٤،٠٠٠) باون كأسلحة ومعدات إلى قوة المتطوعين في بداية السنة. والأسوأ من ذلك، يظهر أن أمواله ومعداته ستستخدم فعلاً ضد الأتراك. أخبر أنور جمالا بمطالب الحسين، حيث أجاب بلغة صريحة برسالة إلى رئيس الوزراء. كانت النقطة المركزية فيها هي اقتراحه بألا يرى الحسين ولده فيصلا، حتى يرسل قوة المتطوعين.

استدعى جمال الغاضب، فيصلاً، وطلب منه توضيحًا عاجلاً لتصرف والده الغادر. فالقضية لم تعد مناشدة فيصل لتلبية مطالب أسرته، بل أصبحت من الآن خاضعة للتحفظ والتفكير السريع. المؤكد أن فيصلاً قد تعرض لضغط شديد لتوضيح رسالة والده، إذ أوضح لهم أن معرفة والده للتركية محدودة، وأنهم قد أساءوا فهم المعنى الحقيقي للرسالة. أضاف القائد التركي في سوريا جوابًا إلى جواب أنور وأبلغ الحسين أن السعي للعفو عن الخونة هو أمر غير قابل للنقاش لأنه سيسيء إلى سمعة الحكومة ويظهرها بمظهر الضعف في هذا الوقت العصيب من الصراع مع العالم الكافر. وأضاف في جوابه "لو اطلعت على ما تحويه الوثائق

المتروكة.. فستدرك حجم غدر هؤلاء الناس". كان يشير في ذلك إلى وثائق جورج بيكو التي عثر عليها في القنصلية الفرنسية والتي تكشف المفاوضات السرية بين الفرنسيين وبعض العرب السوريين. ولا يمكن أن تفوت على الحسين ملاحظة ذلك بالمقارنة مع موقفه إزاء البريطانيين.

وبخصوص موضوع وراثة الإمارة، استمر جمال يوضح: "إن الوقت غير مناسب حاليًا لأننا في حالة حرب ويجب أن تكرس جميع الطاقات البشرية لهذه القضية. وإذا ما قبلت الحكومة طلبك الآن من أجل تجنب المشاكل فقط، فعندئذ ما الذي يجعلك تعتقد أن الحكومة سوف لن تغير رأيها عندما تنتهي الحرب؟". يجب أن يكون ذلك قد ضرب على وتر بالغ الحساسية لدى الحسين وعبدالله، لأنهما قد أدركا أنه بعد انتهاء الحرب بالنصر التركي، فمن المتوقع أن تمارس تركيا نهجًا متشددًا يتمثل بقانون الولايات، ولن يمر وقت طويل حتى تلغى امتيازات وراثة الإمارة والاستقلال المحلي. أصبح الحسين الآن في وضع لا يقبل التردد، فأما قيام عبدالله بالثورة حالا، أو الرجوع التام إلى أحضان تركيا على أمل - وهو أمل بعيد - الحصول على شيء من العرفان من جانب تركيا في حالة انتصارها. لقد انتهى الآن زمن المسايرة

كذلك تخلص فيصل سريعًا، وهو الابن الأكثر حذرًا - من آخر المشاعر المتبقية لديه في التوصل إلى تسوية للخلافات مع الأتراك. ففي نهاية نيسان ودون سابق إنذار جرت وجبة من عمليات الإعدام في الساحات الرئيسية لبيروت ودمشق. كان الهدف منها هو إشاعة جو الرعب في الهلال الخصيب، أكثر أقطار العالم العربي تقدمًا، لأن المحكومين بالإعدام لم يكونوا مسلحين أو مدانين بالتمرد، بل النخبة المفكرة في المجتمع العربي، حيث كان من بينهم القضاة والمحامون والكتاب والوجهاء. ومن بين المعدومين الواحد والعشرين، كان سبعة عشر منهم مسلمين، والباقي مسيحيين، ومهما يكن فقد استطاع فيصل تجنب

التجربة المروعة بوجوب مشاهدة عمليات الإعدام كما أجبر على ذلك في زيارة سابقة حيث كان تأثيرها عليه شديدًا. إذ وردته الأنباء وهو في مزرعة البكري الواقعة على بُعد خمسة أميال عن دمشق حيث "وثب على قدميه كشخص جن فجأة، وخلع كوفيته من على رأسه ورماها أرضًا وداسها بعنف". كان يعلم أن هؤلاء الضحايا قد حكم عليهم بالإعدام وقد ناشد جمالاً بالرأفة بهم ولكن دون جدوى. كذلك لم تؤدي مناشدات والده إلى أية نتيجة أيضًا. على أية حال، حقق جمال أهدافه لأن هذه الأعمال المثيرة للفزع والتي لم تميز بين مذنب وبريء قد روعت كل بلاد الشام. ومنذ ذلك الوقت تم القضاء على أية إمكانية لنشوب الثورة هناك. وتم أيضًا قمع آخر خندق لثورة الجنود العرب في حامية الموصل بوحشية بالغة، وظلت الحجاز وحدها في الميدان.

في منتصف آذار، ذهب فيصل إلى جمال وطلب منه الإذن بالعودة إلى المدينة المنورة. كان الغرض الظاهر هو مرافقة قوة المتطوعين إلى القدس حيث سيلتحقوا هناك بالجيش التركي. في البداية فوجئ فيصل بموافقة جمال على رحيله لأنه كان يمثل رهينة عالية القيمة، وطالما ظل تحت سيطرة الأتراك، لا يستطيع والده القيام بأي عمل طائش. إلا أن الحسين كان يردد كثيرًا بأنه سوف لن يرسل المتطوعين إلا إذا جاء فيصل لقيادتهم. وإذا ما جاء، فسيعود علي عن المدينة المنورة وستنتهي منفصاته للحاكم التركي.

كان جمال في حاجة إلى المتطوعين، لأن حملة غاليبولي قد انتهت بالانسحاب المخزي لقوات الحلفاء وبسبب الموقف العصيب للقوات الهندية في الكوت، وهي الحقيقة التي يدل عليها وصول لورنس إلى العراق وعرضه على القائد التركي مليون باون استرليني مقابل الانسحاب. ويبدو الآن أن الوقت قد حان لشن الهجوم الشامل على القناة والمخطط له أن يبدأ في غضون الأسابيع القليلة القادمة. سوف يكون لرجال فيصل والبالغ عددهم (١٥٠٠) رجل والمعسكرين قرب المدينة المنورة

دورًا كبيرًا في منطقة صحراء سيناء. أدرك فيصل أنه يجب أن يغادر دمشق فورًا لأن الثورة قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى. وانتهى هذا الوقت الضائع فجأة عندما وصلت في منتصف نيسان قوة مكونة من (٣٥٠٠) رجل يقودها خيري بك إلى دمشق بموجب أوامر للتقدم نحو اليمن. ربما تكون تلك مهمتهم الحقيقية أو العكس، ولكن القصد الحقيقي كان واضحًا للهاشميين في مكة - الواقعة في منتصف الطريق بين سوريا واليمن - في منتصف آذار استخدم أنور في برقيته إلى الحسين التي يطلب فيها إرسال المتطوعين ويذكره بواجباته، عبارة: ".. وإلا فسأكون مضطرًا لاتخاذ الإجراءات المناسبة في مثل هذه المواقف". كانت وحشية أنور أسطورية بعد مذابح الأرمن ويبدو أن الإجراءات اللازمة تتحشد الآن في دمشق وتستعد للذهاب بواسطة القطار إلى المدينة المنورة. كان يرافق الأتراك، حتى مدينة العلا، التي لا يسمح لغير المسلم تجاوزها، بعثة عسكرية ألمانية بأمرة الفريهر أوتمار فون شتوتزنكن. ومهمة هذه البعثة هي نصب محطات لاسلكية جنوب مدينة القنفذة لتأمين الاتصال مع الجنرال المراوغ بول فون لتوفوربك وجنده الذين يشاغلون أكثر من (٢٠٠,٠٠٠) من جنود الحلفاء في شرق أفريقيا الألمانية ولإثارة التمرد في الدارفور. بالنسبة إلى البريطانيين في مصر يشكل وجود بعثة عسكرية ألمانية تهديدًا خطيرًا، وهو الأمر الذي يخشون حصوله ولا يغفلونه أبدًا. في عام ١٩١٤، كان ستورز يشعر بالقلق من نشر الألمان لقواعد الغواصات ومحطات لاسلكية في المناطق التركية المحيطة بالبحر الأحمر لأن البريطانيين في القاهرة يعتبرون البحر الأحمر بحيرة بريطانية وستهدد الغواصات الطريق إلى الهند، وتلك قضية بالغة الخطورة.

وبعد سماع الحسين لأنباء فيصل السيئة عن قرب تحرك قوة تركية قوامها (٣,٥٠٠) رجل من دمشق إلى الحجاز، قرر البدء بالعمل فورًا. أبلغ ابنه الأكبر عليّ، الذي كان في ذلك الوقت في المدينة المنورة، أن يخرج مع متطوعيه لملاقاة

فيصل عند عودته إلى المدينة المنورة قادمًا من دمشق وأن يحدد معه موعدًا لإعلان الثورة. في نفس الوقت أرسل رسالة فورية إلى موضع ثقته السير رونالد ستورز في القاهرة، حيث وصلت إلى دار المفوض السامي في نفس الوقت الذي حصل فيه فيصل على الإذن من جمال.

اقتضت الرسالة أن يحضر ستورز في الحال إلى ساحل البحر الأحمر في الحجاز وسلمت إليه عن طريق بور سودان بتوقيع صديق ستورز الحميم عبدالله. أبلغ البريطانيون بإيجاز في الرسالة بأن "الثورة ستبدأ حالما يصل فيصل إلى المدينة المنورة". تعتبر هذه الأخبار ذات أهمية كبرى في ضوء وجود بعثة شتوتزنكن، لذلك وفي غضون ستة أيام أرسل ستورز برفقة القائد العسكري هوغارث كميات من الأغذية ومبلغ (١٠,٠٠٠) باون من الذهب عن طريق البحر إلى جدة على ظهر الطوافة (ظفرين)، وهي من طوافات أسطول البحر الأحمر صنعت قبل (٢٣) سنة. في ٣١ من الشهر أبحرت الطوافة من بور سودان حيث صعد على ظهرها معتمد ستورز في تلك المدينة ويدعى روحي. أبلغ روحي ستورز بأن عليه أن يقطع مسافة (٢٣٠) ميلاً نحو الشمال تحت الحرارة الملتهبة لقرية قظيمة الصغيرة على ساحل الحجاز حيث سيرافقه بعدها معتمد الشريف عرفان ثم عبدالله. طرح بعد ذلك روحي على ستورز مقترحًا خطيرًا سبق أن طرحه عريفان ومفاده أنه مقابل باون واحد لكل رأس، فهو مستعد لتقديم رؤوس سبعة ألمان قتلهم البدو مؤخرًا. قاوم ستورز هذا العرض الغريب، ولكنه قدم عرضًا مقابلا لم ينجح، وهو دفع خمسة باونات مقابل أية وثيقة يحملها هؤلاء الرجال.

كان الألمان موضوع هذه المساومة جزءًا من طاقم سفينة مدفعية محتجزة في أحد الموانئ التي تشملها المعاهدة الألمانية الصينية عند اندلاع الحرب. وبعد سفرهم عن طريق يافا، اتجهوا برحلتهم إلى جنوب الجزيرة العربية متنكرين بزي تجار ورسوا على ساحل الجزيرة العربية حيث شقوا طريقهم برًا إلى العاصمة

اليمنية صنعاء. ثم أبحروا بالدهو من الساحل حتى الميناء الإدريسي السابق القنفذة ومن هناك ركبوا الجمال إلى جدة. وبعد مسيرهم نحو الشمال أواسط شهر آذار، متجاهلين نصيحة الأتراك، قتلوا من قبل قبيلة حرب الشرسة جنوب رابغ.

وبعد تأخر طويل في القطيمة، وردت ستورز أنباء سيئة مع وصول عريفان. فاللقاء مع عبدالله سيتأخر لبضعة أيام. طلب ستورز من عريفان العودة إلى مكة وإجراء اللقاء بأقرب فرصة ممكنة. وخلال فترة انتظار ستورز ورفيقه لعودة عريفان، أمضوا وقتهم في الإبحار شمالا بمهمة استطلاع صغيرة خلف ميناء رابغ الصغير، الذي سيصبح ميدانًا لأحداث مثيرة في الأشهر القادمة، وخلف ميناء أم لج، حيث صوبت الباخرة الملكية فوكس مدافعها على القلعة التركية والشارع الرئيسي للمدينة، وخلف ينبع، حيث علم بوصول بعثة شتوتزنكن قادمة من العلا، ثم اتجه أخيرًا نحو الجنوب ثانية ليصل إلى جدة في نهاية يوم (٥) حزيران، وهنا أصيب بالخيبة أيضًا لأنه علم عن طريق عريفان أن عبدالله لا يستطيع المجيء إطلاقًا وسيرسل محله شقيقه غير المعروف زيد. إن ما لقيه ستورز من سوء التنظيم كان نتيجة السرعة التي تحتم أن تنطلق بها الثورة. إذ حالما علم الحسين بتقدم قوة خيري بك، أرسل ابنه عبدالله للاستيلاء على الطائف.

في ذلك الوقت، الذي كان في عز الصيف، كان الوالي غالب باشا ومعظم حامية مكة يعسكرون في مخفر التل في الطائف وراء القلعة الكبيرة المجاورة لسوق المدينة التي تتميز جدرانها بقلة ارتفاعها وبكونها مبنية بالحجر. غادر عبدالله الطائف في (١) حزيران على رأس قوة تمثل أكبر تهديد للقوة العسكرية التركية هناك حتى الآن، وهي عبارة عن فرقة من سبعين جملا. هذا هو كل ما تبقى من القوات الهاشمية لأن معظمها قد تحشد في مدينة الحمزة قرب المدينة المنورة حيث كانت تعسكر على أساس أنها قوة المتطوعين التي تعدادها (١٥٠٠) رجل

والتي ستشارك في الجهاد. من المؤكد أن الشك كان يساور الأتراك، رغم أنهم يرون أن قوة صغيرة كهذه لا يمكن أن تشكل تهديدًا خطيرًا لقوات المشاة والمدفعية التابعة لهم والمدربة تدريبًا جيدًا. وكما ذكر عبدالله "كان الشك قد بدأ يخامر قائد الفرقة أحمد بك، فاستمر يزورني ليلة إثر ليلة". ولكن كان عليهم في ذلك الوقت أن يقتنعوا بتفسير عبدالله بأنه يقود رجاله في غارة تأديبية ضد قبيلة الباقوم المتمردة.

وبعد أن ساورته الشكوك حول جدية العرب وقدراتهم التنظيمية غادر ستورز الطوافة ظفرين فجر يوم (٦) حزيران، واتجه نحو الساحل إلى موقع يبعد ستة أميال جنوب غرب أسوار جدة الكئيبة للقاء زيد. وبعد ليل من التأخير، ظهر أصغر أبناء الشريف، وقد شعر ستورز بالإحباط لأن عليه أن يتعامل مع امرئ غض غير مجرب معتبرًا ذلك نقصًا في جدية العرب. لم يكن يعلم أن الأخوة الأكثر تجربة قد انتشروا استعدادًا للقتال. وبعد تبادل طويل للمزح، دخل السكرتير الشرقي إلى الجد وناقش مع زيد أمور الحرب والسوق. فقد تحدثوا عن الحاجة لعودة الحياة الطبيعية بأسرع ما يمكن بعد الحرب وإعادة فتح الحج إلى المسلمين وكسب اعتراف العالم بالحجاز كدولة مستقلة وفاعلة. واتخذت الإجراءات لإرسال المحمل من مصر مع فاروقي ولإرسال مدافع مكسيم وأخرى جبلية من مستودعات السودان. وما هو أكثر أهمية من ذلك، ولغرض استخدام هذه المدافع، ستبرز الحاجة للمسلمين السودانيين وللطواقم المصرية، لأنه لا يعقل أن يسمح العرب للكفار أن يشتركوا في النزاع. وقد أثار زيد موضوع إجراء إنزال للحلفاء في سوريا، حيث أكد عبدالله على ذلك في رسالة بعثها إلى ستورز مع شقيقه الأصغر. وقد أعطى ستورز جوابًا شاملاً حول الموضوع مشيرًا إلى أنه من غير الممكن أن يضعف الأتراك أي من جبهاتهم في سيناء أو القوقاس أو العراق ليقاتلوا في الحجاز. وإذا ما فعلوا ذلك وسحبوا بعض قواتهم من جبهة سيناء، فإن هذا سيفتح الطريق

أمام هجوم بريطاني من مصر على مؤخرتهم وهذا ما يشكل حجابًا منيعًا للحجاز. وقد بدا زيد مقتنعًا بذلك. ومن المؤكد أن ستورز قد أدرك أن عبدالله كان يشير إلى إنزال الإسكندرونة رغم أنه لم تكن لديه معلومات عن أن الفكرة قد تم التخلي عنها في تشرين الثاني. كان ستورز يود أن يعرف الاستراتيجية العربية العامة للثورة التي أبلغه الحسين في رسالة الدعوة التي وجهها إليه بأنها وشيكة الحدوث. واستجابة لطلبه، اخبره زيد ما يلي:

"سندعو الأتراك للاستسلام، وإذا ما رفضوا، فسنضربهم. وإذا ما استسلموا، فسيدخلون الأسر حتى انتهاء الحرب. في نيتنا تدمير سكة حديد الحجاز شمالاً حتى مدائن صالح حيث سيكون هناك موقعنا المتقدم. ونظرة خاطفة على قائمة الطلبات المسلمة لي، لاحظت ورود ذكر لمبلغ (٥٠,٠٠٠) باون مع مبلغ (٢٠,٠٠٠) باون إضافي، وقد أوضحت لزيد موقفنا بخصوص هذه القضية وقلت أن المبلغ الأول سيصلكم حالما نسمع أنباءًا مؤكدة بأن الثورة قد بدأت وأنها تتقدم".

وقد فوجئ ستورز عندما أكد له زيد أن الأعمال القتالية قد بدأت يوم أمس في المدينة المنورة. وبسبب نقص الاتصالات، لم يستطع زيد أن يقدم دليلا على ما قاله. كانت الشكوك تساور ستورز حول الموضوع، ولكن زيدًا كان صادقًا فعلاً في ما قاله لأن شقيقه فيصلاً قد أشعل الحرب في الخامس من حزيران.

وبحيلته الذكية على أساس "رغبته في قيادة المتطوعين إلى دمشق"، سعى فيصل في ١٦ حزيران لتخليص نفسه من قبضة الأسد وقفل عائدًا إلى المدينة المنورة. ولتبديد الشكوك، أبقى مع جمال رجاله الأربعين في دمشق كضمان، إلا أن لدى قائدهم نسيب البكري أوامر بمغادرة المدينة مع رجاله عند استلامه الرسالة الجفرية (أرسلوا الفرس الشقراء). على أية حال اقتنع جمال بأن فيصلاً سيعود

مع قواته وأبرق أوامر فورية بألا توزع الأسلحة المرسلة إلى المتطوعين في المدينة المنورة، بل تبقى إلى حين وصول قوات خيري بك. إضافة إلى ذلك، أبلغ حاكم المدينة المنورة بإيقاف قوات خيري بك، وتجهيزها بالأسلحة الحديثة وانتظار أوامر أخرى. وفيما إذا كان الحسين مصيبًا أم لا في تقديره للهدف الحقيقي من مغادرة قوة الـ (٢٥٠٠) رجل لدمشق، أو أنهم كانوا فعلاً متوجهين نحو اليمن أو ربما نحو عدن البريطانية، فإن كل ذلك قد أصبح بعيداً عن الموضوع.

كان أهم إجراء قام به جمال في هذا الوقت هو تعيين فخري باشا قائداً عسكريًا (ثم حاكمًا) للمدينة المنورة. أصبح خيري باشا بعد ذلك نائبًا لقائد الجيش الرابع التركي في سوريا، وكان يعرف عنه بأنه لا يعرف الكلل وصاحب قرار حاسم وقساوة شديدة ولقبه غير الرسمي هو "سفاح أورفه"، والذي اكتسبه بعد أعماله الوحشية ضد السكان الأرمن في تلك المنطقة. وقد كرر نفس هذه الأعمال مع أرمن مدينة الزيتون. لم يكن فخري مهيبًا في مظهره باستثناء محاولته الواضحة لتقليد القيصر بإطلاق شاربيه ودهنهما ورفعهما إلى الأعلى بشكل لافت للنظر. على أية حال، سيصبح دفاعه على المدينة المنورة الشيء المركزي للثورة في الحجاز وكانت ستسقط كل الولاية في غضون أسابيع قليلة لولا عناد وكفاءة هذا الرجل.

وعند وصوله إلى المدينة المنورة، شرع فخري بإصدار أوامر بالتهيؤ للدفاع عن المدينة. كانت في ذلك الوقت محاطة بأسوار يمتد خلفها سهل ترابي، ويكون الدخول إليها عبر عدة أبواب نحاسية ثقيلة. وقد أدت السرعة التي وضع بها فخري قواته في الإنذار وتنظيمه للخنادق والدفاعات المدفعية إلى إبعاد إمكانية شن هجوم من جانب القوات الحجازية والذي يفسر حقيقة عدم سقوط المدينة المنورة بيد العرب مطلقاً.

في نهاية مارس، وصلت قوات خيري بك، وسلمت البنادق الحديثة التي كانت مخصصة للمتطوعين. أصبح فيصل الآن مقتنعًا بما كان على وشك الحدوث، لذلك وبعد تباحثه مع شقيقه الأكبر، قرر بتاريخ (٥) حزيران رفع لواء الثورة. وقبل ذلك واظب الشقيقان على زيارة القبائل في المناطق المحيطة لكسب تأييدها للثورة. وفي (٢) حزيران قررا مغادرة المدينة، وكتب فيصل إلى فخري يبلغه بعودتهما إلى مكة بسبب مواقف السلطات التركية وتركا أيضًا مع فخري برقيتين مجفرتين من الحسين إلى جمال وإلى رئيس الوزراء وجاء فيهما:

"لقد رفضت الدولة العثمانية المطالب العربية المعتدلة، وبما أن الجند الذين تهيأوا للجهاد يؤمنون بأنهم سوف لن يضحوا لغير قضية العرب والإسلام، وإذا لم تلب المطالب المعروضة من شريف مكة حالا، فلا لزوم لصدور بيان عن قطع العلاقة بين الأمتين التركية والعربية، إذ بعد وصول هذا الكتاب بأربع وعشرين ساعة، ستكون حالة الحرب قائمة بين الأمتين".

وبذلك انضم علي وفيصل إلى قوة الـ (١٥٠٠) متطوع المعسكرين في الحمزة وأبلغوهم بالثورة وبإعلان الاستقلال عن تركيا ورفعوا راية الشريف القرمزية. ودخلوا معًا إلى عمق الصحراء لضم القبائل المجاورة.

لم يرد أي جواب على إنذار الشريف، قطع بعد ذلك مباشرة خط سكة حديد شمال المدينة المنورة من قبل الثوار. لم يكن ستورز يستطيع أن يتخيل في ذلك اليوم حقيقة ما يجري، عندما استأذن من زيد بالانصراف. ولكنه علم، الآن على الأقل، أن المفاوضات قد انتهت وأن العمل قد حان. كتب عند عودته إلى مصر:

"إن ما يسر ويسعد المرء، أنه بعد عشرين شهرًا من الضغط المتواصل على السلطات وتقبلها للمعلومات الخاطئة من حكومة سملا، شرع العرب، كما ستعلن

ذلك اليوم وكالة رويتر في العمل لرفع الظلم المجحف والجور الذي تحمله طيلة هذه السنين، وبذلك سددوا ضربة قاضية لهيبة الأتراك الدينية".

ومن المثير أنه في نفس اليوم الذي نشبت فيه الثورة العربية، توفي اللورد كيتشنر، الذي ابتدأت معه المفاوضات، في بحر الشمال على ظهر السفينة همبشاير.

* * *

الفصل العاشر

الثورة العربية: من الإمارة إلى المملكة

▪ تم توقيت بدء الأحداث الرئيسية بعد أربعة أيام أي في (١٠) حزيران ١٩١٦ (٩ شعبان ١٣٤٣)، وذلك بشن هجمات متزامنة على المواقع التركية في مكة والطائف وجدة والمدينة المنورة والموانئ المحصنة الصغيرة على امتداد الساحل. كان لدى الأتراك في ذلك الوقت (١٥،٠٠٠) جندي متمركزين في ولاية الحجاز، وهم يشكلون الفرقة (٢٢) وينتشرون في جدة ومكة والمدينة المنورة، تدعمهم قوة خيري بك التي قوامها (٣٥٠٠) رجل. حيث لم يعد بمقدورها الآن أن تواصل تقدمها إلى اليمن - إذا كانت حقاً تريد ذلك. وأخيرًا هناك وحدتان صغيرتان من الفرقة (٢١) متمركزتان في القلاع المبنية من الآجر على طراز القرون الوسطى في مدينة اللث والقنفذة على امتداد الساحل جنوب جدة. وكان قد تم سحب هذه الوحدات من قيادة قوات عسير المتمركزة في أبها. وبشكل عام، كان الجيش خليطاً من الأتراك والشراكسة وحصلت العديد من الزيجات فيما بينهم خلال فترة خدمتهم، وولاؤهم موضع شك من قبل الأتراك. ففي مناسب سابقة، أعلنت وحدة مشاة تركية تمردها في اسطنبول عندما أبلغت بأن تتوجه إلى جدة، أقسى منطقة تتوجه إليها وحدة عسكرية. كذلك أعلن الجيش الذي يقوده راتب باشا تمرده في

عام ١٩٠٨. وقد قدمت الحكومة التركية شيئًا من التنازلات وقامت بتخفيض مدة الخدمة للمجندين الإلزاميين الذين يخدمون في الحجاز. حتى أن قوة خيري بك التي يتحدثون عنها في بعض الأحيان ويصفونها بأنها "وحدة من الطراز الأول"، قد تعرضت للانتقاد من قبل جمال باشا، قائد الجيش التركي في سوريا، حيث وصف هذه القوة بأنها غير مدربة جيدًا وتضم كل سرية بالكاد ضابط احتياطي واحد وخمسين مجندًا". وما هو مهم أن الحسين لا يملك تصورًا عن مدى فاعليتها العسكرية.

تتمركز القوات التركية في القلاع وهي - باستثناء قوة خيري بك المجهزة بالجمال - غير مدربة جيدًا، ولم تشترك في أية عمليات عسكرية غير تمارين المعارك التقليدية للمشاة والمدفعية. إلا أن لديها، ومع إسناد المدفعية، تفوقًا على العرب، الذين يرتعدون من دوي القنابل. ومن جانب آخر، تقع المناطق التي تتمركز فيها الحاميات التركية في أراض قاحلة أو أحواض صخرية ويجب أن تزود بالإمدادات من الخارج. كان الحسين لا يستطيع أن يزج في ميدان المعركة ضد الأتراك في الأيام الأولى للثورة سوى مجموعات صغيرة من المجندين البدو غير النظاميين وغير المدربين والذين يفتقرون للمعدات الكافية وهم خرجوا من الصحراء بدافع إغراءات الذهب أو الغنائم. كما يمتلك الحسين أيضًا قوة صغيرة من الجنود النظاميين الذين كانوا يشكلون في السابق الحرس الخاص لأمير مكة ويقودهم الأتراك. إلا أن هؤلاء الجنود النظاميين أفضل من البدو، والواقع كان هناك العديد من البدو بين صفوفهم، رغم أن هناك العديد من الأسر العربية المعروفة كأسرة البكري الدمشقية قد قضت خدمتها الإلزامية في خدمة أمير مكة.

تقضي التقاليد أن تطلق أول رصاصة في الثورة العربية من قبل الحسين نفسه الذي أضاء الدرب بنيران بندقيته التي أطلقها من خلال نافذة في الطابق العلوي من القصر الهاشمي في مكة. حدث ذلك في صباح يوم (١٠) حزيران.

وحالما انتشر الخبر في أنحاء التلال الصخرية الجرداء المحيطة بمكة، لبّى البدو الدعوة وصبوا وابل رصاص بنادقهم على القلاع الثلاثة التي تشرف على المدينة المقدسة، وعلى نوافذ ثكنات جرول على طريق جدة. وفي هذا الوقت، حيث يكون حزيران أول مرحلة من صيف الحجاز القاسي، غادرت معظم القوات التركية لترافق الوالي غالب باشا إلى مخفر التل في الطائف. بينما كان كل الذي تبقى هو قوة مؤلفة من (١٤٠٠ رجلا)، والعديد منهم لم يكونوا خلف أسوار بل كانوا نيامًا في ثكناتهم في الوادي. بينما كان من سوء حظ نائب القائد العام أن يقضي ليلته في ثكنات جرول حيث وقع في فخ وابل لا ينقطع من إطلاق عشوائي للرصاص. وقد تأخر رد فعله في البداية، لكونه لا يمتلك أية فكرة عمن وما الذي يقاتله، كما أنه لم يتلقى أي إشعار عن احتمال حصول هجوم لقوات الحلفاء، كذلك لا يرافق هذا الهجوم أية مدفعية أو مدافع رشاشة، كالتي تصاحب عادة أية عملية عسكرية للقوات النظامية. والعلم الأحمر المرفوع فوق المباني الشريفية يشبه إلى حد كبير الراية العثمانية حيث لا يتضح حصول أي تغيير بالسلطة. لذلك كانت حيرته تامة. وفي محاولة لاستكشاف الموقف، اتصل هاتفيًا بالشريف وطلب منه "اتخاذ أي إجراء حول الموضوع"، أو هكذا يمكن أن نتصور. وعندما علم أن القوات الشريفية هي التي تقاتله، اتصل هاتفيًا بالحسين وطلب إرسال أحد الضباط لتوضيح أسباب الحرب. وقد تم ذلك، وعندما علم أن الشرط الوحيد الذي يقبله الشريف هو استسلام القائد والقوات التركية، رفض القائد التركي، وأصدر أوامره بالمقاومة. استمر إطلاق النار وأعمال القصف حتى خيّم الظلام حيث أصبح من المستحيل تقدير شكل وحجم القوات المقابلة. لذلك استؤنف القتال في اليوم التالي الأحد وأحرزت القوات الشريفية بعض الانتصارات أهمها الاستيلاء على مركز (باش كراكول) الواقع في الصفا مجاور الحرم الكبير. وفي الاثنين، توجه الاهتمام إلى دوائر الحكومة العثمانية المبنية بالخشب المسماة (الحميدية)، حيث وقع نائب الحاكم في كمين أعدته له مجموعة من مرافقيه. وبهجوم مفاجئ، اقتحمت قوات

من البدو القصر وجردت المدافعين الأتراك من أسلحتهم، وبذلك استولت القوات الشريفية على أكبر غنيمة لها حتى الآن. لم يظهر الوالي أو نائبه في الحجاز قدرته على التماسك أو الشجاعة، فعند أسره، أعطى نائب الحاكم أوامره إلى ضباط القلعة بالاستسلام. إلا أنهم رفضوا، حيث واصل فخري باشا ونظيره في تبوك مقاومتهم خلال السنوات اللاحقة من الحرب.

تطور حال الأزمة بعد ذلك، لأن البدو لم يستطيعوا اقتحام القلاع التركية أو الأراضي الوعرة المحيطة بها، كما لم يستطع الأتراك ترك مواقعهم المحصنة. إلا أن امتلاك الأتراك للمدفعية قد أمدهم بفرص للفوز أكبر، لذلك شرعوا بقصف المناطق الآهلة بالسكان المدنيين في المدينة مسببين ذعرًا شديدًا للأهالي. ونتيجة خطأ فادح، أطلق أحد رجال المدفعية الأتراك من قلعة جياد التي تشرف على الجنوب، قذيفة - بقصد أو دون قصد - على الحرم الكبير حيث انفجرت ودمرت الكعبة وأشعلت النار في كسوتها المطرزة التي تغطي الحجر الأسود. وقد قتل عدد من المصلين، ولو لم يكن القصف قد حصل في بداية النهار، لحصلت مذبحة كبرى، حيث فزع الناس وابتعدوا عن الحرم. ودمرت قذيفة ثانية مقام إبراهيم وهشمت اللقب العثماني (الخليفة الثالث) المنقوش ببروز قليل حول الجدار الداخلي. ورغم أن البعض قد رأى في ذلك فألًا سيئًا ينبئ بسقوط الأسرة الحاكمة العثمانية، إلا أن رد الفعل العام كان هلع الناس من أن يدنس الأتراك أقدس مكان في الإسلام. أصبح هذا الحادث مصدر قوة سياسية كبيرة للحسين في الأيام التالية. أخذت الأمور تتحول جذريًا لصالح العرب، حيث وصلت قطعتا مدفعية بطواقمها المصرية المدربة، والتي أرسلتا إلى جدة من قبل القائد العام للقوات البريطانية في السودان السير ريجنالد وينكيت. تم تسديد فوهات المدافع نحو القلاع التركية، وأحدثت الصدع في الأسوار، وهجم البدو واقتحموا المواقع. واختلفت المصادر حول مصير الأتراك، فمنها تقول أن الأتراك قد أبيدوا تمامًا، ومنها تقول أنهم فقد فقدوا ضابطين وجندي واحد. والمؤكد أن الحقيقة لن تعرف حتى الآن.

بقيت ثكنات جرول وحدها بأيدي الأتراك، حيث استمر مساعد آمر مكة يدافع بضراوة وصمد أمام وابل الرصاص المنهمر مدة ثلاثة أسابيع. لم يكن يعاني من نقص في الأسلحة أو الذخائر، بل كانت مشكلته الأساسية، هي المؤن الغذائية. مع ذلك لم يكن الجوع هو الذي أدى إلى سقوط الثكنة في الرابع من تموز، بل إن حريقا قد شب في المبنى وليس هناك من سبيل لإخمادها. وفي ظل هذا الظرف، ضاقت أمامه السبل، فقدم سيفه إلى ممثل الشريف واستسلم. وهكذا انتزع الشريف عاصمته من أيدي الأتراك.

نقلت المدفعية التي حسمت الموقف في مكة، إلى سواحل جدة بعد سقوط الميناء بيد قوة مشتركة من البدو وسفن البحرية الهندية والقوات المصرية. ففي نفس اليوم الذي نشبت فيه الحرب في مكة، هاجم بدو قبيلة حرب بقيادة شيخهم محسن منصور الميناء المحاط بالأسوار، إلا أنهم فشلوا في تحقيق النصر على المدافعين الأتراك البالغ عددهم (٥٠٠) رجل. ومرة أخرى أثبتت المدفعية أنها العامل الحاسم في الحرب، كون جدة، على العكس من مكة، محاطة بسهل منبسط لا يوفر الحماية لأية قوة زاحفة من الهجانة. كانت نقطة ضعف الدفاع التركي هي وقوع مبنى الحامية خارج أسوار المدينة وبالقرب من البوابة الشمالية الغربية. وهذا يعني أنها معرضة للقصف من جهة البحر، حيث يؤدي تلك المهمة الأدميرال السير روسيلين ويميس والأسطول الهندي في البحر الأحمر التابع له. في (١١) حزيران فتحت بارجتان بريطانيتان هما (فوكس وهاردينج) نيرانهما على المواقع التركية. هذا إضافة إلى أن قيام قبيلة حرب بقطع طريق الحامية التركية للوصول إلى البحر، جعل موقف الأتراك صعبًا للغاية. وبعد عدة أيام من القصف، ازداد هبوط معنويات الأتراك بوصول حاملة الطائرات التي قدمت لغرض إرسال الطائرات لتقوم بإسقاط المناشير والقنابل ضد الأفراد في القلعة الصغيرة وخنادق القتال. في ١٦ حزيران، تقدم آمر القوة رافعًا علمًا أبيضًا وسلّم المدينة إلى الشيخ محسن وقوات الشريف.

بعد سقوط جدة مباشرة، تعرضت جميع موانئ ولاية الحجاز إلى عمليات عسكرية مشتركة برية وبحرية. وفي (٢٧) تموز سقط ميناء ينبع، وهو ميناء المدينة المنورة. فلو قامت القوات البرية وحدها باقتحام الميناء، لما أفلحت، لأنه يقع على لسان من الصخور المرجانية ومحاط بالمياه من ثلاث جهات ومفتوح من جهة واحدة على اليابسة. إن الذي أجبر الحامية الصغيرة على الاستسلام هو المدافع البحرية. أما الاستيلاء على مدينة أم لج الصغيرة فهو أشبه ما يكون بالمناجاة التي ترد في أعمال جلبرت وسوليفان الأوبرالية والتي غايتها تلطيف الأجواء. تقع قلعة أم لج الصغيرة والتي تضم (٣٠-٦٠) رجلا، في أقصى اليابسة نهاية الشارع الرئيسي. والمدينة عبارة عن صف من البيوت المبنية من الصخور المرجانية المصبوغة باللون الأبيض وذات شبابيك مزخرفة بنقوش خفيفة وتستمر عموديًا حتى الساحل. وقد أطلقت السفينة (فوكس) بعد توجيه الإنذار لأهدافها، النار مباشرة باتجاه الشارع الرئيسي. سقطت القذائف خلف النوافذ غير المزججة وانفجرت داخل الأسوار الحجرية للقلعة حيث اخترقتها بسهولة. فرّت الحامية في غاية السرعة إلى منطقة نائية (خلف الساحل). في نفس الأسبوع، سقطت اللث والقنفذة، رغم أن القوات المحلية والتركية المتمركزة في عسير قد استعادت المدينة الأخيرة بسرعة.

في الوقت نفسه، وفي وديان الطائف الباردة الخضراء، سعى عبدالله لوضع نهاية للتظاهر الذي ادعاه في وقت سابق: فقد وصل هناك في (٢) حزيران مع جنوده السبعين بجمالهم. كانت الشكوك تساور الأتراك، عدا الوالي، الذي كان شخصًا عاجزًا أو ساذجًا، حول دوافع عبدالله ولكنهم لم يكونوا يعتبرون سبعين راكب جمل تهديدًا خطيرًا لقواتهم المتكوّنة من (٣٠٠٠) جندي مشاة و(١٠) مدافع ميدان نوع كروب. كان ابن الشريف الثاني يعمل بجد في ذلك الوقت لتصحيح اختلال التوازن التعبوي عن طريق دعوة البدو سرًا في المناطق المحيطة للمجيء واستلام الأسلحة والتوقيع على قوائم الرواتب. بعد ذلك وعندما كان على

وشك الهجوم، تلقى دعوة لزيارة الوالي. ورغم طلبات الالتماس بعدم تلبيتها، قرر الموافقة. وتتضح مدى غرابة الموقف في تقديراته الخاصة للحدث في النص التالي:

"قلت لفرج: ابق مع الخيل وقلت لهوصان بن عفار كن على رأس السلم، وقلت للشيخين فاجر وهوصان: قوما على باب الغرفة التي أجلس داخلها، فإن أراد الأتراك إلقاء القبض علينا، فسأقضي على الوالي في الغرفة وعليكم أنتم القضاء على من يأتيكم من السلم حتى نخرج. فقالا: توكل على الله. قال الوالي: (أنصحك بتأخير الحملة حتى تسوى الأمور. لقد أخذت الشائعات تنتشر في البلاد بأن الثورة قد تنشب في أية لحظة. وترى كيف يترك أهالي الطائف بيوتهم مع أطفالهم). أجاب عبدالله: (سأواصل عملي في الهجوم وسيستعيد الناس ثقتهم)".

خلال سير المحادثات، دخل سليمان بك وهو رائد تركي وأحمد بك آمر الفرقة وهمسا في أذن الوالي بوجوب إلقاء القبض الآن على عبدالله وقمع كل احتمال لحدوث الثورة. إلا أن الوالي وبإشارة من يده رفض الفكرة. وحال مغادرته مقر إقامة الوالي، أعطى عبدالله أوامره بقطع خطوط التلغراف إلى مكة وبوقف جميع المسافرين حتى ولو بإطلاق النار إذا استدعى الأمر.

وفي الليلة العاشرة من حزيران، حشد عبدالله قواته التي أصبح تعدادها الآن (٥٠٠٠) رجل وهاجم الجزء الشمالي من البلدة. والطائف كغيرها من مدن الحجاز محاطة بأسوار عالية معززة بخط من الخنادق بمبادرة من الكثير الشكوك والبعيد النظر أحمد بك. ومرة أخرى دخل عبدالله في موقف لا يؤدي إلا إلى مأزق، والذي سرعان ما دخل فيه. فقد أدرك أنه لا يمكن مهاجمة المواقع التركية بجنود غير نظاميين من البدو، لذلك حصر واجبات قواته في مهاجمة المواقع المنعزلة. أطلق الأتراك النار على المباني الشريفية داخل أسوار المدينة بما

في ذلك مكتبة المخطوطات المعروفة العائدة للشيخ شاكر كجزء من العمل على إضعاف معنويات الهاشميين. على أية حال كانت مدافع كروب بعيدة المدى مؤثرة في تفريق وإثباط همّة البدو. أضف إلى ذلك، شارفت تجهيزات الذخيرة الشريفية على النفاد، إلا أن الأشراف عمدوا على زيادة إشعال النيران على منحدرات التلال غرب المدينة، مما ساعد على إقناع الأتراك بأن أعداد القوات الشريفية في تزايد مستمر. ثم أخذت الأمور تتغير لصالح الهاشميين وذلك باستلامهم مدافع بعيدة المدى أرسلت إليهم من بور سودان في (٢٧) حزيران من قبل هوغارث استجابة لطلب الحسين. إضافة إلى ذلك، أرسل جزء من البنادق الثمانية آلاف التي تم الاستيلاء عليها في مستودعات مكة. بعد ذلك في (١٦) حزيران، استجاب وينكيت لطلب عبدالله، وأرسل ضابط مدفعية مصري هو سعيد علي مع أربعة مدافع جبلية بعد أن قاموا برحلة شاقة عبر وادي فاطمة إلى مكة. وقد جلبوا معهم مدفعًا تركيًا نوع هاوتزر تم الاستيلاء عليه في مكة وأخذوه لدك المعسكر الكبير داخل أسوار المدينة. كان هذا أمرًا فوق طاقة تحمل غالب باشا، وسرعان ما جنى عبدالله ثمرة صبره، فكتب غالب في (١٠) آب إلى عبدالله ما يلي:

"لكي نثبت للغرب فضائل الشرق، أقترح عليك أن تسمح للقوات المحاصرة بالسفر إلى المدينة المنورة بجميع أسلحتها ويمن معها من عوائل الضباط ويمن يرغب بالسفر من أبناء الجالية التركية، ننتظر الجواب لكي نشعركم بوسائط النقل اللازمة وعدد الجمال".

ودون الحاجة إلى القول، أهمل عبدالله الطلب. وكان أمام غالب المسكين شهرًا آخر من المعاناة العسيرة قبل أن يطلب الوالي في (٢٢) أيلول من عبدالله استقبال وفد لمناقشة شروط الاستسلام. تم ذلك في الوقت المناسب وسط احتفال كبير حيث أنزل الهلال والنجمة، علم الإمبراطورية العثمانية، بذل، ورفع محله العلم المتكون من الألوان الأحمر والأخضر والأبيض والأسود وهو العلم الجديد

للدولة العربية، على العاصمة الصيفية. أعطي الأتراك معونة مالية تكفي لثلاثة أشهر، وقدم للوالي وجبة شهية قبل أن يرسل بطريقه إلى جدة ويعتقل في مصر.

مع سقوط الطائف وجدة ومكة والقلاع الساحلية، نجح العرب في عزل الفرقة (٢١) المتمركزة في عسير والقوات التركية المرابطة إلى الجنوب في اليمن، حيث ظلت هناك محيّدة للفترة المتبقية من الحرب. أسر الهاشميون الذين يقاتلون دون جيش نظامي (٥٠٠٠) أسير ممن اشتركوا في القتال ضد الحلفاء، ولكن برزت نقطة ضعف كبيرة لديهم وهي أنهم لا يصلحون في هذا الوقت سوى لأعمال المناوشة وأساليب الإغارة فقط. لم يكونوا يستطيعون تحدي قوة المدفعية، وهو الضعف الذي تم تجاوزه بوصول سفن الأدميرال ويميس وقوات وينكيت المصرية والسودانية في الوقت المناسب. وستكشف معركة المدينة المنورة نقطة الضعف هذه بشكل مثير.

تقع المدينة المنورة على بُعد حوالي (٤٠٠) كم شمال جدة وفي حمى جبال الحجاز والتي تمثل امتدادًا قليلاً إلى الشمال للمرتفعات الصخرية الشاهقة، وهي لا تشبه مكة أو جدة، فالمدينة المنورة عبارة عن واحة مشهورة منذ القدم بأعنابها وتمورها الممتازة التي تنتشر بحزام كبير من الخضرة حول الجانب الشرقي والجنوبي للمدينة. وعند الجنوب والغرب تمتد أراضي حرة راحات الفسيحة السوداء، وهي عبارة عن (٣٠،٠٠٠) كم مربع من الحمم البركانية السوداء التي حفرت أماكن لها في أنحاء متفرقة نتيجة المقذوفات البركانية للبراكين الهامدة. وتشكل هذه الصحراء الجرداء من الصخور السوداء مانعًا طبيعيًا من جهة الجنوب، كما توفر لأهالي المدينة وبساتينها المياه اللازمة. حيث يخترق المطر الساقط على حوض تجمع الأمطار في أرض الحمم البركانية، السطح الصخري المتكسر ويتجمع في وادٍ كبير تحت الأرض مليء بالمياه. وتمر هذه المياه تدريجيًا في المنحدرات المتجهة نحو المدينة المنورة، حيث تظهر بشكل ينابيع في منطقة القبة في

الطرف الجنوبي للمدينة. ويقع شمال المدينة سهل ترابي فسيح، عادة ما تصوب نحوه النيران بشكل منتظم المدافع الرشاشة عبر أسوار المدينة العالية. وبعيدًا في جهة الغرب وعبر ممر في جبال الحجاز، ينعطف الدرب السلطاني، وهو الطريق الاعتيادي الذي يسلكه الحجاج والتجار عند نزولهم إلى تهامة وجدة ومكة، وهو يمر عبر سلسلة من الوديان المترابطة شديدة الانحدار. وتنتشر على امتداد هذه الوديان قرى صغيرة مبنية من الطين والأحجار وتتناسق مع منظر الصخور الطبيعية في التلال الجرداء، إلا أنه يسهل اكتشافها بملاحظة كثافة خضرة النخيل الذي يعلو على أسوار البساتين المغمورة بالمياه. وبعيدًا إلى الشمال، يمتد خط سكة حديد الحجاز الحيوي للمدينة المنورة وتقوم على حراسته بين مسافة وأخرى حاميات صغيرة تتمركز في مخافر حصينة صغيرة. وتقع محطة نهاية السكة خارج أسوار المدينة وهي محاطة بسور عالٍ وحصين، كون معظم الإمدادات الأساسية للقوات التركية الموجودة داخل المدينة تفرّغ في هذه المحطة. وهكذا يتضح منذ البداية الفرق بين الوضع في المدينة المنورة ومثيله في جدة ومكة، حيث تكتفي المدينة المنورة ذاتيًا باحتياجاتها من المواد الغذائية والمياه. كما أنها ترتبط بشكل مباشر بالجيش الرابع في دمشق بخط سكة الحديد الذي لم يجر قطعه تمامًا حتى نهاية الحرب. وبذلك تتمتع المدينة المنورة بوضع دفاعي أفضل، كما أنها تقع خارج مدى مدفعية البحرية البريطانية التي لعبت دورًا مهمًا في الاستيلاء على جدة.

عندما عاد فيصل أخيرًا إلى المدينة المنورة، عيّن جمال مباشرة قائدًا عسكريًا للمدينة هو فخري باشا، حيث أثبتت الأحداث أنه كان في المكان والوقت المناسبين، وكانت إجراءاته صحيحة في ضوء نتائج العمليات العسكرية للهاشميين. وقد عمل منذ البداية على افتراض حصول أسوأ الاحتمالات، فسعى لتعزيز دفاعات المدينة، وجهز المواقع المتقدمة في الوديان وعلى امتداد قمم التلال بالرجال والقوة النارية. وقد زوّد فخري بتعليمات سرية من جمال تفيد بأنه "عند

تلقيه أول إشارة للثورة، فعليه أن يأخذ زمام القيادة من أبناء الشريف، وينهي سلطة بصري باشا (الحاكم المدني) على دفاعات المدينة حيث تصبح بعد ذلك تحت سيطرة فخري التامة".

حدثت الظروف التي ولّدت تغيير القيادة في (٢) حزيران عندما تلقى جمال نداءًا هاتفيًا مستعجلاً من فخري في المدينة المنورة. وكتب جمال فيما بعد: "لدي حس لا يخطئ بأنني سأتلقى أنباءًا سيئة". وعليه الآن أن لا يشعر باليأس. تفيد الأنباء الواردة من المدينة المنورة أن علي قد سحب متطوعيه بدلا من الاستمرار (بتضييع الوقت). واستمر فخري يبلغ جمال ببُعد نظر كبير" بموجب المعلومات الواردة إليّ من شيوخ البدو الموالين لنا، فإن علي قد قسم قواته إلى ثلاث كتائب وأرسلها في اتجاهات مختلفة. ويبدو لي مؤكدًا أن سكة الحديد ستتعرض للهجوم هذه الليلة أو غدًا صباحًا بأقصى احتمال، وأن علي بك سيقطع اتصالنا بين المدينة المنورة وسوريا ويحاول شن هجوم كبير على المدينة بكامل قواته. وحسب تعليماتكم فقد توليت قيادة جميع القوات في المدينة المنورة واتخذت الإجراءات اللازمة للدفاع لمواجهة متطلبات حالة الطوارئ. أرجو عدم تركنا دون تعزيزات". وقد كانت تنبؤاته صائبة بحذافيرها.

فقد انطلق علي وأتباعه إلى الخارج نحو شمال المدينة المنورة وحاول قطع سكة الحديد عن طريق رفع أجزاء منها: وهي مهمة صعبة دون استخدام أدوات أو متفجرات وكانت إلى حد كبير مضيعة للوقت لأن لدى الأتراك مفارز للتصليح في المدينة المنورة، كما يمتلكون مائة كيلومتر من السكك الاحتياطية.

عند استلام جمال لبرقية فخري، أرسل ثلاث كتائب وبطاريتين جبليتين من دمشق والتي لم يمين وجهتها النهائية إلا بعد نصف ساعة من استلام البرقية، حيث كان يحتفظ بها لوقت الحاجة منذ أن ساورته الشكوك للمرة الأولى. على أية

حال وبعد عدة أيام بدأ القتال على نحو خطير بهجوم على محطة المحيط التي تبعد حوالي (١٣) ميلا غرب المدينة المنورة. ولكن القوات العربية انسحبت عندما واجهت فجأة هجومًا مقابلا يقوده فخري بنفسه. بعد ذلك حاول العرب شن هجوم على المدينة، إلا أنه كان كارثة منذ البداية. وبسرعة فائقة طرد الأتراك، بقوتهم النارية المتفوقة، العرب إلى الخارج في السهل الترابي، حيث تفرقوا بسبب نيران البنادق الرشاشة إلى مجاميع متناثرة. وقد هبطت معنويات عدة مجموعات من البدو وانهارت، وحاولت إحداها وهم بني علي التفاوض على شروط الاستسلام. وقد استخدم فخري عامل الوقت لتطويق ضاحية عوالي الجنوبية الشرقية. وبينما كانت تجري مفاوضات السلام، قتل الأتراك كل من صادفوه رجلا كان أم امرأة أم طفلا. وقد شعر العرب بالقلق والفزع مما حدث. وكرر الأتراك فعلتهم في أبها وبرهنوا بأنهم غير ملتزمين بالمبادئ العربية في الحروب.

وقد تراجع علي وفيصل إلى الخلف للابتعاد عن القوات التركية. ففي البداية تراجعوا إلى بئر ماشي جنوب المدينة المنورة وعلى امتداد وادي العقيق، ومن هناك أزاحهم فخري مرة أخرى في منتصف حزيران. وهناك انشطرت القوات إلى قسمين، تحرك علي مسافة خمسين كيلومترًا جنوب غرب المدينة المنورة، واتجه فيصل نحو ينبع النخل. وبعد أن أتم فخري إزاحة العرب، قام بتحصين المواقع المتقدمة لإبعاد خطر الجيش الشريفي عن المدينة المنورة.

كانت أهم عقبة أمام شن هجوم مقابل ضد المواقع التركية المتقدمة هي توقف الإمدادات بكل أنواعها. في تموز وافقت وزارة الخزانة البريطانية على تقديم إعانة إلى الثورة العربية بمبلغ (١٢٥) ألف باون شهريًا ولمدة أربعة أشهر. وأمر هوغارث بإرسال الإمدادات من المدفعية والبنادق. ولم تصل تلك التجهيزات إلى القوات المرابطة حول المدينة المنورة، لذلك اضطر فيصل إلى وضع حراسة مشددة على صندوق النقد الذي كان في ذلك الوقت مليئًا بالصخور بالحصى كي يعطي

انطباعًا كاذبًا عن الموقف. كان الجيش المرابط حول المدينة في ذلك الوقت يضم أعدادًا كبيرةٍ من البدو إضافة إلى جزء كبير من قوة المتطوعين الذين جهزوهم الأتراك سابقًا بالأسلحة. كان يدفع لكل رجل أجر شهري قدره باونين وأربع باونات لجمله، وبندقية واحدة لكل أربعة رجال. لم تكن لديهم مدفعية وكان أشد ما يخشاه البدو هو مدافع كروب الثقيلة والمدافع الجبلية التي استخدمها الأتراك بشكل مؤثر ضدهم. وهذا ما جعل القتال يجري في الغالب ليلاً بعمليات عسكرية ضد المواقع المتقدمة، حيث يخلق إطلاق النيران فوضى شديدة وصراخًا عاليًا من جانب الأتراك حول العرب "إنكليز... انكليز؟"، وينطلق العرب بقوة إلى الخلف وهم يصرخون: "ألمان... ألمان؟"، رغم أنه لا الألمان ولا الإنكليز قد اشتركوا في حملة الحجاز في ذلك الوقت.

كان من المحتم من الناحية النظرية أن تصل الإمدادات إلى القوات الشريفية عن طريق رأس الجسر الساحلي المقام في رابغ على بُعد (١٧٠) كم شمال جدة. كان وينكيت يرسل الإمدادات المطلوبة في وقتها "حيث أرسل (٦٠,٠٠٠) بندقية في الأشهر الأربعة الأولى". ولكن كل ذلك كان يصل متأخرًا إلى المدينة المنورة عبر الطريق الشرقي من مكة. كانت البنادق المستعملة من مخلفات حملة بورت آرثر في ١٩٠٥، والعديد من هذه المعدات اليابانية الصنع تنفجر عند أول عملية إطلاق. وبشعور من اليأس وافق فيصل على أن يذهب علي إلى رابغ ويسعى لمعرفة ما يجري هناك. وقد اصطحب معه نوري السعيد وهو ضابط عراقي وصل مؤخرًا وشكل طليعة من الرجال تحت إمرته وأصبحوا يشكلون فيما بعد الجيش النظامي الذي يقاتل من اجل الاستقلال العربي. كان نوري السعيد ضابط مدفعية في الجيش التركي وقد أسره الهنود في المستشفى العسكري في البصرة وأرسل إلى معتقل الأسرى في مصر. وفي تموز ١٩١٦، وبتشجيع من السير مارك سايكس وفاروقي الذي عيّن نفسه وكيلا للشريف في القاهرة، سمح لهؤلاء الجنود

المدربين بالالتحاق بالثورة العربية. كان الشك يساور المشرفين على المعتقل وكانوا يرون أن أي شخص يطلب السماح له بالتطوع هو في الواقع يخطط للهرب. والحقيقة أن استجابة الأسرى العرب كانت ضئيلة للغاية، لأنهم إذا أسروا ثانية من قبل الأتراك فإنهم سوف لن يعاملوا كأسرى حرب بل يعدمون رميًا بالرصاص كخونة وهاربين من الخدمة العسكرية. كان معظم المتطوعين للانخراط في صفوف الثورة العربية هم من الأوساط السورية والعراقية، وأهم شخصيتين هما نوري وصهره جعفر. وقصة جعفر التي أشرنا إليها بشكل غير مباشر سابقا هي قصة جديرة بالاهتمام، لأن الأتراك قد أرسلوه في البداية لتنشيط الحملة السنوسية في ليبيا والعمل على إبعاد القوات البريطانية عن القناة. إلا أن ولاءه للدولة العثمانية قد تحول نتيجة أعمال الشنق في ٦ مارس، وعندما أسر من قبل البريطانيين، تطوع للخدمة في الجيش العربي. وفي منتصف تموز غادر نوري وجعفر و(٧٠٠) جندي عربي مصر إلى الحجاز.

وعندما وصل علي ونوري - والتحق بهما في الآخر زيد مع قواته - إلى رابغ، اتضحت أسباب التأخير. فقد كان حسين مبيريك شيخ قبيلة حرب الذي عهد إليه بمسؤولية حماية الإمدادات، يحتفظ بالإمدادات العسكرية ويخفيها بين بيوت المنطقة. وقد فرّ عندما أدرك أن حظه قد تغيّر وأن عليًا وزيدًا قد قررا المكوث في رابغ حيث أصبحت المدينة مركزًا تدريبيًا للجزء الكبير من القوات النظامية. وقد هدّ هذا الانسحاب من جانب علي من همّة فيصل - الذي أصبح وحيدًا في مواجهة الأتراك ويشعر بالضجر من عدم فاعليته - حيث انسحب بعد ذلك مع طريق جدة إلى الحمرة عبر وادي صرفة، ثم أخذ جيشه غير النظامي ينفض من حوله.

في الوقت نفسه، كان فخري يمد قواته في المدينة المنورة لشن هجوم على العرب. كان لديه (١٠٠,٠٠٠) جندي مدربين تدريبًا خاصًا. وقد تم تفريق أهالي المدينة من أجل توفير المؤن للأتراك. ومنذ محاولة علي في الأيام الأولى للثورة، لم

يتم أي عمل لتدمير سكة حديد الحجاز، واستمرت تمد القوات التركية بالمؤن رغم أنها ليست بالكميات التي يريدها فخري. في هذا الوقت أيضًا، كان الألمان يناقشون في مقر القيادة الرئيسي في سوريا موضوع إخلاء هذا الموقع المنعزل وأكدوا هذا الرأي على القيادة التركية العليا.

أصبح الموقف خطيرًا الآن في المعركة حول المدينة المنورة، وقد وصفه لورنس كالتالي: "إن بقاء الموقف غير متغير هكذا في حرب غير نظامية يعتبر مقدمة للكارثة". ففي محاولة للتغلب على هذا المأزق، عقد لقاء بين فيصل واللفتانت كولونيل سي. ئي. ولسن من سلاح المدفعية الساحلية. لقد أرسل ولسن، الذي كان حاكمًا لولاية (البحر الأحمر) في السودان، من قبل وينكيت كمعتمد بريطاني في جدة لدى حكومة الحجاز. كان ولسن رجلا صادقا محترمًا وقويًا وذا قدرة على التعامل الصحيح مع إخفاقات الحرب ودبلوماسية تتفهم الأسلوب الحجازي. التقى فيصل وولسن خلال شهر آب في ينبع وناقشا إمكانية التحرك نحو الشمال، ربما نحو الوجهة، التي لم يقطعوا من خلالها في ذلك الوقت خطوط الإمداد التركية. كان فيصل يركز في مباحثاته على موضوع الاستيلاء على المدينة المنورة والمصاعب التي تواجهه عند التقرب إليها. حيث عزز فخري جميع مكاسبه وعزّز حامية بئر عباس إلى (٣٠٠٠) رجل. وقد طلب فيصل معدات أفضل ورجالا لاستخدام هذه المعدات. وقد وافق ولسن على ذلك.

استجابة لطلب فيصل، أرسل ولسن بطارية مدافع جبلية مصرية وكتيبة مدافع رشاشة بإمرة الرائد نافي بك. وقد أصيب فيصل بالدهشة عندما علم أن هذه المدفعية التي استلمت بحماس كبير كانت عبارة عن أدوات عمرها عشرون سنة وذات مدى قدره (٣,٠٠٠) ياردة فقط. وقد رد الأتراك بضراوة وفاعلية وذلك بجلبهم لمدافع كروب جديدة بمدى أكثر من (٩,٠٠٠) ياردة. شعر البدو

بالمرارة والإحباط الشديد عندما فشل المصريون الذين تعرضوا لضغط شديد من أجل الرد وإخماد نيران الأتراك بمدفعيتهم.

بينما كانت الثورة العربية تمر في حالة من الركود وتواجه الخطر المستمر لهجوم تركي لكسر الطوق، من الضروري أن نبحث سير الأحداث في المناطق المحررة من الأتراك منذ أول رصاصة انطلقت في حزيران.

بعد اندلاع الثورة مباشرة في الحجاز، أعد الحسين بيانًا لتوضيح وتفسير ما قام به، لأن هناك العديد من المسلمين، خصوصًا في الهند، يعتقدون أنه قد سدد ضربة قاصمة في صميم قلب الإسلام لصالح الكفار. وقد أوردنا في نهاية الفصل النص الكامل للبيان. حتى الثالث من آذار ١٩١٧ أصدر الحسين ثلاث بيانات وهي منشورة في الصحيفة المكية (القبلة). ولم ينشر فيها أول وأهم البيانات، وهو محل شك لأنه قد ظهر في أكثر من شكل. بعد إعداد هذا البيان في مكة، أرسل إلى وكيل الشريف في القاهرة لفرض توزيعه على نحو أوسع. وقد أوضح السيد داون كيف عالج العرب في مصر افتقار النسخة الأصلية من البيان للدعوة إلى القومية العربية. لذلك سلمت، على أكثر احتمال، إلى رشيد رضا من سوريا، وهو أحد أنصار القضية العربية المتحمسين، لإضفاء بعض المواطف اللازمة على البيان. إلا أن الحسين بعد أن علم بالتحريف، طلب توزيع النص الأصلي كما هو.

برر الحسين صراعه في هذا البيان صراحة بأنه لا يأتي ضمن نطاق القومية العربية أو حتى الحجازية، بل ضمن نطاق المبادئ والقيم الإسلامية التقليدية إزاء عدم صلاحية تركيا الفتاة ودميتها السلطان للعمل كحماة للشريعة ومدافعين عن الدولة الإسلامية. ويستند الحسين في دفاعه عن ثورته ضد الخليفة وظهوره بمظهر المجزئ لوحدة الدولة الإسلامية على عدم صلاحية الاتحاديين دينيًا ودنيويًا لحكم المسلمين. وأشار إلى أنه منذ تسلمهم السلطة، حكموا البلاد على نحو سيء، وضاعت العديد من أقاليم الإمبراطورية وقد أوصلوا الشعب الحجازي أيضًا إلى

حالة من البؤس والشقاء خلال نفس الفترة. ويشير لورنس في وقت لاحق أن الحسين قد شدد حصاره في السابق على جده من اجل الضغط على تجار المدينة لدفعهم إلى مساندته عندما يتطلب الأمر.

واستمر الحسين يشرح في البيان فساد تركيا الفتاة، واستشهد بتصريحات غير لائقة لمسؤولي الجمعية حول شخصية الرسول محمد. والتي نشرت في صحيفة (اجتهاد) التي تصدر في اسطنبول. كما أشار البيان إلى أن الأتراك يفكرون بإعطاء حقوق متساوية للنساء في موضوع الإرث وإعفاء الجنود وقت الحركات الفعلية من واجب صوم شهر رمضان وأن تلك التعليمات قد أبلغت إلى (القاضي) الحاكم الديني في مكة وهذا يعني تجاوزًا كبيرًا على سيادة القانون الإسلامي. لقد قوض الاتحاديون سلطات السلطان وهو الزعيم الديني والدنيوي التقليدي للإمبراطورية وأخذوا يستخدمونه لإضفاء الشرعية على برامجهم الإلحادية. وفي آخر البيان فقط وردت إشارة إلى القضية العربية عندما ذكر الحسين عمليات شنق القوميين التي أمر بها جمال في بلاد الشام. وقد صور الحسين الثورة بأنها حركة لحماية موقعه كأمير لمكة ومدافع عن القيم الإسلامية التقليدية ضد هرطقة الاتحاديين. صحيح أن الحسين كان يمثل آراء القوميين العرب وهذا جاء ليس لأنه واحداً منهم، بل لأنه اختير لهذا الدور من قبل كيتشنر والأحزاب الدمشقية. وكانت هذه الآراء هي موضوع المراسلات بينه وبين السير هنري مكماهون، إلا أنه لم ترد أية إشارة لها في البيان الأول. ويبدو من المؤكد أن نظرة الحسين عن الدولة العربية الجديدة من كونها تجسيد لوجهات نظر التقليديين، لا تتفق مع ما يراه القوميون عن هذه الدولة. ولكن هذا - كما في العديد من القضايا في هذه المرحلة - شيء يمكن حله فيما بعد. كان كلاهما يسعى في هذا الوقت لتحقيق هدف واحد وهو تحرير العرب من الأتراك. وعندما لمع نجم الحسين، شعر السوريون بالقلق الشديد لاحتمال أن يحكموا في الآخر من قبل هذا المستبد. كان مفيداً لهم في هذه

المرحلة، بل وضروري، إلا أنهم ربما يطلبون حماية الحلفاء من استبداد ممثلهم الذي اختاروه.

في مقال كتبه السير مارك سايكس، الذي كان مؤيدًا سابقًا للأتراك، بعد زيارته إلى اسطنبول في عام ١٩١٣، يصف فيه الشعور السائد تجاه الأسلوب الذي تدير به تركيا الفتاة شؤون الإمبراطورية، فقد جاء فيه:

"لقد علموا التركي المتقي شرب الخمور، والجندي المخلص التمرد. فزيفوا واحتقروا الدين. وكل أشكال الادعاءات البغيضة بأن أعمال النفي التي نفذها عبدالحميد قد ألقيت في الدرك الأسفل، قد تفجرت من جديد بأشكال منمقة قذرة.. وأحدثت مزيجا غريبًا من المذاهب التي حلت محل سلطة الخلافة المتداعية".

أعيدت صياغة دعوة الحسين إلى الإطار التقليدي للدين بقالب آخر يمكن أن يجذب السوريين والعراقيين وبقية الأنصار من العرب غير المتدينين، فكتب رشيد رضا مقالا عن نظرية العروبة. إلا أن الحسين لم يجد شيئًا مهمًا في مثل هذه الأفكار لإضافة دليل آخر لآرائه، لذلك كتب إلى القاهرة بغضب شديد، وتم حذف الفقرات التي سببت استياءه. وهذا مهم عند دراسة موضوع تزعمه لقضية الاستقلال العربي بعد الحرب، لأن بياناته في هذه المرحلة المبكرة كانت مصاغة بلغة معادية لجمعية الاتحاد والترقي أو مناصرة للقيم الإسلامية التقليدية. رغم أن أنباء الأحداث في الحجاز قد وصلت الأتراك بواسطة خطوط التلغراف وسكة الحديد، إلا أنهم ارتأوا حجب هذه المعلومات عن مواطني الإمبراطورية حتى يوم ٢٩ حزيران، وذلك عندما كتبت صحيفة دمشقية هي (الشرق) بإيجاز ما يلي: "هاجمت مجاميع قبلية عدة مواقع مجاورة للمدينة المنورة ولم تسبب سوى أضرار بسيطة".

استمرت التقارير التركية والألمانية تقلل من شأن المعلومات الواردة من الحجاز أو تشوهها، بحيث أنه في ٢٤ أيلول وبعد سقوط الطائف مباشرة كتبت صحيفة (طنين) التي تصدر في اسطنبول ما يلي: "كل شيء هادئ في الطائف، وقد رد البدو الذين يقودهم الأمير عبدالله على أعقابهم وتكبدوا خسائر فادحة". ولم تكن مصلحة البريد في برلين بأفضل حال فذكرت في ٢٧ حزيران: "نستطيع القول أنه لم يحصل أي تمرد في الحجاز مطلقاً".

وتناولت الصحافة في الهند البريطانية موضوع الثورة بحذر شديد، حيث ذكرت الحدث باختصار بعد تعتيم كبير، إلا أنها لم تذكر أية إشارة عن الدور البريطاني، لأنه لا تزال هناك تحفظات شديدة خشية ردود فعل الجماعات الإسلامية تجاه الدعم البريطاني للثورة على الخلافة. ففي الهند، لا تزال هذه المؤسسة تحظى باحترام كبير، في حين انحطت سمعتها بشكل كبير في معظم أنحاء العالم العربي بفعل تصرفات المسؤولين الأتراك.

كان يخيم في مجلس الشيوخ التركي شعور عام بالصدمة والازدراء على خيانة تركيا في ساعة محنتها من قبل "أناس مصلحيين مستعدين للتضحية بشرفهم في سبيل ذهب الكفار". كتبت شتيت، كما يقول حيدر: "حتى أشد أنصار الحسين تحمساً يعتقدون أنه من الممكن أن يبيع شرفه في سبيل الذهب البريطاني. حتى أن شقيقه ناصر قد شجب الشريف الكبير صراحة في مجلس الشيوخ". وقد جاء رد جمال بشكل انفعالي في حديث ألقاه خلال مأدبة على شرف رئيس مجلس الدولة العثماني:

"من المؤسف أن يعطل امرؤ هزيل واجب الجهاد المقدس في صميم الأرض الإسلامية المقدسة وذلك حين تحالف مع القوى المسيحية التي تسعى لابتزاز العالم

الإسلامي واستلاب القسطنطينية عاصمته. أما ذلك الفرد الخسيس الذي دفعته القحة لأن ينسب نفسه إلى الرسول... فقد أجبر الدولة العثمانية أن توجه إليه قوات كان الحق أن ترسل لدحر البريطانيين في القناة وتحتل القاهرة. إن هذا الخائن لم يقم بما قام به إلا خدمة للبريطانيين، إلا أن كل ذلك لن يحول بين الإسلام والنصر النهائي أو يوقف جندنا، أولئك الأبطال الذين حموا القسطنطينية، عن اجتياز القناة واستئصال البريطانيين وحزّ رأس ذلك الدجال في مكة".

كان رد الفعل التركي سريعًا، إلا أنه وجّه بشكل رئيس إلى منطقة المشرق. فقد انتهى الوضع الخاص الذي حصل عليه لبنان - تحت ضغط الفرنسيين - وألقيَ العديد من الوجهاء العرب في السجون وجلدوا بقسوة. كان سيشن جمال أعمالا ثأرية صارمة أخرى لمنع انفصال العرب، لو لم يبلغه فيصل أن لدى العرب الآن (٦٠٠٠) أسير تركي من ثلاث حاميات تركية رئيسية، وسيجري قتلهم بنسبة (١٠) إلى (١) إذا لم تتوقف عمليات الاضطهاد ضد العرب. ورغم تضاؤل استخدام العنف والتعذيب،إلا أن المعاناة لم تنته، لأن عام ١٩١٦ كان عام مجاعة في أنحاء الهلال الخصيب الذي ينتج الحبوب. فإضافة إلى خطر الجراد الدائم طوال السنة، كان هناك سوء في الإدارة أثناء الحرب وجرت أعمال مصادرة لكميات كبيرة من الحبوب لصالح الجيش. وتقدر مجلة التايمز الصادرة في (١٢) آب عدد الذين هلكوا بسبب الجوع والأمراض الناجمة عنه في ذلك العام في شمال سوريا وحده بستين ألفا إلى ثمانين ألف شخص.

حالما أدرك الأتراك طبيعة الثورة ضدهم، تحركوا لإزاحة الحسين عن الحكم، رغم أنهم لا يستطيعون فرض سيطرتهم العسكرية على الحجاز. فليس بمقدورهم عمل شيء لتحويل القرارات إلى واقع. ففي الأسبوع الثاني من شهر حزيران، استدعى طلعت باشا علي حيدر من مقر إقامته الجميل في (كومليجا)

على الضفة الآسيوية من البسفور وأبلغه بأخبار الأراضي المقدسة، وعليه أن يعد نفسه للقيام برحلة مستعجلة إلى المدينة المنورة وقال حسب تعبيره:

"استلمت في ذلك المساء برقية من الصدر الأعظم طالبًا مني زيارته في مقره في اليوم التالي. وحالما وصلت قال (لقد أعلن الشريف حسين وأولاده التمرد)، وأضاف: (وفيصل يقاوم الجيش الآن، بينما فرّ علي إلى مكة وتعرضت وسائل الاتصال مع المدينة المنورة إلى الهجوم. وإني أعرض عليك بالنيابة عن مجلس الوزراء إمارة مكة). وقد شكرته وقلت بما أن الحكومة بحاجة إلى خدماتي فإني موافق ولكني ذكّرته بالشروط التي أريدها بعدما تستتب الأمور..

قلت: (كم هو غريب ذلك، فسبب إزاحة فرع عائلتي عن الحكم وتولي الفرع العوني الذي ينتمي إليه الحسين، يعود إلى محمد علي. وأنت حفيده، وأنا أكبر أحفاد الشريف غالب الذي أسقطه محمد علي. والآن يهيئ الله أمامك الفرصة لتقويم وتصحيح جريمة جدك". وقد بدا مندهشًا إلى حد ما لملاحظاتي، إلا أنه فوجئ في تلك اللحظة، ثم اكتفى بالقول: (الحق ينتصر دائمًا في النهاية)".

تم خلع الحسين رسميًا كأمير لمكة في (٢) تموز، وفي (١٦) منه صدر أمر سلطاني (إرادة) من الباب العالي بتعيين علي حيدر أميرًا وشريفا لمكة. كان يؤمل من إرسال هذه الشخصية التي تحظى بالاحترام والقبول في المدينة المنورة، أن يمثل حضورها مقاومة تأثير الحسين في أوساط القبائل المحيطة. إضافة إلى أنها ستكون بديلاً جاهزًا عن الحسين لتنصيبه على إمارة مكة، في حالة قيام فخري باشا بالهجوم من المدينة المنورة.

شق علي حيدر طريقه وسط أبهة الحرس الإمبراطوري إلى محطة حيدر باشا في ١٩ تموز، حيث ودعته هناك حاشية من الوزراء والقناصل والأشراف

والجنود. وقد خرج معظم أعضاء مجلس الشيوخ لوداع الأمير الجديد وكان على رأسهم وحيد الدين الذين أصبح فيما بعد محمدًا السادس.

اتجه علي حيدر نحو دمشق لأن خط سكة حديد الحجاز - اسطنبول لم يكتمل بعد، لذا عليه إجراء الرحلة على شكل مراحل. وفي دمشق أيضًا، جرى استقبال رسمي كان على رأسه هذه المرة جمال باشا. ورغم خبرته الكبيرة في التعامل مع الحسين، إلا أنه كان مفعمًا بالأمل تجاه الفرصة التي يمثلها علي حيدر. أضف إلى ذلك، فهو لا يثق بالأمير الجديد الذي خلقت آراؤه وتعليقاته الاستياء في نفسه في مناسبات عديدة. وسرعان ما اختلفوا بسبب بعض أسرى الحرب البريطانيين الذين بانت على وجوههم سيماء الأسى والمسكنة، في محطة حلب عندما مر قطار الأمير عبرها. فقد أشار إلى أن حالتهم لها انعكاس سيء على تركيا. إلا أن جمال، الذي كان يواجه مشكلة المجاعة في سوريا، لم يكن في مزاج يسمح له بالرد على ملاحظات حيدر العابرة، لذلك كانت علاقاتهم فاترة، إلا أنها تتسم بالأدب. وكتدبير احترازي، أضاف إلى مجموعة مرافق الشرف المؤلفة من (٣٠٠) جندي و(٢٥) هجان، أحد رجاله هو نور الدين بك ومعه أوامر بإطلاق النار على الأمير، إذا ما جرت الأمور خارج نطاق سيطرتهم: خاصة إذا حاول الأمير الاتصال ببريطانيا.

في ٢٩ تموز غادر علي حيدر ومجموعته دمشق وساروا جنوبًا مدة أربعة أيام حتى الأول من آب حيث وصلوا المدينة المنورة. وهناك جمع فخري باشا عددًا كبيرًا من قواته (١٥٠٠٠) جندي للاصطفاف على امتداد الطريق من المحطة إلى جامع الرسول.

"لن أنس أبدًا السعادة التي شعرت بها يوم وصولي عندما قيل لي أن الضريح المقدس على مرأى مني. أخذت أصلي على الفور. وعندما دخل القطار المحطة، أطلقت المدفعية تحية السلام الإمبراطوري، وعندما نزلت إلى الرصيف،

حياني فخري باشا قائلاً (أقدم لكم يا سمو الأمير إجلالي الأكبر). إلا أني لم أشعر أن هناك دفئًا حقيقيًا وراء هذه التحية. ولكني لم أعبأ بذلك.

بعد الانفصال عن الأتراك في حزيران، أصبح واجبًا على الهاشميين أن يقرروا نوع السلطة التي ستحل محل الإمبراطورية العثمانية في تلك المناطق المحررة. إذ أصبح الحجاز، باستثناء المدينة المنورة منطقة محررة بالكامل مع وجود شيء من الفراغ السياسي لأن سلطة الشريف محصورة تقليديًا على البدو وشؤون الحج. جاءت الخطوة الأولى في (٧) تشرين الأول ١٩١٦ عندما أعلن في رسالة موجهة من الحسين إلى الشيخ عبدالله السراج بأنه سيتم تشكيل مجلس للوزراء يضم عبدالله وزيرًا للخارجية وعلي رئيسًا للوزراء والسراج نائبًا له. وسيضم المجلس عراقيين وفلسطينيين وأتراك ومصريين. وأعطيت وزارة المالية إلى التاجر الحضرمي عبدالرحمن بنجا، وسيشرف على إدارة الحكومة الجديدة هيئة مؤلفة من علماء المذاهب الإسلامية الشافعي والمالكي. ولا تشكل "حكومة" الحجاز أي ثقل موازٍ لحكم الحسين ذي الطابع الفردي إذ كان الوزراء يتلقون أوامره فقط.

في الشهر التالي، تم تعديل الوضع الشاذ لمنصب الحسين، حيث لا يزال فنيًا مجرد أميرًا عيّنه الأتراك وبالتالي موظفا ذا سلطات عالية معادية. يشير عبدالله في مذكراته إلى أنه أخذ تلك المسؤولية على عاتقه وتصدى لرفض والده بأن يصبح ملكا. ويرى كيركبرايد أنه في العديد من هذه الشؤون الدستورية كانت الأفكار تتوالد لدى عبدالله ويدرسها جيدًا قبل تقديمها إلى والده. وفي (٢) تشرين الثاني ١٩١٦، أعلن الحسين نفسه ملكا على البلاد العربية في احتفال جرى في الحرم الكبير بمكة، تلقى خلاله البيعة التقليدية بالولاء من قبل أهالي المدن ورجال القبائل. وقد سجلت صحيفة القبلة أحداث هذا اليوم بقولها: "إن هذا اليوم هو

عيد كبير للعرب، الذين نجحوا في استعادة مكانتهم السابقة واستقلالهم العريق، ولا كبير إلا الله ولا راية إلا للراية العربية".

وقد لخص الحسين الوضع الجديد بقوله: "لقد أنار عملنا هذا الدرب أمام أبناء بلدنا من مسلمين ومسيحيين. سنتبع في سياستنا الداخلية خطى أسلافنا، وفي الوقت نفسه نستلهم الأفكار من المؤسسات الأوروبية.. إن ديننا وتقاليدنا لا تمنعنا من الاستفادة من خدمات إخواننا غير المسلمين الذين يتمتعون بحقوق متساوية معنا في حكومتنا الجديدة".

وصلت أنباء اتخاذ الحسين للقبه الجديد إلى الحلفاء، الذين أخذتهم المفاجأة من هذه الخطوة. وقد أبحر ستورز، الذي سبق أن حصل على موافقة الشريف على التشاور مع بريطانيا حول هذه الخطوة، من جدة ووصل مصر ليجد أنباء التتويج أمامه وأنه قد حصل قبل ثلاثة أيام فقط. وقد خشي الحلفاء من احتمال حصول سوء فهم ونزاع مع بقية الحكام العرب، خاصة الذين تربطهم مع بريطانيا معاهدات كمسير ونجد. لهذا شعروا من غير المناسب الاعتراف بلقب الحسين الجديد. ترك الأمر لستورز للتعبير عن الدهشة والامتعاض البريطاني إزاء هذا التغيير. وقد رد عبدالله بقوله إن ملك بلغاريا قد فعل نفس الأمر، كما فعل مؤخرًا الأمير نيكولاس أمير الجبل الأسود. وأشار إلى أنه لم يحصل أي تردد في الاعتراف بهما. وقال الحسين أن البريطانيين سبق أن خاطبوه بلقب (الخليفة) الذي هو أرفع مكانة من (الملك)، إذن لماذا هذه الضجة حول هذا اللقب الأقل مكانة. ولم يستطيع ستورز استذكار أية رسالة تشير مباشرة إلى الحسين كخليفة. وهو لم يكن مسؤولا عن سلسلة عبارات التبجيل التي ترافق عادة رسائل دار الاعتماد البريطاني في مصر إلى الشريف في مكة. ولم يعترف الحلفاء أبدًا - باستثناء روسيا - بلقب الحسين الجديد. وفي (٣) كانون الثاني ١٩١٧، اعترفت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا بالحسين ملكا على الحجاز.

كان من المهم للبريطانيين والهاشميين على السواء أن تكتسب الحجاز شكل الدولة المستقلة من أجل إضفاء شيء من الأهمية لها في أنظار العالم الإسلامي. وقد حلت الشريعة الإسلامية محل القانون التركي بعد إعلان الاستقلال، واستبدل العلم العثماني ذو الألوان الأحمر والأبيض بالعلم الشريفي ذي الألوان الأسود والأبيض والأخضر والأحمر.

في الوقت نفسه صمم ستورز طوابع بريدية تعلن عن الوضع المستقل للحجاز في أنحاء العالم الإسلامي. وقد استعان ستورز في وضع هذه التصاميم بلورنس الذي يعمل في قسم رسم الخرائط في الاستخبارات العسكرية في القاهرة. وقد استوحى لورنس أفكار هذه التصاميم من مصادر مختلفة كمنظر مدخل محطة سكة حديد القاهرة وجوامع من شمال مصر آخذًا بنظر الاعتبار عدم الإساءة للقيم الإسلامية في تمثيل الأشكال الكائنات الحية. وبالمقابل كان ستورز شديد الحرص على إخراج الطوابع وهي تحمل عنوان (البريد الحجازي) دون بهرجة أكثر. وقد أعاد الحسين الطبع بواسطة مطابع الحكومة في مكة مضيفا على الطوابع عبارة (الحكومة العربية الهاشمية).

إلا أنه في تشرين الأول أصبحت عبارات السيادة والاستقلال غير ذات معنى، لأن الثورة العربية قد نفذت قوتها. وأصبح الأتراك يتحينون الفرصة للخروج من المدينة المنورة لشنق الحسين في مكة. وحان الوقت الآن لتقييم قوة القوات العربية من أجل إعادتها إلى حالة الهجوم.

بيان شريف مكة

بسم الله الرحمن الرحيم

منشور عام من شريف مكة وأميرها، إلى جميع إخوانه المسلمين ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (الأعراف:٨٩).

كل من لـه إلمام بالتاريخ يعلم أن أمراء مكة المكرمة هم أول من اعترف بالدولة العلية من حكام المسلمين وأمرائهم رغبة منهم في جمع كلمة المسلمين وأحكامًا لعرى أخوتهم لتمسك سلاطينها من (آل عثمان) العظام طاب ثراهم وجعل دار الخلد مثواهم، بعروة الإيمان بكتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه، ولبناء أحكام دولتهم على الشريعة الغراء ولنفس تلك الغاية السامية الرفيعة، ما زال الأمراء المشار إليهم، يحافظون عليها، حتى أنني حملت بالعرب على العرب بذاتي في سنة سبع وعشرين وثلثمائة وألف، أثناء حصار أبها محافظة على شرف الدولة وفي السنة التي تلتها كان مثل هذه الحركة تحت قيادة أبنائي إلى غير ذلك مما هو في هذا المعنى وكما هو مشهود ومعهود - إلى أن نشأت في الدولة جمعية الاتحاد، وتولت إلى القبض على إدارتها وجميع شؤونها بقوة الثورة، فحادوا بها عن صراط الدين ومنهج الشرع القويم ومهدوا السبل للمروق منه واحتقار أئمته وسلبوا شوكة السلطان المعظم ما له من حق التصرف الشرعي والقانوني أيضًا وجعلوه هو ومجلس الأمة ومجلس الوكلاء منفذين للقرارات السرية لجمعيتهم الثورية وأسرفوا في أموال الدولة وحملوها الديون الفاحشة التي لا يخفى أمر خطرها وخامة عاقبتها على أحد وأضاعوا عدة ممالك كبيرة من ممالكها ومزقوا شمل الأمة العثمانية بمحاولة جعل شعوبها كلها تركية

بالقوة القاهرة فأوقعوا بينها وبين العنصر الذي أرادوا تسويده عليها وإدغامها فيه العداوة والبغضاء وخصوا العرب ولغتهم بالاضطهاد.

ولم يكتفوا بذلك كله حتى خاضوا بالدولة والأمة غمرات هذه الحرب الأوروبية الساحقة الماحقة فوقفوا بالدولة موقف الهلكة وألقوا بأيديهم إلى التهلكة واستنزفوا باسمها ثروة الأمة كما استنزفوا قبله ثروة الدولة ثم اتخذوها ذريعة للفتك بجميع المخالفين لرأيهم في سياستهم الخرقاء وإدارتهم الظالمة وللتنكيل بالعرب خاصة، حتى إن حرم الله سبحانه وتعالى، وحرم رسوله الأعظم (ﷺ)، لم يسلما من شرهم فإنهم عرضوهما للخوف والجوع والخراب.

أما انحرافهم عن صراط الدين، فلا نأخذ فيه هنا بمجرد ما اشتهر عن زعمائهم من الكفر والإلحاد في الصحف الإسلامية والأوروبية، ولا بما نعلم من سوء اعتقاد جمهور علماء الأستانة وغيرهم فيهم، بل نأخذ فيه بأقوالهم وأفعالهم، فمن باب الأقوال ما نشروه في دار السلطنة من الكتب والصحف التي جاهرت في الطعن بالإسلام وانتقاص ما عظم الله تعالى من قدر خاتم رسله وقدر خلفائه الراشدين الكرام، ككتاب (قوم جديد)، الذي اشتهر بما فيه من الكفر والضلال والإضلال، وتحريف نصوص الكتاب العزيز، والسنّة السنيّة، ومجلة (اجتهاد) التي شوهت أجمل سيرة في الخلق وأشرفها، وهي سيرة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه، ولا يمكن أن تنشر أمثال هذه المطبوعات في دار السلطنة على مرأى ومسمع من شيخ إسلامها وعلمائها، ومن رجال السلطنة ووزرائها، لولا أن الجمعية هي الناشرة لها، وما بالنا نرى من ينتقد جمعيتهم، ولو بحق يعاقبونه، بالقتل أو النفي أو السجن المؤبد ومن يطعن في دين الله وصفوة خلقه يعزز ويكرم.

ومن باب الأفعال، أنهم أبطلوا ما كان محتمًا على تلاميذ المدرسة الحربية وغيرها، وعلى جميع العسكر من التزام الصلاة، فجعلوا الصلاة في نظامهم

العسكري اختيارية غير واجبة، توسلاً بذلك إلى إبطالها بالفعل، وقد جعل كتاب (قوم جديد) لدينهم أركانًا لا صلاة فيها ولا صيام ولا حج، ثم جاءت أوامرهم في أثناء هذه الحرب إلى الجنود المقيمين في مثل المدينة المنورة، أو مكة المكرمة، أو الشام تحتم عليهم الإفطار في رمضان بعلة المساواة بينهم وبين الجنود الذين يقاتلون في حدود الروس ولفقوا أقاويل لمعارضة النص الصريح الذي لا يقبل التأويل وهو قوله عز وجل: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ (البقرة:١٨٤) ، بل شرعوا في إبطال أحكام الشريعة المنصوصة في القرآن الكريم المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة، وقد يعد من هذا القبيل ما ورد أخيرًا إلى قاضي محكمة مكة الشرعية، بأن لا يحكم إلا بالشهادة التي تحررت في محكمته وبين يديه، وإلا يلتفت إلى الشهادات التي يكتبها المسلمون في ما بينهم غير مبالين في آية سورة البقرة. ومنه استحلالهم لقتل المسلمين والذميين بغير محاكمة شرعية ولا حكم، أو بأحكام عرفية ما أنزل الله بها من سلطان، واستحلال مصادرتهم وسلب أموالهم وإخراجهم من ديارهم وسيأتي شيء من شواهد ذلك في المنشور، ولا يمكن هنا إحصاء جرائمهم ولا بدعهم وأحداثهم في الإسلام، ومن أغربها مشروع سجلات المستشفعين الذي قرره شيخ إسلامهم السابق وأصدر به إرادات سُنِّية وقصاراه ببيع الشفاعة النبوية لطالبها بليرة عثمانية وكتابة أسماء المشترين للشفاعة في سجلات تودع في الحرم النبوي الشريف.

وأما سلبهم ما للسلطان المعظم من حق الإشراف الشرعي وكذا القانوني فهو لا يجهله أحد من أهل العاصمة وأهل المعرفة في جميع أقطار المملكة ولا من الأجانب أيضًا حتى أنه لا قدرة له على اختيار رئيس الكتاب (المابين) في سلطنته الشريفة ولا رئيس خاصته المبجلة المنيفة، فضلا عن اختيار الصدر الأعظم وشيخ

الإسلام فضلاً عن النظر في أمور المسلمين ومصالح العباد والبلاد وقد أسقطوا بهذا بقايا شروط الخلافة التي يطالب بها المسلمون كافة. إذ يجب على المسلمين أن يكون لهم أمام (خليفة) شرعي مستقل، قادر على التصرف في إقامة الشرع ورفع لواء العدل.

وأما إسرافهم في أموال الدولة، وإرهاقها بالقروض الفاحشة، فأمره معلوم للخاصة والعامة وكذلك إضاعتهم لعدة ممالك من الدولة كمملكتي البوسنة والهرسك والممالك الألبانية والمقدونية وطرابلس الغرب وبرقة وكذلك إثارة الأحقاد الجنسية الممزقة لشمل الأمة العثمانية، وبهذه السياسية السيئة أضاعوا المملكة الألبانية، وفقدوا الشعب الأرنؤوطي الباسل الذي كان سياجًا للدولة أمام البلقان. وهذه حملتهم على ما اشتهر خبره في هذه الأيام من الفتك بالأرمن من رجال ونساء وأطفال وأين هذا إن صح عشر معشاره من قول الرسول الأعظم ﷺ "من أذى ذميًا، فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة". رواه الخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود. وفي التوصية يحفظ حقوق أهل الذمة والعهد، أحاديث في الصحاح والسنن، ومن الأحاديث المخيفة في هذا الباب ما رواه الطبراني من حديث جابر: "إذا ظلم أهل الذمة، كانت الدولة دولة العدو"، وإن كان في سنده ضعف فإن متنه في غاية القوة تؤيده السنن الاجتماعية.

وأما ما خصوا به العرب ولغتهم من الاضطهاد، فهو أعظم ما جنوه على الدين والدولة من الفساد: حاولوا قتل اللغة العربية في جميع الولايات العثمانية بإبطالها من المدارس ومنعها من ا لدواوين والمحاكم وأصدروا في ذلك أوامر كثيرة لقيت من مبعوثي العرب معارضات شديدة ونفروا عنها في كتبهم الجديدة، وألفوا لذلك الجمعيات الكثيرة. ولا يخفى أن قتل اللغة العربية قتل للإسلام نفسه. فالإسلام في الحقيقة دين عربي بمعنى أن كتابه أنزل باللغة العربية، وجعل متعبدًا بتلاوته وتدبره وفهمه، لا بمعنى أنه خاص للعرب، فمن المعلوم من الدين

بالضرورة أنه عام لجميع الأمم، وقد قال الله في سورة الرعد: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ (الرعد:٣٧) .

وقد أمكنتهم فرصة إعلانهم الأحكام العرفية في البلاد من تنفيذ كل ما يريدون في العرب فطفقوا يقتلون ويصلبون كبراء ونوابغ رجال النهضة العربية، الذين اشتهروا بغيرتهم على الأمة والدولة من أرباب المعارف والأفكار وحملة الأقلام وبارعي الضباط، وآخر ما وصل إلينا من بلاغاتهم الرسمية في ذلك، أنهم صلبوا في الشام (٢١) رجلا في آن واحد منهم شفيق بك المؤيد والسيد عبدالحميد الزهراوي والضابط الكبير سليم بك الجزائري والأمير عارف الشهابي وعبدالغني العريسي وشكري بك العسلي وعبدالوهاب بك الإنكليزي وتوفيق بك البساط، وإنه ليصعب على كثير من ذوي القلوب القاسية إزهاق مثل هذا العدد الكبير من الأنفس لأجل الانتقام ولو كانت من الدواب أو بهيمة الأنعام وإنما يقتلون أمثال هؤلاء جهرًا ويصلبونهم في الشوارع العامة صلبًا، حتى لا يطمع عربي بأن يقول بعدهم أن لغتنا لغة الإسلام فيجب على الدولة الإسلامية الكبرى مساعدتنا على حفظها وإن لنا في المملكة حقوقا شرعية وقانونية يجب علينا المطالبة بها وأما من يقتلون رميًا بالرصاص بملل عسكرية ومن يقتلون اغتيالاً في السجون والشوارع فلا سبيل إلى العلم بأخبارهم إلا إجمالاً، وإنه ليعز على كل إنسان أن يرضى لقومه أو لغيرهم من أبناء جنسه بأن تكون دماؤهم مهينة غير محترمة إلى هذا الحد. وقد عظم الإسلام أمر احترام الدماء، وجعل من يتعمد القتل خالدًا في النار.

ثم أنهم صادروا أموال عدد لا يحصى من الناس، وعمدوا إلى كثير من الأسر (العائلات) الغنية أو المغضوب عليها لأسباب سياسية، فأخرجوهم من أموالهم وديارهم وعقارهم، وأبعدوهم نساءًا وأطفالاً إلى بلاد الأناضول، بلا كافل شرعي، فهتكوا حرمة المخدرات من النساء المؤمنات اللواتي لا يعرفن السياسة

وعرّضوا أطفالهن للهلاك بين أيديهن في الطريق الطويل الذي لا يجدن فيه من القوت والأسباب الواقية من البرد أو الحر والله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (فاطر:١٨)، والظاهر أن الغرض من هذا أن يكون من يسلم من الهلاك من هؤلاء النساء والأطفال كالإماء والعبيد للأتراك في الأناضول. ولابد من أن ينسى الأطفال لغتهم هناك، فيكونوا أتراكا تعمر بهم بلاد الترك، ولعلهم يريدون أن يأتوا بأتراك يحلون محل هؤلاء المنفيين، فيسهل جعل البلاد السورية كلها تركية.

ولم يكتفوا بالتنكيل بالأحياء، تقتيلاً وتصليبًا، ومصادرة ونفيًا بقساوة على الأطفال والمخدرات تنفطر لمجرد تصورها القلوب، وتذهب الأنفس حسرات بل وصل حقدهم على العرب إلى إهانة الأمراء فتجرأوا على قبر الأمير الأبر المجاهد التقي الزاهد، مولانا الشريف القادر الحسني بإهانته وتحقيره.

وأي مسلم بل أي بشر يرضى لقومه، بمثل هذا الظلم والخسف وقد جعل الله تعالى أمر نفي المرء من وطنه مقارنًا لأمر قتاله ليرتد عن دينه وسببًا لمشروعية القتال فقال تعالى في تعليل الإذن بالجهاد: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ (الحج:٣٩-٤٠) الآية، وقال في شأن معاملة غير المسلمين بالعدل والبر والإحسان: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الممتحنة:٨-٩).

وأما نصيب الحجاز، وسكان الحرمين الشريفين من هذه الأرزاء، فلو سكتنا على ما كان من بوادره وأوائله، لطفى مده حتى لا يعلم إلا الله أين يكون حده، وساقوا إلينا الألوان الكثيرة من جنودهم المنظمة مستكملة الأسلحة والذخائر، وهم يعلمون كما نعلم أن الحجاز لا يهاجمه أحد من الدول المتحاربة حتى يحتاج إلى قوة مدافعة، وأنهم في أشد الحاجة إلى هؤلاء الجنود في ميادين القتال، فلم يبق إلا أنهم يريدون أن يفعلوا في الحجاز ما فعلوه في سوريا والعراق ليتم لهم القضاء على الأمة العربية في دارها وموطن منعتها وعزها وفخارها، ويذيقوا هذا الحرم الذي جعله الله أمنًا، تجبى إليه ثمرات كل شيء ما أذاقوا جنة الدنيا، (الشام) من الجوع والخوف ويسلبوه ما منّ الله عليه به، وامتن به على سكانه في كتابه العزيز، فكان وجود هذه الجنود سببًا لمنع ورود الأقوات على الثغور الحجازية، وعليها مدار معيشة البلاد، وسببًا لمنع ورود الحجاج إليها، ولا كسب لأهلها إلا منهم، فاشتد الضيق حتى اضطر كثير من أبناء الدرجة الثانية من الأهالي إلى بيع أبواب بيوتهم. وخشية أسباب الهلاك، عن قوم جعلني الله راعيًا مسؤولا عنهم، وسبب منع سواد المسلمين الأعظم عن إقامة ركن من أهم أركان دينهم ولو كان ذلك البلاء، في سبيل الدفاع عن الأوطان أو المصلحة الراجحة للإسلام، لتحملته البلاد بالافتخار ولساوى فيه الشرفاء والموسرون غيرهم ولو بالاختيار، ولكنه كما أسلفنا ضد مصلحة الإسلام والوطن.

فيا أيها الإخوان المسلمون ...

إننا قد وصلنا إلى حال من الخطر، لم يسبق لها في الإسلام نظير، كان لنا دول عزيزة قوية، أفضلها دول أسلافنا العربية، وقد ورثتها هذه الدولة العثمانية، فكنا نحن العرب أحرص الناس على حياتها، مع كونها هي التي خذلت اللغة العربية، وانتحلت لنفسها منصب الخلافة دون الدول التركية والكردية قبلها، وكنا نحن أمراء مكة وشرفاءها أخلص زعماء العرب وغيرهم لها على حرمانها

بلادنا، مهبط الوحي والعرفان من علوم الدين والدنيا، كل ذلك حرصاً منا ومن العرب كافة على أن يكون للإسلام دولة قوية تحفظ استقلاله وتنفذ شرعه ولو في الجملة.

وقد صار أمر هذه الدولة إلى جمعية اغتصبت حق آل عثمان الكرام بقوة الثورة وجعلته في أيدي زعانف ليس لأكثرهم في الشعب التركي الإسلامي أصل راسخ، ولا في الإسلام علم صحيح، ولا عمل صالح كأنور باشا وجمال باشا وطلعت بك، وكان من سوء تصرفهم فيها وفينا، ما أجملناه لكم في هذا المنشور، وقد كانت مقاومة إخواننا الترك لهم، أشد من مقاومة العرب. أما نحن، فكنا كلما سمعنا أو رأينا شيئًا من هجماتهم على الإسلام ندفعه بالتأويل، إلى أن أعيانا التأويل، وكلما علمنا منهم أو على العرب ذنبًا نقول لعله ذنب عارض يرجعون عنه بعد قليل، ولا نستقل مقاومتهم لأجله، لئلا يترتب عليه صدع في الدولة، يزيد له ما يزيد ويوقع التفرقة بين العرب والترك، حتى أنني ساعدتهم على مقاومة قومي ومقاومة أبناء أبي وأمي، فلم يرضهم كل ذلك من العرب.

ولما رأيناهم عرضوا استقلال هذه الدولة التي نحرص عليها للزوال، ولم يبقوا على كرامة الدين، ولا على أحكام الشرع، ولا على استقلال السلطان، ولم يبقى من سبب نحتمل لأجله منهم هذا الخسف والهوان، ولما وصل سيل طغيانهم إلينا، في حرم ربنا الذي أكرمنا بخدمة بيته وإقامة دينه وحرم جدنا ورسولنا عليه الصلاة والسلام الذي نحفظ من حديثه الصحيح: "إذا ذلت العرب، ذل الإسلام"، اضطررنا إلى مقاومة بغيهم من أسلم الطرق، وهي حصر جنودهم في معاقلها، من غير أن نبادلهم بقتال، فمن سلم منهم سلم، ومن قاتلنا كانت جنايته على نفسه، فما كان من حاميتهم بمكة إلا أن فعلت ما يعد برهانًا على ما تكن صدورهم للدين والعرب، وهو رميهم للبيت العتيق الذي أضافته العزة الأحدية لذاتها العلية قوله تعالى: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ ﴾ (الحج:٢٦)، وهي قبلة المسلمين،

وكعبة الموحدين، بقنبلتين من قنابل مدافعهم بحصن (جياد)، عندما علموا بقيام البلاد بالمطالبة باستقلالها، وقعت إحداهما فوق الحجر الأسود بنحو ذراع ونصف، والثانية تبعد عنه بمقدار ثلاثة أذرع، فالتهبت بنارهما أستار البيت، حتى هرع الألوف من المسلمين لإطفاء لهيبه بالضجيج والنحيب، واضطروا إلى فتح باب البيت والصعود إلى سطحه للتمكن من إطفاء اللهيب، وما انتهى أمرهم بهذا حتى عززوا الاثنتين بثالثة وقعت في مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، هذا عدا ما وقع من القذائف في بقية المسجد الذي اتخذوه هدفهم الوحيد في غالب مقذوفاتهم بالقنابل والرصاص، وما زالوا يقتلون الثلاثة والأربعة في نفس المسجد كل يوم حتى تعذر على العباد التقرب من الكعبة المشرفة. وفيما هذا من الاستتباب بالدين، وازدهار بيت الله تعالى، والإلحاد فيه ما نترك القول والحكم فيه أيضًا لملة المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها بعد تذكيرهم بقول الله عز وجل: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الحج:٢٥)، وتذكيرهم بأن الجاهلي كان يرى قاتل أبيه في هذا المسجد فلا يمسه بسوء (نعم)، نترك الحكم في هذا الاستخفاف والازدراء للعالم الإسلامي، ولكننا لا نترك مشاعر ديننا وشعائره ألعوبة في أيدي الاتحاديين، ولا نبيح لهم التصرف، في حرم الله ورسوله ما استباحوا في ديار الشام، ولا في الأستانة نفسها، ولا نسكت لهم على شيء من بغيهم على أحد من أبناء جنسنا، إذ لم يعد في السكوت مصلحة راجحة لا للدين ولا للدولة بل صارت المصلحة الإسلامية والعربية (وهما متلازمتان)، في مقاومة هذه الفئة الباغية.

ولما كان أمر حماية الحجاز، من هذا البغي والعدوان وإقامة ما فرضه الله فيه من الشعائر الإسلامية، ووقاية العرب والبلاد العربية من الخطر الذي استهدفت له الدولة العثمانية بسوء تصرف هذه الجمعية الباغية، كل ذلك لا يتم تداركه إلا بالاستقلال التام، وقطع كل صلة بهؤلاء السفاكين للدماء الناهبين للأموال. وقد هبت البلاد بتوفيق الله تعالى للنهوض بأمر استقلالها، بعد أن

ضربت على أيدي عمال الاتحاديين ورجال حامياتها، فاستقلت فعلاً وانفصلت عن البلاد التي لم تزل تئن تحت سلطة المتغلبين من الاتحاديين انفصالاً تامًا مطلقًا، بكل معاني الاستقلال الذي لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم خارجي، جاعلة مبدأها وغايتها، نصرة دين الإسلام، والسعي لإعلاء شأن المسلمين، والمساواة الشرعية في الحقوق بينهم وبين جميع من يدخل في حوزة استقلالها من المخالفين، قائمة في كل أعمالها، على أساس أحكام الشرع الشريف الذي لا يكون لنا مرجع سواه، ولا مستند إلا إياه في جميع الأحكام وأصول القضاء وفروعه، مع استعدادها لقبول ما ينطبق على أصول الدين، ويلائم شمائره من أنواع فنون الترقي الحديث وأسباب النهضة الصحيحة، باذلة كل ما في الجهد والطاقة لإعزاز العلم وتعميمه بين الناس على اختلاف الطبقات، وعلى حسب الحاجة والاستعداد.

هذا ما قد قمنا به، لأداء الواجب الديني علينا، راجين من إخواننا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، أن يؤدوا كذلك ما يرونه واجبًا لنا عليهم من أحكام روابط الإسلام والتناصح على البر والتقوى، وليعلموا بأننا قد قمنا بما قد قمنا به، ونحن نعتقد اعتقادًا راسخًا أنه أفضل خدمة للإسلام، إذا لم تتحقق به أماني المسلمين الصادقين حتى الترك منهم، فإنه لا ضرر فيه يوازي عشر معشار الضرر في تركه وستظهر لهم الأيام حقيقة ذلك، فليصبروا إن الله مع الصابرين، والله نسأل، ويحبه وحب رسوله نتوسل أن يتولانا بالتوفيق ويمدنا بالهداية إلى ما فيه خير الإسلام والمسلمين، والاعتماد على الله العلي الكبير، وهو حسبنا ونعم المصير.

شريف وأمير مكة / الحسين

٢٥ شعبان ١٣٣٤

المصدر: الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد ص٩٩-١٠٩ (المترجم)

الفصل الحادي عشر

تقدم وتراجع

وضع المدينة المنورة من تشرين الأول ١٩١٦ إلى كانون الثاني ١٩١٧

◘ بعد البداية الناجحة المثيرة للثورة العربية، أخذت بعد ذلك تتراجع لتصل إلى حافة الانهيار. فبعد المذبحة الغادرة للرجال والنساء والأطفال من أهالي ضاحية العوالي التابعة للمدينة المنورة في الأيام الأولى للقتال، واصل الأتراك تقدمهم عبر الوديان المنتشرة غرب المدينة. وتراجع فيصل وجنده غير النظاميين ترافقهم قوة صغيرة من رجال المدفعية المصريين الذين أرسلهم وينكيت على عجل إلى وادي صفرة. اندفعت القوات التركية بعد ذلك في هذا الوادي حيث أصبح الدرب السلطاني المؤدي إلى مكة مفتوحًا أمامهم وأصبحت الهزيمة المؤكدة للقوات الشريفية مسألة وقت لا أكثر. وعند تحقيق الأتراك لهذا الاختراق، لم يقف بينهم وبين جدة ومكة غير ميناء الصيد وملتقى الطرق ميناء رابغ وهو مدينة تقع على السهل الساحلي وتخو من أي مانع دفاعي طبيعي عدا قاع الوادي الجاف ومجاميع النخل.

يتمركز علي وزيد في خط الدفاع الثاني الخطير وتحت إمرتهم عدد من القوات غير النظامية مع جزء صغير من رجال المدفعية المصريين. كان المصريون

يقدرون المشاة التركية المدربة والتي يقودها ضابط كفء أكثر من تقديرهم لجمع الجنود المؤقتين الذين تتولى قيادتهم شخصية غير مدربة المتمثلة بعلي. إلا أن اطمئنانهم كان يتأتى من إدراك أن أي تقدم للأتراك تجاههم سيجعل منهم (أي الأتراك) هدفا سهلا لمدافع أسطول البحر الأحمر خفر السواحل. وما جعل الوضع أكثر سوءًا، هو أن الخائن حسين مبيريك لا زال يهدد رابغ من التلال، ولا ريب أن ولاء ائتلاف قبائل حرب التي تحتل المناطق المحيطة وشمال رابغ كان موضع شك.

كان الخوف الشديد من نتائج سقوط رابغ هو الذي دفع الحسين في تموز أن يقترح إنزال لواء بريطاني أو لوائين في رابغ لتعزيز دفاعاته والنتائج المتوقعة لهذا العمل معروفة جيدًا للحسين، لأن دخول جيش غير مسلم إلى الأراضي المقدسة سيكون له رد فعل كبير في جميع أنحاء العالم الإسلامي وسيزعزع الموقف الدولي الحالي للحكومة الهاشمية. فبعد اندلاع الثورة في حزيران، حصلت أعمال احتجاج في لكناو في الهند تجاه ما كانوا يرونه حرب انشقاق ضد الخليفة الإسلامي. كان لدى المسلمين الهنود حساسية خاصة تجاه قضية الخلافة، وبالمثل كانت حكومة الهند البريطانية تشعر بالقلق إزاء موضوع الاضطرابات خاصة إذا ما تحولت ضد البريطانيين بسبب اشتراك قوات مصرية مع الضباط البريطانيين.

أدركت المفوضية السامية في مصر الحاجة الماس لإضفاء طابع الشرعية على الحكومة الهاشمية في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فأسرعت بمنحها أشكال الاستقلال اللازمة كالطوابع البريدية التي سبق ذكرها. أضف إلى ذلك، أعطي الحج خلال شهر أيلول أهمية خاصة، إذ يجب أن يتم بكفاءة أعلى تحت ظل حكومة الشريف. لذلك أرسل المحمل في ٢٧ أيلول مع كسوته المزدانة بالزخارف والتطريزات من مصر على الباخرة (هاردنج)، يرافقها الأدميرال ويميس ببارجته (أريالو). وفي ميناء جدة، أنزل المحمل في موكب عظيم ومنظم من القوات المصرية في غطاء جلدي منشى وناصع البياض. كذلك نزل من الباخرة رونالد ستورز في

واحدة من زياراته المديدة إلى الحجاز في محاولة للحصول على ضمانات أكبر من العرب لمواصلة العمل مقابل ما استلموه من مبالغ من الذهب والتي تعتبر واقعًا تافهة، إذ تبلغ (١٢٥) ألف باون شهريًا. وخلال حديثه مع الكولونيل ولسن، توصل ستورز إلى قناعة بأن التدخل البريطاني المشار يعتبر أمرًا غير مرغوب فيه.

ولم يكن ذلك من رأي الرائد إن. إن. أي. برى الذي أرسلته السلطات الهندية في العراق لتقييم الوضع العسكري بشكل محايد. فقد وصل جدة في (١٠) أيلول محملاً بالهدايا إلى الشريف، حيث خصصت له مقابلة رسمية معه. كان برى يرى أن الشريف له وجهة نظر سيئة عن السلطات الهندية. وقد جاءت تلك نتيجة إعطاء السلطات الهندية للحجاج الهنود مبالغ قليلة، تكفي لرحلة ذهاب فقط، ثم حلت نفسها من مسؤولية إعادتهم مما اضطرهم إلى التجمع حول مبنى القنصلية البريطانية لعدة أسابيع. دخل برى مجلس الشريف بشكل غير متوقع ووجد الحسين قلقًا يذرع المكان جيئة وذهابًا. ويعتبر هذا أمرًا غير اعتيادي، لأن الشريف كان دومًا محاطًا بحاشيته، وقد شعر بالانزعاج لأنه فوجئ بدخول الضيف. وقد ازدادت الفكرة السيئة التي كونها برى، بعد أن دخل في لقاء عاصف مع علي في رابغ. فقد دخل في غرفة كان يدور فيها نقاش شديد كان يجريه أكبر أبناء الشريف مع القادة المحليين، حيث قام خلاله بمحاولة مفاجئة لطعن نفسه، وتوصل برى إلى قناعة بأن مثل هذه القيادة ومعها جيش غير مدرب، سوف لن تباري المدفعية أو المشاة التركية.

عند عودته، التقى مع السير مارك سايكس الذي زجه في اجتماع لمجلس الوزراء في داوننغ ستريت حيث أقنع الحضور بضرورة إرسال لواء بريطاني إلى رابغ. كان كرى وكرزن يؤيدان ذلك، كما كان فعلاً مكماهون ووينكيت. إلا أن هذا المقترح لقي معارضة شديدة من قبل الجنرال روبرتسون رئيس هيئة الأركان الملكية الذي لم يكن يرغب في القيام بأية عمليات استعراضية أخرى كـ(غاليبولي). وبدلا

من ذلك، كان يريد تركيز قواته في حرب الاستنزاف التي تدور في أوحال فرنسا وبلجيكا. وهناك الآن عمليةٍ استعراضية جانبية أخرى تدور في شرق أفريقيا الألمانية وتشغل (٢٠٠,٠٠٠) جندي من قوات الإمبراطورية ودون أية نتيجة ظاهرة. وفي النهاية تم التوصل إلى حل وسط وذلك بتهيئة لوائين ووضعهما في السويس لإرسالهما عن طريق البحر الأحمر عند الحاجة لأي طارئ فقط. ورغم وصول الأمور إلى حالة الطوارئ عدة مرات قبل بداية السنة الجديدة، إلا أن هذه القوات لم ترسل أبدًا، وأخيرًا ألقيت في لجج أحداث فرنسا في كانون الثاني ١٩١٧.

وعودًا إلى مكة، أبرق الشريف مسبقًا إلى ستورز لكي يبحر إلى الجزيرة العربية حالما يصل إلى الإسكندرية للقاء عبدالله الذي عاد لتوه بعد انتصاره على الأتراك في الطائف. كانت هذه الزيارة في غاية الأهمية، ليس لأنها تحمل أي شيء جديد بخصوص مشكلة رابغ، بل لأن ستورز قد جلب معه رفيقًا شابًا كان حتى ذلك الأسبوع يعمل في الاستخبارات العسكرية في مصر وهو الكابتن تي. ئي. لورنس الذي قدّم لستورز عونًا كبيرًا في إصدار طوابع الحجاز البريدية التي طبعت من قبل وحدة مسح الأراضي في مصر.

يقول ستورز: "إن شهرته العالمية تجعل من الصعب علي الآن أن أعرج على وجهات نظره الأصلية، وعلي أن أعترف وبخجل بأن عواطفي تجاهه كانت بشكل رئيسي عبارة عن عرفان بمساعدته في إصدار الطابع البريدي للحجاز". كان لورنس نفسه في حيرة بين ترك الاستخبارات العسكرية والالتحاق بالمكتب العربي في القاهرة، لذلك لم تكن لرحلته أي طابع رسمي، وقد وصفها بقوله: "إنها كانت شيئًا من قبيل النزهة". وقد وصلا جدة في ١٦ تشرين الأول يرافقهما الجنرال عزيز علي المصري حيث تولى مسؤولية الجيش الحجازي كوزير للحربية.

وخلال اجتماعه مع عبدالله وعزيز علي المصري والكولونيل ولسن، أطلق ستورز النبأ، وقال أنه نتيجة للتخوفات التي تدور في الهند، فسوف لن ترسل الألوية البريطانية إلى رابغ، وقد تم سحب الطائرات البريطانية، وسوف لن ترسل الإعانة الإضافية البالغة (١٠,٠٠٠) باون التي طلبها عبدالله. لم يكن عزيز علي المصري يهتم بموضوع عدم إرسال القوات البريطانية، والسبب يعود إما إلى شعوره بأن البحرية البريطانية ستكفي وحدها في تقديم الدعم اللازم للاستيلاء على مدينة رابغ، أو لأنه، كزعيم لجمعية العهد، يريد أدنى حد ممكن من التدخل الأجنبي المباشر في الحرب التي يرى أنها حرب التحرير العربية. كان عبدالله يشعر بقلق شديد، رغم أنه لم يفصح عن ذلك بشكل علني إلى المجموعة المجتمعة. كان منذ البداية يرى أنه لا أمل في شن حرب ضد الإمبراطورية العثمانية وألمانيا دون مساندة الحلفاء. كان رد فعله على هذا الخطر المحيق ينسجم مع ما يتصف به والده في اتباع السياسات الملتوية، حيث ذهب بعد انتهاء الاجتماع مباشرة إلى اللفتانت كولونيل بيرموند، قائد البعثة العسكرية الفرنسية الذي وصل مؤخراً، وألمح إلى أنه نتيجة لما أبلغ به فإنه سيفكر بإحلال سلام منفرد مع تركيا. وإذا ما انسحب العرب من النزاع مع تركيا، فسيكون على بريطانيا وحدها إزاحة الأتراك من سوريا، وربما تقرر وضعها المستقبلي. وطالما حافظت الثورة على بقائها، ستعتبر القوة الفرنسية الصغيرة التي تقاتل إلى جانب العرب مساهمة عسكرية فرنسية في الصراع، وبذلك توفر لفرنسا موقفاً تفاوضياً جيداً بعد الحرب لتأمين التأثير الفرنسي في سوريا العربية. كانت فرنسا تعتبر الثورة هي القوة الموازنة للسيطرة البريطانية المطلقة، وذلك لأن فرنسا لا تستطيع توفير قوات من الجبهة الغربية توازي القوات الهائلة لجيش الحملة المصرية. ربما يكون عبدالله قد فهم الموقف الفرنسي، وأدرك اهتمامهم في سوريا، لذلك لعب لعبة "فرّق تسد" لتأمين الإمدادات العسكرية المطلوبة بإلحاح وتأمين الدعم للعرب. وقد أسرع بيرموند في

الاتصال بالقنصلية البريطانية وبعد سلسلة من البرقيات المستعجلة، غيّر البريطانيون موقفهم.

اتضح خلال زيارة ستورز أنه من المؤكد لم تصل معلومات حقيقية كافية لتقييم حجم الخطر القادم من المدينة المنورة. فقد أثبتت تأكيدات ولسن السابقة فشلها، حيث عانى فيصل من سلسلة من الهزائم المتعددة، وأخذ يتراجع نحو الغرب. ولعدم وجود ضابط يقوم برحلة إلى معسكر فيصل ويبحث سير الأمور هناك والمتطلبات الضرورية، اقترح لورنس لعدم وجود شيء يشغله، أن يقوم بتلك المهمة العسكرية الخاصة. وافق ستورز على ذلك بعد أن أجرى هو وعبدالله نداءًا هاتفيًا مطولاً مع الشريف في مكة، حيث حصلت موافقة الشريف على أن يذهب لورنس متخفيًا قدر الإمكان. وانتهى الاجتماع بشكوى عبدالله من أن البريطانيين لم يؤدوا دورهم في الاتفاق، حيث فشلوا في قطع سكة حديد الحجاز، ولم يقدموا أسلحة كافية أو مدفعية من طراز حديث. لذلك استطاع الأتراك تعزيز قواتهم لتصل إلى (١٤) ألف رجل، وهو السبب الذي دفع فيصل إلى التراجع. وقد أخبر عبدالله أن متفجرات الديناميت قد أرسلت إلا أنها قد أعيدت من قبل الشريف بحجة أنها بالغة الخطورة. وقد أوضح عبدالله أن حاجتهم هي ليست فقط استلام صناديق المواد المتفجرة، بل المشورة الفنية حول كيفية استخدام تلك المواد. وبعد هذا الحديث، أرسل خبير ألغام يدعى (جارلاند) إلى قوات فيصل لتدريبها على الألغام، واستخدام هذه المواد، حيث زرعها لورنس في الآخر لتدمير طريق سكة الحديد الحيوي للمدينة المنورة.

غادر لورنس صباح اليوم التالي عن طريق البحر إلى رابغ حيث زوده علي على مضض بجمل وحرس خلال رحلة الثلاثة أيام إلى وادي صفره حيث يعسكر جيش فيصل. وقد غادر من هناك ليلا وهو يرتدي اللباس العربي كي لا يثير سخط الجنود البدو في رابغ المعروفين برهاب الأجانب. وفي ٢١ تشرين الأول، وصل

لورنس إلى معسكر فيصل الذي تراجع ثانية يوم أمس من وادي صفرة إلى الحمرة. وإذا تراجع أكثر، فسيصل أرض تهامة التي يصعب الدفاع عنها، وسيخترقها الأتراك بسهولة. ورغم أن دور لورنس لم يكن مفهومًا بما فيه الكفاية لفيصل حيث لم يكن لورنس يمتلك أية سلطة، كما أن رتبته الأصغر لا تمثل دليلا صادقا على روح التعاون الجديدة من جانب المفوضية السامية في مصر، لذلك يتطلب غموضه إجابة صريحة. فقد التقى فيصل بلورنس عدة مرات، ولم تكن هناك أية إشارة عن إرسال مدافع رشاشة أو مدفعية حديثة أو دعم نقدي من الذي يطلبه باستمرار. وقد أخذ لورنس يعمل إلى مدى يكفي لنقل انطباع من أنه مرسل من قبل القائد العام للقوات في القاهرة لمعرفة احتياجات الجيش العربي بالتفصيل.. وخلال بقائه، سجل لورنس نقاط الضعف والقوة في وضع فيصل: حيث حددها بالحاجة لأسلحة أفضل ومشورة فنية، وعدم إسناد جيوش عبدالله وعلي له، مما جعل فيصلاً معزولاً ومكشوفا تمامًا، والحاجة إلى اتصال مباشر بين البريطانيين وقوات الجيش العربي، وهو الأمر الذي لاحظه عزيز علي المصري.

خلال فترة بقائه، ادعى لورنس بأنه منشق سوري انخرط في صفوف قوات البدو التي يعتبرها ناجحة بشكل مثالي في احتواء الهجمات المعادية في منطقة غرب المدينة المنورة ولكنها غير صالحة لخوض معركة مكشوفة. إن ما تحتاجه هذه القوات هو المعدات الأفضل. وخلال حديث مع فيصل ومعاونه العراقي مولود مخلص، تطرق لورنس إلى عمليات الإعدام الهمجية للقوميين العرب في دمشق، وقد فوجئ بجوابهم الذي لا يحمل شيئًا من التعاطف معهم، بحجة أن إعدامهم جاء نتيجة تآمرهم مع فرنسا، فليس هدف العرب استبدال سيد بآخر. وكما هو واضح الآن، كان لورنس ينظر إلى الثورة على أنها وسيلة لتعزيز المصالح البريطانية في الشرق الأوسط وضرب مثيلتها الفرنسية. ويجب أن تكون حدّة الجواب قد أثارته، وربما قد عززت من اقتناعه بضرورة عدم حصول أي تدخل

بريطاني مباشر قد يثير شكوك العرب. وبعد إعطائه المزيد من الوعود، غادر لورنس على ظهر الجمل إلى ينبع.

وجد لورنس وسيلة تنقله إلى جدة، حيث كانت سفينة الكابتن آر. إن. بويل ترسو في ينبع. وقد أخذ لورنس انطباعًا سيئًا عن بويل الذي اعتبر غطاء الرأس العربي الذي يرتديه لورنس نوعًا من الملابس التنكرية الغريبة. وفي جدة ترك لورنس سفينة بويل والتحق بالأدميرال ويميس على ظهر الباخرة (أوريالو) في رحلة إلى بور سودان وفي الآخر إلى وينكيت في الخرطوم. في بور سودان، التقى بالكولونيل جويس والميجر دافنبور اللذين أرسلا من قبل الحاكم العام لمتابعة عملية القنفذ أي حملة الحجاز. كان وينكيت متعاطفًا مع تقدير لورنس للأحداث حيث استخدم الأخير احتكاره للمعلومات عن الخط الأمامي. كان لورنس رجلاً يعمل في موقع الحدث، وظل هذا دوره للفترة المتبقية من أيام الثورة العربية. وقد استطاع بأسلوب عرضه الانتقائي أن ينجز أكثر مما أنجزه الكثير من الضباط الكبار الذين كان عليهم أن يعملوا عبر قنوات غير تقليدية. نحن نعلم الآن أن لورنس كانت له فلسفته الخاصة التي يتحتم من خلالها أن تذوب عواطفه الأوروبية في نطاق محيط القضية العربية. فقد لاحظ وينكيت احتياجات العرب وضاعف معدل التجهيز عبر البحر الأحمر وأوصى بذهاب لورنس فورًا للقاء الجنرال (أركيبالد مواري) الحاكم العام في مصر وإبلاغه بالموقف. ازداد حظ الكابتن لورنس في الاتصال والولوج إلى الحلقات العليا في سلسلة القيادة، عندما حل وينكيت في ٢٩ كانون الأول محل السير هنري مكماهون كمندوب سامي في مصر، وهكذا اجتمع الدوران السياسي والعسكري.

في القاهرة، ذهب لورنس مباشرة للقاء الحاكم العام، وقد حالفه حظه ثانية بشكل استثنائي،لأن ما قاله لورنس هو ما ود الحاكم العام سماعه بدقة. فقد توصل لورنس نتيجة لما رآه أن الإنزال في رابغ أمر غير مرغوب فيه بسبب شكوك

العرب، وأن بإمكان العرب تحقيق تقدم جيد إذا ما تم تزويدهم بالمواد والمشورة التي يطلبونها منذ مدة طويلة. كان لورنس هو المصدر الموثوق للمعلومات التي قررت في الآخر احتلال رابغ. حيث لا يتطلب الأمر سوى دفع ثمن بسيط وهو تلبية احتياجات لورنس من الأسلحة والأموال وهكذا بدأ تدفق المدافع البريطانية والمشورة الفنية والذهب الذي غذى الحملة في الحجاز. وهكذا حقق لورنس بضربة واحدة وبمحض صدفة للجيش الشريفي ما كان يسعى لتحقيقه هذا الجيش منذ بدأت الثورة.

في ١٦ تشرين الثاني اجتمع علي وفيصل وعزيز علي المصري ونوري السعيد والكولونيل ويلسون واللفتانت كولونيل بيرموند في رابغ في مؤتمر لمناقشة الاستراتيجية الدائمة لحملة الحجاز. وبعد إلحاح من جانب وزير الحربية، المصري، وافق الكولونيل ولسن على طلبه لمزيد من المدافع الرشاشة والمدافع الجبلية الجيدة، ثم نوقشت وسائل تحييد الخطر التركي. وقد اتخذ القرار بأن تشارك وحدات متعددة من الجيش العربي في حركة التفاف. حيث يزحف عبدالله نحو الحنيكية شمال شرق المدينة المنورة ومن هناك يهدد الجناح الأيسر للأتراك ويهاجم خطوط الاتصال بينهم وبين حلفائهم آل الرشيد في حائل. إذ من غير الممكن أن يتقدم الأتراك نحو رابغ إذا ما تعرضت مؤخرتهم للخطر. ويزحف علي مع الجزء الأساس من الجيش النظامي الناشئ نحو الوديان التي يسيطر عليها فيصلٍ حاليًا ويهاجم المدينة المنورة من الجنوب. في نفس الوقت يندفع فيصل شمالا على امتداد الساحل إلى ميناء الوجه ويهدد منه الطريق الحيوي التركيِ الأخير وهو سكة الحديد. وقد أعرب فيصل عن قلقه الكبير إذا ما تحرك شمالا وقام الأتراك بمهاجمة وادي صفرة، حينذاك سيصبح معزولا تمامًا عن القوات الموجودة في الجنوب. وقد أكد له ويلسون مرةٍ أخرى أن بإمكانه أن يلجأ إلى البحر ليحتمي بأسطول البحر الأحمر، ولكن فيصلا لم يكن يشعر بالرضا.

شرع عبدالله في رحلته وتوقف في الطريق للتخلص من خطر حسين مبيريك، وفي الآخر تحرك إلى الحنيكية. وهناك ومن حسن الحظ هاجم قوة تركية يقودها السفاح المحترف السابق الجنرال أشرف بك. وفي غارة سريعة دحر عبدالله الأتراك واستولى على عدة مدافع هاوتزر و(٣٨,٠٠٠) باون من الذهب كانت مخصصة إلى حكام نجد وحائل واليمن.

في كانون الأول، حصل تطور أثار الهلع في النفوس وذلك عندما تقدم فخري مع ثلاثة ألوية من المدينة المنورة. لقد كان يعتقد أن الأتراك يخططون لشن هجوم، إلا أنه عندما حدث في اليوم الأول من الشهر، كان ناجحًا بإحداث الاضطراب. تحرك فيصل في الوقت المناسب من وادي صفرة، ووضع حراسة على طريق رابغ بواسطة مجموعة من رجال قبيلة حرب. واتخذ قاعدة له في ينبع وأسس وحدة نظامية ثانية دربها الكابتن جارلاند والقوة الفرنسية (ب). وكان زيد وأتباعه من قبيلة حرب ينتشرون بين ينبع والأتراك وعلى امتداد الطريق من الحمرة. وقد أحاط الأتراك بقبيلة حرب في وادي صفرة حيث تفرقت القبيلة بذعر وأخلى زيد الموقع. أصبح الطريق الآن مفتوحًا بين ينبع ومكة. حرك فيصل قواته من الميناء نحو ينبع النخل في سبيل اعتراض طريق الأتراك. وبالمقابل، لم تكن قوة الأتراك كافية في هذا الهجوم لتهديد ينبع التي يمكن حمايتها من البحر.

في هذا الوقت، ظهر لورنس ثانية. وبعد عرض تقييمه للأحداث على الحاكم العام في مصر، التقى مع رئيسه الجديد الجنرال كلايتون، إذ انتقل لورنس الآن إلى المكتب العربي. وقد اتخذ قرار بتعيين ضابط ارتباط مع القوات الشريفية، ولكن استدعاء وتعيين ضابط في هذا المنصب من إنكلترا يستغرق وقتًا طويلاً. لذلك عُيّن لورنس رغم رتبته الصغيرة في هذا المنصب وأمر بالعودة. وعلى خلاف باقي ضباط الجيش البريطاني الذين يعملون في الحجاز ضمن (عملية القنفذ)،

أقام لورنس خط اتصال مباشر مع معظم ضباط الركن الكبار في مصر وقد استفاد من ذلك في مناسبات عديدة.

وصل لورنس إلى ينبع النخل في (٢) كانون الأول ليجد الموقف مرتبكًا بعد انهيار قوات زيد. وإدراكا منه إلى أن بقاء قوات فيصل يعتمد بشكل نهائي على قوة ينبع البحر الذي يعتبر الموقع الأخير لتراجعه، ذهب لورنس إلى هناك وأبرق طالبًا مساعدة بحرية. وقد كانت المساعدة فورية وفي الوقت المناسب، وفي اليوم التالي اندفع فيصل وقواته إلى الميناء البحري الصغير. وقد بحث الأتراك احتمالات مهاجمة المدينة المحاطة بالبحر من ثلاث جهات ومحمية بالمدافع البحرية والأسلاك الشائكة والأنوار الكشافة والمدافع الرشاشة، وقرروا عدم القيام بالهجوم، وتحركوا بدلا من ذلك نحو الجنوب على امتداد الطريق إلى مكة.

تحركت قوة الهجوم التركية المتكونة من حوالي (٥,٠٠٠) رجل نحو رابغ في سرعة مرتبكة، ثم عسكرت على بُمد (٣٠) ميلا من الواحة. طلب الحسين، متجاهلا كل مقاييس الحذر، من ويلسون وبيرموند إرسال ست بطاريات من أي نوع، على أن يتم ذلك فورًا من مصر. وفي (١٠) كانون الأول، أرسلت برقية تطلب معونة لوائي مواري المرابطين كاحتياط في السويس. كانت القيادة في مصر مستعدة للاستجابة للطلب شريطة أن يقدم الشريف تأكيدًا خطيًا بأن هذا العمل قد جاء بناءًا على طلبه الشخصي، من أجل إخماد أي صوت يفسر ذلك بأنه (غزو) للأراضي المقدسة.

راقب الميجر روس وطائراته الأربعة العاملة خارج مدينة رابغ تحركات فخري باشا شمالي المدينة. وقد سعى روس أيضًا لتصوير تقاطعات سكة الحديد في المدينة المنورة وألقى بضعة قنابل حول المدينة. وقد قطعت خطوط إمداد فخري كما قام الجنود غير النظاميين بمهاجمتها بشكل مستمر. علاوة على ذلك لا يمكن إغفال التهديدات الجوية الجديدة على المدينة المقدسة. وبلغت الخسائر بسبب الأمراض حوالي (٢٠) رجلا يوميًا في وقت وصول الأنباء عن هجوم عبدالله ضد

أشرف بك في ١٢ كانون الثاني ١٩١٧. وبما أن القوات الهاشمية أصبحت تعمل الآن شمال المدينة المنورة، فإن الشريان الحيوي الذي يربط المدينة بدمشق معرض حاليًا للخطر. كان عبدالله يعسكر في هذا الوقت غرب سكة الحديد تمامًا وقد نسفها عندما غادر موقعه كما قام بقطع خطوط التلغراف. وتم تعزيز رابغ عن طريق البحر ووصل المزيد من أسرى الحرب السابقين من مصر مع كل سفينة قادمة. وبذلك أصبح واضحًا لفخري أنه لا جدوى من الاستمرار بالتحرك نحو الجنوب، لذلك تراجع في ١٨ كانون الثاني إلى المدينة المنورة، وظل هناك إلى حين انتهاء الهدنة في عام ١٩١٨، وانتهى الخطر الذي يهدد مكة.

لذلك يؤشر يوم (١٨) كانون الثاني نقطة تحول مهمة، لأنه تم احتواء التهديد القادم من المدينة المنورة، بتهديد عبدالله لسكة الحديد. وقد أفسد حادث واحد فقط هذا التقدم عندما توقف زحف قوات علي نحو المدينة المنورة إثر شائعات خبيثة تفيد بأن عزيز علي المصري يتفاوض سرًا مع الأتراك. وقد استبدل عزيز علي كوزير للحربية بجعفر العسكري. ولكن تلك كانت خسارة مأساوية حمقاء لوطني عظيم. وقد نجا جعفر بشق الأنفس من أن يكون ضحية نفس نوبات الغضب والحنق لاحقا. كانت قيادة الحسين تتميز بكونه لا يدخل ميدان العمل شخصيًا ولا يسمح بأي مبادرة في مجال العمل، وكانت الشكوك تساوره في العديد من المجندين غير الحجازيين.

وبهزيمة (١٨) كانون الثاني، دخلت حرب الحجاز مرحلة جديدة، وأصبحت مترابطة بشكل وثيق مع نشاطات قوات الحملة المصرية في فلسطين وسوريا. ليس الهدف من هذه الدراسة بحث حملة فلسطين بالتفصيل، لأن هناك العديد من الدراسات حولها في مكان آخر. وبدلا من ذلك سنكتفي ببحث دلالة تلك الأحداث وأهميتها على حملة الحجاز. وحالما تحرك جيش فيصل شمالا من ينبع، لم يعد باستطاعة الحسين لأسباب بدنية أن يحتفظ بسيطرة مباشرة من مكة، وأصبحت قضية أهداف الثورة معقدة أكثر.

* * *

الفصل الثاني عشر

بذور الشك

■ مع حلول عام ١٩١٧، حدث تحول حاسم في الثورة الهاشمية على الصعيدين السياسي والعسكري. فعلى الصعيد العسكري، ونتيجة للضغط البريطاني الشديد، أعيد فتح جبهة فلسطين، حيث أزيح الأتراك إلى الخلف وأخرجوا من الأراضي العربية. وكجزء ونتيجة لذلك، نقلت إمرة الجيش العربي من مكة إلى إمرة الجنرال اللنبي الحازم والمعين حديثًا. وتغيرت أيضًا تركيبة القوات الهاشمية بشكل جوهري، حيث أخذ ثقل القتال يتزايد على القوات النظامية أكثر من اعتماده على أساليب الكر والفر للجنود البدو غير النظاميين. وعلى الصعيد السياسي، أدى استبدال أسكوت بالانتهازي المتقلب لويد جورج في كانون الأول ١٩١٦، إلى تحول فوضى المطامع الإقليمية السابقة إلى وعود مستحيلة تستند على منافع طويلة وقصيرة الأمد للدولة الأوروبية. ففي عام ١٩١٧، علم العرب من مصدر غير متوقع ببنود اتفاقية سايكس - بيكو، وقبل أن يصحوا من المفاجأة، ذهلوا من إعلان بلفور. إلا أنه ورغم هذا الدليل القاطع على غدر الحلفاء، ظل الحسين واثقا من أن المحصلة النهائية ستأتي وفق بنود المطالب العربية الأصلية. ويرى البعض أن مواصلة الحسين للثورة رغم هذا الدليل القاطع على خيانة الحلفاء، ما هو إلا دليل على اشتراكه بمؤامرة لتقسيم أشلاء الدولة العثمانية. على أية حال، فقد أكد للعديد من ممثلي الحلفاء بأنه لن يحيد عن

التزامه بمطالب القوميين في دمشق. كما أن باب تسوية الخلافات مع الأتراك والذي لا قيمة له بعد انتهاء الحرب قد أغلق تمامًا. في نفس الوقت عليه أن يؤكد باستمرار القوات العربية بالقتال إلى جانب الحلفاء، وإلا فإن جميع المكتسبات من الأراضي العربية ستقسم بين الدول الأوروبية. لذلك ليس باستطاعته الانسحاب في الوقت الحاضر. وكل ما عليه هو أن يصبح في موقع قوة عند انتهاء الحرب وعندما تتم التسوية. ومن هنا لا مجال للقول أن الحسين كان خائنًا أو غير أمين على القضية القومية.

في كانون الثاني ١٩١٧، وعندما كان فخري باشا يفكر في صعوبة وضعه قرب رابغ ويخطط للتخلي عن الهجوم، تحرك فيصل وجيشه في ٣ كانون الثاني نحو ميناء الوجه. وفي ٢٣ كانون الثاني، تم الاستيلاء على الميناء بعد إسناد فعال للبحارة البريطانيين من رجال الأسطول والجنود العرب غير النظاميين الذين أرسلوا هناك على ظهر الباخرة (هاردنج). وقد تأخرت قوات فيصل في الطريق ووصلت في (٢٥) كانون الثاني لتجد المدينة قد سقطت بأيدي العرب. ومنذ ذلك الوقت، أصبحت القوات العربية قادرة على تهديد سكة الحديد والاستيلاء، في آخر الأمر، على المدينة المنورة. كما تحرك علي شمالا نحو بئر درويش، جنوب غرب المدينة، وعسكر عبدالله في وادي العيص. ومنذ ذلك الوقت، تلاشت الخشية من الأتراك الذين يقودهم فخري، حيث أصبحوا محاصرين.

وقد توصلت القيادة الألمانية العليا إلى نفس الاستنتاج بخصوص وضع المدينة المنورة، طالما تقع في نهاية خط إمداد طويل معرض للهجوم باستمرار. لذلك ركزت على الحاجة الماسة لإطلاق (١٩,٠٠٠) جندي وقع في عام ١٩١٧ في شرك الدفاع عن المدينة المنورة وسكة الحديد، من اجل تحقيق الهدف الأكثر إلحاحًا وهو مواجهة خطر تقدم الجنرال مواري في غزة. وأخيرًا، أُقتع أنور بآرائها، وصدر الأمر بإخلاء المدينة ووضع القوات على ظهر متن القطار ونقلها شمالا نحو دمشق. استلمت الاستخبارات البريطانية هذه الرسالة وأبرق كلايتون إلى لورنس للتحرك مع فيصل نحو سكة الحديد ومنع هذا التراجع. وعندما كان لورنس يزور

عبدالله للإسراع في عمليات التخريب، ادعى أن استراتيجية الاحتواء قد اكتملت حيث سيسمح للأتراك بالبقاء في المدينة المنورة ويمنعوا من التراجع وتجري عمليات إغارة مستمرة على سكة الحديد ومواقعها الحصينة.

كانت جهود لورنس في منع تقهقر الأتراك، رغم أنه لم يدرك ذلك، غير ضرورية. فعندما سمع فخري بأوامر أنور بالانسحاب، دخل على علي حيدر وأبلغه بما اعتبره أنباءًا غادرة فيما يخص بموضوع تعيين أمير لمكة. أبرق حيدر على الفور إلى ولده عبدالمجيد للالتماس من الثلاثي في اسطنبول إلغاء القرار. كانت الآراء متضاربة في تركيا بين أولئك الذين ينظرون إلى الحرب بعين الاستراتيجي الألماني البارد وأولئك الذين يعتبرون خسارة ثاني المدن الإسلامية المقدسة عبئًا لا يطاق. وانتصر رأي الفئة الأخيرة حيث: "بعد ثلاث ليال، دخل فخري ثانية إلى مسكني (مسكن علي حيدر)، ولكن هذه المرة كان سعيدًا ومغتبطا. ثم هتف بصوت عال: "لقد ألغى جمال أوامر الانسحاب".. كان في وضع كانت تغمره عواطف جياشة، وأنا لفرحتي، احتضنته وعانقته. ومنذ ذلك الحين أصبحنا أصدقاءًا ومما يبعث على السخرية أن ذلك قد حدث في نفس الوقت الذي يرسم فيه لورنس مستقبل المدينة وهو يحل ضيفا ثقيلا على عبدالله. على أية حال، لقد هيأ الأتراك أنفسهم لخوض حرب طويلة في المدينة المنورة وأرسلوا معظم الموظفين المدنيين الباقين إلى دمشق ومن ضمنهم علي حيدر نفسه الذي أصبحت قضيته في هذه الفترة ميئوسًا منها. إلى هنا نترك فخري وهو محاصر في مدينة الرسول المقدسة، موطد العزم ولم يهزم حتى انتهاء الحرب في أوروبا. ويرى بعض الكتاب مثل برى أنه كان من الأفضل من الناحية التعبوية لو تم تنفيذ الخطة الأصلية التي يقطع فيه الكولونيل جويس (قائد القوات في الحجاز) سكة الحديد قرب مدائن صالح، في نفس الوقت تتحشد الجيوش العربية حول المدينة المنورة وتستولي عليها. وبذلك تقوم جيوش علي وعبدالله بتوجيه ضربة مشتركة في الشمال. إلا أنه، وكما اتضح سابقا، لم يكن الجيش العربي، وخاصة تلك الوحدات التي يقودها علي وعبدالله، مجهزًا بالمدفعية اللازمة لاقتحام المواقع المحصنة كالمدينة المنورة. إضافة إلى

ذلك، لا يمكن تصور أن يقوم غير المسلمين بإنجاز هذه المهمة التي تنطوي على مخاطر جدية هي احتمال تدمير الحرمين.

تحرك الجيش العربي من الوجه إلى الأمام متقدمًا نحو الهدف الأخير وهو دمشق. في تموز ١٩١٧، اقتحم الجيش الشريفي بقيادة الشريف ناصر وبمساعدة كبيرة من طرف عودة أبو تايه، شيخ قبيلة الحويطات الشرقية، العقبة من الخلف وضمت إلى مملكة الحسين في (٦) تموز. لقد جرت في السابق محاولتان للاستيلاء على العقبة من جهة البحر، وقد نجحتا في البداية، إلا أنهما فشلتا في الآخر بسبب العجز عن تعزيز الانتصار لوجود القوات التركية في التلال الجرداء الواقعة خلف الميناء. وطالما ظلت العقبة تحت سيطرة الأتراك، فإن إبحار الحلفاء في البحر الأحمر يتعرض لخطر دائم من الألغام والغواصات، ويشكل هذا نقطة ضعف خطيرة في الجناح الأيمن لجيوش الحلفاء عند الزحف على غزة.

بعد الاستيلاء على العقبة وضمها إلى مملكة الحجاز، انتهت الحرب في الجزيرة العربية، واجتازت الحملة العسكرية نقلة جذرية. كان القتال يجري حتى هذا الوقت بنمط من الحروب المسرحية حيث يشارك معظم الناس فيها تحت لافتة (الثورة العربية). وبعد هذا الوقت أخذت تركيبة وأساليب جيش فيصل التعبوية تتغير. فقد حل الجيش النظامي محل فرق الإغارة السابقة المكونة من البدو، لأن الحملة قد انتقلت إلى مرحلة أخرى داخل بلد زراعي مستقر حيث تحل المعارك الضارية محل الغارات الخاطفة. لم يكن هذا التحول ذا أهمية عسكرية فحسب، بل لعب دورًا كبيرًا في تدهور العلاقات بين فيصل والجبهة الشمالية من جهة، ووالده الملك في مكة من جهة أخرى. كان الحسين طيلة زمن الثورة لا يميل إلى الوحدات النظامية التي تم تشكيلها ضمن الجيش العربي. بل كان يميل إلى القوات غير النظامية، لأنها غير مسيّسة، ولا تغير سلطتها القبلية وغالبًا ما يجري عملها بدوافع مادية. لقد كانت شيئًا يستطيع فهمه والسيطرة عليه بواسطة الذهب، كما جرى ذلك فعلا منذ عام ١٩٠٨. أما القوات النظامية، فهي شيء مختلف تمامًا، إذ أنها في المقام الأول غير حجازية، بل تتكون من مزيج من

السوريين والعراقيين والمصريين، وهو لا يثق بأي منهم، كما كشفت عن ذلك قضية عزيز علي المصري كما أنهم كانوا واعين سياسيًا، ولا يودون حصول سيطرة شريفية على جميع أنحاء العالم العربي بعد الحرب. اتسمت الثورة العربية منذ البداية بالعلاقات السيئة بين فيصل ووالده.،كان الحسين في المراحل الأولى قادرًا على ممارسة سيطرة قوية مباشرة على نجله الثالث، مما أدى إلى حصول تعقيدات بيزنطية وإحباطات إلى فيصل. إلا أنه عندما تطورت الحرب، أتاح البُعد التام بين فيصل ووالده، مجالا أكبر للمبادرة من جانب فيصل، لأنه كان بطبيعته شخصية انطوائية خضوعة. كان الحسين يخشى أن يقع ابنه تحت سيطرة الآخرين وقد يصبح مطية، بشكل غير مقصود، للمطامع الاستعمارية وهو نفس الاحتمال الذي خشي منه فيصل كثيرًا عندما نوقش في البداية موضوع الثورة العربية. كان الحسين يدرك أن فيصلا تعوزه قوة شخصية والده وعنادها.

بعد وصول فيصل إلى العقبة في شهر آب، اتخذ البريطانيون قرارًا بوجوب نقل القوات العربية إلى سيطرة السير أدموند اللنبي الذي حلّ محل السير أركيبالد مواري في حزيران بعد هجمات الأخير المباشرة والفاشلة على غزة. أصبح فيصل قائدًا للجيش العربي الشمالي مع ميزانية خاصة لديه من الذهب لتوزيعه.
وقد وصف لورنس ذلك بقوله: "في الوجه تم كسب حرب الحجاز، وفي العقبة انتهت، وتحرر جيش فيصل من التزاماته، وسيكون دوره الآن وتحت إمرة الجنرال اللنبي المشاركة في تحرير سوريا". وقد أوكل للورنس، الذي يرى أن قرار فصل قوات فيصل عن السيطرة المباشرة للملك الحسين في الجنوب كان قراره، تنفيذ المهمة الشاقة بإقناع الملك بالحاجة إلى مثل هذه الخطوة. ونظرًا لبُعد المسافة والبالغة (٨٠٠) ميل التي تفصل مكة عن قاعدة الإمداد العربية في العقبة وعدم انتظام الاتصالات بين هذين الموقعين، من الصعب دحض فكرة إنشاء قيادة مشتركة. وصل المعتمد البريطاني الكولونيل ولسن كالمعتاد متوليًا مسؤولية الالتقاء بالملك وتحمل وابل السباب.

مع إنشاء فيصل لقيادته المستقلة، كان واضحًا أن هناك تأزم متزايد بين الملك وولده، وصل إلى نقطة افتراق. وقد وصف لورنس الأمور بالشكل التالي: "إن الغيرة هي الدافع الذي أثارَ الشكوك في نفس والده". مع ذلك، فالقضية ليست قضية غيرة بل ثقة. كان الحسين يؤكد أن الثورة العربية والقوات التي قاتلت في سبيلها لا تعتبر جزءًا من المخططات الأوروبية. لهذا كان قد غضب حول قضية جعفر العسكري في آب عام ١٩١٧. فقد رقى فيصل جعفرًا لرتبة لواء وأرسل ذلك في برقية إلى مكة. وقد غضب الحسين لعدم استشارته وحاول الاعتراض على تعيين جعفر قائدًا للقوات الحجازية عندما كان في الوجه. وقد شعر بالغضب ثانية بعد أن علم أن جعفرًا قد منح وقبل وسام القديس ميخائيل في (٢٠) آب. وفي ثورة غضب نشر الحسين بيانًا ملكيًا في الصحيفة الهاشمية (القبلة) أشار فيه إلى أن "الحمقى" يدعون جعفرًا باللواء القائد العام للجيش العربي الشمالي في حين ليست هناك رتبة أعلى من نقيب في الجيش العربي. وقد حدد لورنس دوافع الحسين في كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) بالشكل التالي:

"كان يعرف أنهم (أي السوريون والعراقيون) لا يقاتلون من أجل منحه السيادة على بلدانهم، بل لتحريرها ليحكموها بأنفسهم". وأضاف: "إن حب السلطة قد نما بشكل لا يمكن ضبطه لدى الحسين"، ولكن أيضًا يجب إدراك أن من واجب الحسين هو أن لا يفقد السيطرة على الأحداث خاصة بعد أن علم بالمطامع الفرنسية. إذا ما دق إسفين بين فيصل الضعيف ووالده القوي الإرادة في مكة، فحينذاك يمكن استخدام القوات العربية لإخضاع أراضيها في آخر الأمر. وهذا ما حدث فعلا، رغم كل شيء.

ومهما تكن الدوافع، فالتأثير كان مؤقتًا، لأن جعفرًا قد استقال وظهر كما لو أن قائدًا ذا مكانة عالية على وشك الفقدان في قضية مشابهة لقضية عزيز علي المصري. وقد دعم فيصل التعيين، كما أن القوات قد كافحت في الدفاع عن قائدها. كان رد الحسين على توضيحات فيصل المبرقة إليه بخصوص القضية هو إجابته

بأن ولده يتصف بما يشبه الخيانة والخروج على القانون. وقد تم حل القضية في الآخر عن طريق خدعة قامت بها قيادة الأركان البريطانية وذلك باستعمالها الجفرة المستخدمة من قبل العرب، حيث أرسلت برقية اعتذار معدلة مجفرة من الملك إلى جعفر. من المؤكد أن تصرف الحسين لم يفهم حتى من قبل أنصاره. وبغياب التفسيرات الواضحة وملاحظة سلوك الملك القاسي، فليس من الغريب أن يكتب بعض المراقبين مثل كيركبرايد ما يلي: "إن أسلوب الاعتراض الغريب الذي أبداه الحسين على موضوع تعيين جعفر قد أفقده فرصة لا نظير لها في تحقيق طموحه بأن يصبح ملكا على العرب. فقد انتشرت الإشاعات حول مثل هذه الأحداث في العالم الخارجي ولم تترك شيئًا دون أن تقوله. حتى أن أنصار الأمير فيصل الموالين والمخلصين له قد قرروا التخلص من سيطرة والده حالما تسنح الظروف". وبالمقابل أخذت الشكوك تساور فيصلا حول الاستخدام المقرر للجيش العربي الشمالي الذي كما يقول لورنس: "إن الحسين يزدري انحلاله ويخشى على إنجازاته الرائعة". ولا نعرف فيما إذا قدر فيصل في سوريا في وقت لاحق أم لم يقدر دوافع والده في وقف دعمه إليه بعد أن حطم العدوان الفرنسي جميع الآمال العربية. إلا أن علينا أن نتذكر أن فيصلا هو الذي كسب في الآخر الشرف والمكافآت الممنوحة من قبل الدول الاستعمارية التي كان صديقا لها. بينما تحمل الملك الكبير في مكة اللوم نتيجة كونه غير حصيف وكثير الشكوك وببساطة شديدة، لكونه صاحب حق.

تخلى اللنبي، بعد أن تحرر من روتين الحرب في فرنسا التي جاء منها، عن فكرة موراي لشن هجوم مباشر على غزة، وبدلا من ذلك تقدم بجناحين على بئر السبع. في نفس الوقت الذي يتقدم الجيش العربي الشمالي بشكل مواز شرق البحر الميت نحو دمشق، وبذلك يسحب القوات التركية شرقا عبر الأردن. وقد شقت قوات فيصل طريقها إلى الشمال من أبي الأثل التل شمال العقبة نحو معان على سكة حديد الحجاز. وخلال شهر نيسان، تم رفع ثمانية أميال من السكة جنوب معان، وبذلك أصبحت المدينة المنورة معزولة تمامًا عن قاعدة الإمداد في سوريا.

في نفس الوقت، تم تدمير سكة الحديد شمال المحطة وأصبحت القوات المتواجدة هناك وفي المنطقة المحيطة معزولة تمامًا ومحاصرة.

وابتداءً من هذا الوقت، أخذت استراتيجية الحرب تسعى لإقناع الأتراك بأن الهجوم القادم سيكون على شرق الأردن. وقد أجريت عدة عمليات خداع متقنة لإقناع الأتراك بذلك. لذلك حشد الأتراك عددًا كبيرًا من قواتهم في هذه المنطقة للدفاع عنها. وقد عزلت هذه القوات في وقت لاحق بعد أن تم تدمير سكة حديد الحجاز في الشمال على يدي الجيش العربي. أوقف التراجع التركي، وتقدم الجيش العربي شمالا نحو محطة سكة الحديد الحيوية في درعا حيث سيلتحق برتل الهجانة الذي يقوده الجنرال بارو، والذي وضع الجيش التركي في جيب هو الآن ما يسمى بالمملكة الأردنية. وقد حثّ لورنس الخطى، لأسباب سياسية، أوضحها كيركبرايد بالكلمات التالية: "لم يدعني أن أسأل لماذا فعل ذلك، وذلك بقوله: (إنه يجب أن نصل هناك قبل الهجانة). شعرت أن هذه السياسة ستعقد الحرب التي كانت حتى الآن واضحة المعالم". وصل هناك بكثير من التعب في ٢٧ أيلول، وانتظر وصول الجنرال بارو الذي لم يكن راضيًا عن نتائج السباق، إلا أنه اعترف بالأمر الواقع بكون الفضل يعود إلى العرب في تحرير درعا. في هذا الوقت انتهى وجود الأتراك في سوريا. فقد تعرضت قواتهم في فلسطين لضرب القنابل والمدافع الرشاشة وأعلنت استسلامها بينما كانت تتراجع شرقا نحو الأردن، وحوصرت جنوب درعا وأجبرت على الاستسلام، وحزم الجيش في دمشق أمتعته واستعد للرحيل.

في (١) تشرين الأول ١٩١٨، وبعد سباق ابتدأ من درعا مع هجانة شوفيل الاسترالية، دخل الجيش العربي دمشق، المدينة التي طال السعي إليها من قبل العرب. وبدخول دمشق وصلت الحملة العسكرية إلى نهايتها، باستثناء حوادث صغيرة إلا أنها ذات أهمية سياسية في اللاذقية وشمال غرب سوريا. وفي نهاية الحملة أخذ الجيش العربي يتفض، وعاد العديد من الضباط إلى بلدانهم الأصلية والبدو إلى خيامهم.

ظل فقط الوضع الشاذ في المدينة المنورة، حيث انتهت خاصيته المثيرة كونه استمر طيلة الحرب. وبتوقيع الهدنة بين تركيا والحلفاء على ظهر الباخرة (أجا ممنون) في (٣٠) تشرين الأول ١٩١٨، كان متوقعًا أن تسير الأحداث في المدينة المنورة نحو نهاية طبيعية. إلا أن هذا لا يتلاءم مع طبيعة فخري. فقد رفض قبول الهدنة. كانت دوافعه غير واضحة، كما أن وضعه العسكري يبعث على اليأس، إلا أنه كان يود جلب الاهتمام إلى وضعه في المدينة المنورة ليحول دون ذبح قواته من قبل البدو. ومهما تكن مبرراته، فقط رفض إلقاء سلاحه حتى عند استلامه أمرًا مباشرًا من وزير الحربية العثماني الذي امتعض وأرسل نائبه برًا لإقناع فخري. وبالتدريج أخذ ضباط فخري يفرون من حوله ويسلمون وحداتهم. وشعرت الحكومة العثمانية بقلق متزايد حول سير الأمور في المدينة المنورة، وفي الآخر، صدرت إرادة من محمد السادس بطرد فخري من منصبه. وأرسل وزير العدلية عن طريق البحر إلى ينبع في مهمة إعادة فخري إلى جادة الصواب. وقبل أن يصل وزير العدلية الذي من المقرر أن يكون في آب. وعد الرجل الثاني في القيادة بعد فخري "بتسليمه حيًا كان أم ميتًا" إلا أن فخري اعتصم مع مؤونة كافية من الذخائر في الجامع الكبير وهدد بتدميره إذا ما سعى أيًا كان التقرب منه. وما حدث بعد ذلك، يعتمد على ما يراه المرء، إلا أنه يبدو أن الجندرمة العثمانية قد وجدت فخري نائمًا، وقامت بآخر مهمة لها لصالح السلطان في المدينة المنورة، بإلقاء القبض على قائدها العسكري. وقد سلم سيفه إلى عبدالله، واستقبله العرب استقبال الأبطال وساقوه إلى ينبع ومن هناك بحرًا إلى مصر. دخل علي بعد ذلك إلى المدينة المنورة وحررها باسم (الحكومة العربية الهاشمية). ودخل السراي (مقر الحكومة) واتخذ موقعه هناك كأمير للمدينة المنورة محل الشريف ناصر الذي التحق في ذلك الوقت بقوات فيصل. وهكذا في (١) كانون الثاني، وبعد شهر واحد من الهدنة مع تركيا، سقطت ثاني المدن الإسلامية تحت سيطرة الملك الحجازي.

تقع الأحداث السياسية بين إعلان الثورة والهدنة في بابين رئيسين: أولهما الملاقات بين حكومة مكة والحلفاء، وثانيهما الملاقات داخل العالم العربي بين

الهاشميين والأحزاب القومية في المناطق التي تم تحريرها من سيطرة الأتراك. فمن باب هناك قناعة تامة من جانب الحسين بوجود دلائل كثيرة تشير أن للحلفاء مطامع إقليمية كبيرة وبعيدة المدى وفي المناطق التي يعتبرها تحت السيادة العربية. ومن باب آخر هناك قلق متزايد من جانب الأحزاب القومية خارج الحجاز - خاصة السوريين - من احتمال أن يجدود أنفسهم جزءًا من المملكة الهاشمية وعلى رأسها الحسين.

لم يعرض نص اتفاقية سايكس - بيكو رسميًا على الحسين رغم العديد من الإشارات المبهمة غير المباشرة التي يطلقها المبعوثون البريطانيون والذين تجنبوا بلباقة الحديث الصريح. وقد وصف وينكيت في وقت لاحق اتفاقية سايكس - بيكو بأنها اتفاقية ميتة. وفي بعض الأحيان داخَلَ الحسين الحذر من التصريحات المنشورة والتي تفيد بأن الاتفاقية تعد ميتة، لأن هذا يعرضه ويعرض العرب لخطر الأمر الواقع الاستعماري. وقد داخله الحذر نتيجة المعلومات التي تصله عن نشاطات السيد جورج بيكو، والذي أجرى عدة لقاءات في القاهرة مع الأحزاب القومية السورية في محاولة لكسب تأييدها لفرض سيطرة فرنسية دائمة على سوريا. كان الحسين يدرك أن هناك تيارًا قويًا مؤيدًا للفرنسيين في أوساط السوريين خاصة المسيحيين المارونيين في جبل لبنان. كان عمل جورج بيكو هو مجرد استئناف دسائسه التي أجراها قبل الحرب عندما كان دبلوماسيًا في بيروت والتي كشفتها الوثائق التي استولى عليها جمال باشا. شعر الحسين بعد سماعه لهذه التحركات بالقلق لسعي الفرنسيين بالتعجيل في اتخاذ خطوة قد تهدد وضعه، خاصة وأن البريطانيين والفرنسيين اتفقوا على تقسيم الأراضي دون التشاور معه. إن القضية هي ليست قضية (هل أبلغ الحسين باتفاقية سايكس - بيكو؟)، بل إنها (لماذا لم يشرك معهم؟).

برزت دلائل تشير إلى وجود تهديد فرنسي لإحباط الجيش العربي الشمالي قبل أن يبدأ حملته العسكرية على دمشق، وذلك بعقد فرنسا عدة اتفاقات سرية. أبرق الملك مخاوفه إلى وينكيت (الذي أصبح في هذا الوقت المندوب السامي في

القاهـرة) حيث أوصـى أن يقـوم السـير مـارك سـايكس بـزيارة إلى الملك لـتهدئة مخاوفه.

قـام سـايكس، رافقـه بعـد ذلـك جـورج بيكو، بـزيارتين إلى الملـك في مـارس ١٩١٧. قـال الحسين بعد ذلـك أنـه قـد سئل فقـط خلال المفاوضـات عـن السـواحل السورية وليس عن المنطقة الداخلية المحيطة بدمشق. أبلغ الحسين أن الفرنسيين يسعون للحصول على مجـال للنفوذ أو الضم المباشر، حيث أجاب أنه غير مخول البتة بتقسيم الأراضـي بتلك الطـريقة. كـان يقـول ذلـك بصفته ممـثلا للقومـيين العرب. مع ذلك فقد وعد بأن يناقش مع زعماء الحركة إمكانية إجراء ترتيب معين كالموجود مـع البريطانيين في العراق. وهـنا يشير إلى الفترة المؤقتة من المساعدة الإداريـة والفنـية الـواردة في رسـائل مكمـاهون أو في أسـوأ الأحـوال إلى احـتلال عسكري قصير الأمد للبلاد ينتهي باستعادة السلام في الشرق الأوسط. ويبدو أن الحسين يعتبر موافقـة الفرنسيين على هـذه الشروط نصرًا رغم فشله في أن يأخذ بالحسـبان تفـنن الفرنسـيين في الحصـول عـلى المـنافع. والواقـع أنـه فشـل ثانـية في الحصـول على ضمانات مؤكدة ومكتوبة، وظلت لديه رسائل مكماهون الغامضة وثقة بالشـرف البريطاني كأسـاس عـند تقيـيمه لـنوايا الحلفـاء في الشـرق الأوسـط بعـد الحـرب. كتب لورنـس موضـحًا شبكة التناقضـات والتعامل المزدوج ما يلي: "أخبره (أي عبدالله) أن الرجل الكبير لم يحصل منا على تعهدات ملموسة أو قاطعة من أي نـوع.. إلا أن هـذا لا يعـني تخويـن رؤسـائي الإنكليز". ويـبدو واضـحًا مـن أعمـال نائـب وزيـر خارجية الحسـين فـؤاد الخطيـب أن الحكومـة الشـريفية لم تطلـع عـلى اتفاقـية سـايكس - بيكو خلال زيـارة (الفرصـة الضـائعة) الـتي قـام بهـا مـارك سايكس في مايس. في تموز ١٩١٧، كتب كلايتون من المكتب العربي إلى السير مارك سـايكس مـا مفـاده: "حضـر فـؤاد الخطيـب إلى القـاهـرة، ومن خـلال محـادثاتـنا معه يتضـح جليًا أن الشريف لم يفهـم الوضـع عندما أوضحتموه مع بيكو لـه فيما يخص مستقبل سوريا والعراق".

انتهى الشعور القصير بالنشوة الذي ولده (نصر) الحسين على الفرنسيين في تشرين الثاني ١٩١٧، عندما نشرت رسالة من وزير الخارجية آرثر بلفور إلى اللورد روتشيلد رئيس الاتحاد الصهيوني البريطاني ونصها:

(إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم جليًا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى).

خضع أصل هذا الإعلان وهدفه لمناقشات مستمرة وكان موضع العديد من الدراسات المنشورة. ومن الممكن هنا استعراض بعض العوامل التي كانت وراء قرار إصدار هذا البيان. فبالنسبة إلى البريطانيين، كان كسب عواطف اليهود في أمريكا وألمانيا شيئًا جديرًا بالأهمية. وفي أمريكا، كان هناك تيارًا قويًا مؤيدًا للألمان بين أوساط المواطنين اليهود وهذا ما يتطلب مجابهته. كذلك يجب السعي لكسب اليهود الألمان عن طريق الوعود بالعودة إلى صهيون. بينما كانت تنبع دوافع بلفور من إيمانه العميق بالصهيونية والحاجةِ إلى تحويل الذكاء اليهودي المؤذي والذي لا مراء فيه، نحو إعادة بناء صهيون بدلا من سعيه لتدمير النظام الاجتماعي القائم في الدولة الأوروبية. وقد شرح آراءه بوضوح في آب ١٩١٩ في اتهام شديد للسياسة البريطانية تجاه العرب قائلا: "إن التناقض بين نص هذا البيان وسياسة الحلفاء حول مسألة إنشاء دولة مستقلة في فلسطين شديدًا للغاية... فعلى الدول العظمى الأربعة أن تلتزم بالصهيونية، وسواء كانت الصهيونية على حق أم على باطل، حسنة أم سيئة، فإن جذورها مغروسة في التاريخ القديم وفي الاحتياجات الحالية وفي آمال المستقبل، لما هو أهم وأعمق من رغبات (٧٠٠,٠٠٠) عربي يقيمون الآن في هذا البلد القديم".

... لذلك لم يخلق الحلفاء بخصوص فلسطين أمرًا واقعًا فيها، وهو باعتراف الجميع أمر غير خاطئ، ولم يعلنوا سياسة ثابتة لا يمكن خرقها. "في البداية جرى تنبيه الحسين إلى المصالح الخاصة لحليفة بريطانيا (فرنسا) في تقسيم الأراضي العثمانية المحررة. إلا أن مصالح العرب في هذا الجزء من الأراضي قد هبطت في نظر البريطانيين لا إلى الدرجة الثانية بل الثالثة. وبصراحة كانت هناك استراتيجية واضحة ذات طبيعة عسكرية في تفكير مجلس الوزراء وهي رغبته في إعطاء فلسطين إلى الصهاينة. ويعود سبب هذه الرؤية إلى تخوفهم من احتمال تعرض قناة السويس لهجوم من الشرق.

لقد داخل البريطانيون الحذر نتيجة النجاح الجزئي الذي حققته القوات التركية في هجومها على القناة في عام ١٩١٥، وهي الشريان الحيوي للإمبراطورية، واتضح لديهم أن اتساع سيناء لا يكفي للدفاع. كان العديد من البريطانيين، بما في ذلك لويد جورج، ولكن ليس آرثر بلفور، يرون أن الحل يكمن بضم فلسطين لأهداف استراتيجية لتشكل فيما بعد دولة حاجزة بين أية قوات مهاجمة وبين القناة. وقد حاول لويد جورج، عندما تولى السلطة، إلغاء اتفاقية سايكس - بيكو (التي لم يتم المصادقة عليها)، وأشار في حجته بخصوص فلسطين إلى الحقائق العسكرية الراهنة. كان يرى حل مشكلة فلسطين على أساس "احتلال أكبر مساحة ممكنة يسمح بها الوقت". وقال: "عندما تكون تحت سيطرتنا العسكرية، فالأمر يختلف كثيرًا". وفي نيسان ١٩١٧، اتخذ القرار النهائي وكتب إلى اللورد برتي السفير البريطاني في باريس: "على الفرنسيين القبول بحمايتنا على فلسطين". على أية حال لم يكن الفرنسيون يودون رؤية اتفاقية سايكس - بيكو مهملة بهذه الصورة.

لم تكن بريطانيا تواجه أية صعوبة في انتزاع فلسطين من السيطرة التركية، لأن ذلك يمكن أن يتم، وتم تنفيذه فعلا باستخدام قوة عسكرية. ولكن الصعوبة تكمن في إيجاد وسيلة لاستعادة السيطرة البريطانية على فلسطين بعد التسوية

التي تعقب الحرب، خاصة مع وجود مطامع فرنسا الكبيرة ورغبات العرب. وفي هذا السياق يمكن أن يلعب الصهاينة دوراً مساعداً للبريطانيين، لأنه إذا ما عاونتهم بريطانيا في مطالبهم (بالعودة إلى وطنهم)، بحسب الرؤية الصهيونية، فإن الصهاينة بالمقابل سيساندون دون شك الوجود البريطاني المستمر في فلسطين مقابل ذلك. وبذلك، تضمن بريطانيا مبرراً دائماً للسيطرة على منطقة فلسطين الحاجزة والمهمة من الناحية الاستراتيجية، ويتعزز هذا الضمان أكثر عندما تزداد قوة الصهاينة من خلال الهجرة. وهكذا حرمت مساندة بريطانيا (لحقوق) أقلية صغيرة، الغالبية ليس من حقوقها فقط بل من وطنها نفسه.

وقد وافقت جماعة متنفذة من اليهود البريطانيين، إن لم نقل جميعهم، على المقترح والمساهمة في المجهود الحربي بالمقابل. فإضافة إلى الأسباب الأخرى وراء موضوع إنشاء الوطن القومي لليهود، هناك "هدف مقدس" يراه البعض أنه يعود إلى تنشئتهم على العهد القديم. لم يكن رئيس الوزراء والملك المتدين جورج الخامس من بين المتحمسين لهذه القضية، إلا أن بعضهم عندما يتحدث عن فلسطين يشير إلى التدخل البريطاني بأنه "حملة صليبية جديدة".

اعتبر ملك الحجاز الإعلان بأنه انتهاك خطير لحقوقه الإقليمية كما حددت في ميثاق دمشق وأوضحت في المراسلات مع مكماهون، رغم أن المصطلحات الفنية التي استخدمها بلفور تشبه من حيث غموضها مصطلحات مكماهون. أبرق الحسين على الفور إلى وينكيت طالباً منه التوضيح لأنه يشعر بقلق كبير إزاء هذه الخطوة الخطيرة. وبدوره طلب وينكيت من هوغارث القيام برحلة إلى جدة والالتقاء بالملك وتهدئة مخاوفه. سافر هوغارث إلى هناك في كانون الثاني ١٩١٨، وخلال لقائه مع الحسين أكد: "إنه سيسمح بالاستيطان اليهودي في فلسطين فقط في حالة انسجامه مع الحرية السياسية والاقتصادية للسكان العرب". وكما أوضح جورج أنطونيوس لم تكن هذه الحقوق محددة بوضوح في وعد بلفور الذي يشير فقط إلى الحدود المدنية والدينية. وقد ناقش الحسين معه موضوع الاستيطان اليهودي في فلسطين، وأبدى استعداده للنظر في ذلك بل وحتى تشجيعه ضمن حدود معينة. وقال أنه لا يمكن أن

يقدم أية تنازلات بخصوص السيادة، كما أبلغ السير مارك سايكس السنة الماضية. ويتضح ذلك من خلال المذكرة التي كتبها هوغارث في (١٨) كانون الثاني ١٩١٨، التي قال فيها: "إن الملك لا يوافق على إنشاء دولة يهودية مستقلة في فلسطين، ولم أخول بأن أحذره بأن هذه الدولة مدعمة من بريطانيا العظمى". وهكذا يتمسك الحسين ثانية بشدة بموقفه على أساس مطالب القوميين العرب السابقة للحرب، إلا أنه اقترف خطأه القاتل باطمئنانه إلى الضمانات الشفوية والحقائق الجزئية. ونتيجة لنقطة الضعف هذه لم يثق العديد من القوميين بدوافعه وأعماله. وقد كتب وليم بالي وهو مراقب أمريكي في القاهرة، أن وكيل ملك الحجاز في القاهرة قد وضع السوريين في موقف فهموا من خلاله أن الشريف قد قبل مخطط البريطانيين بإعطاء فلسطين إلى اليهود وسوريا إلى الفرنسيين. ومهما كان قول الوكيل الهاشمي المشكوك في أمره والمدعو فاروقي، أو ما تم تفسيره على أساس أنه قاله، فإنه لم يثبت خطيًا أية موافقة من هذا القبيل لأنها ببساطة لم تحصل. أضف إلى ذلك لم يكن يمتلك التفويض بالتحدث باسم الشريف بل تسليم رسائله فقط.إن أهمية فاروقي تأتي من نسج مخيلته الخصبة، كما أنه معروف بأنه أفاك بارع وانتهازي.

على أية حال،تصرف الحسين بموجب التأكيدات التي أعطيت له، وأبلغ القوميين العرب من خلال وكلائه في القاهرة والعقبة وعبر صحيفة مكة "القبلة"، بأنه قد استلم تعهدات مفادها أن السيادة العربية في مأمن وأنه يجب تقديم الضيافة العربية إلى المستوطنين اليهود في فلسطين. وقد غير الحسين موقفه بعد انتهاء الحرب بعد أن كف الصهاينة عن نواياهم الحقيقية.

وعندما تأزمت الأمور حول إعلان بلفور، كشفت الحكومة السوفيتية في نفس الشهر مضمون اتفاقية سايكس - بيكو. وقال ليونَ تروتسكي وزير الخارجية ما نصه: "إن جميع المعاهدات السرية بين يدي الآن، وإن هذه الوثائق الأكثر غرابة مما توقعنا ستنشر على الفور... سوف نلقي جميع هذه المعاهدات السرية في

القمامة". وقبل أن ترمى اتفاقية سايكس - بيكو في القمامة، يجب كشف هذا الجزء من الخداع الاستعماري إلى العالم. وفي ٣ كانون الأول أصدر الروس التماساً إلى جميع العاملين المسلمين في الشرق أن يقروا مصيرهم بأنفسهم. وقد أنكر بلفور، الذي ذُهل بالأمر، هذا الإفشاء، وقال: "إنه شيء ملفق ابتدعه الخيال البلشفي الماكر".

وقبل عدة أسابيع من هذا الإعلان أي في الأسبوع الأول من تشرين الثاني، أفشى جمال باشا مضمون هذه الاتفاقية برسالتين إلى فيصل وجعفر. ومن المهم ملاحظة أن هذه الرسائل قد وجهت إلى هذين الشخصين وليس إلى الملك في مكة لأن هدف الأتراك الرئيس هو وقف الحرب من جانب العرب وهذا يتم بأفضل وجه من خلال تقويض القضية التي يقاتلون من أجلها. وفي كانون الأول، ألقى جمال خطاباً علنياً في بيروت دعا خلاله الحسين: "لانتهاز هذه الفرصة الأخيرة لإنقاذ شرفه". اقترح الأتراك في هذه الرسائل إصدار عفو عام عن الذين يستسلمون والاعتراف بمكانة الهاشميين في دولة حجازية مستقلة وخليفة هاشمي، وحكم ذاتي للولايات العربية. وقد أرسل فيصل هذه المقترحات إلى والده.

أحدث إعلان تفاصيل اتفاقية سايكس - بيكو قلقاً عميقاً لدى الحسين. لقد علم بطريقة غير مباشرة بالمطامع الإقليمية للحلفاء في الشرق الأدنى وقد سبق أن أعلن شروط العرب للوقوف بجانب الحلفاء. إلا أن الأمور قد تركت على حالها حتى انتهاء الحرب، ولم يقدم الحلفاء أية ضمانات لمطالب العرب. كما أن المفاوضات المديدة التي جرت في جدة لم تكن صريحة، بل كانت دائماً تجري بإشارات ملتوية وغير مباشرة.. ولا عجب أن الحسين ظل مقتنعاً أن الورقة الرابحة بحوزته لأنه لم يتلق أي رد نهائي قط على مطالبه.

لم يبد الحسين اهتماماً بالعروض التركية. أولاً لأنه كان يرى وهذا صحيح أن البريطانيين بحاجة إليه، لذلك سيواصلون تقديم الحماية له. ثانياً أن الحرب تسير الآن بغير صالح الأتراك وعروضهم هي بقدر حظهم في كسب الحرب. وثالثاً

أن جمـال نفسـه قـد قـال مـرة للحسـين كلامًـا مفـاده أن الوعـود الـتي تعطـى وقـت الحرب ليست لها قيمة إلا بقدر ما تقدمه من فائدة في الوقت الحاضر فقط.

أرسل الحسين الرسالة التركية إلى وينكيت لإبداء توضيحاته بشأنها، طالما أن الموضوع الآن ليس تهدئة مخاوف الملك فقط، بل وبعد نشر جمـال لمقررات اتفاقية سايكس بيكو، فإن العرب مضطرون للشك في نزاهة ملكهم. كان الجواب الذي أعده بلفور في لندن هـو محور محادثات سياسية ثنائية، لأن وزارة الخارجية قد أعربت في بيانها المبرق عن طريق مكتب وينكيت أن هـذه الوثيقة هـي مجـرد حلقة في سلسلة الخداع التركي. لأن الاتفاقية ليست لها أهمية لأنها عقدت قبل اندلاع الثورة العربية، كما أن أحداث روسيا قد غيرت مجرى الأمور، إذ لم يعد الروس طرفا فيها. وقد تطلب الأمر أن يقوم الكولونيل ولسن، الذي أخذ يشعر بالامتعاض من دوره كمبعوث وسط هذه الفوضى، بمساع حميدة بهذا الخصوص، وأرسلت أيضًا رسالة توضيح عن طريق دار الاعتماد البريطاني تشرح البرقية التلغرافية المقتضبة.

أصبح الموقف الآن عويصًا بشكل ميئوس منه. حيث أعلن الفرنسيون التزامهم باتفاقية سايكس – بيكو واعتبروها بأنها ضمان لمكاسبهم الإقليمية رغم عدم وجود قوة مقاتلة لديهم على اليابسة عدا قوة صغيرة فقط، والبريطانيون يرفضون الاتفاقية لأنهم يريدون إخضاع المنطقة عسكريًا لسيطرتهم ويريدون تحقيق الأهداف الصهيونية. والملك في مكة ملتزم بأقصى حد بالشروط التي حددها في مراسلاته مع مكماهون على أساس إلغاء المطامع الأوروبية في المنطقة. وكان الجيش العربي يقاتل من موقع إلى آخر بتشجيع من لورنس من أجل الوصول إلى دمشق "وإلقاء الفرنسيين خارج سوريا".

واصل الملك تأكيده لأنصاره على وعود الاستقلال المقدمة إليه من لندن والقاهرة. وقد عزز هذه التأكيدات إعلان ولسن الشهير في عام ١٩١٨ "البنود الأربعة عشرة". حيث اعتبرت اثنتا عشرة نقطة من هذه البنود مفهوم السيادة وتقرير المصير شيئًا مقدسًا. وفي حزيران ١٩١٨، أصدر البريطانيون بيانًا آخر إلى

العرب. فقد أرسل وفد سوري برئاسة رفيق العظم وعبدالرحمن شاهبندر مذكرة إلى السلطات البريطانية يطالبون فيها بإصدار بيان واضح عن مستقبل سوريا. كان همهم الرئيسي هو أن لا يستولي الفرنسيون على سوريا بل أن تضم إلى الحجاز رغم أنها تعتبر بدائية ومتخلفة بالمقارنة مع منطقة المشرق المتحضرة. لقد شكل هذا تهديدًا جديًا للسوريين الذين كانوا يتصورون عندما عقد ميثاق دمشق أن العرب يقومون بتحرير أراضيهم بأنفسهم. فقد منع الأتراك، كما لا حظنا، حصول أي انتفاضة في المربع السوري العراقي، إلا أنه قد تم تحرير هذه الأراضي الآن من قبل قوة عربية، كانوا يرونها، على الأقل من وجهة نظرهم، أنها قوات ملك الحجاز. لم تكن هناك رغبة في أذهان السوريين لاستبدال السيطرة التركية بأخرى حجازية، ولا كانوا يرغبون بالسيطرة البريطانية أو الفرنسية.

بحثت السلطات المختصة في القاهرة مذكرة القوميين وأصدرت الجواب التالي إلى القوميين السبعة الذين وقعوا المذكرة:

١. الاعتراف بالمناطق العربية المستقلة قبل الحرب والمناطق المحررة من قبل العرب باستقلالها وسيادتها التامة.

٢. يحدد حكم المناطق المحررة من قبل الحلفاء وفق مبدأ رضا المحكوم.

٣. يجب أن تنال المناطق العربية التي لا تزال تحت السيطرة التركية حريتها واستقلالها.

استقبل هذا البيان الذي عُرف باسم (التصريح للسبعة) بروح طيبة، رغم أن مستقبل سوريا وإلى حدود شرق الأردن يعتمد بشكل كبير على هوية الجيش الذي يصل هناك أولا. فإذا ما وصل الجيش العربي أولا، حينذاك ستكون السيادة عليها إلى المملكة العربية الهاشمية. كان السوريون يتوقعون في ذلك الوقت أن تسقط دمشق تحت سيطرة قوة الحملة المصرية وستسري عليها الفقرة الثانية من التصريح. وقد بدا الابتهاج بالنصر العربي له ما يبرره، بينما كان يخيم شبح السيطرة الفرنسية أو أية دولة استعمارية أخرى على المنطقة.

عندما كان اللنبي يتقدم شمالاً في فلسطين، استطاع كسب مساندة الشيوخ المحليين وذلك بعرضه لهم رسالة مخطوطة من قبل الحسين يطلب فيها مساعدتهم في تحقيق الاستقلال العربي. لم تعرض هذه الرسالة على وجهاء لبنان لأن اللنبي كان يدرك الوضع السياسي الحرج لهذه المنطقة خاصة أطماع "حلفائنا الفرنسيين". حاول اللنبي قدر المستطاع تجنب إقرار أي وضع وعمل وفق هذا المعنى. وقد التزم طيلة فترة قيادته باعتبار المناطق المحررة هي أراضي العدو المحتلة وهو بصفته القائد الأعلى للقوات المسلحة مسؤول اسمياً عن إدارتها عسكريًا بصورة مؤقتة. وهذا لن يمنع المتغيرات اللاحقة التي قد تحصل عند مفاوضات السلام. لهذا قال بيكو في القدس في كانون الأول ١٩١٧ إلى اللنبي: "وغدًا عزيزي الجنرال، سأتخذ الخطوات اللازمة لإقامة حكومة مدنية في هذه المدينة". وقد ارتبك اللنبي لبرهة واحمر وجهه وقال بشراسة: "إن السلطة الوحيدة في المنطقة العسكرية هي سلطة القائد الأعلى للقوات المسلحة أي أنا نفسي".

أدرك لورنس من خلال توسلات بريموند المستمرة لشن هجوم مشترك للحلفاء على دمشق، المطامع الفرنسية فيها. وهذا هو إلى حد كبير سبب هجومه على تلك المدينة. كما أن فيصلاً قال أنه سيحتل دمشق في خريف ١٩١٨، سواء بمعونة بريطانيا أم بدونها، وإذا تطلب الأمر فإنه سيقيم سلامًا منفردًا مع الأتراك. وقد تم حل مشكلة من يدخل دمشق أولاً من قبل الدمشقيين أنفسهم، حيث أعلنوا تأييدهم للملك قبل بضعة أيام من فتح المدينة في (١) تشرين الأول. استقبلت القوات المنتصرة أثناء تقدمها نحو السراي في مركز المدينة بالتلويح بالعلم الهاشمي. وجرت آخر محاولة من المكائد عندما تم إبعاد محمد سعيد وعبدالقادر، الذين استلموا السلطة، كما افترضوا ذلك نيابة عن الهاشميين، من قبل لورنس الذي شك بميولهم الفرنسية. أعلنت دمشق بعد ذلك تحت سلطة (السلطان الأكبر الحسين). أرسل العرب الذين يقودهم فيصل عدة برقيات إلى

المدن السورية الأخرى تدعوها لإعلان تأييدها للملك ورفع العلم العربي. في (١٥) تشرين الأول وقعت حمص تحت سيطرة الجيش العربي بقيادة الشريف ناصر، وفي (١٧) منه سقطت حماة، ثم في (٢٦) استسلمت حلب بعد مقاومة عنيفة أبدتها الوحدة التركية التي كان يقودها مصطفى كمال.

وسرعان ما اهتزت ثقة العرب الجديدة. فقد أبرق وجهاء بيروت إلى فيصل في (٣) كانون الأول يطلبون منه إرسال ممثل للحكومة الهاشمية كدليل وعلامة على ربط المدينة بالحكم الجديد. أرسل شكري باشا الأيوبي واليًا عليها ترافقه قوة مؤلفة من مئة رجل. أرعبت تلك الخطوة السلطات الفرنسية في دمشق حيث طلبت إجراءًا فوريًا من جانب القيادة البريطانية. أصر اللنبي على إنزال العلم العربي وتأزم الموقف بوصول الأسطول الفرنسي على مشارف بيروت في (١٥) كانون الأول. أنزل العلم بذلّ وطلب من شكري باشا المغادرة وتم تعيين حكام فرنسيين تحت قيادة اللنبي على بيروت وصيدا وصور.

عقد اللنبي الذي دخل دمشق في (٣) من الشهر اجتماعًا مع فيصل وقال مشيرًا إلى بيروت والمناطق التي يطالب بها الفرنسيون، إنه لا يمكن استباق نتائج مفاوضات السلام. إلا أنه سيتم الاعتراف بالعرب كمقاتلين ولهم حقوق كاملة (كانوا حتى هذا الوقت يعتبرون رعايا العدو) وتم تعيين فيصل ممثلا لسلطة الاحتلال العسكرية في سوريا. ولم يصر اللنبي على إنزال العلم العربي عن المنطقة (أ) كما محددة في اتفاقية سايكس - بيكو. واتضح أن هذه الاتفاقية قد نهضت ثانية ولم تكن اتفاقية ميتة.

خلقت أحداث بيروت موجة من الغضب داخل صفوف الجيش العربي لأنهم رأوا ذلك دليلاً قاطعًا على خيانة الحلفاء. كان الجيش على حافة التمرد، وقال فيصل أنه لا يستطيع عمل شيء في ظل عدم وجود بيان واضح عن نية الحلفاء. في (٧) تشرين الثاني صدر بيان إنكلو - فرنسي عمم على جميع أنحاء سوريا

وفلسطين والعراق. وقد كرر البيان بشكل مضجر "التصريح للسبعة"، مؤكدًا أن الدولتان مهتمتان بتأسيس ومنح الاعتراف بحكومة وطنية منتخبة من الشعب نفسه. وأوضح البيان أن الدولتين لا ترغبان بفرض هذا النظام أو ذاك على شعب المناطق المحررة بل مجرد إرشادهم نحو تقرير المصير. وقد أدى البيان التأثير المطلوب واستعيد الهدوء.

في هذا الوقت وصلت سلسلة العمليات التي بدأها الشريف حسين في حزيران ١٩١٦ إلى نهايتها. كان العرب في السنتين الماضيتين يقاتلون عدوًا ضخم العدد بقدر ما يواجهه الجيش على جبهة مصر ويحصى أن حوالي (٣٥,٠٠٠) من الأتراك قد قتلوا أو أسروا. وظل الحسين مخلصًا بثبات إلى الأهداف الأصلية للقوميين السوريين حتى مع وجود الدليل على خيانة الحلفاء الأوروبيين. كان أمله في التسوية النهائية للسلام، لأنه لم يتلق أية تأكيدات بأن الأمور قد تغيرت منذ رسالة مكماهون الأخيرة. ومن المؤكد أن لا شيء تغير بقدر تعلق الأمر به، ولم يتنازل عن شبر واحد من الأرض. إن التنازل الوحيد كان في اتفاقيات المعونة الإدارية والفنية الممكن تقديمها في المناطق الساحلية السورية، ولكن حتى تلك الاتفاقيات مشروطة بموافقة القوميين. كان يرى نفسه بأنه القائد الطبيعي للمناطق العربية المحررة حديثًا، ويشعر أن لديه المبرر الأقوى لذلك، حيث اختير كناطق باسم العرب قبل أن تنشب الثورة من قبل القوميين في دمشق. كتب سايكس ملاحظة تنبؤية بعد زيارته إلى الملك في نيسان ١٩١٧: ".. إذا ما عملنا نحن والفرنسيون من أجل ضم هذه الأراضي، فإني متأكد بأن عملنا هذا سيغرق في لجة الفوضى والفشل". وسترينا محادثات السلام القادمة في فرساي أنه كان محقًا في مقولته، على الأقل فيما يتعلق بالفوضى. ومن الغريب أن الحسين وحده هو الذي دفع ثمن تمسكه بموقفه الثابت فيما يخص الحقوق العربية وذلك بفقدانه عرشه.

ملاحـــق

مقتطفات من خطاب جمال باشا في بيروت:

"كنت حريصًا على أن أعلم كيف استمال الإنكليز الشريف حسين إليهم ولكن بعض القادمين أخيرًا من تلك الجهات قد أزالوا الستار عن وجه الحقيقة وأعان على ذلك أيضًا ما ورد في متن العهود الخفية التي نشرت أخيرًا في بطرسبورغ. وذلك أن إنكلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا عقدن بينهن معاهدة خفية على إثر دخولنا في الحرب بمدة قليلة أي في أوائل عام ١٩١٥ قررن فيها تأسيس سلطة عربية مستقلة تؤلف من جميع الولايات العربية العثمانية تحت رعاية دول أوروبية وحمايتهم.. وفي الحقيقة أن هذا القرار كان عبارة عن خدعة لإيجاد الثورة العربية التي كانت مطمح نظر الإنكليز فإنهم كانوا يسعون لجعل ثوّار العرب آلة خاصة لتحقيق آمالهم فيمدونهم الوعود الكاذبة ويمنونهم الأماني الباطلة.

"فالشريف حسين باشا المسكين وقع أخيرًا في أحبولة الإنكليز وانخدع بأقوالهم وأخل بوحدة الإسلام وشرفه. إن الإنكليز بعد أن أخذوا وعدًا من الشريف حسين بالعصيان قرروا المدافعة عن الترعة ضمن شبه جزيرة سيناء.. إن الإنكليز، لم يتجاوزوا الترعة إلا بعد تأمين خروج الشريف وعصيانه فإذا كانوا اليوم أصبحوا أمام القدس فذلك نتيجة عصيان الشريف حسين في مكة.

لو لم يكن الاستقلال الذي وعد به الإنكليز الشريف حسين باشا سرابًا خادعًا، أو لو كان أمل الاستقلال والسلطنة الذي يحلم به الشريف حسين باشا ممكن الحصول ولو إمكانًا بعيدًا لأمكنني أن أرى في عصيان الحجاز ذرة من التعقل، ولكن سرعان ما صرح الإنكليز بمرادهم.. وعليه فالشريف حسين باشا بنفسه فضلا عن تسببه بوصول الأعداء إلى أمام قلعة القدس سيشعر بالتعاسة التي جلبها لنفسه بإبدال شرف الإمارة الممنوح له من الخلافة الإسلامية بالعبودية للإنكليز.

بعثت أخيرًا إلى الشريف حسين باشا كتابًا صورت لـه فيه هـذه الحقـائق، وأفهمته حرج مركزه الحاضر وخطره، فإذا كان مسلمًا حقيقيًا وكان جامعًا لمزايا العرب وخصائلها وإحساساتها يقلب للإنكليز ظهر المجن ويؤول راجعًا إلى خليفة الإسلام والمسلمين. إنني قد قمت بواجباتي الدينية راجيًا من الله جل وعلا أن يلهمه طريق الرشد والصواب والهداية".

برقية وينكيت إلى الحسين:

"إن البولشفيك لم يجدوا في وزارة الخارجية في بترغراد معاهدة معقودة، بل محاورات ومحادثات مؤقتة بين إنكلترا وفرنسا وروسيا في أوائل الحرب لمنع المصاعب بين الدول أثناء مواصلة القتال ضد الترك، وذلك قبل النهضة العربية، وإن جمال باشا، إما من الجهل أو الخبث غير في مقصدها الأساسي وأهمل شروطها القاضية لضرورة رضى الأهالي وحماية مصالحهم. وقد تجاهل ما وقع بعد ذلك من أن قيام الحركة العربية ونجاحها الباهر وانسحاب روسيا قد أوجد حالة أخرى تختلف عما كانت عليه بالكلية منذ أمد مضى".

التصريح للسبعة:

"نظرت حكومة جلالته في مذكرة السبعة بأعظم عناية. وحكومة جلالته تقدر تمام التقدير الأسبابِ التي تدفع أصحاب المذكرة إلى الاحتفاظ بتنكرهم، وليس في كون المذكرة غفلا من التواقيع ما يغض من قيمتها في نظر حكومة جلالته.

وتنقسم الأراضي التي ورد ذكرها في المذكرة إلى أربعة أقسام أو طبقات:

١. الأراضي التي كانت حرة ومستقلة قبل قيام الحرب.

٢. أراضٍ حررت من السيطرة التركية بعمل العرب أنفسهم في أثناء الحرب الحاضِرة.

٣. أراضٍ كانت في الماضي تحت الحكم العثماني وتحتلها قوات الحلفاء في الحرب الحاضرة.

٤. أراضٍ لا تزال تحت السيطرة التركية.

ففيما يتعلق بالطبقتين الأوليتين، تعترف حكومة جلالته بالاستقلال التام والسيادة للعرب الذين يقطنون هذه الأراضي، وتؤيدهم في جهادهم في سبيل الحرية. وفيما يتعلق بالأراضي التي تحتلها قوات الحلفاء، تلفت حكومة جلالته نظر أصحاب المذكرة إلى نصوص التصريحات الصادرة من القادة العامين، عند الاستيلاء على بغداد والقدس. وهذه التصريحات تتضمن سياسة حكومة جلالته بإزاء أهالي هذه الأقاليم. وترغب حكومة جلالته في أن تكون حكومة هذه الأقاليم قائمة على رضا المحكومين. وهذه السياسة ستظل مؤيدة من حكومة جلالته.

وأما فيما يتعلق بالأراضي المذكورة في القسم الرابع فإن من رغبة حكومة جلالته أن تفوز الشعوب المظلومة في هذه الأراضي، بالحرية والاستقلال. ولا تزال حكومة جلالته تعمل على تحقيق هذه الغاية.

وحكومة جلالته تعلم، تمام العلم، مقدار الصعوبات والأخطار التي تحيط بالذين يعملون لاسترداد حرية البلاد المذكورة.

على أن حكومة جلالته على الرغم من هذه العقبات تثق وتؤمن بإمكان التغلب عليها وهي راغبة في تأييد كل من يعملون على تذليلها. ومستعدة للنظر في أي مشروع للتعاون يتفق مع الأعمال الحربية الحالية وينطبق على المبادئ السياسية التي تسترشد بها حكومة جلالته وحلفاؤها.

١ حزيران ١٩١٨

* * *

الفصل الثالث عشر

نهاية الوهم

◘ قبل التطرق إلى الدسائس التي رافقت مفاوضات السلام من المفيد دراسة وضع انتشار القوات بعد انتهاء الحرب في ١٩١٨ وتوضيح الأسلوب الذي تصورت به الدول ذات العلاقة هذا الانتشار.

احتلت مملكة الحجاز أرض الولاية التركية السابقة التي تحمل نفس الاسم مضافاً إليها لسان صغير في الجنوب على امتداد البحر الأحمر حتى القنفذة والذي كان سابقاً يقطع سنجق عسير وقد أصبح الآن تحت سيطرة الهاشميين.

وخضعت المنطقة الشمالية للسيطرة العسكرية باسم (أراضي العدو المحتلة) وقسمت بالشكل التالي:

أ) الإدارة الشمالية لأراضي العدو المحتلة: وهي منطقة المصالح الفرنسية وتقع على امتداد الساحل السوري شمال صور.

ب) الإدارة الشرقية لأراضي العدو المحتلة: وهي المنطقة العربية شرق خط مكماهون (حمص - حماة - حلب - دمشق) وتمتد من جهة شرق الأردن نحو

الجنوب حتى حدود الحجاز غرب معان. ويدار إذا صح القول هذا الجزء الجنوبي الذي أصبح يسمى فيما بعد بشرق الأردن من خلال فلسطين.

ج) الإدارة الجنوبية لأراضي العدو المحتلة: فلسطين وسيناء التركية السابقة التي ضمت إلى مصر ولكن بقيت تحت السيادة التركية بعد عام ١٩٠٦ وقد ضمت نهائيًا إلى مصر بعد فتحها.

كانت السلطة في جميع أراضي العدو المحتلة بما في ذلك المناطق الشمالية مناطق بحاكم عسكري تسانده قوات من جيش الحملة المصرية. ورغم أن النفوذين الفرنسي والعربي هما المهيمنان ظاهريًا إلا أن اللنبي والقوات البريطانية هما السلطة الحقيقية. وإلى الشرق من العراق أقيم نظام حكم دائمي من الهند لإدارة المناطق التي تحتلها بريطانيا، وتم تداول العملة الهندية وحصل وضع خطير يختلف عن الوضع عند حافة البحر المتوسط.

ونظرة إلى الميدان البعيد في مكة يظهر الموقف بالشكل التالي:

احتل البريطانيون فلسطين خلال الحرب العربية البريطانية ضد الأتراك وتدار من قبلهم إلى حين تسليمها إلى الحلفاء العرب. وبطريقة مماثلة حرر فيصل أراضي العدو العربية الشرقية. وفي (٦) تشرين الثاني ١٩١٨، أصدر أمرًا بخصوص الإدارة، حيث يجب أن يعين الحاكم العام من قبل الملك الحسين وأن يؤسس مجلس ولاية متكون من (١٥) فردًا. وفي جميع المهام والأغراض كان فيصل نائبًا لوالده وكان الأمر الملكي الحجازي يجري من خلال الإدارة الشرقية لأراضي العدو العربية رغم أن ذلك غير محدد بدقة.

كانت القرارات المتخذة إزاء سوريا تشمل سوريا الكبرى وليس شريط الأراضي النائية التي احتلها العرب في نهاية الحرب، وحتى في منطقة أراضي العدو العربية الشمالية المحتلة، لا يزال البريطانيون يمثلون السلطة الفعلية وقد تم إبلاغهم عدة مرات أن الحسين غير مستعد للتخلي عن السيادة على هذه المنطقة الساحلية. ربما يكون مستعدًا لتقديم بعض التنازلات فيما يخص المستشارين أو

التجارة أما السيادة فلا. ولهذا تم تحييد الخطر الفرنسي عن طريق تواجد القوات البريطانية وتأكيدات هوغارث وسايكس المستمرة والتصريح للسبعة والإعلان الإنكلو - فرنسي. لقد تم الاتفاق خلال مراسلات مكماهون بأن يتم تأسيس إدارة بريطانية مؤقتة في العراق لذلك ليس هناك خطرًا جديًا من تلك المنطقة.

ليس هناك سببًا حقيقيًا يدعو إلى الشك في صدق الوعود التي سبقت الثورة خصوصًا في ضوء التأكيدات المستمرة السابق ذكرها لأن العرب قد أدوا دورهم في الاتفاق.

قال مكماهون في رسالته إلى كرى في (٢٤) كانون الثاني ١٩١٦ بأن كل شيء يمتمد على نجاح التماون العربي وفي رسالة إلى الحسين قال من المهم أن لا ندخر وسعًا لضم جميع الشعوب العربية إلى قضيتنا المشتركة وحثهم لعدم تقديم أية مساعدة لأعدائنا.

إذ يمتمد دوام اتفاقنا على نجاح هذه الجهود وعلى الإجراءات الفاعلة التي يتخذها العرب لدعم قضيتنا عندما يحين وقت العمل. صحيح أن مستوى الدعم الشعبي في سوريا والعراق كان محدودًا بشكل كبير بسبب الخوف من الأتراك وشحة الأسلحة ولكن جهود الحجاز تبدو واضحة في كل مكان.

ليس من العدل تمامًا القول كما ذهبماينرز هاغن بأن العرب قوم بائسون وقطاع طرق ماهرون يمتلكون شجاعة هزيلة، فإنجازاتهم قد بولغ بها في مقابل التقليل من شأن الأتراك الذين هم أفضل من البدو بنسبة عشرة إلى واحد.

ومن الصحيح القول أنه ليس لحملة الصحراء تأثيرًا كبيرًا على المسرح الرئيسي غرب الأردن، إن هذا القول غير منصف جملة وتفصيلا لأن الجيش العربي الحجازي لم يكن مكونًا من البدو فقط بل من عدد كبير من الجنود النظاميين المستقدمين من كل أنحاء العالم العربي.

لقد قاتل هؤلاء الرجال بعزم،وكانوا في حالات عدة الأبطال غير المتوجين في حملة الصحراء ولكن البدو أيضًا قد حشدوا (٢،٠٠٠) رجل في وقت عصيب من الحرب واستولوا على ميناء العقبة الذي يهدد الجناح الأيمن لقوات الحلفاء ويعرض للخطر مرور السفن عبر البحر الأحمر، وقد أوضح كتّاب آخرون مثل بيك باشا وكيركبرايد وجارفس (حاكم سيناء السابق) مساهمة العرب في الحرب حيث أشغلوا ربع وفي بعض الأحيان ثلث القوات التركية العاملة في جبهة فلسطين ودبروا خطة الخديعة في أريحا وقطعوا سكة الحديد في درعا الأمر الذي ساعد في هزيمة الجناح الأيسر للجيش التركي أن تسليط الضوء على كارثة معان يعني أن علينا أن ننسى الهزائم البريطانية في غزة لقد كان العرب قبل كل شيء هم الذين حرروا الأراضي العربية عدا فلسطين، وأول من ظهر على المسرح بعد الاندحار التركي.

وفي لندن وباريس كانت وجهات النظر مختلفة إلى حد ما فقد أعطى الحلفاء الوعود للصهاينة بشكل مشترك رغم أنها لم تصل أبدًا إلى حالة معاهدة ملزمة بل أعطوا وعدًا باعتبار فلسطين وطن قومي لليهود واعتبار منطقة شرق الأردن ملجأ لإيواء اللاجئين العرب. ووضعت فرنسا عينها على سوريا والبريطانيون على حقول نفط الموصل التي كانت تقع ضمن المجال الفرنسي في اتفاقية سايكس - بيكو وقد راود الهند الخوف من المارد العربي الذي يجلب الكارثة وفضلت حضورًا بريطانيا في العراق.

وهكذا وفي كانون الأول ١٩١٨ وقبل مفاوضات السلام جاء كليمنصو إلى لندن لمناقشة الأمور مع لويد جورج لأن الفرنسيين كانوا يعلمون جيدًا بضعف موقفهم في المنطقة فهم يعلمون أنهم كانوا مشتركين مباشرة في القتال على نطاق محدود للغاية كانوا يخفون الأمر الواقع للاحتلال البريطاني وأيضًا من مضامين الوعود البريطانية إلى العرب في ضوء المطامع الفرنسية في سوريا. وفي هذه النقطة كتبت إليزابيث مورنو: (يعد لويد جورج بقطع الوعود المتضاربة التي يستعصي علاجها) وقد أوردت الوصف التالي لمحادثات كليمنصو، دوّنها بلفور (في داوننغ ستريت في كانون الأول الماضي سعيت إلى التوصل إلى تفاهم مع إنكلترا حول

سوريا لهذا سألت رئيس الوزراء ما هي التعديلات التي ترغب إنكلترا إضافتها إلى اتفاقية سايكس - بيكو.

أجاب: الموصل قلت ستأخذها. أي شيء آخر؟

أجاب: فلسطين قلت ستأخذها، وغادرت لندن حائرة حول مدى القبول الذي قد يلقاه هذا الترتيب في فرنسا).

إن السؤال المحرج الذي قد يثار بخصوص الجولة الفاترة من المساومات البارعة هو ما هو البديل؟ ترى مورنو أن البديل كان من بين أشياء أخرى هو السيادة الفرنسية على سوريا (الحديثة) في ٢١ مارس ١٩١٩ أوضح كليمنصو إلى لويد جورج أن هذا هو اتفاقنا وعرضت بريطانيا وفرنسا في مفاوضات فرساي اتفاقية جديدة جعلت التصريح للسبعة الإعلان الإنكلو — فرنسي، والبند (١٢) من بنود ولسن الأربعة عشر مجرد هراءٍ كل ذلك بالطبع لم يكن معروفاً لدى الملك الحسين وعندما عيّن فيصلا ممثلا له في مفاوضات السلام في تشرين الثاني ١٩١٨ لم يكن قد ساورته الشكوك بحصول مثل هذه الاتفاقات لأنه قد حذر فيصل بضرورة الوثوق بحليفتنا الوفية وأن يحترس من فرنسا التي لها أطماع معروفة لدينا. وفي هذا الوقت عاود لورنس الظهور ثانية ملحقا مع الوفد العربي وهذا ما عزز المخاوف الفرنسية بخصوص صحة وجود المطامع البريطانية في الأراضي العربية من الإمبراطورية العثمانية. كان فيصل فتى غير مجرب وكان يستند هنا في المشورة على كتف المبغضين الكبار لفرنسا وقد ازداد اعتماد فيصل على لورنس بعد أن اكتشف أن الفرنسيين لم يخصصوا أية مقاعد للعرب في فرساي، ولكن لورنس (من خلال كرزن) لم ينتزع مقعداً واحداً بل مقعدين إلى الوفد العربي. مع ذلك كان فيصل يستحق عطفنا الكامل. فمن جهة كانت تعليمات والده واضحة للغاية وذلك بضرورة الالتزام بالوعود التي قطعتها بريطانيا العظمى بخصوص الاستقلال العربي ولا شيء آخر يجعلها موضع شك إذ لم يعط نهائيًا أية حرية في العمل مهما كانت في المفاوضات. ومن جهة أخرى تلقى مشورة من لورنس الذي كان هدفه الرئيسي هو إحباط الفرنسيين حتى لو كان هذا النهج يظهر على

النقيض من المصالح البريطانية. وفوق ذلك سوريا حيث كان البعض يرغب بانفصال سوريا عن السيطرة الهاشمية وآخرون يطالبون بتكوين دولة مسيحية في منطقة لبنان. أضف إلى هذا الضغوط الشديدة المتزايدة من طرف القوميين في الداخل في دمشق فليس من الغريب أن يجد فيصل نفسه في موقف عصيب للغاية كهذا.

وبالنسبة إلى العرب تحول المؤتمر الذي افتتح في فرساي في ١٨ كانون الثاني ١٩١٩ إلى قصة تثير السأم حيث حشرت فيها القضية العربية بين مطالب المنفعة المستندة على النفط والاستراتيجية والحقوق التي ترقى إلى الصليبيين. وبقدر تعلق الأمر بسوريا وفلسطين، فبالنسبة إلى الذين تساندهم القوة، فالأمر قد تمت تسويته قبل أن تأخذ الوفود مقاعدها بين أبهة قاعة المرايا في فرساي. كان لورنس يفضل أن تكون سوريا لفيصل لأنه كان يعلم أن البريطانيين يمكن من خلاله أن يكسبوا الهيمنة وأعلن إلى اللورد كرزن في رسالة يذكر فيها أن فيصلا سيختار المستشارين البريطانيين. لاشك أن لورنس كان يرى فيصلا أداة يمكن أن تستخدم ضد والده كما استخدم في فك الجيش العربي الشمالي من سيطرة مكة بعد سقوط العقبة. وفيصل بمعزل عن والده كان شخصاً مرناً في المناورة بحقل الدبلوماسية الدولية. وقد وضع هذا واجهة جديدة بالإقدام للعمل الذي ذكره لورنس في رسالته إلى فيليب كرفس عندما كتب: بالنسبة إلى الحرب علينا أن نتظاهر أن الحسين هو الذي يقودها طالما أن الوحدة ضرورية لأية حركة لذلك تحملنا الحسين حتى توقيع الهدنة ثم سعينا إلى وضعه في مكانه الطبيعي. وفي مذكرة سرية إلى وزارة الخارجية اقترح لورنس أن يكون للفرنسيين منطقة الساحل السورية وللبريطانيين العراق وفلسطين ولفيصل المطيع سوريا. بهذا أن الذي يخشاه لورنس لم يكن أن يسرف الحسين في الغرور، بل بتقديم مطالب يشعر أن لها مبررات مقنعة. لقد أصاب لورنس حقيقة الأمر في البلاغ العربي في آب ١٩١٧ عندما كتب: "لا يمكنني أن أتصور أن جميع مغريات العالم يمكن أن تضع الحسين بأن يعمل ضد مبادئه. إن نزاهته الواضحة وقوة إيمانه تعزز تشكيل سلوكه وفق كلمة الوعد التي قطعها

ومهما غلت التكاليف". وقد تصرف الفرنسيون مباشرة بما يعود بالضرر على لورنس وذلك بالتقليل من شأن فيصل ولكن هذا كان دون جدوى لأن القرارات قد اتخذت على مستويات عليا، وهي التي تقرر في النهاية مستقبل سوريا الكبرى وقد ألح العديد من أعضاء الحكومة البريطانية أن يخرج لورنس من حاشية فيصل طالما أنه يمرض العلاقات البريطانية - الفرنسية للتأزم، ولكن ذلك لم يتم لأن للورنس أصدقاء متنفذين وفيصل لم تكن لديه قوة حقيقية لذاته إذ أنه سيقبل بالنهاية ما يعطى له.

أصبح الضغط الفرنسي على بريطانيا لا يحتمل وحتى أولئك الذين كانوا يرون القضية العربية بمنظار العدالة، أخذوا يترددون في مواجهة المنافع. أوضح بلفور أنه في غاية الحزن بسبب الفوضى السورية لم يكن عملنا أمينًا لا مع الفرنسيين ولا مع العرب ولكن من الأفضل الآن التنازع مع العرب بدلا من الفرنسيين. وقد كرر كرزن هذه الآراء. كان فيصل يرى أن بارقة الأمل الوحيدة ستأتي من الوفد الأمريكي الذي تبنى الدعوة التي أعلنها فيصل في كانون الثاني وذلك بتشكيل لجنة لتقصي آراء شعب سوريا والعراق بخصوص تقرير مصيره. وهكذا تشكلت في آذار بعثة بدعم تام من الأمريكان (عرفت البعثة باسم بعثة كنج كرين إضافة إلى أعضاء اثنين آخرين قاما بالرحلة في النهاية). وقد وافقت بريطانيا وفرنسا في البداية على تعيين أعضاء، ولكن عندما عرف أن العراق وفلسطين مشمولتان، سحب البريطانيون مكماهون وهوغارث من اللجنة. ولا يحتاج الفرنسيون أيضًا إلى الكثير من العذر ليسحبوا أعضائهم وهكذا أصبحت اللجنة ضعيفة تمامًا.

وفي أواخر الصيف أصبحت القضية العربية إلى حد ما محكومة بالفشل. فقد انشغل لويد جورج بالعلاقات المتأزمة مع كليمنصو والتي تدهورت في بعض الأوقات وبالعبء المالي الضخم للسيطرة على الشرق الأوسط. إضافة إلى ذلك بدأت تستيقظ ثانية مشكلة إيرلندا الأبدية، حيث أعطيت الأولوية للقضايا العاجلة، لذلك وفي أيلول ١٩١٩ وافق لويد جورج على سحب القوات البريطانية من سوريا

(الحديثة) ولبنان وعلى احتلال الجنود الفرنسيون للمنطقة الساحلية وعلى إعطاء مجال للنفوذ الفرنسي داخل سوريا. ومقابل ذلك حصلت بريطانيا على حقول نفط الموصل وفلسطين والعراق وضم شرق الأردن تحت شكل من أشكال الحماية البريطانية ولم يكن لفيصل خيارًا غير الموافقة رغم وصول مندوب يحمل احتجاجات والده في اللحظة الأخيرة والتي كانت مكتوبة بوثيقة مذيلة بالأحرف الأولى بدل أن تكون موقعة بالكامل. وبدون قوات بريطانية لضمان الوضع الراهن الناشئ بعد الحرب أصبح خطر الصدام المباشر بين فرنسا والعرب أمرًا محتمًا. ومن مكة جاء نداء "بأن لا تسلم أي شبر" ومن دمشق جاء نفس النداء ولكن بلغة أقوى ولكن فيصل كان يرى المحتوم. كيف يمكن للعرب أن يتغلبوا على قوة الفرنسيين دون الدعم البريطاني؟ ولورنس، كما قد يخيل قد جرحت مشاعره وكتب رسالة لاذعة إلى التايمز حول المشكلة السورية أكسبته أعداء أكثر بين أوساط المؤسسة الحاكمة. لم يكن هناك ابتهاج بالطبع مما يولده التعليق البهيج لكرزن من أن سيطرة فرنسا على سوريا ستكون "مؤقتة" وقبل كل شيء هذا ما قالوه عن مصر بعد معركة التل الكبير. لم يكن لفيصل أي خيار غير المحاولة في الشهر التالي لانتزاع تنازلات قدر الإمكان من كليمنصو. كانت الشروط قاسية وتجعل من الاستقلال السوري مجرد أضحوكة بالغة السخرية. ليس هناك من بديل غير الموافقة. كان من المناسب جدًا للحسين قبل نشوب الثورة العربية أن يبلغ مكماهون بأن جميع هذه القضايا يجب أن تحل بعد انتهاء الحرب وقد أدى العرب بعض الأغراض في ذلك الوقت. وبعد الحرب ستسود القوة وفعلا تم ذلك. كان رد الفعل في الشرق الأوسط صاعقا، حيث أعلن المؤتمر أو برلمان سوريا الكبرى في مستهل حزيران ١٩١٩ "إننا لا نعترف بأي حق تدعيه الحكومة الفرنسية في أي جزء مهما كان في بلدنا السوري تحت أية ظروف وفي أي مكان. وقد أدين فيصل بقسوة من قبل البرلمان الذي رفض أن يواجه بصراحةٍ بؤس الموقف العسكري. ورغم أعمال الشغب التي سادت الشوارع إلا أن فيصلا قد رتب نفسه للبقاء في موقعه على رأس الحكومة السورية، وتبنى وجهات النظر المتطرفة للقوميين. ومن مكة كان الجواب يفوق الوصف.

فقد صعق الحسين من أن البريطانيين الذين على شرفهم التقليدي بنى الصرح الكامل للثورة العربية يعملون الآن يدًا بيد مع الفرنسيين لتطبيق انتداب واقعي على ما هو أرض عربية دون منازع وبموجب الوعود التي قطعت له في البداية. لقد ابتدأ هذا الحدث سلسلة طويلة من التدهور الذي وسم العلاقات بين البريطانيين والعرب منذ هذا الوقت. قال الحسين في حديثه إلى عدد من الشيوخ: أنا على وشك تأشير تغير كبير تجاه الحلفاء... فسوريا قد منحت إلى الفرنسيين رغم احتجاجاتنا وعائدية دمشق لنا كانت موضع جدل. لقد أعطيت أذنًا صاغية إلى الإنكليز الغادرين وتركت نفسي تقوى وتغلب من جانبهم.

في البدء كان موقفه تجاه فيصل متشددًا وبعد زيارة فيصل الثالثة إلى أوروبا رفض الحسين استقباله في جدة أو إرسال سيارة له فكل الحقد القديم الذي نشأ عندما كان فيصل في العقبة قد عاد وقال الحسين إلى الريحاني - الرحالة الأمريكي - السوري الزائر: إنهم (فيصل وأنصاره) قد فتحوا أبواب سوريا إلى الفرنسيين وإن أخطائهم السياسية الفادحة قد قتلت إلى حد ما الحركة العربية. وفي الحقيقة يجب القول أن هذا التصريح قد جاء بعد الحل النهائي للمشكلة في دمشق بعد الاحتلال الفرنسي.

وفي دمشق سارت الأحداث نحو ذروة مأساوية فقد طرد فيصل نهائيًا من أية تسوية لأنه قضى الثلاث سنين الأخيرة يحارب بضراوة ضد محتلي الأراضي العربية. لقد نصح والده بتوخي الحذر من مطامع الدول الاستعمارية في أوروبا في ١٩١٥-١٩١٦ والآن في (١٩٢٠) فإن فيصل نفسه يقارع الاحتلال الفرنسي الاستعماري الجديد لسوريا ربما كان ذلك أحد الانعطافات الحادة للمفارقات السياسية والتي يمكننا أن نعتبرها شيئًا مثيرًا للشفقة، فقد سلّم كلية مكتفا إلى الفرنسيين.

وفي (٨) آذار ١٩٢٠ رفض البرلمان السوري اتفاقية فيصل وكليمنصو كلية وأعلن فيصل ملكا على سوريا (سوريا الكبرى بضمنها فلسطين).

وفي نفس الوقت أعلن نائبًا، وكان البريطانيون غاضبين لأن الإعلان قد اشتمل على العراق وفلسطين اللتين لا تزالان كما يقول اللنبي دائمًا بانتظار التسوية النهائية. فالقوى الكبرى فقط هي التي تجيز المبادرات ليس هناك من حاجة لأن ندون بدقة كيف كان رد فعل الفرنسيين وقد دون عبدالله قوة مشاعر البريطانيين في وصفه للقاء مع اللنبي في القاهرة (عندما كان يرد زيارة مجاملة سابقة إلى جدة) مباشرة بعد إعلان آذار "عند زيارتي إلى اللورد اللنبي كان معي أمرًا يعينني فيه على رئاسة الوفد العربي إلى مفاوضات السلام محل شقيقي. وقد أوضح اللورد اللنبي أنه يفهم أن الأمير فيصل هو رئيس الوفد، قلت له أنه الآن ملك سوريا أجاب هو: إن الحلفاء لا يعترفون بذلك. أجبت أن مجلس وزرائي عليه أن يعترف بحقيقة قائمة. قال إن الحلفاء سوف لن يقبلوا بهذا. وقد اعترضت، لكن تعيين مسؤول في دائرة حكم هو مسألة داخلية ولا يمكن أن تهم الحلفاء أجاب: لقد سمعت ما قلته لك كان ذلك واحدًا من أسوأ المواقف التي لم أمر بمثلها أبدًا". لقد أسيء بعمق إلى اللنبي لأنه حاول بنزاهة المحافظة على الوضع الراهن إلى حين حصول نتيجة المفاوضات. كان لسوء الحظ غافلاً عن مستويات رؤسائه السياسيين بقدر ما كان شريفا.

وقد استجاب الحلفاء بسرعة وعقدوا اجتماعًا للمجلس الأعلى في نيسان ١٩٢٠ في سان ريمو في إيطاليا حيث تبددت فيه جميع الادعاءات ووضعت سلسلة من الانتدابات (هي من اختراع سمتس). جعلت بريطانيا على فلسطين وشرق الأردن والعراق وحصلت فرنسا انتدابًا على ما تبقى من بلاد الشام. وهكذا قسمت سوريا الكبرى إلى ثلاثة أقسام ودفن التصريح للسبعة نهائيًا.

إضافة إلى ذلك نفذ إعلان بلفور بصيغة وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني وبقيت هذه الانتدابات بحاجة إلى تأييد عصبة الأمم ورغم أنها (الانتدابات) لم تتساوى مع الاحتلال الكامل إلا أن حقوق الاستقلال الحقيقي وتقرير المصير قد أبعدت نهائيًا. وفي دمشق تستعد الحكومة العربية السورية إلى الأسوأ.

تحول رد الفعل من جانب العرب تجاه مقررات سان ريمو على الفور من درجة الانتقاد إلى العنف. وفي العراق أعلن الجهاد واتسمت الفترة من تموز إلى تشرين الأول ١٩٢٠ بتمرد عام تم قمعه بعرض كبير للقوة. تم إنفاق أكثر من(٤٠) مليون باون على ذلك، حوالي أربع مرات بقدر النفقات الإجمالية على الثورة العربية. وقد جمل هذا من ذكر لويد جورج للاقتصاد كواحد من أسباب سحب القوات من سوريا في تشرين الثاني ١٩١٩ سخرية بالغة وفي مصر ساد الشغب شوارعها وفي فلسطين حصلت هجمات على المستوطنات اليهودية.

وفي سوريا اتسمت الفترة من نيسان وخلال تموز بأعمال السلب وهجوم عصابات على المواقع الفرنسية. وقد أعطى هذا الفرنسيين العذر المطلوب للرد بقوة قاهرة وفي تموز وجّه الجنرال غورو في بيروت إلى فيصل في دمشق إنذارًا شديد اللهجة شبيه بالإنذار الموجه من النمسا إلى صربيا في ١٩١٤ وقد وافق فيصل كمحاولة أخيرة لإنقاذ بقايا الاستقلال العربي على الشروط الفرنسية ولكن دائرة غورو ادعت أن البرقية قد وصلت متأخرة عن آخر موعد بنصف ساعة. وبعد ذلك زحفت القوات الفرنسية واحتلت دمشق وهكذا في ٢٨ تموز ١٩٢٠ انتهت الحكومة العربية السورية بالقوة وطلب من فيصل المغادرة في قطار الساعة الخامسة صباحًا. وفعل ذلك وهو يقاسي ذل حرس الشرف من حلفائه البريطانيين الغادرين وازدراء كامل من جانب المصريين وغادر إلى أوروبا وفقدت سوريا ملكها واستقلالها.

وقد قدم الحسين دعمًا معنويًا قدر استطاعته ولكن الجيش الحجازي كما سنلاحظ فيما بعد قد دُمّر في عام ١٩١٩ وكان خط سكة الحديد إلى دمشق لا يزال عاطلا عن العمل. وأبرق إلى فيصل "إذا قرر السوريون القتال من أجل حريتهم واستقلالهم فأنا سوف لن أتردد بالذهاب إليهم ومساعدتهم بقدر استطاعتي كفرد عربي كي يعلموا بأني لم أخنهم وعلى أية حال وباستثناء الدعم المالي السري لم يكن باستطاعته أن يفعل شيئًا للمساعدة. وعند تحرره من أوهامه بالوعود البريطانية أبرق إلى وينكيت الذي لا يزال الحسين يثق به" إن السياسة

التي تنتهجها بريطانيا العظمى الآن بتسليم سوريا إلى حليفتها فرنسا قد جعلت جميع الأعمال التي أنجزتها بريطانيا العظمى وحلفاؤها كحلفاء لنا عقيمة ولكن كل ذلك كان عبثًا وتردت الأحداث في سوريا نحو العنف. وفي آذار كتب هوغارث إلى الجنرال كلايتون: "إن التصور بأننا قد سلمنا فيصلا وسوريا إلى القوات السنغالية لن يترك لنا مجالا لأن نلوم العرب إذا ما حملوا بنادقهم. وقد فعلوا ذلك ولكن كل ذلك كان عبثًا".

أوقع رد الفعل العربي تجاه الانتداب الذعر في نفوس البريطانيين والمشتركين بالسعي لتدبير شيء من الإجراءات المسكنة لصب الزيت فوق المياه العكرة. وفي شباط ١٩٢١ انتقلت شؤون الشرق الأوسط من أيدي كرزن في وزارة الخارجية إلى دائرة خاصة للشرق الأوسط في وزارة المستعمرات تحت إشراف وزير المستعمرات ونستون تشرشل. وقد دعا إلى عقد مؤتمر في آذار في القاهرة يمكن أن يحدد مستقبل الانتداب ويمكن أن، كما يرى تشرشل يداوي الجروح التي أصابت العرب ودار شريف مكة. وهو بهذه الخطوة قد تأثر كثيرًا بمستشاره الخاص تي. ئي. لورنس الذي آمن به إيمان طلاب المدارس تقريبًا. كان لورنس يرى في الهاشميين أدوات طيعة للسياسة البريطانية في الشرق الأوسط ولم يكن يرغب بإبعادهم.

إلا أنه فشل في فهم المنظور الذي يرى من خلاله الملك الحسين في مكة الأحداث وفي القاهرة كان على الوفود فجأة مناقشة الأمر الواقع الذي فرضه عبدالله. ففي تشرين الثاني السابق طلبت بعض الأطراف ذات العلاقة من ضمنها المعروف عودة أبو تايه (المشهور باحتلاله للعقبة) من الحسين إرسال جيش ضد الفرنسيين.

وزحف عبدالله الذي استقال من منصبه كوزير لخارجية الحجاز بعد محادثة اللنبي والآن هو مشير في الجيش الحجازي المجزأ زحف شمالاً نحو معان. ولأن معان كانت حينذاك ضمن الحجاز فإنه يعمل ضمن نطاق حقه ولكن تصريحاته بخصوص تحرير دمشق جعلت الفرنسيين يمارسون ضغطا شديدًا على

البريطانيين على أساس أن عبدالله قد يمر عبر شرق الأردن الخاضعة للإدارة البريطانية ليصل إلى حدود الانتداب الفرنسي وهكذا في ٢٨ آذار وبعد أن دخل عبدالله منطقة شرق الأردن، التقى تشرشل ولورنس والسير هربرت صموئيل مع عبدالله في القدس واقترحوا عليه أن يبقى أميرًا على منطقة شرق الأردن التي لم يجر تخصيصها بعد. وقد أمر عبدالله على توحيد شرق الأردن وفلسطين ولكن لاقى ردًا شديدًا حول هذا. وقد ذكرهم بلطف بحقيقة أن الهاشميين يخضعون لتهديد كبير من جانب عبدالعزيز بن سعود والإخوان الذين لا يمكن صدهم إلا بالمعونة المالية البريطانية. وفي غضون ثلاثة أشهر أبلغ عبدالله "إن الإخوان على وشك دخول مكة". ولم تهزم هذه البرقية عبدالله الذي فرّ مؤخرًا فقط نافذًا بجلده من هجوم شنّه عليه في منتصف الليل الإخوان شرق الحجاز. لذلك قبل إمارته الجديدة تحت حماية الانتداب البريطاني وأوقف الزحف على سوريا مؤقتًا، كان الحسين غاضبًا لأن ذلك يجزئ وحدة الأراضي العربية ويعتبر تنازلا إلى البريطانيين رغم أن السيادة على شرق الأردن تعتبر إسميًا للحسين على الأقل بنظره هو كان وضع الانتداب على شرق الأردن بالطبع على النقيض تمامًا من جميع الاتفاقيات بضمنها اتفاقية سايكس - بيكو، حيث كانت تشكل جزءًا من المنطقة المستقلة (ب) مع ذلك تم الاحتفاظ ببعض المظاهر الكاذبة للاستقلال.

وفي العراق، كما كان لورنس يوصي دائمًا تم الاقتراح بتشكيل مملكة هاشمية أخرى يرأسها فيصلا وتخضع للاستفتاء. مع ذلك أزال الاختطاف الرسمي للمرشح الرئيس للمعارضة عندما كان حاضرًا في حفلة شاي مع الليدي كوكس أي خطر على تبؤ الهاشميين الحكم الذي يمكن أن يأتي من خلال صندوق الاقتراح السري. وهكذا في نهاية ١٩٢١ ارتقى اثنان من أبناء الحسين العرش في الشمال رغم أنه اقترح أن يكون فيصل على عرش العراق، إلا أنه كان يشعر أن هذا كان مجرد إجراء احتياطي لمنع خروج القضية العربية من نسله.

إذا ما اعتقد الحلفاء أنهم يسترضون الحسين بتفضيل أبنائه فإنهم لم يخطأوا في فهم التفكير والتقاليد العربية فحسب بل إنهم يسيئون فهم أسباب

أعمال الحسين والشكوك التي كانت تراوده تجاه أعمال أبنائه خصوصًا فيصل. وهو يشعر أن فيصل قد خذله كثيرًا في فرساي، وعرّض الموقف العربي للشبهة بقبوله العرش الذي وضعته بريطانيا. كان يشعر أن عبدالله خاضع لسيطرة البريطانيين بقوة ففي كل من شرق الأردن والعراق تلاحظ مظاهر الاستقلال ولكن وجود القوات المسلحة البريطانية والمستشارين الماليين أقنعت الحسين أن القوة الحقيقية قد جاوزت العرب.

إن تصور أن أبناءه هم رموز هذه الأقنعة قد سبب إهانة له وأغضبه. وعندما ذهب في وقت لاحق إلى شرق الأردن أوضح وجهة نظره وذلك باتخاذه القرارات دون أدنى اعتبار للضباط البريطانيين الموجودين. فالحسين كان يحكم بينما أبناؤه يملكون. هكذا كان الحسين يرى الموقف.

وفي ١٩٢٣ استمر الوضع في المربع الواقع شمال الجزيرة العربية إلى الجيل التالي. ففي فلسطين استمر الاستيطان اليهودي. حتى إن ريتشارد مايرزهاغن قد ذهب بعيدًا في حديثه عن الخيانة البريطانية (بقلبه المنطق الاعتيادي رأسًا على عقب) وذلك بفصلها شرق الأردن عن الانتداب على فلسطين التي أعطي فيها وعدًا بالاستيطان اليهودي. وفي باقي المنطقة استمر نوع من الاستقلال المحدود تحت السيطرة العسكرية البريطانية رغم بعض أعمال العنف والاضطرابات المحلية الشديدة ومن المؤكد أن بريطانيا لم تكن تعمل لإلحاق أي أذى بحليفتها فرنسا ويرى البعض أن العرب كانوا محظوظين في النجاة من بعض العواقب إذ لم يجر إلحاقهم بشكل تام إلا أن المسألة في نظر الحسين لا تزال مسالة شرف ووعود منكثة ولا شيء يمنعه إذا استطاع من تحقيق بنود الوعود البريطانية كما يراها. بالنسبة إلى فيصل في بغداد وعبدالله في عمان بقي التوافق مع الحسين لمجرد تحقيق النظام والحياة الهادئة. في البداية قد يبدو من العسير علينا أن نسأل لماذا كان البريطانيون يودون توقيع اتفاقية مع الحسين وهو ضعيف ومفلس فليس مفيدًا أن يكون هناك شخصًا ضعيفا يمارس سلطته على عدد كبير من الحجاج الهنود.

كذلك تلح فرنسا على بريطانيا لمنع استخدام شرق الأردن كقاعدة للهجمات على قواتهم في سوريا. فعبدالله كما يعرف سيخضع بشكل اعتيادي لكلام والده وهكذا فإن توجيهًا مناسبًا من جانب ملك الحجاز سيمنع أي تهديد مستقبلي على الحدود الجنوبية لسوريا.

وثانيًا كانت بريطانيا في نفس الوقت ترغب بالحفاظ على إدارة خالية من المشاكل في فلسطين، خصوصًا بعد عنف الثورات التي نشبت في عام ١٩٢٠ والحسين كما يعرف قد قدم كثيرًا من الدعم المعنوي إلى جهاد العرب بعد سان ريمو. وهكذا في عملية عكس لموقف تركيا إزاء الحسين ١٩١٤-١٩١٥ ترغب الدول الأوروبية الآن أن يبقي الحسين الأمور هادئة لهم وفي تموز ١٩٢١ أرسل لورنس للتفاوض حول عقد اتفاقية بين الحجاز وبريطانيا العظمى كان يعتقد أن الملك مثل عبدالله سيكون مستعدًا للخضوع إلى المحتوم ويوافق على سيادة هاشمية على كل من الحجاز والعراق وشرق الأردن ولتشجيعه أكثر عرض عليه دعم مالي سنوي قدره(١٠٠,٠٠٠) باون وبيان يتضمن حماية بريطانيا لمصالح الحجاز. ودون الموارد المالية والوعد بالدعم العسكري يجب أن يكون الحسين قد أدرك إن إمكانيته ضئيلة في السيطرة على البدو ومنع الغارات على طول حدوده الشرقية. على أية حال، جرت المفاوضات ببطء وأثبتت أنها معقدة أكثر مما كان يتصوره المفاوضون من الجانب البريطاني، كان الحسين يرى نفسه بأنه المدافع عن الحقوق العربية الأساسية وأن ميثاق دمشق قد قدم على ضمانته لم يكن مستعدًا، حتى مقابل ما يراه البريطانيون من أن ذلك سوى انهياره المحتوم لتغيير إنج واحد من هذه الشروط. كان البريطانيون يودون الحصول على موافقة الحسين النهائية على الانتداب وأن يروا الحجاز موقعة على معاهدة فرساي التي رفض العرب قبولها وقد احتج الملك بشدة وطالب بأن تعود فلسطين للسيادة العربية، أكد لورنس أن هذا غير معروض للنقاش وأن المراسلات الأصلية مَع مصر قد غلبتها الأحداث وعلى الملك القبول بالأمر الواقع. كان الملك متصلبًا جدًا رغم أن وزير خارجيته فؤاد الخطيب وأولاده قد حثوه على الموافقة. وفي يأس أبلغه لورنس من دون أن يدرك حقيقة دوافع الملك تمامًا أن فلسطين لا تريدك، أجاب الحسين: "هذا لا

يؤثر فينا أنا لا أطلب ذلك لنفسي أو لأبنائي، كل ما أطلبه هو أن تلتزم بريطانيا بوعودها المقطوعة إلى العرب وإذا فعلت ذلك فأغادر أنا وأولادي الأراضي العربية لو كان ذلك ضروريًا".

وقد سعى إلى التأكيد على الأسباب العملية التي يجب أن تدفع الحسين لتليين موقفه وإنقاذ نفسه. كيف يمكن للحسين أن يحمي نفسه من الإخوان (القوات النجدية) طالما أن جيشه قد دُمّر في منطقة ترابه؟ سوف لن تقدم أية معونات مالية دون توقيعه الاتفاقية ومن المؤكد أن النجديين سوف لن يغزوا بلداً تربطه معاهدة مع بريطانيا (رغم أنهم فعلوا ذلك في الواقع مع العراق وشرق الأردن. وبدون المعاهدة لا يمكن أن يأمل بالاستمرار. وبانفعال كبير أجاب الملك: "أنا لا أرغب في الزعامة. دع الأمراء يتفقون على زعيم لهم وأنا سأستقيل دعهم يوافقون على العمل من أجل دولة عربية. وسوف أنسحب إذا رغبوا. فهؤلاء يمكن أن يحيدوا بواسطة عروض الإعانات أو الحكم أو الدعم العسكري عن القضية الحقيقية. الأساسية لفلسطين والخطر الذي تمثله المادة (١٧) من الاتفاقية المقترحة وهي تنص على: أن حكومة جلالة الملك الحسين تعترف بالوضع الخاص لصاحب الجلالة البريطانية في العراق وفلسطين. وأي وضع خاص في فلسطين يكون ملزمًا بتضمنه لإعلان بلفور كما أن هذا الوضع يعرض للشبهة الحل المؤقت الذي قبله الحسين خلال الحرب ولتلك الفترة فقط وفي ١٩٢١ أصبح من الواضح تمامًا أن تعبير (الوطن اليهودي أصبح سريعًا تعبيرًا مطلقًا عن - الدولة اليهودية -). أبلغ الملك، لورنس مرات ومرات أنه ليس لديه أي اعتراض على الاستيطان اليهودي في فلسطين مسيطر عليه وتكون فلسطين منطقة عربية وقبل كل شيء، فقد قال ذلك كثيرًا إلى هوغارث قبل أربع سنوات. ومن جهة أخرى، سوف لن يقف أي رجل دولة عربي صامتًا في حين يقع الظلم على الفلسطينيين داخل بلدهم. وطالما وجدت المادة (١٧)، فليس هناك أي احتمال بأن يوقع الحسين هذه المعاهدة. وبفشل تام وفظاظة وغضب، قرر لورنس المغادرة وترك نسخة من مسودة المعاهدة لحين مجيء قوة سحرية تؤثر في الحسين في غياب لورنس.

وغادر لورنس الحجاز، بعد أن أمن موافقة اللورد كرزن على إجراء محادثات أخرى مع عبدالله في عمان. كان يؤمل أنه إذا وافق عبدالله على المعاهدة، فإنه قد يقنع والده بتوقيعها وستنتهي المشكلة. وفي (١٢) تشرين الأول رغم أنه في وضع لا يستطيع فيه إلزام والده وقد أوضح أعماله في رسالة إلى الحسين التي أعيدت، كما هي عادة والده في مثل هذه الحالات، غير مفتوحة. ومرة أخرى أثبت البريطانيون فشلهم في فهم السياسة العائلية للهاشمنيين. إذا ما اختلف الحسين نفسه مع بريطانيا حول موضوع معين، فليس هناك من فائدة تذكر في محاولة استخدام أبنائه كأداة لإقناعه. ورغم أنه يميل إلى تغيير آرائه وفق رأي عبدالله في بعض القضايا إلا أن هذه الحالة تختلف في تعامله مع البريطانيين. إن إثارة الأبناء ضد أبيهم لم تحقق شيئًا غير جر الأبناء أكثر إلى داخل الفلك البريطاني وعزلهم عن أبيهم الذي يشعر الآن بأزمة ثقة على نحو مرضي تجاه البريطانيين. في عام ١٩٢١ كتب المعتمد البريطاني في جدة عن الحسين: يذكر أنه قال أن فيصل يود إرضاء البريطانيين وأنه مجرد أداة بأيديهم، وأنه سوف لن يقبل أي حل يصله من فيصل إذا لم تحقق مطالبه في آخر اتفاق.

وقد طالت المفاوضات خلال عام ١٩٢٣، ولكن لم تكن هناك أرضية مشتركة وقد غضب الحسين عندما وجد أن البريطانيين يستخدمون القوميين السوريين العاملين في بلاط فيصل - والذين لا يثق بهم للتفاوض معه. كان الحسين يشكو بمرارة في كل مناسبة من خيانة حلفائه السابقين. وكتب الريحاني الذي كان يزوره خلال تلك الفترة: "في الأوقات التي يذكر فيها جلالته أو يفكر في الإنكليز فإنه يصاب بالكآبة وهو لا يفلح عادة في إخفاء حنقه وسخطه... إن مجرد ذكر الإنكليز يشكل الكابوس الذي سوّد حياته". وقد كتب الحسين مقالات مطولة معقدة لاذعة ضد الإنكليز في صحيفته (القبلة) التي دفعت الريحاني إلى الكتابة: لقد بقي حتى الآخر ثابتًا في أهدافه وفي حكومته، وفي صحيفته، في مقاله الأسبوعي. فإذا ما كسر سيفه فإن قلمه لم يكسر. وفي الآخر أصبح إصرار الحسين ضرب من السخرية وخفض مبعوثو دار الاعتماد البريطاني إلى لندن منزلته من مستوى مفاوض

متشدد إلى مستوى شيء مزعج وفي الآخر إلى مستوى أحمق. وحول هذه المعاهدة في الأقل ربما يقول قائل أن هذا يمكن تفسيره بأنه الضحك الخائف في مواجهة الأمانة الصلبة. وفي لحظة يأس اقترح لورنس على عبدالله أن يصبح هو (عبدالله) ملكا على الحجاز، أجاب عبدالله: لقد أدى لورنس لي وللعرب خدمة كبيرة يقول أن والدي عنيد في التمسك برأيه، لأنه يبدو لي أن البريطانيين يريدون شخصًا عديم الرأي كي يتمكن لورنس من فعل ما يحلو له. ومرة واحدة خلال عام ١٩٢٣ بدا كما لو أن الحسين بدأ يلين ويقبل المحتوم ويوقع على المعاهدة بنبدها البغيض (١٧). إن تاريخ هذه الخطوة مثير بشكل خاص لأنه يكشف ببساطة تعامل الحسين مع القوى الأجنبية والثقة التي وضعها في بعض الشخصيات المشبوهة تمامًا والتي قد مثلته في الخارج. كانت مهارة الملك قبل كل شيء، تقع في نطاق السياسات المحرمة لدى الدولة العثمانية، حيث لا يمثل الطعن في الظهر أية قيم أخلاقية أو اتفاقية رجال محترمين.

لذلك فإن اختياره لممثليه ووكلائه يستند على الحظ ودرجة اقتراب المرشح لرجل غربي والذي يكون قادرًا على التعامل مع أشباه كرزن في العالم. ربما نكون متسامحين لو وضعنا اختياره لممثليه غير موفق. وفي حالة تعيينه لممثليه في لندن، فالكلمة الأكثر احتمالا لذلك هي أنه (كارثوي).

في الواقع إن الحجاز ليس لها تمثيل رسمي في لندن قدر تعلق الأمر بالحكومة البريطانية. وقد أوضحت وزارة الخارجية أن رفع هذا التمثيل يتوقف على نتيجة مرضية للمفاوضات حول المعاهدة. مع ذلك حل عدد من الأشخاص غير المرغوبين في أحد أجنحة فندق هايد بارك التي أصبحت دار الاعتماد العربية الهاشمية للحسين. كان أول هؤلاء هو ميشيل لطف الله وهو ابن لأحد المرابين اللبنانيين المسيحيين الذين اشترى لقب أمير مدى الحياة إلى عائلته من الملك الحسين بمبلغ (٧,٠٠٠) باون.

ولكن كان المندوب الثاني هو الذي أسهم كثيرًا في تدهور العلاقات بين الحسين والبريطانيين. وكما كان يتوقع، فتأثير مندوب غير مفوض محدود جدًا في

وزارة الخارجية وفي أحسن الأحوال، فإنه يمكن أن يؤدي دور رسول أو هاتف كما دعا الحسين الوظيفة في إحدى المرات وفي ضوء حقيقة أن لبريطانيا دار اعتماد في جدة، فمن غير المحتمل تقبل أية ملاحظة مهما كانت من المعتمد العربي الهاشمي. وفي المؤكد أن الدكتور ناجي الأصيل الطبيب البغدادي الذي شغل الوظيفة، قد أدرك ذلك بسرعة ولكنه كان ذكيًا بما يكفي لإدراك أن مبلغ (٧٥٠٠) باونًا الذي يستلمه كمخصصات سنوية سوف لن يستمر إذا ما تسربت هذه المعلومة إلى مكة. ومن هنا لفق الإشاعات حول المواضيع التي تهم الحسين فلسطين والمعاهدة. فمع مطلع كل فجر يجلب حقائق جديدة من ثقب باب كرزن أو من مخدع بلفور وكلها ليس للملك المجوز من خيار سوى تصديقها. وفي منتصف ١٩٢٣، أقنع الدكتور ناجي، الحسين أن وزارة المستعمرات تعمل بهمة ونشاط بخصوص فلسطين حيث أن وزارة الخارجية تفضل إنشاء دولة عربية وأن إعلان بلفور اصبح سريعًا ورقة ميتة وفي نيسان ١٩٢٣، كتب المعتمد البريطاني في جدة بعد أن أثير نتيجة الهراء الذي أرسله الحسين من فندق الهايدبارك: إن جلالته يعتقد أنه سيتم الاعتراف به فورًا كرئيس لدولة تشمل فلسطين وشرق الأردن والعراق والحجاز وسيتم سريعًا تأمين تشكيل دولة الولايات العربية المتحدة حيث يحتفظ فيها كل حاكم بأراضيه وألقابه ويرسل ممثلا عنه إلى مقر الحكومة المركزية (ليس بالضرورة مكة) لتمثيل المصالح المحلية في وزارة الخارجية العربية المشتركة. وقد فهمت من فؤاد الخطيب أن الملك يعتقد أن الدكتور ناجي الأصيل قد وضع أسس هذا الصرح للمجد الهاشمي سيكون يومًا سيئًا على صاحب الامتياز، البغدادي الضئيل، إذا ما عجز عن تقديم شيء من إنجاز محدود له إلى الملك لتبرير تأكيداته التي أبرقها. وصل ناجي في مارس مع مسودة المعاهدة من وزارة المستعمرات، وبعد إقناع الحسين بأفول نجم الصهاينة، اقتنع بتوقيع المعاهدة. أرسل الحسين بعد ذلك علي وفؤاد الخطيب لتوقيع نسخة المعاهدة الموجودة لدى لورنس في دار الاعتماد البريطاني في جدة ولكن وعندما وصل المبعوثان إلى البحرة الواقعة في منتصف الطريق بين جدة ومكة وجدوا أنهم قد فوجئوا بهاتف ملكي يطلب منهم العودة. أبلغهم الحسين بألا يوقعوا برغم كل شيء، لأنه استلم برقية

عجيبة من ناجي، فقد حث ناجي الحسين بأن لا يوقع لأنه وبصموده يمكن أن ينال كل ما يتمناه... إن انعدام أمانته هي التي دفعته لإبلاغ الحسين بأنه يمتلك تأكيدات من وزارة الخارجية بأن إعلان بلفور لا يعني شيئًا وسيلغى حالا. واستنادًا على هذا الافتراض كتب الحسين جميع طلباته الأصلية بخصوص الأراضي العربية، ووقع المعاهدة وأرسلها إلى جدة وبدون الحاجة إلى القول، ورغم تأكيدات الحسين للعالم بأن المعاهدة قد وقعت، إلا أن النسخة المنقحة قد أهملت من قبل وزارة المستعمرات. إن عدم توقيع الحسين على المعاهدة الأصلية قد يسلب الهاشميين في الآخر الأمل الوحيد لهم في مقاومة التقدم السعودي. لقد أدرك علي وعبدالله وفيصل جميعهم هذا الخطر ولكن ليس لديهم تأثير على والدهم حول هذه القضية. وقدر تعلق الأمر به فإنه قد تعرض للخديعة ولم يكن يعتقد أبدًا أن البريطانيين يمكن أن يتخلوا عنه عندما يقتضي الوقت. إن نظرته المكية للعالم لم تسمح له أن يرى كيف أصبحت الحجاز سمكة صغيرة في مستنقع ما بعد الحرب.

كتب ليدل هارت كلمة مناسبة في ذكرى الحسين عندما قال: مهما كانت أخطاء قراراته، إلا أنه أعطى مثالا للشرف، إن حكم التاريخ عليه أنه كان شريفا إلى درجة لا يصلح فيها لدور رجل دولة ناجح. وفي الوقت الذي سعى فيه جميع من حوله لإنقاذ المملكة، إلا أنه قد وضع إيمانه في مفهوم صوفي للحقوق وهو شكل من أشكال الانتحار السياسي الشائع جدًا لدى حكام الدول الصغيرة.

* * *

الفصل الرابع عشر

اضطراب في الداخل

الحجاز من ١٩١٩ - ١٩٢٤

■ أبعد الحسين نفسه عن معظم جيرانه وحلفائه السابقين نتيجة أعماله ومواقفه في السنوات التي أعقبت الحرب، توترت علاقاته مع بريطانيا حول فلسطين ومع فرنسا حول سوريا ومع الهند حول الحجاج المعدمين، ومع عبدالعزيز بن سعود حول المناطق الحدودية الشرقية الحساسة لنجد، ومع مصر حول مطالب الملك فؤاد، ومع أبنائه حول خيانتهم للقضية العربية. وعلى الصعيد الدولي، أكد ستورز أن الحسين قد أصبح عنصرًا أقل التزامًا بالمراسيم الدولية المتبعة بين الملوك.

أما في الداخل فقد كان الوضع أكثر سوءًا. فالاقتصاد التجاري في المدن الرئيسية، والذي يعتمد كلية على الحج، قد أصابه الفقر بعد عام ١٩١٨ وأصبحت المناطق البدوية في حالة من الفوضى الحقيقية.

وكان الحجاج يتعرضون للسلب اليومي على نحو لم يعرف سابقًا والأكثر اضطرابًا هو تزايد اللجوء إلى المحاكمات الصورية والرعب الناشئ من ذلك، من

الخطأ وضع كل اللوم على الملك، رغم أن هذه الأحوال تعكس شخصية ممثل السلطة والحقيقة أن الحسين قد وجد نفسه في محيط غير مؤهل للمهمة المسندة إليه فعندما كان أميرًا لمكة كان يستطيع أن يدبر المكائد وفي نفس الوقت يستدعي قوات تركية لدعم موقعه عند الضرورة وقد ذكر بعض المراقبين كاللورد كيتشنر وحتى حافظ وهبة الذي اصبح في وقت لاحق الممثل السعودي في لندن أنه ربما يكون أفضل الأشراف جميعًا، على الأقل فيما يتعلق بسياسته للشؤون العامة. فعندما رفعت تركيا العثمانية يدها التي تقدم الدعم وتمارس القمع وتقطع الهبات واجهت الحسين مهمات خارج نطاق قدرته ويبدو أنها قد أظهرت الجانب السلبي في شخصيته أن هذا الجانب هو الذي يتذكره عرب الحجاز حاليًا ويطغى على العديد من أعماله الجريئة والعظيمة وهو لا يمكن إنكاره إذ لا سبيل لمحو ست سنوات من سوء الحكم في الحجاز إلا أنه من الجدير بالملاحظة هو القيود والضغوط الاستثنائية التي واجهت الحسين قائد تلك الدولة الفتية. لاشك أن مفتاح حل معظم مشاكل الحسين هو المال، فقبل الثورة العربية كان ثقل هذا العبء ملقى على الخزانة الإمبراطورية في اسطنبول التي كانت تقدم الدعم للولاية والإمارة من خلال عدة أساليب، فإضافة إلى رواتب موظفي الدولة ورواتب الجنود الذين يعملون على حفظ الأمن على امتداد الطرق هناك مخصصات سخية تمنح إلى الشريف لغرض إنجاز مهماته ومخصصات سنوية لصيانة الحرمين. إضافة إلى ذلك يجد الذهب من خزينة الخليفة الخاصة طريقه باستمرار إلى مكة لأغراض خيرية كما أن الأموال متوفرة لغرض توزيعها على البدو من أجل الحماية.

ونظرًا لهذا التدفق المستمر من الأموال لم تكن السلطات بحاجة ماسة لابتزاز الذهب من الحجاج.

وبعد عام ١٩١٦، وعند توقف الأموال التركية شرعة بريطانيا مباشرة بتقديم معونة شهرية بقيمة (٢٥,٠٠٠) باونًا من الذهب واستمر هذا حتى سببت الانتقادات الموجهة ضد المعاهدة الإنكلو - حجازية غيومًا في سمائها الصافية وانخفض التدفق المالي إلى ما مقداره (٥٠٠٠) باون في آب ١٩٢١. وتوقفت المعونة ووجد الحسين نفسه بواجه مهمة لم يسبق له أن واجهها وذلك برفع العوائد المحلية من صحاريه التي مساحتها (٨٠,٠٠٠) ميل مربع. وباختصار هناك ثلاثة خيارات مفتوحة أمامه فإما زيادة الدخل الآتي من الحج السنوي أو زيادة الرسوم الجمركية أو فرض ضرائب جديدة. لقد كان الحرمان معفوين من عبء الضرائب تحت حكم الأتراك وقد دافع الحسين بلا هوادة لمقاومة إدخالها على الحرمين عندما كان أميرًا على مكة. ولكنه الآن لا يرى بد. فطالما أن معظم ثروة جدة ومكة والمدينة المنورة تأتي من الحج فمن المؤكد أن الضرائب الجيدة ستقع على كاهل المؤمنين الذين عليهم تحمل الثقل الأكبر للإدارة الحجازية طيلة حياتها القصيرة والمضطربة.

يواجه الحاج عند نزوله مشهد المرحّبين الذين يلوحون له بسعف النخيل، تؤخذ منه بعد ذلك ضريبة أمتعة عند دخوله وخروجه وتفرض عليه ضريبة مقدارها ٢٠٪ من رسوم النقل بالجمال. بينما تبلغ الرسوم الجمركية في جميع الأماكن بين ٦٠ و ٦٦٪ من قيمة البيع بالتجزئة.

ثم يستنفذ تبادل العملات معدلاً غير معقول لتبادل ٣٠٪ من ذهب الحاج. ومن وراء ذلك تمتد يد الحكومة الحجازية خلف الكواليس لتبتز جميع المستفيدين من أعمال الحج خاصة أدلاء الحج (المطوفين)، الذين ألقوا العبء بدورهم على المضاعف المشترك الأصغر والذي هو الحاج المسكين وبين الأعوام ١٩١٤ و ١٩٢١ ارتفع ثمن رحلة الذهاب والإياب إلى جدة ومكة، فبعد أن كان أربعة جنيهات استرلينية، حيث تحتكر الدولة الجمال وتمنع وسائط النقل الحديثة فكما وجد

الرسول (ص) البلاد فإنها يجب أن تبقى هكذا أمام كل مسلم خير، أصبحت في عام ١٩٢٣ رحلة الذهاب والإياب إلى المدينة المنورة تكلف (٢٦) باونًا من الذهب ويضمنها ضريبة الحكومة الحجازية وفي عام ١٩٢٤ تم شراء باخرتين مستعملتين لاغيتين هما، رشدي، والطويل، يكدس الحجاج فيهما كأكياس الفاصوليا في العقبة لتأتي العوائد المالية للحجاز بدل الخطوط البحرية الأجنبية. ومن أكثر الممارسات المهينة التي يتعرض لها الحجاج هي المحجر الصحي الإجباري الواقع في جزيرة سعد على طريق جدة. قد تظهر عملية نظام المحجر الصحي الشامل من الوهلة الأولى نظرة متنورة للصحة العامة من جانب الحجاز خاصة أن اجتماع الناس المعوزين من جميع أنحاء العالم الإسلامي يخلق ظرفًا مثاليًا لانتشار الأوبئة الحقيقية. إن الحجاج القادمين من مصر والهند يخضعون لفحص دقيق في المؤسسات الصحية في سيناء وقمران التي تديرها بريطانيا قبل أن يصلوا جدة، وبعد وصولهم يقحمون عنوة، رغم جميع الاحتجاجات، في جزيرة سعد ويخضعون للمعاملة الوحشية لثابت باشا المدير العام للصحة، وهو تركي جاهل من النمط المعوق للعمل ومرتشي صريح ومبغض للأجانب بشكل كبير وقاسي الفؤاد في معاملة البشر.

لم تأتي هذه الأيام الاثني عشر من العذاب في جزيرة سعد نتيجة الاهتمام الشديد بالصحة، بل نتيجة حب المال الذي يتراكم جراء ذلك. وهناك أيضًا هدف آخر هو خلق نوع من الإزعاج لبريطانيا من خلال رعاياها وذلك بإرجاع جميع الحجاج المعدمين إلى حكومة الهند التي سمحت لهم بالحج ببطاقة ذهاب فقط.

ومهما كانت درجات الصواب والخطأ في هذه المواضيع الرئيسية، فإن العملة المتداولة في هذه الصفقة الموسومة بالحقد هو الحاج المسكين كانت الظروف في الجزيرة مروعة ومثيرة للسخرية. فالخدمات الطبية عبارة عن دعاء روحي وحقنة تحت الجلد. في آذار ١٩٢٢، كتب المعتمد في الأول من آذار (توجه الملك بواسطة

العجلة إلى مدينة رويس في زيارة مسائية لمشاهدة أغاني ورقصات البدو، وفي الصباح التالي أخذ الحسين أمين الريحاني إلى جزيرة المحجر الصحي لتفتيش الإجراءات الصحية للدكتور ثابت. ومن غير المعروف أي مشهد كان أكثر بدائية).

في عام ١٩٢٤، تعرض الحجاج إلى مهانة أخرى عليهم تحملها وذلك بأن عليهم الآن أن يدفعوا مالاً مقابل إطلاقهم من المحجر الصحي لمغادرة الحجاز. خلال معظم فترة حكم الملك الحسين القصيرة، كانت قوانين حكومة الحجاز تنتهي عند مداخل المدن الرئيسية كما كانت في زمن الأتراك. وخلف تلك المداخل كانت الفوضى هي السائدة إلا أنه كان هناك نوعًا من السيطرة في ظل حكم الأتراك بسبب الأموال التي يدفعونها إلى القبائل بشكل ذهب لأغراض الحماية. وقد جلبت الحرب إلى البدو تدفقا مفاجئًا من الذهب غمرهم حتى الرأس، إضافة إلى ذلك زودتهم الحرب بأسلحة ومهارات جديدة. وبالنتيجة تولدت لديهم أهدافا كبرى ووسائل لتحقيق هذه الأهداف على نطاق واسع في نفس الوقت لم يستطيع الملك المعوز في الحجاز عمل شيء حقيقي لوقفهم. وقد عزا فيلبي في كتاباته في عام ١٩٢٥ سبب فقدان الحسين لسيطرته على رعاياه البدو إلى شحه "كان في خبرته بالبدو لا نظير له فهو يؤمن بتعامله معهم بمبدأ التهديد بالقوة المسلحة ولكن بخله الشديد قد أحال إدارته للبدو إلى عبث". وفي ظل انعدام وجود أي دخل حقيقي وأية قوة مقاتلة تستحق الذكر وأي شكل من أشكال الإدارة الفعالة واجه الحسين مشاكل أكبر من حراسته لخزانته وتلك حالت دون سيطرته على البدو.

وبعد تدمير جيش الحجاز النظامي في ١٩١٩ والانخفاض الهائل في المعونة المالية المقدمة من البريطانيين في آب ١٩٢٠ لم تبق للملك موارد مالية تحت تصرفه. كان رد فعل البدو الطبيعي إزاء توقف الإعانات المالية وانتهاء السيطرة القوية هو سلب الحجاج مما تبقى لديهم بعدما فعله بهم سكان المدن. ففي سنة ١٩٢٠ اختارت القبائل أسلوبًا في العمل وأخذت تفرض رسوم المرور عبر المناطق

القبلية المختلفة. فالشيخ فيصل شيخ الأحمدي أسس في عام ١٩٢٠ دولة مستقلة في الجبال قرب المدينة المنورة وظهرت مراكز جمركية كاملة بمعداتها المكتبية ودفاتر الإيصالات التي أعطت الابتزاز مسحة من الاحترام وأكسبت سلطة الشيخ شيئًا من الزهو. وفي تموز ١٩٢١ فرض الشيخ رسمًا أميريًا مبلغه (٣,٠٠٠) باون مقابل حق المرور لقافلة مكونة من (٤٠٠) جمل تحمل الحجاج الفرس.

أما بالنسبة إلى الكسبة وتجار الحجاز فالظروف كانت لا تطاق فقد أخذ الحسين يسنّ ويفرض ضرائب جديدة بشكل متواصل ففي عام ١٩٢٤ على سبيل المثال واجه أهالي جدة ضريبة دخل جديدة ورسوم جمركية خيالية كزيادة (٥٠٠) باون على الرسم الجمركي لماكنة قديمة لقطع التبغ والذي كان (٦٥) باون فقط، كذلك الحظر الشامل على تصدير الذهب والمعدل الرسمي لتبادل العملات بفرق أعلى من القيمة بـ (٣٥٪) ورسم الطابع على جميع الصفقات وفي كل مرحلة، وضريبة سكة حديد الحجاز على جميع المستندات وضريبة مياه على ما يسكبه مكثف المياه من جحيم وضريبة الدفن وضريبة الأعمال العامة... وهلم جرا.

وفوق ذلك كله يقع جبل الاحتكارات الملكية التي احتكرت تجارة الجمال والأغنام والخبز وبقية السلع الأساسية. كما كانت هناك ضغوطًا مستمرة لدفع الناس إلى شراء أسهم في شركة لمطف الله العجيبة والمسماة "شركة الصناعات الوطنية" والتي ليست لها أية مستندات تصفها وليست لها أية حسابات وصناعتها قبض الريح. وهناك مهانات أكبر أدت إلى حصول أحداث عرضية عديدة، كما حصل في أحد أيام شهر شباط ١٩٢١ عندما أعلن عن برنامج لتوسيع شوارع مكة فأصحاب البيوت لا يستلمون تعويضًا فقط بل إن عليهم دفع المبالغ لهدم وإعادة بناء بيوتهم العائدة إليهم والتجارة في مكة كما كتب المعتمد البريطاني في نيسان ١٩٢١ هي شيء ميت فقد دفعت الاحتكارات والمضاربات الملكية في تبادل العملات ونظام الإجازات الملكية للمشتريات الصغيرة، التجار إلى حافة اليأس. ورغم آلاف

الوعود من لطف الله والآمال المعلقة على تنقيب الكنديين عن النفط في الوجه فلا شيء يبدو ليوقف تزييف الضرائب والرسوم الجديدة.

وفي ظل هذه الظروف السائدة فليس من الغريب أن يصبح الحجاز أرضًا خصبة للدجالين والمحتالين المغامرين والغرباء من كل لون فالطيارون الذين لا يستطيعون التحليق والأطباء عديمي المؤهلات وباعة الأسلحة جميعهم قد جاءوا للتصيد في المياه العكرة للحجاز ويسيطر عليهم جميعًا هوس إحلال الفجر الجديد في الحجاز. وبعض منهم جاء لأسباب غريبة مثل حبيب لطف الله الذي وجد نفسه بمبلغ (١٠٠,٠٠٠) باون أميرًا وسفيرًا في روما والمستشار السري للشؤون الخارجية وهنري فورد الحجاز مع حق تعميم زيه الخاص وإصدار جوازاته الخاصة. وقد ظل لطف في كل أعماله أضحوكة سمجة من وجهة نظر الجميع باستثناء الحسين مع الأسف. كان رد فعل الحسين على ما رآه بأنه إهانة ومنافسة تجارية له، هو محاولة تجويع البدو حتى إخضاعهم فهو يعلم أنهم يعتمدون على أسواق المدن للتزود بالقمح والتمور لذلك أصدر أمرًا ملكيًا منع فيه تصدير أي شيء من المدن عدا حفنات من القمح. وقد أغضبت هذه الخطوة البدو وسببت لهم معانات حقيقية وقد كتب مندوبو الدول الأجنبية أن بدو الصحراء يظهرون الآن عادة كشحاذين في المناطق الحضرية يبيعون حتى ملابسهم من أجل شراء الطعام. كان رد فعل البدو على أعمال الملك هو الإرهاب والسلب على نطاق مخيف. يقول علي الحاج شالوط رئيس بلدية الكوت (العراق) بأنه احتجز (٣٣) يومًا في المدينة المنورة وأن هناك ستون شخصًا حسب رأيه قد قتلوا بين مكة والمدينة المنورة. وقال أنه سينصح جميع الشيعة في العراق بأن لا يؤدوا الحج في ظل هذه الظروف.

كان الحسين يدرك الأضرار التي تسببها هذه الأعمال الوحشية لمكانته، إلا أنه قد أصبح واضحًا بأن ليس باستطاعته السيطرة على البلد وحماية الحجاج. إن

هذا الوضع سيؤدي حتمًا إلى انهيار تام للحجاز وإلى ممارسة العالم الإسلامي لضغط شديد عليه من أجل استبداله كسلطة مسؤولة عن الحرمين.

وفي تموز ١٩٢٠ طردت قبيلة جهينة ممثل الحسين من ميناء أم لج الصغير وأرسل علي إلى المدينة المنورة لمحاولة استعادة شيء من النظام. كانت مهمته متعذرة تمامًا لأنه ليست لديه قوات كافية يمكن الاعتماد عليها ولا أموال ليدفعها لها مع ازدراء غير مخفي من جانب القائمقام يمكن أن يرد عليه علي. قال المعتمد البريطاني السير (ريدر بولارد) متأملاً: "على أية حال لم يكن علي تنقصه المشاكل في المدينة المنورة ليعلن الشريف شهد القائمقام السكير والفاسق نفسه بصراحة زعيمًا للطرف المناوئ لمكة. كان البدو يطوفون في السوق وهم يعرضون بتباه وبصراحة غنائم غاراتهم على الحجاج. وإذا ما عوملوا بتحد فإنهم يطلقون النار وفي تشرين الأول عام ١٩٢٢ أطلقت النار على رئيس البلدية ولكن لا أحد كان قادرًا على اتخاذ أي إجراء مقابل.

ولجأ الحسين إلى أسلوب فرّق تسد وذلك بتحويل حقوق النقل من بعض القبائل المتمردة مثل بني سالم إلى قبائل أخرى ولكن القبائل الأولى قد تأثرت لذلك وشنت أعمال قتل وسلب على نطاق واسع. وقد استخدم جزء من الأموال التي سرقوها في تأجير مراكب شراعية وإرسالها إلى أرتيريا لشراء القمح وبهذا تغلبوا على حصار الحسين. وفي عام ١٩٢٣ فقد الأمن تمامًا على امتداد طريق المدينة المنورة. كتب المعتمد البريطاني يبدو أن وزارة اللصوصية أكثر تنظيمًا من أي شيء آخر في الحجاز وقد ثبت هذا بشكل حازم لدى اختطاف جدة الملك الأفغاني أمان الله والمطالبة بفدية خرافية مقابل إطلاق سراحها ولأنها شخصية لها مكانة معينة رأى الحسين أن يعيد لها ما دفعته من فدية. وفي الحالات التي تشمل رجالاً أقل مكانة فإن الملك يجد ببساطة عذرًا في عدم الدفع.

وعندما عادت قافلة رمضان الكبيرة راجعة إلى مكة في عام ١٩٢٤، قلل الحسين من أهمية الحادث بقوله لا يمتلك سلطات أكبر من سلطات الدول الكبرى وعندما سئل عن هذه الملاحظة المبهمة من قبل المعتمد البريطاني أجاب: ألم تقرأ عن الإضراب في نفق سكك الحديد في لندن؟

كان حكم الحسين يثير السخرية في بعض الأحيان مثال ذلك عندما أدخل ضرائب سبق أن عارضها شخصيًا عندما أدخلها الأتراك إلا أنه من المؤكد أن وضع البدو كان من أكثر الأوضاع إثارة للسخرية طالما الحسين كان قد كسب حظوة كبيرة لديهم بين الأعوام ١٩٠٨ و ١٩١٦ وذلك بمقاومته خطط مد سكة الحديد من المدينة المنورة إلى مكة. وقد دمرت أعمال الاعتداء على حقوق الآخرين تجارة القوافل بين الحرمين وكان الملك يدرك هذا جيدًا. وفي ١٩٢٣ وجد نفسه يمثل رعبًا للبدو وذلك لفرضه ضرائب عالية وممارسته السيطرة على تجارة المجال والمهم أكثر هو وقفة للإعلانات القبلية. فحتى الأتراك كانوا قد عرضوا تعويضًا عن خسائر التجارة فيما لو تم تمديد سكة الحديد إلا أنه لم يبدو هذا الاحتمال جذابًا الآن للبدو.

وبسبب العجز التجاري في المدن وقطاع الطرق خارجها والسياسة العامة لمقاومة التحديث والعلاقات المتدهورة بين الحجاز والعالم الإسلامي في الخارج وقد يبدو غريبًا أن يكون استخدام الغزو السعودي وسيلة لتحقيق تغيير في الحكومة أمرًا مطلوبًا كثيرًا. وفي ظل غياب أية قوة مؤثرة لتحقيق تغيير سياسي داخل الحجاز فعلى المرء أن يفهم أن الحكومة الوحيدة في ذلك البلد هي حكومة الحسين نفسه يحرسها نظام من الخوف والرعب الوحشي. وهذا وحده قد يواجه مقاومة شديدة من جانب رعاياه إلا أنهم كانوا يخشون أن يؤدي أي عمل من جانبهم ضد الملك إلى تدخل بريطانيا. إننا ندرك الآن وبشكل متأخر أن بريطانيا ربما ستتنفس الصعداء لأي تغيير يبعد الحسين عن مسرح الأحداث ولكنه بالنسبة إلى

الحجازيين فهو تحت حماية الأسد البريطاني. وما أعطى هذا التفسير مصداقية هو أن الحسين كان قادرًا على ممارسة أعماله دون عقاب. وفي عام ١٩٢١ علق المعتمد البريطاني على السماح الاستثنائي للحسين في مضايقة البريطانيين قائلا: "إن اعتبار العديد من أفعال الملك وأقواله خدعة أو اختبار مدى استطاعة الحسين الاستمرار دون عقاب في سياسة الإزعاج والمضايقة حتى تلبية مطالبه، إنه يجب منحه رخصة تامة للحط من شأن صاحب الجلالة بأية حجة، كما أصبحت عادته مؤخرًا. كما أن الخطر الفعلي والناتج من توهم حصار بريطاني هو الذي منع البدو من رمي الحسين في البحر. إن البحث الجدي للتغيير محصور بعلي وعبدالله إلا أنهم تنازلوا عن مطالبهم دون ضمانات بالدعم البريطاني لعملهم.

صحيح إنه في بداية عام (١٩١٧)، تم تشكيل حكومة حجازية تضم وزراء وأصحاب حكم كممثلين لإتمام المسرحية، إلا أن الواقع أن الحسين ظل هو السيناريست ومدير المسرح في آن واحد معًا. وهذا لا ينكر وجود رجال أذكياء يخدمون في الحكومة الهاشمية، أحدهم وزير الخارجية (فؤاد الخطيب) الذي كان شاعرًا غنائيًا ذو شهرة. في حين سعى الآخرون لكسب احترام الشعب عندما استلموا فيما بعد مناصبًا في حكومة الملك عبدالعزيز بن سعود، إلا أنهم كانوا جميعًا خاضعين لأسوأ أشكال الاستبداد الشرقي ولم يسمح لهم بأية مبادرة بالعمل مهما كانت. فطلب رسمي ولو تافه من جانب قنصل أجنبي، يكون الجواب عليه من قبل الملك بواسطة الهاتف من مكة.

فالحسين لا يثق بأي أحد ولا يوفد أحدًا من وزرائه أو أبنائه. وبالنتيجة ليس هناك مبادرة بالعمل وقد وهنت الحكومة وكما يقول حافظ وهبة: الحسين هو الحكم الأعلى في القضايا الصغيرة والكبيرة، أما الوزراء وأعضاء البرلمان فهم مجرد دمى وليس هناك نظام لتقسيم العمل والمسؤولية، والمشكلة الصغيرة تذهب في رحلة طويلة من وزارة إلى وزارة حتى تصل الحسين نفسه وتُحل وقد وصف نائب

القنصل كرافتي سميث نظرة الملك الموسوعية للحكومة الفردية في عام ١٩٢٢ بالكلمات التالية: إنه ينتقد الوسائل الحربية لفوش وهايج وينظم الإجراءات الصحية الصغيرة في مكة ويحرر صحيفة القبلة باعتقاد تام بأنه فريد في جدارته بالعمل في هذه النشاطات المختلفة.

إن النقاش مع جلالته عقيم غير مجدي لأن نظرته لكل الأمور ثابتة، لذلك فإن المحادثات معه عبارة عن حديث طويل ومتشعب من طرف واحد هو الملك، ونهاية حديث الطرف الواحد هو بلا شك نهاية المحادثة. إن نموذج النظرة الثابتة للأمور هو شاهد شديد الوضوح عن ميزة الشخصية الكثيرة والعميقة الاضطراب: وهو الاعتقاد طالما أنه على صواب بأن كل شيء مسوغ في التعامل مع الذين يعتقدون أنه على خطأ.

والصراحة أن الحسين قد حظي باحترام سريع ودائم بفعل أخلاقه العالية ووقاره الهادئ. وفي البدء خضع هوغارث وستور ولورنس وآخرون لسمو الحضور الملكي رغم وجود المبررات لإعادة تشكيل أفكارهم بعد معرفتهم العميقة لعناده وقوته التي لا حدود لها.

كان الحسين يمتلك القدرة على كبح جماح عواطفه أو على الأقل يتمكن من تسكينها. ومن جانب آخر كان يمتلك القدرة على ممارسة الإرهاب وذلك بالانفعال المؤدي في أحيان كثيرة إلى عنف وسادية وقد مرّ جميع المعتمدين البريطانيين بهذه المحنة في محاولة لاكتشاف سر شخصية الحسين، فبعضهم يخافها وآخرون تعلموا التعايش معها وامتلكوا الأسلوب الحجازي في الممكن. في عام ١٩٢١، كتب الميجر باتن في محادثة عامة هذا الصباح، أظهر الملك الجانب السار من شخصيته الذي أشر في كل من التقاه في مثل هذه المناسبات. ولكن عند استدارتنا لبرهة بعد أخذ الاستئذان لاحظت القناع قد سقط على وجهه وكان

رجلاً مختلفًا تمامًا، مكتئبًا ومتجهم الوجه، كان يقف قبل لحظة في محل البطريرك المطوف.

إن الجانب السلبي من شخصية الحسين مشوش حقًا. وفي أحسن الأحوال يظهر من خلال الاستخدام والطرد العشوائي للموظفين الصغار في معظم زياراته إلى جدة. وقد نجح الملك خلال زياراته في إثارة الدرجة المطلوبة من الخوف بين موظفيه ورعاياه في جدة، فالعديد من الموظفين السابقين قد تم طردهم والآخرون الباقون يعاملون بعنف استبدادي وذلك أن الحسين ميّال من وقت لآخر إلى التذكير بسلطته بسبب اعتقاد خاطئ لديه بأن مكانته مصانة طالما يقوم باستعراض سلطته على مرؤوسيه. لا يفلح هذا السلوك جيدًا إلا من خلال تعزيزه بنوع من التهديد الفعلي وهذا ما يوفره حسب ما أسماه المعتمد البريطاني بولارد، صليل مفاتيح الزنزانات وسراديب قصره في مكة، هناك سرداب الرعب تحت الأرض يعرف بالقبو والدخول والخروج منه لا يتم إلا بإرادته فقط.

وقد وصف المعتمد البريطاني المسلم في مكة الظروف هناك بالكلمات التالية: "هناك ثمانية سجناء في الزنزانة المظلمة، وأحدهم كان هناك لأكثر من خمس سنوات والآخر حوالي أربع سنوات في حين كان آخر هناك مدة سنة ونصف السنة، ثلاثة من الثمانية حكموا بوضع الجلوس والاستلقاء فقط وأقدامهم معلقة على قضيب خشبي طيلة الوقت، وكانوا على هذا الوضع منذ أن وضعوا في هذا المكان. وهذه العقوبة تشمل جميع أصناف الناس التي يعتبرها الحسين مجرمة. وفي إحدى المرات سجن أمير البحر أدميرال جدة وتم ضربه وذلك لسماحه لعدد من المراكب الصغيرة في البقاء على الساحل خلال زيارة (الأدميرال الفرنسي) لقد رآها الحسين في إحدى جولاته الليلية واعتبر ذلك شيئًا قبيحًا.

وفي مناسبة أخرى، عندما أدخلت العملة النحاسية الرخيصة، كتب ريدر بولارد: لقد أعلن موضوع العملات في بيان ردده منادي البلدة على الملأ وفيه أن أي

شخص يكتشف وهو يسخر من العملة الجديدة، مقارنًا إياها بشكل سلبي مع التكلة التركية أو ينتقدها بأية طريقة أخرى إما أن يشنق أو يقطع لسانه. ويستذكر كرافتي - سميث حضوره عندما كان الملك يدفع أحد رعاياه بتعمد شديد نحو حافة الانتحار وذلك بإرهابه بقرد مقيد. وعندما يصبح رعب ضيفه هستيريا، لاحظ نائب القنصل، الملك وهو أسير نشوة سادية.

ليس من الصعب على المراقبين أن يلاحظوا أن الملك سرعان ما اصبح نسخة من عبدالحميد سلطان تركيا. وبدلا من البيت المفتوح والضيافة الكريمة في زمن الحسين عندما كان شريفا بتجواله عبر شوارع جدة ومكة وهو يقضي النهار بأحاديث متشعبة مع التجار والموظفين عن التاريخ الطبيعي أو السياسي. وفي عام ١٩٢٠، عرف عن الملك بأنه يقوم بالتجوال في الشوارع بعد حلول الظلام يفتش عن مظاهر الاستياء أو السخط التي قد تكلف المتهم عمله أو حريته في اليوم التالي، وسرعان ما غمرت المحكمة بشلة من الجواسيس والمرسلات اللاسلكية. وفي إحدى المناسبات، اعتقد أن بولارد يسعى لدس السم له.

وبسبب الحكم الفردي في الحجاز أصبح الحسين متحسسًا تجاه أي شيء قد يعتبر انتقاصًا من بلاده وهو ما أسماه بولارد (جنون الاضطهاد) فعندما وصل المحمل المصري (وهو حاوية الشعائر التي تكسو الكعبة في مكة) في عام ١٩٢٣ يرافقه فريق طبي صغير وقد عدّ ذلك استهانة بالخدمات الصحية المقدمة من قبل حكومة الحجاز وأجبر المحمل والبعثة على تغير وجهتها فورًا والرجوع من حيث أتت.وقد تم قمع أي انتقاد فورًا، وأية صحيفة أجنبية تلمح بقليل أو كثير إلى أن كل شيء في الحجاز ليس عسلا ولبنًا فإنها ترمى بشكل فظ في قفص الاتهام. ولا تشكل الصحافة المحلية أي تهديد مطلقا لأن معظم الافتتاحيات تكتب من قبل الحسين، رغم أنه يلجأ إلى التطويل الاستثنائي في محاولة لإخفاء هذه الحقيقة. ولم يفيد الترديد المستمر بأن الملك ليست له أية علاقة بصحيفة القبلة من أسلوبه

الصحفي وقارئٌ من جدة هو شخصية ملفقة رمى القدر بين يديها مراسلات سرية للغاية ومن المناسب لجلالته إعادة نشرها ويعتقد أيضًا أن الملك يقدم الدعم إلى بعض الصحف في الهند ومصر حيث تظهر بشكل غامض بين الفينة والأخرى مقالات مطابقة للمواهب الملكية.

وكما يمكن فعلاً أن تعوق جميع مشاكل الحجاز السياسية والاجتماعية والاقتصادية بشدة من مسيرة الحسين، فهناك الكثير ممن يرغب له بالمزيد أو الأسوأ مع ذلك يقف القبو والبحرية البريطانية كملائكة النار بين الفكر والعمل.

كتب كرافتي – سميث: يمثل سكان جدة ومكة نتيجة مزاجهم الخاص وجزئيًا نتيجة الخشية من العقاب البريطاني إلى تحديد مظاهر التمرد على شكل ممارسات وقتية من التعاويذ والتركيز إلى حد ما في إيلاء أدبارهم إلى الحجاج. وهذا يقود المرء إلى التفكير بأن لدى جدة ومكة الحاكم الذي تستحقانه وما زاد من إحباطات الشعب هو أن الملك يهدد باستمرار بالتنازل عن العرش. شهريًا تقريبًا في بعض السنوات، رغم أن بولارد يعتقد أنه لا يفكر في تنفيذ تهديده.

وفي إحدى المرات نظر البريطانيون في أمر خدعته وقبلوا استقالته قائلين أنها مسألة تخص الحسين لتسوية مشاكله مع شعبه. وحملق وهو جالس كالسهم محتارًا للحظة ثم قال: ماذا يريد هذا أن يفعل بشعبي؟ وأنهى كرافتي سميث الحديث، محاولاً جره إلى التنازل عن العرش قائلاً: أصبح واضحًا في كل مقابلة أن الملك الحسين سيتخلى عن وقاره ولكن ليس عن عرشه.

لم يكن موقعه على العرش خال من أي تهديد بالإزاحة من جانب أولاده رغم أن همسهم السري لم يؤدي إلى شيء. وفي حزيران ١٩٢٠، جرّب عبدالله من جانبه مدفوعًا بالزوال الوشيك لشقيقه في سوريا: لانتزاع السيطرة على المملكة العربية الهاشمية. وقد فاتح سليمان قابل محافظ جدة، المعتمد البريطاني بوعد

بالحصول على توقيع ستين من الأشراف على رأسهم عبدالله والطلب بوجوب إزاحة الملك فوراً إذا ما وافقت حكومة صاحب الجلالة البريطاني وبالطبع لا يمكن أن يتورط المعتمد بالمكائد العائلية مهما كانت ميوله السرية، ودون الدعم البريطاني، ماتت الفكرة وبعد سنة عرض علي الأصفر خدماته وكما كتب كرافتي سميث: "أبلغني فؤاد الخطيب أن الأمير تحدث إليه بجدية السنة الماضية حول قيادة حركة ضد والده الذي يدرك أبنائه أن عداوته الشخصية العنيدة تقف عقبة في طريق تقدم القضية العربية". ولم تؤدي عادة الحسين المستديمة في إهمال أو معاملة أبنائه بخشونة وأمام طرف ثالث، بل وحتى في إحدى المناسبات تمادى في ذلك وقذف فيصل بالدواة، لم تؤدي إلى تعزيز أواصر طاعة الأبناء.

على أية حال كان الأبناء كأي شخص آخر يمانون من خوف شديد، وهكذا أخذت مكائد القصر تتزايد. ربما كان نائب القنصل البريطاني الظريف غير بعيد عن الحقيقة في عام ١٩٢٠ عندما قال متأملاً: إن كاشفي الطالع يتنبأون بوفاة الملك في (٢٥) حزيران، وإذا ما صح هذا، فليس من المرجح أن يكون بحاجة إلى المتبقي من حياتهم قد يكون صحيحاً، كما لاحظ ذلك شكسبير بأن الشر الذي يفعله أولئك الرجال، يميش بعدهم، والخيرِ يدفن في أحوال كثيرة مع عظامهم. وللمدل يجب القول أن الحسين قد عمل فعلا لتحسين ظروف الحج وذلك بتحديد عدد الحجاج في كل غرفة، وبناء الملاجئ ... وهلم جرا. وفي المدن، قضى على الكثير من الانحلال الخلقي الذي كان سائداً عندما كانت السيطرة للأتراك. كما سجل ذلك الدون روتر وهو حاج إنكليزي، في كتابه المدن المقدسة في الإسلام ١٩٢٥ . مع ذلك، كان هناك القليل ممن يودون تحمل كلفة هذه المنافع البسيطة لحساب الحكم الفردي للرجل المجوز. يبدو من المقول الجزم أنه لو كبح الملك طموحاته وحدد مغامراته بعد عام ١٩٢٣ بحكومة الحجاز، فإنه ربما سيبقى على أحسن ما يرام في مكة حتى وفاته وكما رأينا فإنه لم يكن يخشى من الاستياء المتفاقم في

الداخل ولكن لا شيء غير التظاهر بالشجاعة والرابطة غير المحدودة ببريطانيا هي التي تقيه من جيرانه، ولم يكن من طبيعة الرجل أن يدع الأحداث تأخذ مجراها الطبيعي دون تدخل من اليد الملكية. لذلك فإنه في آذار ١٩٢٤، أثار العالم الإسلامي بأجمعه للعمل ضده ومنذ ذلك الوقت، انتهى الحسين كحاكم للعرب والمسلمين وحتى الحجازيين. إنه في النهاية قد تجاوز كثيرًا.

جرت أحداث آذار خلال زيارة إلى شرق الأردن التي أرقت الدول المنتربة (بكسر الدال) كثيرًا. كان يعرف أن الحسين لم يعترف بالوضع الشرعي في عمان، وقد عبر عن ذلك بشكل واضح عندما رفض المعاهدة الإنكلو - أردنية في مارس ١٩٢٣. وقدر تعلق الأمر به، كان عبدالله مجرد مبعوث مطلق الصلاحية لوالده الذي أصبحت له في الآخر جميع حقوق السيادة. وأخر ما كانت تتوقعه السلطات الهلعة في مقر الحكومة في القدس هو أن تصل القضية العربية مجسدة بالحسين إلى أعتاب أبوابها فقد بدأت تظهر الثمرات المرة للعنف الجاري في فلسطين وكان شرق الأردن قد نجا لتوه من تمرد للجيش اجتاح البلاد في أيلول. وقد انتظر الإداريون بلهفة رؤية عبدالله وهو يواجه الحضرة الملكية البغيضة. حيث لم يثبت ماضي أعماله شيئًا لتهدئة قلقهم. في كانون الثاني ١٩٢٤، اتجه الحسين شمالاً على ظهر الباخرة (الطويل) وهي إحدى الباخرتين اللتين تمتلكهما الحجاز، وخلال رحلته، عرج على ميناء الوجه. وقد سجل بولارد هذا الحديث بكلام ينم عن عدم احترام: "في الوجه، رفض الملك جميع مظاهر الأبهة والمراسيم قائلاً أنه سيواصل رحلته من أول صباح غد عن طريق البحر ولتضليل مراكب القراصنة المحتملين، فإنه هيأ جمالاً في منتصف الليل وانطلق باتجاه العلا. وعند عودته جلب معه (٥٠٠) رجل كحماية له لمنع رعاياه من معاملته كما يعامل الحجاج. وفي (١٧) كانون الثاني أبحرت حاشية الملك إلى داخل الميناء الحجازي العقبة، وكان الحسين يرد بتحيته الخاصة على الطريقة اليابانية في مصافحة يديه مع بعضهما وهناك

التقى بسانت هاري جون فيلبي (المندوب البريطاني الأعلى في عمان) والمدعو حبيب لطف الله في سيارة فخمة وبزي عسكري غامق. تجاهل الحسين كل مظاهر الأبهة، وامتطى حمارًا أبيضًا صغيرًا وقام برحلة طولها (٦٥) ميلًا إلى معان بأسلوب تقليدي وذلك لتحقيق أكبر تأثير في الناس الذين يمر بين ظهرانيهم.

وفي عمان، حصل أسوأ ما يخشاه البريطانيون، فقد عسكر الملك العجوز في وادي الأردن، وشرع في مسك زمام الحكم وتوجيه نفقات موارد الأعمال العامة وبشكل عام شرع في وضع عبدالله في الخانة الخلفية. وفي القدس أرسل السير هربرت صموئيل دعوة إلى الحسين لزيارة فلسطين، إلا أنه حاذر أن يرسل رسالة أخرى إلى بيك باشا الذي كان يقود الفيلق العربي المشكل حديثًا، وذلك للتأكد من رفض الدعوة عن طريق مساعي عبدالله الحميدة.

كانت المناورة ناجحة ولم يتحقق أبدًا الاحتمال المخيف بوصول ملك العرب إلى أرض اليهود. وانتهت تلك الأزمة وبقيت هناك المشكلة الخطرة لاستمرار وجود الحسين في عمان هل من الممكن أن ينسحب عبدالله لصالح الأب الذي يأويه في رعب؟ كان الفرنسيون لا يشعرون بالراحة من احتمال وجود الحسين في شرق الأردن لأن ذلك يعرض السلام الهش في سوريا إلى الخطر. إن الاستقرار المستقبلي لشرق الأردن هو أمر حيوي لتأسيس نظام انتداب سلمي وغير مكلف إلى حد ما، كما يتصور ذلك البريطانيون والفرنسيون. وبعضهم كفيلبي، شعر بالاشمئزاز من التزاحم على إسلاب الأراضي العربية وأمل أن يبقى الحسين الذي لا يقهر في الأردن لأنه: لاشك أن الموافقة على طلب الحسين لأعلى سلطة في شرق الأردن ستكون في صالح ذلك البلد مقارنة بعمان كان مع البديل الذي هو السيطرة المباشرة لحكومة فلسطين. وقد تبدد الشك المستديم بخصوص نوايا الحسين تجاه شرق الأردن فجأة في الأسبوع الأول من آذار نتيجة للتغيرات السياسية الكبيرة في تركيا. فهناك، وبعد الانتصار الساحق على المطامع الإقليمية للعديد من الولايات

الطموحة مع تدمير القوات اليونانية في ١٩٢٢، أدار وطنيون من أنقرة ظهورهم عن التاريخ وشرعوا بتطبيق برنامج جذري لتحديث يشمل كل الأشياء ابتداءًا من الأبجدية وحتى الطربوش. وأول المؤسسات التي تم التخلي عنها هي السلطنة وذلك عندما ألقي صاحب المنصب محمد السادس في زاوية النسيان. وقد احتفظ بمنصب الخليفة وريثه عبدالمجيد أفندي حتى ألغي هذا أيضًا من قبل كمال أتاتورك في (٣) آذار ١٩٢٤.

وتلا ذلك نشاط محموم في عمان حيث سعى عبدالله لتلقي الدعم لإعلان والده خليفة للمسلمين. أرسلت البرقيات إلى العلماء في معظم البلدان الإسلامية تطلب موافقتهم وليس من الغريب أن الردود الإيجابية قد جاءت من مكة والمدينة المنورة ودمشق وبغداد ولكن كانت مصر والهند تشمران بالذعر. وهناك العديد من البلدان رأت أن الطلب لا يستحق الإجابة.

لا نستطيع التكهن بدقة لماذا وكيف استجاب الحسين لاحتمال تولية الخلافة لأن موقفه تجاه الخلافة بقي من أكثر المواقف غموضًا وإثارة للجدل في شخصيته في البداية جاءت فكرة إعلان خليفة عربي من كيتشنر خلال المفاوضات مع العائلة الشريفية في عام ١٩١٤. وقد تكررت الصورة رغم أنها غير محدودة بشكل دقيق أي مجرد خليفة عربي، في جواب الحسين في (١٤) تموز إلى مكماهون وهو يوضح فيه هذه الرغبة من جانب أهل المنطقة. وبعد ذلك وحينما يربط البريطانيون اسم الحسين مباشرة بالخلافة (وفي الواقع أنهم خاطبوه بالخليفة في بعض المراسلات فإنه يؤنبهم لتناولهم أشياء ليست لها علاقة بالموضوع ويطلب منهم التعامل مع القضايا الأكثر إلحاحًا كالحدود أو المعاهدات أو التعجيل بالحرب، كان الحسين يسخر علانية من الخلافة في الشكل والمعنى الذي اتخذته كحكم عثماني وراثي لأربعمائة سنة. كما كتبت ذلك صحيفة القبلة في (٤) كانون الثاني ١٩٢٣: إن الخلافة كانت ولا تزال مجرد اسم وكلمة خالية من أي معنى حقيقي كان الحسين

ذكيًا بما فيه الكفاية ليدرك أن قيامه بالمطالبة باللقب في الوقت الذي لا تزال فيه الخلافة بأيدي الأتراك. سيقنع أعداءه أن الثورة هي مجرد جزء من طموحاته الشخصية الواسعة. كانت هناك مشاكل كثيرة حول لقب ملك العرب في عام ١٩١٦، فكم ستكون المشاكل حول لقب أمير المؤمنين وظل الله في الأرض ربما تكون طموحاته الشخصية موجهة نحو اكتساب اللقب، رغم التأكيدات المتكررة بالعكس (قارن تهديداته المستمرة بالتنازل). في كانون الأول ١٩٢١ بين فؤاد الخطيب بوضوح طموحات الملك بهذا الاتجاه (الخلافة) في محادثة خاصة (مع المعتمد البريطاني) ويرى أن الطلبات المستمرة للطائرات والدبابات والعجلات المدرعة وما شابهها ربما كانت بدافع الأمل بإقناع الحجاج ومن خلالهم العالم الإسلامي بقدرات الحسين المادية لقيادة المؤمنين أكثر منه بدافع الرغبة في التأثير على نجد. وفي آذار ١٩٢٣، كان الموقف بخصوص الخلافة يتطلب عملا عاجلا. فإذا لم يتم القيام بأي شيء، فمن الممكن أن يزول المنصب عن طريقه أو قد يستولي عليه أحد المطالبين المنافسين المحتملين من غير العرب. وطالما أن تركيا قد تخلت عنه علنًا، فربما يكون الحسين قد فكر أنه إذا ما اتخذ اللقب في هذا الوقت فلا أحد سيتهمه بالعمل لتجريد الخليفة من لقبه منذ البدء. فإذا كان ذلك حقا هو ما فكر به، فإنه كان للأسف على خطأ وبالنسبة إلى عبدالله كانت هذه، فرصة مناسب أخرى شبيهة بإعطائه شرق الأردن، من الصعب إضاعتها فإذا ما تحققت فإنها ستعزز السيادة الهاشمية على العرب والعالم الإسلامي، وتعزز موقع والده كملك للعرب وإذا لم تتحقق فإنه لا يتوقع أية خسارة حقيقية له. وهكذا ألح عبدالله على علماء عمان ليكفلوا تنصيب والده. لقد كان عملاً غبيًا من جانب عبدالله وانتحارًا سياسيًا بالنسبة للحسين، عندما أخذ أحد الهاشميين في (٦) آذار الغطاء من الأتراك. وقد فزع العالم الإسلامي. ففي الهند حيث لا يزال للخلافة بعض المعنى قوبلت الخطوة بالغضب والارتياب الشديد على أساس أنها محاولة من قبل بريطانيا لرفع (دميتها). إلى قمة الهرم الإسلامي. وبريطانيا، التي كانت دائمًا

تشعر بحساسية بالغة تجاه الاضطراب في الهند الإسلامية، قد شعرت بالدهشة من جرأة الحسين بقدر دهشتهم بإعلانه الأحادي الجانب للمملكة العربية في عام ١٩١٦، وقررت أن تفعل شيئًا ما فرفضت أن تعترض بترقية الملك لذاته معتبرة تلك مسألة تخص العالم الإسلامي لوحده.

وقد سلم الجنرال كلايتون والك كير كبرايد رسالة حكومة صاحب الجلالة البريطانية المهينة خلال مقابلة، احتفظ الملك طيلتها برباطة جأشه ووقاره، رغم هذا المظهر الآخر من مظاهر تخلي الحلفاء عنه. ورغم أنه لم يكشف شيئًا لزائريه الاثنين، فيجب أن يكون الملك قد أدرك أنه تبنى أكثر من مجرد كلمة خالية من المعنى وكان يناسب البريطانيين أن يصبح الحسين خليفة إلا إذا كان لديه دورًا مفيدًا يؤديه في اللعبة الاستعمارية الدولية وذلك بصبغ الخارطة باللون الأحمر. وكان قد أبلغ أن اكتساب اللقب في هذا الوقت أمر غير مناسب.

كان ذهنه مليئًا بالخطط الجريئة لإعادة بناء الخلافة العربية، لذلك حول اهتمامه بعيدًا عن خطط التقتير في عمان، ونتيجة مشورة مقنعة من جانب كيركبرايد. استعد الحسين للعودة إلى عاصمته، وفي (٢٤) آذار رحل على ظهر القطار العتيق الذي جرى تصليحه بسرعة من قبل حكومة فلسطين الراغبة بالإسراع بعودته إلى وطنه، تاركا وراء التعب الشديد الاعتيادي وتنهيدة راحة من قبل الإدارة.

وكان آذار ١٩٢٤ هو الشهر الذي وقعت فيه الحجاز في الهاوية. وأوقف البريطانيون الإعانة المالية بشكل تام لأنهم كانوا يمولون الطرفين فيما يبدو ومن المحتم والمقدر أن تصبح حربًا هاشمية سعودية. ولم يجلب لقب الملك الجديد أي شيء سوى الازدراء والسخرية والكراهية، وأعطى للوهابيين في نجد العذر النهائي لتخليص الجزيرة العربية من الحكم الهاشمي بشكل عام ومن الحسين بشكل خاص.

* * *

الفصل الخامس عشر

المنافسون

■ يكن الحسين ازدراءً كبيرًا لجميع جيرانه من الحكام العرب، وقد تولد ذلك نتيجة خبرته الطويلة في العمل السياسي في اسطنبول وفي غطرسة أبناء المدن. وخلال فترة حكمه، عمل بجد لتقليص سلطتهم واحتوائها،وذلك لأنه أولا الشريف العثماني الأكبر وثانيًا لأنه حامل لقب ملك البلاد العربية.

وقد رفض بشكل ثابت أن يأخذ خطر المعارضة من جانب الأمراء المنافسين له على محمل الجد، متصورًا أنه كما كان عندما كان الدعم البريطاني مستمرًا. فبعد انتهاء الحرب، تلاشت القيمة الفعلية للحسين ولكن تأنيب الضمير من جانب بعض أعضاء الحكومة البريطانية حول اتفاقية سايكس - بيكو وعدم الرغبة في التخلي عن هذا الاستثمار الثمين، أدى إلى انتهاج سياسة مؤيدة للشريف. مع ذلك ومنذ عام ١٩١٩، بدأ البريطانيون يحلون أنفسهم من العلاقة التي أخذت تعيقهم بشكل متزايد.

يتركز معظم ازدراء الحسين على جاره الصحراوي، عبدالعزيز السعود وهو الرجل الذي لم يلتق به أبدًا، ولكن يذمه باستمرار بسبب خسارته الكبيرة ولم يكن الحسين يرى في الحاكم السعودي أكثر من شيء في غير أوانه، متحجر في الصحراء ماضٍ منسي بعيد وغير خبير في فن الدبلوماسية، ويعوزه التعليم ويقود قطيعًا من

الهجانة المتعصبين. ولم يكن يرى أية صفة أو سمة مشتركة مع هذا الزعيم البدوي. لقد كانت هذه واحدة من مآسي التاريخ العربي أن هذين الزعيمين لم يلتقيا أبدًا، لأن الحسين قد أساء تقدير غريمه تمامًا.

وُلد عبدالعزيز السعود في ١٨٨١ وهو ابن الإمام عبدالرحمن إمام نجد في فترة سيئة من تاريخ عائلته. في البداية كان آل سعود الذين كانوا يشكلون جزءًا من قبيلة عنيزة، حكام منطقة واحة صغيرة حول الدرعية قرب الرياض الحديثة وتحت قيادة سلسلة من الحكام الأقوياء، تغيرت أقدار آل سعود ولكن في عام ١٧٤٧ حدث التغيير الأكثر أهمية في هذا الاتجاه.

ففي تلك السنة عرض محمد السعود حمايته على المصلح الديني الذي يدعى محمد بن عبدالوهاب الذي بشّر بعقيدة أصولية تطالب بالعودة إلى أنقى أشكال الإسلام وترفض الأضرحة وشفاعة الأولياء. كانت عقيدته قوية وهادية وتبشر بالتغيير بالقول وقوة السيف وسرعان ما أصبح آل السعود وأتباعهم أبطال ما يسميه الآخرون وليسو هم بالوهابية. وقد اجتاح آل سعود وهم مسلحون بإيمانهم القوي كل ما أمامهم وفي عام ١٧٩٨، هددوا سلطة الشريف الكبير غالب شريف مكة، ودمروا قواته في الخرمة وهي القرية التي أصبحت ميدان معركة فاصلة بين آل السعود والهاشميين بعد مئة وعشرون عامًا. وقد انتهى الحكم الوهابي في الحجاز بحملة جردت من مصر من قبل محمد علي تحت رعاية الخليفة. وهي تلك الحملة التي انتهت بالتدمير الكامل للدرعية وبالسيادة المصرية على معظم أجزاء الجزيرة العربية والتي استمرت حتى عام ١٨٤٠. وعند ولادة عبد العزيز، تعرض بيت آل السعود الناشئ ثانية لتهديد من منطقة أخرى من قبل أعدائهم سلالة آل الرشيد الحاكمة الذين قادوا قبيلة شمر من عاصمتهم المحصنة حائل. وفي عام ١٨٩٢، اقتحموا عاصمة آل السعود الجديدة المبنية من الطابوق الطيني وانتصروا، مما دفع عبدالرحمن وولده اليافع البحث عن ملجأ لهم بين أصدقائهم في الكويت.

كان عبدالعزيز أقل خضوعًا لمصير عائلته المتغير من والده، وتعلم فنون الحرب خلال الغارات الصحراوية، وفي سن الـ (٢١) عامًا شرع مع حفنة من أتباعه لاستعادة إرث عائلته. وقصة استيلائه ليلا على الرياض وقتله لحاكمها الذي عيّنه الرشيد في عام ١٩٠٢، معروفة جيدًا ولكنها تمثل وزن الرجل. حيث اقتحم حامية مسلحة بشكل جيد ولديها مؤن كافية باستخدام أساليب تكتيكية فشل الآخرون باستخدامها. ومنذ ذلك الوقت، سعى عبدالعزيز لتقوية وتوسيع المنطقة التي تدين بالولاء لعائلته. ومرة أخرى، استخدم أساليب تكتيكية بسيطة لجمع معظم موارده الهزيلة، وفي عام ١٩٠٨، أسس حركة الإخوان، وهي حركة تهدف إلى توطين البدو في مخيمات زراعية والتي يمكن أن توفر إليه أيضًا جيشًا جاهزًا ومتأهبًا. والإخوان هم الوهابيون المخلصون الذين عاشوا حياة صارمة ومتواضعة ونذروا أنفسهم لنشر عقيدتهم عن طريق التبشير والسيف والذين وعدوا جازمين بتدمير الكفار. وقد قادهم الصلب والمتعصب والصعب المراس فيصل بن سلطان الدرويش. وقد أسست أول مستوطنة لهم في الأرطاوية شمال الرياض في عام ١٩١٢.

وفي هذا الوقت، وبسبب تعذر الوصول إليها كانت نجد أرضًا غير معروفة تمامًا للآخرين لأنه على امتداد حدودها الصحراوية يمكن أن يحدث اتصال بين الوهابيين والعالم الخارجي. مع ذلك حصلت مواجهة بين النجديين والشريف الحسين في المعركة من أجل القصيم في عام ١٩١٠ والتي أسر خلالها شقيق عبدالعزيز سعود ونتيجة لهذا ولهجوم عجمان في الشرق اضطر الإمام على تقديم ولاء مذل لتركيا والشريف. وقد أعطى هذا للحسين مقياسًا خاطئًا تمامًا لقياس قوة منافسه والذي ظلل تقديراته حتى انقلب المقياس في معركة تربة في عام ١٩١٩. وفي عام ١٩١١، كسر وصول الكابتن دبليو أي شكسبير ممثلا للحكومة الهندية عزلة نجد. يأتي وصوله في مهمة استكشاف لأنه وبما أن الأتراك يحيطون بالممتلكات البريطانية في الخليج فالعلاقات مع عبدالعزيز ليست قضية ذات أهمية خطيرة. لذلك وعندما عرض الإمام الاعتراف بالوجود البريطاني بالخليج لم يتولد شيء مهم من هذه الخطوة لأنه ليست هناك منفعة حقيقية تدركها السلطات

الهندية إلا أنه وبعد سنتين أخذت الأحداث تسير نحو تحول دراماتيكي عندما فاجأ الإخوان بقيادة فيصل الدرويش الأتراك في ولاية الإحساء الساحلية. وفي شباط عام ١٩١٣ طردوهم إلى الخارج دون مقاومة تقريبًا، وفي نيسان واصلوا الاستيلاء على التجمعات السكانية العقير القطيف الكوت الهفوف منهين بذلك احتلالا تركيًا دام حوالي خمسون سنة وقد جعل هذا النجديين أقوياء أمام المحميات البريطانية في الكويت وساحل الخليج مما أعطى السعوديين أهمية جديدة على الصعيد الدولي.

مع ذلك فشلت السلطات البريطانية في الهند في القيام بأي مبادرة لأنها استمرت تعتبر تركيا هي القوة الوحيدة القادرة على إجراء تغيير حقيقي في المنطقة. إن القيام بأية مبادرة مع عبدالعزيز قد تفسد العلاقات مع تركيا التي تعتبره متمردًا، وهكذا تركت معلقة ولم تسفر الرحلة الثانية لشكسبير عن شيء. وفي تشرين الثاني عام ١٩١٤ وبعد أن أصبحت تركيا الآن إحدى دول المحور أصبحت نجد تشكل أهمية استراتيجية لأنها تهدد العراق والخليج والحجاز. وتحت هذه الظروف المتغيرة أجرى شكسبير رحلته الثالثة إلى الرياض وأعدت مسودة معاهدة اعترفت بموجبها بريطانيا بسيادة نجد (بضمنها الإحساء) وعرضت دعمًا ماديًا لشن حملة على آل الرشيد في حائل الموالين للأتراك. وفي ظروف مأساوية قتل شكسبير خلال صدام مع آل الرشيد في ٢٥ كانون الثاني ١٩١٥، وبفقدانه خسرت نجد لورنسها المحتمل وصلتها المباشرة مع البريطانيين. ولو لم يختف شكسبير فربما لم ينقل زمام المبادرة إلى المكتب العربي والهاشميين، وربما يدفع المجرى الكامل للأحداث في الجزيرة العربية الهيمنة النجدية إلى أمام خلال عشر سنوات. ليس من الصعب التدليل على أن الحسين كان مفضلا على جاره السعودي في زمن الثورة العربية. أولا لأن البريطانيين كانوا حسني الاطلاع بالهاشميين من خلال وجود قنصلهم منذ زمن طويل في جدة واعتيادهم على شؤون الحج من خلال رعايا إمبراطوريتهم من المسلمين. كانت تصل لندن بانتظام أنباء الأحداث في مكة من قبل ممثلها هناك. وبقيت معظم نجد أرضًا مجهولة وأي اتصال هناك يعتمد على الرحلات الطويلة غير المأمونة إلى قلب الجزيرة

العربية. وثانيًا كان للحسين في ذلك الوقت أهمية دولية بصفته الحامي الفعلي للأماكن المقدسة ولدوره المحتمل في دعم إعلان الجهاد التركي. وثالثًا كانت نجد تدور في فلك الهند البريطانية وكانت السلطات هناك لا ترى أية أهمية تدعو لعقد حلف أو معاهدة أو أية التزامات مع العرب. وهكذا كانت آراء البريطانيين في مصر وبالنيابة موكلهم الحسين هي التي سادت.

وطالما فجّر الحسين الثورة في عام ١٩١٦ ضمن الواجب أن لا تشتت قدراته في نزاعات على طول حدوده الشرقية أو الجنوبية. وفي فترة الحرب كان المنافسون الرئيسيون المحتملون للحسين مشغولين بنزاعات مع بعضهم. كانت تقدم إعانة إلى السعوديين لغاية (٦٠,٠٠٠) باونًا في السنة ويتم تجهيزهم بأسلحة حديثة لتحييد خطر الأسرة الرشيدية الموالية للأتراك في حائل في الشمال. وهذا سيجعل الائتلاف الرشيدي يعزف عن مهاجمة قوة الحملة الهندية المحاصرة في العراق ويشتت القوات التركية بعيدًا عن منطقة النزاع الرئيسية. على أية حال تعني هذه المساعدة التي تأتي وفق شروط المعاهدة الجديدة مع عبدالعزيز بن سعود أن البريطانيين أخذوا يقدمون الدعم بالأموال والأسلحة لاثنين من الحكام المتنافسين المحتملين. الحسين وعبدالعزيز كان الارتباك شديدًا عندما اصطدم هذان المتنفسان. وقد كشف ذلك عن افتقار بريطانيا لأية سياسة مركزية أو متماسكة تجاه العرب عدا الحاجات المحلية ذات النفع القصير المدى. في البداية حيا عبدالعزيز الثورة كتعبير عن الدعم العلني بما في ذلك إلقاء خطاب في اجتماع رعته بريطانيا في الكويت في كانون الأول عام ١٩١٦ ولكن في ذلك الوقت تعززت تحفظاته الشخصية بخصوص نوايا الحسين وذلك نتيجة تبني الأخير للقب "ملك البلاد العربية" ونتيجة للهجة التعالي التي يخاطب الحسين بها في مراسلاته إمام نجد. وفي صيف ١٩١٧ سقطت بغداد بأيدي البريطانيين مما أنعش مصالح السلطات الهندية في الإمارات الصحراوية في الجنوب. وفي بعض الأحيان وصلت مراسلات من القاهرة إلى بغداد تعبر عن التحفظات على الطريقة التي تتدهور فيها العلاقات النجدية - الحجازية وقد أرسلت بعثة مصالحة يمثلها السير رونالد

ستورز ولكن دبلوماسيته المحمولة على ظهر الجمل قد انهارت بسبب ضربة الشمس والفوضى. وقد طرح اقتراح في منتصف عام ١٩١٧ بأن ترسل بعثتان الأولى مباشرة من العراق إلى الرياض عن طريق العقير، والثانية تغامر في رحلتها إلى الرياض من القاهرة عن طريق جدة من أجل استطلاع آراء الحسين في طريقهم ولمنع الوهابيين من تهديد الثورة العربية. ومن بغداد ذهب نائب المندوب المدني هاري سانت جون برجر فليبي وقد وصل الرياض على ظهر الجمل في (١) كانون الأول ١٩١٧ بعد رحلة دامت اثني عشر يومًا. وهكذا ابتدأت صداقة مدى الحياة بين الرجلين وقد أوضح عبدالعزيز بن سعود، وهو رجل ذو بنية مهيبة وصاحب وقار وسحر هادئ مخاوفه بخصوص المطامع الشريفية: "ما معنى كل تلك الضجة؟ ماذا تريد بريطانيا أن تحقق للحسين؟" أوضح فيلبي أن بريطانيا تعترف بالحسين كملك على الحجاز فقط وأن لدى بريطانيا التزامات مع نجد بموجب معاهدة العقير مقابل الالتزامات التي يعتبر الحسين أنها لبريطانيا إزاء دولته. وظهر أن المقاتل الصحراوي قد اقتنع بتلك التأكيدات ووافق على تكثيف حملته على آل الرشيد الموالين للأتراك طالما أن بريطانيا تبقي الحسين تحت سيطرتها وترسل خزائن الأسلحة والذهب إلى نجد.

وفي أثناء ما كان فيلبي يرسل هذه الاحتياجات بالبريد على ظهر الجمل إلى بغداد، وصلت برقية تجلب أنباء تهدد المفاوضات بالفشل فقد منع الحسين وفد القاهرة من مغادرة الحجاز إلى الرياض فقد كان الملك يرغب في منع أي مطالب منافس من إضعاف مكانته الكبيرة في عيون البريطانيين. لذلك استخدم عذر وجود مشاكل على امتداد الحدود الشرقية مع نجد كحجة لإبقاء الوفد في جدة. وقد اتخذ فيلبي زمام المبادرة وسافر إلى الحجاز بنفسه متغاضيًا تحذيرات الحسين. وقد سبب هذا العمل ارتباكًا شديدًا للحسين الذي شعر بغضب شديد أن النقاط الحسنة في الدبلوماسية لم تؤثر في مسيرة حياة فيلبي. وفي جدة التقى فيلبي بالقائد هوغارث رئيس المكتب العربي الذي كان مقتنعًا بدفاع فيلبي عن

القضية السعودية "الآن ابن سعود هو إنسان قبل كل شيء هكذا علق فيلبي واستمر" ماذا سيحدث عندما يموت؟

ستعود نفس الفوضى القديمة مرة أخرى. في حين أنه لو يرحل الأتراك سيكون للعائلة الشريفية وحدها المجد السياسي والديني المطلوب لبناء شيء مستقر في الجزيرة العربية يضع البلاد في صورة العالم الحديث. وبأية حال فإننا ملتزمون بالقضية الشريفية ولا يمكننا أن نقدم على قلب الأشياء وذلك بتشجيع مطالب ابن سعود. وقد أوضح فيلبي أنه ليس لابن سعود أية مطامع رغم أنه بهذا التوضيح قد أساء فهم الرجل لأن عبدالعزيز كان قلقا للغاية مما يجري في الحجاز. وبعد تأخر بسيط تلطف الحسين بملاقاة فيلبي وقد أثير بشدة لمعرفة الأخير الداخلية بالأحداث والتي تصطدم مع خزين الشريف الاعتيادي من التعتيم المعمم المستند على تفسيره هو للأحداث. وبالطبع انتهى اللقاء كما تنتهي جميع المحادثات مع المبعوثين الأجانب حيث عاد الحسين لتصلبه العنيد وكانت تلك فعلا نهاية المفاوضات. إلا أنه بقي لديه سلاح واحد حيث رفض مرور فيلبي عائدًا إلى الرياض. وقد أعاد هذا أحداث شكسبير وضاعت الفرصة مرة أخرى وواصل الحسين بسبب عدم وجود الرجل الذي يتولى المهمة طريقه نحو الهيمنة، لا يلعب الحظ دورًا ثانويًا في بروز القضية الهاشمية. ومنذ ذلك الوقت تدهورت العلاقات النجدية - الحجازية نحو نهايتها الدموية. كانت نقطة النزاع هي واحات الخرمة المغبرة مواطن قبيلة عتيبة الواقعة في الأراضي الحدودية غير المرسمة شرق الطائف. في البداية كانت هذه جزء من السيادة الشريفية ولكنها غيرت ولائها بعد إهانة حمقاء لزعيمها خالد بن لؤي فقد رفع في البدء اللواء العربي في الأيام الأولى للثورة ولكن عندما نشب خلاف بينه وبين عبدالله التقط الأخير نعله الصندل وصفع به لؤي على فمه. عاد لؤي بقواه إلى الحزمة وواحة ترابة المجاورة وأعلن تأييده للوهابيين وطرد القاضي وقتل شقيقه بسبب نزاع ديني. لقد أرسلت القوات الشريفة ثلاث مرات خلال عام ١٩١٨ بقيادة حماد بن زيد لإعادة ضم المنطقة إلى مكة وفي المرات الثلاث فشلت هذه القوات فشلا ذريعًا. وبعد كل هجوم

يناشد وهابيو الحزمة عبدالعزيز لمساعدتهم في النزاع، ولكن السعوديين كانوا يخشون من احتمال رد بريطاني على أي هجوم على حليفهم العربي الرئيسي. وقد عرض البريطانيون من خلال شخص فيلبي التدخل في النزاع وكان عبدالعزيز يعتمد على هذا التدخل السلمي لكبح الإخوان الغاضبين. وفي أيلول ١٩١٨ شن النجديون هجوماً غير حاسم على حائل بعد إعطاء بريطانيا ضمانات حول الحزمة ولكن خالد بن لؤي وضع عبدالعزيز في موقف حرج وذلك بتهديده بإرسال النساء إلى ترابة والحزمة للدفاع عن قضيتهم وتلك إهانة ماحقة. اتخذ البريطانيون مبادرتهم في آذار ١٩١٩ بدعوتهم لمؤتمر بين دائرتين بريطانيتين في لندن برعاية اللورد كرزن لحل القضية. وخلال ذلك انتصر رأي مكتب القاهرة وسويت المسألة من قبل وزارة الحربية التي درست الموقف وتوصلت إلى نتيجة أن الأسلحة والتدريب الأفضل للجيش النظامي الشريفي ستنتصر في أي نزاع عسكري بين الحجاز ونجد لذلك على بريطانيا تقديم الدعم للمنتصر الأكيد. وقد دافع فيلبي لوحده عن القضية مستنداً على المعرفة المتفرد بها ولكن كرزن بقي على موقفه ولم يتزحزح. وأعلن أن نهجنا هو دعم نهج الحسين أنه يجب أن يتلقى الحسين دعمنا طالما أن هذا الدعم من غير المحتمل أن يورطنا في أية مغامرات عسكرية في صحارى الجزيرة العربية وهكذا حسمت المسألة لصالح الحسين في لندن. وفي الجزيرة العربية أخذت الأحداث منحى آخر إلى حد ما. فقد أعد الحسين مدفوعاً بالدعم البريطاني حملة بقيادة عبدالله ضد المتمرد ابن لؤي. وخرج نجل الملك يرافقه (٥٠٠) جندي و(٨٥٠) هجان إلى الطائف حيث تم تعزيز الحملة بـ (٥٥٠٠٠) رجل في نيسان. وفي أثناء ذلك كتب عبدالعزيز إلى الحسين رسائل سلام ولكن رسائله أعيدت له دون أن تفتح. لم يعد بالإمكان كبح الإخوان أكثر من ذلك وبعد الهجوم الأخير على الحزمة وعد عبدالعزيز بالتدخل في أية عملية عسكرية في المستقبل. وفي مكة ناشد رئيس الوزراء الملك بالتوقف عن القيام بأي عمل، ولكن الحسين لم يعر بالاً لإبراهيم حقي باشا أو أي من مستشاريه الآخرين. وفي منتصف مارس وصل الجيش الشريفي، الذي يتلقى بانتظام رسائل الحسين من مكة تحثه على السرعة في العمل إلى ترابة وبعد معركة ضارية استولى على الواحة

وقلمتها رمضان. وضع عبدالله حرسًا حول معسكر الخيم التابع له ورفض بازدراء التدابير الأمنية للقلمة وتهيأ للتقدم عبر الأرض الوهابية. وأبلغ والده أنهم سيصلون البحرين في غضون أسبوعين. وفي ليلة ٢٥ مارس شن لؤي هجومًا سريعًا مباغتًا حيث قتل مجمل القوة الحجازية. والواقع أن جميع الجنود قد لقوا حتفهم و(٥٧) من مجموعة (٦٠) ضابط تركي سابق قد قتلوا واستطاع (١٥٠) حجازي فقط من الهرب. وقد هرب عبدالله نفسه بسبب حسن الحظ الشريفي المعتاد. وهو بملابس نومه وانطلق نحو الطائف ومكة وقد جاءت أنباء هزيمة الجيش الشرقي لعبدالله كضربة مدمرة. وقد ظلت فقط قوة المدينة المنورة التي يقودها علي لأن بقية الجيش قد ذهبت مع فيصل إلى سوريا.

وقد أرسلت قوة علي إلى الطائف لتمسك خط الدفاع الأخير أمام مكة وأمر عبدالله ثانية بالتقدم نحو الحزمة. رد عبدالله على والده "إذا أمر جلالتكم على إرسالي لحتفي. فإني سأذهب إلى الحزمة ولكن كجندي اعتيادي. لا يمكنني أن أتولى إمرة حملة لارجاء منها وتمريض الحجاز الخالية من الدفاع إلى قبائل نجد الهمجية ودون الحاجة إلى القول فقد وصلت الرسالة دون جواب وأدرك الحسين الآن حجم الخطر الكامن ضده مع ذلك ابتسم الحظ ثانية لحكومة الحجاز المتداعية لأن عبدالعزيز في المعسكر النجدي قد أصدر أوامرًا بمنع أي تقدم غرب ترابة بسبب احتمال حصول نار أو تدخل بريطاني" لو لم يكن هناك بيان بريطاني يعتبر فيه أي تقدم في المنطقة الحجازية بمثابة هجوم عليهم فإن بإمكان عبدالعزيز أن يتقدم بسهولة ويستولي على الطائف ومكة. هكذا كتب حافظ وهبة المستشار المصري للسعوديين. وقد كتب لورنس في نيسان التوصية المفزعة التالية فيما لو وصل عبدالعزيز واستولى على مكة "إذا ما تخلى عبدالعزيز عن المذهب الوهابي فإننا لن نفعل ما يسيئه ولكن إذا ما ظل وهابيًا فإننا سنرسل القسم المسلم من الجيش الهندي لاستعادة مكة وقمع الحركة الوهابية. وقد عرضت في عيد الميلاد من عام ١٩١٨ أن أفعل ذلك بعشر دبابات فقط). إن تأثيرٍ مثل هذا العمل على الهند سيكون كبيرًا ولم تسجل أية تعليقات من حكومة سهلا على هذا

الاقتراح وبقي الأمر هكذا حيث تم تحذير النجديين بشدة وهكذا أجرى الوهابيون العائدون إلى الرياض تغييرًا جذريًا في الوضع الراهن في الجزيرة العربية.

لو كان الحسين مستعدًا لترك الأمور مستقرة على هذا الحال، فإن مجمل تاريخ الجزيرة العربية قد يأخذ منحى آخر،إلا أنه أصبح واضحًا من الآن أن الملك مترفع عن التنازل أو المصالحة، فهذه لا تنسجم مع الطموح العالي. وسرعان ما شرع بالتآمر على النجديين بطريقة استفزازية قاسية وعقد حلف سري مع آل الرشيد وعائلة الصباح التي تحكم الكويت وشجعت عجمان على قضم بعض الأراضي الحدودية الشرقية لنجد، بل حتى أنه طلب من الإمام يحيى تقديم دعمه. وبعد حج عام ١٩١٩ الذي جاء بعد كارثة تربة. حرم النجديون من دخول الحرمين وهو فعل عدائي بعيد عن الحكمة. ظهر بعد ذلك تهديد خطير للنجديين هو انتشار سلسلة من الممالك الهاشمية خلف الحدود الشمالية محيطة بالدولة الصحراوية وفي صيف ١٩٢٠، تحرك السعوديون لضم هضاب عسير جنوب الطائف حيث شكلوا بذلك تهديدًا آخر على أطراف مكة والذي بات واضحًا بعد ما هوجم الحجاج المسافرين عن طريق اليمن عبر عسير وأعيدوا إلى أهاليهم.

أخذ نجم الحسين يخبو بسرعة كبيرة بعد ذلك لأن عبدالعزيز قد نفد صبره مع البريطانيين. حيث كان يشعر أنهم مصممون على كبحه وإهانته من خلال تهديدهم له بمنع أي تقدم على الحجاز من تربة، وعن طريق دعم الحسين الذي يشجع آل الرشيد على مهاجمة نجد، ومن خلال حماية عائلة الصباح في الكويت التي تتآمر ضده. وأخيرًا نتائج مؤتمر القاهرة الذي ألقى طوقا هاشميًا حول بلاده. وفي عام ١٩٢٠ توقف السير برسي كوكس في العقير وهو في طريقه لتولي مهامه الجديدة كمندوب سام في بغداد وأبدى عبدالعزيز قلقه حول الشائعات باحتمال تنصب ملك هاشمي جديد على العراق. وقد طمأنه السير برسي وهدأ من مخاوفه.

وجاءت السنة التالية ضربة قاسية للنزاهة البريطانية في عيون النجديين وذلك عندما توّج فيصل ملكا على العراق وعبدالله اميرًا على شرق الأردن.

وفي اجتماع القاهرة، طرح كوكس القضية السعودية وطلب رفع الإعانة المالية إلى (١٠٠,٠٠٠) باون سنويًا إذا ما أحل عبدالعزيز السلام مع الحسين وشمر والكويت. إلا أن الأوان قد فات فيما يتعلق بشمر، ففي نفس الوقت الذي عقد فيه مؤتمر القاهرة، تحركت قوة من الإخوان تحت قيادة شقيق عبدالعزيز ضد حائل. لم يحل السلام مع آل الرشيد لأنهم كانوا عازمين على القضاء على أعداء أسرتهم إلى الجنوب. وفي تشرين الثاني وبعد حصار ثلاثة أشهر، فتحت مداخل المدينة إلى السعوديين وأخذ آخر حكام آل الرشيد محمد بن طلال ليحل تحت رعاية سلمية كضيف في الرياض.

وانهار ركن آخر من أركان استراتيجية الحسين. ازداد القلق البريطاني بعد مهاجمة سلطنة نجد، كما أصبحت تسمى في تموز ١٩٢١ للدولة الخاضعة للانتداب البريطاني في الشمال. وقد اختفت دولة حائل الحاجزة التي أحبتها مس غرترودبل، من الخارطة السياسية. بدا في هذا الوقت وكأن نجد أخذت تنفجر في كل الاتجاهات: ففي نيسان ١٩٢٢، تم الاستيلاء على مدينة الحجاز الشمالية خيبر، وفي الجنوب سقطت المناطق الجبلية الخصبة غامد وزهران مما قرّب الإخوان بشدة من الطائف. وفي حزيران تم الاستيلاء على ميناء أم لج استعدادًا لهجوم أوسع في الشهر التالي على منطقة روالة في وادي سرحان. وتم الاستيلاء على عاصمتها الجوف وأصبح الطريق مفتوحًا على امتداد الممر الطبيعي للوادي إلى القلب شرق الأردن حيث تم بذلك دقّ إسفين في وسط الهلال البريطاني الفلسطيني - العراقي. وقد ظهرت خطورة الأزمة في الشهر التالي (آب) عندما أغار الإخوان على منطقة لا تبعد سوى (١٥) ميلا عن عمان حيث قتلوا جميع من صادفهم. وقد صدت الدروع ووحدات الطيران المرابطة في فلسطين وعمان هذا الخطر وألقت حمم نيرانها على الهجانة الإخوان وقد حدث سفك دماء ورعب مماثل على طول الحدود مع العراق.

أصبحت الآن قوة النجديين هي المهيمنة في الجزيرة العربية، حتى أن تشرشل قد أدرك ذلك رغم تفضيل مكتب الشرق الأوسط للشريف وفي اجتماع

لجمعية آسيا الوسطى في تشرين الثاني ١٩٢٢، تحدث الكولونيل فيكري المعتمد البريطاني السابق في جدة الذي قال مرة: "إن سياستنا هي تأييد نهج الحسين"، في حديثه عن تغير وجهات النظر بخصوص الجزيرة العربية حيث قال: أرى الآن في الجزيرة العربية قوة متنامية ليست من صنعنا ستكتسح كل من قدمنا إليهم الدعم في السابق.

إن حماية الأماكن المقدسة تقع على عاتق الشريف الحالي للجزيرة العربية إلا أنني أشعر أن السلام سوف لن يحل على الإسلام إلا بعد أن تقع مدن الرسول ثانية تحت حماية دولة محمدية تجمع السلطتين الدينية والدنيوية.

وفي كانون الأول، اجتمع كوكس وعبدالعزيز بن سعود ثانية في العقير وتم حل النزاعات بين نجد والعراق لأن فيصلا كان مستعداً للعمل وحده في هذه القضية مما أكسبه احتقار والده. وبقيت قضية شرق الأردن والحجاز معلقة وتم التوصل إلى قرار بحل هذه الخلافات بواسطة اجتماع مباشر بين الطرفين. ومضت سنة حتى تحقق هذا الاجتماع، في مدينة الكويت الخاضعة للحماية البريطانية. وقرر العراق ونجد إرسال وفود تمثلها وقد ماطل الحسين قائلا: إنه لم يتلق إشعاراً كافياً ثم وافق بعد ذلك على إرسال زيد شريطة أن يعيد السلطان النجدي جميع المناطق الحجازية والرشيدية والروالة. وهذا بالطبع هراء يصدر من حاكم فقد جيشه في معركة تربة. رفض عبدالله حضور مؤتمر الكويت رغم أنه أرسل وفداً إلى الجلسة الأولى ثم شن الإخوان عدة هجمات على محطة سكة حديد العلا وتبوك بعد بدء المؤتمر. اعتمد الحسين من جانبه على الموقف البريطاني التقليدي المؤيد كما فعلوا بخصوص الحزمة وتربة. وهذا ما فعلوه إلى حد ما وفشل المؤتمر، تولى اللفتنانت كولونيل نوكس الذي كان يترأس الجلسة المهمة النهائية الإعلان إلى الشخصيات المجتمعة بأنه استلم برقية من حكومة صاحب الجلالة في لندن تطلب فيها من السعوديين التخلي عن الحزمة وخيبر وتيماء كبديل لما قد يعطى إلى سلطان نجد من قرى الملح في وادي سرحان (التي كان قد استولى عليها مؤخراً). وقد بقي اللنبي المؤيد للحسين في لندن مخلصاً له. ويعد الانهيار المحزن للمؤتمر

رغب البريطانيون أن يرفعوا أيديهم من النزاع. فأوقفت الإعانات إلى كلا الطرفين وأصبح الخطر الوحيد أمام النجديين هو خوفهم من احتمال تدخل عسكري بريطاني فيما لو تم غزو الحجاز. ليس لدى عبدالعزيز أية وسيلة لمعرفة عدم وجود اتفاقية بين الحسين والبريطانيين وهو لا يزال يتذكر الإنذارات شديدة اللهجة التي تلقاها بعد معركة ترابة في عام ١٩١٩. ورغم أن ميثاق العقير الذي وقعه مع بيرسي كوكس في شتاء ١٩٢٢، كان يتضمن أنه لا يسمح بوقوع أي اعتداء على الحجاز إلا أنه شعر بتحرره من التزاماته مع بريطانيا خصوصًا وأن بريطانيا قد اتخذت جانبًا مواليًا للحسين بشكل صلب وغير معقول.

كان هناك فشلاً تامًا من جانب بريطانيا في إدراكها بأن عبدالعزيز يسعى لإخضاع الإخوان لسيطرته، وعندما أعلن الحسين نفسه خليفة في آذار عام ١٩٢٤، تحرك الوهابيون. فقد دعي لعقد مؤتمر للقبائل الموالية للسعوديين في الرياض في حزيران تحت رعاية والد السلطان الإمام عبدالرحمن وفي الاجتماع نوقش موضوع استبعاد النجديين من الحج مدة خمس سنوات وموضوع الفوضى المتفشية في الحجاز. وقد أدين الحسين وعبدالله بسبب طموحاتهم الشخصية. وتم توزيع كتابًا أخضر يشرح هذه المظالم إلى جميع البلدان الإسلامية وقد لاقى قبولا واسعًا في الهند حيث استشاطت لجنة الخلافة غضبًا على الحسين لاغتصابه اللقب دون مشورتهم. وقد كان القرار الإجماعي للشيوخ والعلماء والإخوان المجتمعين في الرياض هو أن الوقت قد حان للتحرك ضد الحجاز لوضع حد نهائي للنزاع المحتوم. كان السلطان معارضًا لأنه لا زال يخشى من رد الفعل البريطاني على الهجوم الشامل إضافة إلى شكه بقدرة قواته الصحراوية على القتال في جبال الحجاز. لذلك وفي نهاية عيد الأضحى المبارك ناقش السلطان مع قادته إمكانية شن هجوم على عاصمة الحجاز الصيفية الطائف. كان وهبة هو الذي طرح هذا الاقتراح لأنه قد يلوي ذراع الحسين في المفاوضات.

ومن ناحية أخرى قد يجبر البريطانيين على أن يكشفوا موقفهم أي هل هناك في الحقيقة معاهدة إنكلو - حجازية؟ وفي نهاية الاجتماع اتخذ القرار

بإرسال (٣٠٠٠) رجل لغزو الطائف ولكن بما أن هناك نزاعاً بين فيصل وسعود أبناء عبدالعزيز حول من سيقود الحملة، لم يرسل عبدالعزيز أيّا منهما، وكانت لذلك نتائج قاتلة.

تم إعداد هجومين خادعين ضد الأردن والعراق وذلك لتحويل الانتباه عن الموقع الحقيقي للهجوم ولمنع التعزيزات المرسلة من الأبناء الهاشميين لوالدهم في نفس الوقت أمر الحسين إدراكا منه باحتمال سقوط الطائف بيد أعدائه بإعادة بناء سور المدينة وبإحاطة المدينة بمجموعة من القلاع.

وبتعزيز حاميتها التي كانت بإمرة عبدالله باشا بن محمد، نائب القائد في الحجاز، كان خالد بن لؤي يهدد المدينة باستمرار منذ عام ١٩٢١، وقد أرسلت ثلاث حملات تأديبية بقيادة علي لقمع المناوئين المشكوك بولائهم في منطقة وادي لياح شرق المدينة مباشرة.

وفي (١) أيلول سقطت كلاك، وهي إحدى القلاع المحيطة بأيدي القوات الوهابية وتراجع جيش علي خلف أسوار المدينة. وقد تملك الرعب سكان الطائف حيث تذكروا المذابح التي حلت بهم عندما احتل الوهابيون المدينة في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر. وقد طلب العديد من المواطنين والحجاج الزائرين المغادرة إلى مكة. إلا أن القوات الهاشمية منعت مغادرة أي فرد وأغلقت مداخل المدنية، ولم تطبق مثل هذه القوانين على الجيش، وفي ليلة الرابع من الشهر، غادر الجيش بعد حلول الظلام مع عليّ وتحركوا إلى حدا الواقعة على الطريق نحو مكة. وقد فزع سكان المدينة لتركهم وحدهم، وناقشوا أمر تسليم الطائف إلى زعماء الإخوان خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد وتم التوصل إلى حل سلمي. وفي مساء يوم (٥) أيلول تم فتح أبواب المدينة وما حدث بعد ذلك غير معروف ولكن يبدو أن الإخوان عندما دخلوا أطلقت عليهم النيران من مخفر للشرطة، تلا ذلك أكثر أعمال العنف قسوة فقد قطعت حناجر الأطفال والنساء قبل أن ترمى الأشلاء في حفر مفتوحة. أما الآخرون ومن ضمنهم القاضي والعلماء الذين التجأوا إلى جامع ابن عباس، وهو ضريح أحد أحفاد محمد ﷺ ، فقد قتلوا جميعهم وعموماً فقد تم

قتل (٣٠٠) شخص وسلبت المدينة وقد تم جمع بقية المواطنين في حديقة قصر شبرا الشريفي ووضعوا تحت الحراسة.

في هذا الوقت ترك علي مجموعة من رجال المشاة لحراسة الطريق إلى مكة في حين تراجع هو إلى عرفات التي تبعد (١٤) ميلا شرقي مكة. وقد اتصل الحسين هاتفيًا بالطائف لمعرفة ما يدور، وفشل في الحصول على أي جواب ثم جاءه الهاتف من حدا. ومن هناك أبلغ بسقوط الطائف وتراجع ولده الأكبر. وقد شعر بالفشل وأفعمه الغضب. وبعد أن عرف مكان علي أمره بالعودة إلى الطائف وهذا ما فعله علي ولكن عند تحركه نحوها، التقى بجماعة من رجال المدفعية وهم في هزيمة ساحقة وقد أضاف قوته المتكونة من (٨٠٠) جندي إلى متطوعي مكة المائتين الذين تم تزويدهم بالمال والسلاح. إلا أنهم هزموا هزيمة مُرّة.

وغضب الحسين ومنع علي من دخول مكة لذلك بقي في حصن بازان. وتم استدعاء القوة الجوية التي أمرت بقصف السعوديين، ولكن السعوديين أسقطوا إحدى هذه الطائرات وطيارها من الروس البيض بوابل من نيران البنادق. وأصبح الطريق إلى مكة مفتوحًا ولا يمكن أن يكبح تقدم النجديين سوى خطر القوات البريطانية.

* * *

الفصل السادس عشر

التنازل عن العرش والوجود

▫ لم تتأخر أنباء أحداث الطائف في الوصول إلى مكة حيث ولدت هلعًا وخروجًا جماعيًا لأكثر من نصف السكان إلى الميناء البحري جدة. وقد فزع عبدالعزيز لما حدث في الطائف وأصدر الأوامر إلى ابن بجاد وابن لؤي بعدم التقدم دون استلام تعليماته المفصلة وإلا القصاص على حياتهم. وقبل أن تصل هذه الرسالة أطلق ابن لؤي أسراه الفزعين من قصر شبرا وسيقوا مجتمعين حفاة وجوعى نحو مكة مع رسالة فاترة بأن بقية المدن الحجازية ستلقى نفس المعاملة إذا لم يخلصوا أنفسهم من أبو خيشة (أي الحسين). مع ذلك، لم يكن من الممكن حصول أي تقدم آخر إذا لم تتوضح نوايا البريطانيين.

لا يساور الحسين أي شك حول ماذا سيفعل وعلى من يلقي باللائمة. ففي (٢٩) أيلول وبعد فترة طويلة من السكون غير المألوف من جانب الإخوان، أبرق الملك إلى الوكيل الهاشمي في القاهرة: لقد هزمنا يا عبدالملك لقد تراجع جيشنا إلى بازان، التقى مع المندوب السامي الإنكليزي وأبلغه، نخشى أن يلاقي عدوان ابن سعود دعمًا من الإنكليز. سأتولى شخصيًا مسؤولية قيادة الدفاع عن مكة حتى أسوار الكعبة. إني ألقي المسؤولية على المهاجمين أمام العالم الإسلامي وقد أعلن البريطانيون رفضهم وامتنعوا عن إصدار بيانات بالمساندة أو الإدانة مهما كانت

وذكروا أن المسألة أصبحت مسألة دينية داخلية. وقد أهمل طلب الحسين لإرسال أربع طائرات لقصف السعوديين.

لم يجد سكان جدة أي عزاء في التمثيل المسرحي لقائدهم رغم أنه دون شك كان مخلصًا في نيته بالاستمرار في القتال في الحرم. وقد سجل بولارد ذلك قائلا: إن كره مواطني مدينة جدة للحسين كان مختفيًا حتى الآن تحت غطاء الأمن المستتب ولكن على مرأى من الوهابيين الذين على وشك، كما يعتقد أن يخلّصوه من الملك الحسين، فإنه ناقش موضوع الخيانة بشجاعة. وقد انكشف في (٢٤) أيلول، كم من الناس كانوا مستعدين للخيانة وكم هي ثقة الشعب بمليكه الحالي، وذلك عندما دخل وفد من وجهاء جدة إلى مكتب بولارد وشرعوا يطلبون منه إقامة محمية بريطانية على الحجاز. ولا يتطلب الأمر برقية إلى الوايتهول للرد على القضية بالنفي، ولكنهم لم يكونوا أسرع من وفد سري تألف من علي رضا (قائمقام جدة) ومحمد الطويل (مدير الكمارك) وسليمان قابل (رئيس بلدية جدة) ومدير التربية الذين أوضحوا أنهم سيكونون سعداء بالانتداب، إن تورط بريطاني إلى هذا الحد، قد يثير الهند، أنه شيء قد يصلح للعراق أو شرق الأردن ولكن الحرمين نمط مختلف تمامًا.

وقد انتهى الخلاف ببرقية أرسلت من قبل شوكت علي نيابة عن لجنة الخلافة في الهند إلى صحيفة التايمز والتي تقول: إننا نحذر الحكومة البريطانية ونطلب منها الكف عن فعل أية محاولة شبيهة بذلك (أي تدخل غير إسلامي). لذلك عاد هذا الوفد الثاني إلى موضوع الاستقلال والمجهول. ومع فشل هذين الوفدين الذي ما زال ماثلا في أذهانهم، اجتمع أهالي جدة ثانية لاتخاذ قرار حول سير الأحداث. كانوا يودون الحفاظ على استقلال الحجاز، لأنهم كانوا يخشون أن يقضي الاحتلال النجدي على تجارة الحج ويستنفد أرباحها لتحسين أحوال البدو. ومن جانب آخر لا يتوقع حصول أي تحسن بالملاقات بين الحسين وعبدالعزيز خاصة بعد أن أصبح واضحًا أن بريطانيا قد تخلت عن الحسين فالملك يجب أن يرحل وبالاختصار كانت المقترحات التي تم إقرارها تتضمن ما يلي:

١. تنازل الحسين عن العرش.

٢. إعادة تسمية الحكومة بالحكومة الحجازية وليست العربية.

٣. يصبح الأمير علي هو الرئيس الدستوري للدولة.

٤. يتم وضع دستور في وقت لاحق.

لم يكن علي مؤذيًا، كما يعتقد إلى الحد الذي يرفضه عبدالعزيز، كما أن التخلي عن المطالبة بالخلافة والأراضي العربية ستدفن الخلافات. بقيت هناك الآن مشكلة واحدة فقط هي من الذي سيواجه الملك ويبلغه بالنبأ؟ وشعروا أن هذا الشرف سيكون أول واجب لملكتهم الجديدة. كان علي مترددًا حول تحدي سلطة والده ولكن المبررات كانت قوية ومقنعة لذلك فإنه وافق في النهاية إذا ما ابرق المجلس المخول إلى والده بذلك. وهذا ما فعلوه في (٣) تشرين الأول حيث تركوا جانبًا الصمت المعتاد ووقع جميع الأعضاء الـ (١٤٠) على البرقية التي كانت تنص: بما أن كل الشعب الحجازي يواجه فوضى عامة بعد انهيار الجيش وعجز الحكومة عن إنقاذ الأرواح والممتلكات أو تفادي الكارثة العامة التي تواجه الحرمين والبلاد وأهمية الأرض المقدسة إلي جميع المسلمين، فقد قرر شعب الحجاز تنازلكم عن العرش وتعيين علي ملكا على الحجاز. وسوف يعزز سلطته دستور ومجلسان وطنيان لذا فإننا نطلب منكم الإذعان لرغباتنا لأنه بفعلك هذا ستضيف أفضالاً أكثر لخدماتك إلى الإسلام والشعب. كانت تلك من أقوى الضربات على الإطلاق لأنها لم تكن متوقعة. إذ لم يسبق أبدًا أن واجهت سلطة الملك مثل هذا التحدي أبدًا والآن يطلب منه شعبه التنازل عن العرش لأنه يعتبره سبب مصائبه. كان غضبه هستيريًا عندما كلم علي هاتفيًا وطلب منه توضيح هذه المؤامرة. وقد أجرى علي ما يجب أن يعتبر أكثر الرحلات المشوبة بالقلق في حياته من جدة لمقابلة والده في مكة وقد دافع علي عن القضية قائلا: إن همه الرئيسي هو سلامة الملك حيث أجابه الحسين إن جميع أبنائه قد نالوا مكاسب منه لتعزيز مواقعهم ولم يذكر اسم فيصل بعد تعامله من جانب واحد مع عبدالعزيز بعد الآن أمام الملك. وعندما أتعب الملك نفسه جلس في ديوانه ولدهشة علي الكبرى وافق الملك

على التنازل عن العرش. ولكن ذلك ليس في صالح علي لأن خطايا الأب غير منفصلة عن خطايا الابن. وقد وافق علي على ذلك وجلسا معًا لإعداد قائمة البدلاء المحتملين وهم الشريف ناصر شقيق الحسين وخديوي مصر السابق عباس حلمي. وطيلة المناقشة استمر الهاتف الملكي بالرنين بشكل متواصل حيث ألح العديد من الوجهاء على الحسين على الموافقة على علي. وقد طرد معظم المدعوين بشكل فظ وقال لهم بأنهم "مجرد عاملين لدي وليس لكم الحق بالتحدث معي بهذا الأسلوب". وكان طاهر الدباغ من وزارة المالية وهو رجل شريف وزعيم موثوق من حركة الإصلاح في غاية الصراحة عندما أبلغ الحسين بأن وجهًا جديدًا ضروريًا جدًا لانتهاج سياسة جديدة. وقد وافق الحسين طالما أن هذا الوجه الجديد لا يكون صاحبه غير عليّ. وقد كان الملك غاضبًا لأن ولده الذي خذله في الطائف سيكون خيار الشعب.

اجتمع الدباغ بزملائه واتفقوا على أن الأولوية الآن هي التخلص من الحسين فلا أحد سيكون أسوأ منه. لذلك أبرق جوابهم وكان كالتالي: "إن الموقف محرج ولم يبق هناك وقت كاف للمفاوضات فإذا لم تتنازل لعلي فعليك أن تتنازل فقط كي يمكن أن تتشكل حكومة مؤقتة لتنقذ البلاد وتحقن الدماء". وقد سلمت البرقية إلى الحسين عند عودته من صلاة المغرب ويبدو أنه في تلك اللحظة انهارت إرادته وفي ظلمة قصره المهجور حاليًا جلس وكتب بالقلم الذي يفضله وأملى إرادته السياسية في التاسعة مساء يوم (٣) تشرين الأول: "لقد قبلنا عرض التنازل عن العرش لأننا نهتم فقط في خير بلدنا. نحن نطلب منكم أن تتركوا شعبكم ليتولى الأمر بهدوء. وإذا ما حدث أي شيء فأنتم الآن المسؤولين. إضافة إلى ذلك فإذا ما وافق علي فعيّنوه فورًا". وللمرة الأولى وربما للمرة الأخيرة في حياته أخذ مشورة آخرين رغم أنه لم يكن مستعدًا للذهاب دون وعيد صاخب لأصدقائه المزيفين. فقد كتب إلى عبدالملك الوكيل الهاشمي في مصر أن أصدقاءك (البريطانيين) غير راضين عنا بالاستمرار كملك ويودون تعيين ولدنا علي اقبل أية تعليمات تستلمها منه.

ذهب الطويل والدباغ مسلحين بهذه البرقية إلى علي الذي عاد الآن إلى جدة، سلماه الرسالة التي تعينه كرئيس دستوري للحجاز بسلطة فعلية تحددها لجنة يمكن أن تمارس عملها إلى حين حصول شكل من أشكال الانتخابات. وقد استقبل علي رعاياه والأنباء بطريقة صامتة ومربكة إلى حد ما، وعند التقائه بالوجهاء المجتمعين قال: لقد عينتموني على عرش منهار ولكني أقبل التعيين كواجب. ولم يتمكن شعب جدة ومكة من تصديق أن الأتوقراطي العجوز قد سقط. لقد كانوا يرغبون منذ زمن طويل أن يروا الحجاز خاليًا من حكمه ولكن عندما حصل ذلك كان الأمر غير قابل للتصور.

أعلن علي ملكًا على الحجاز وسط احتفال تتويج بسيط في (٤) تشرين الأول في جدة. لقد ذهب وبقي في صفحات التاريخ فقط ولكن من المهم استذكار الوصف الذي تركه هوغارث عن هذا الأمير الذي قضى حياته في ظل أب غير اعتيادي "كان قصيرًا ونحيفًا ويبدو الآن أكبر قليلا. منحني الظهر قليلا لون بشرته شاحب وعيونه بنية عميقة كبيرة وطباعه بسيطة وهو ذو ضمير حي ورجل دمث دون قوة في الشخصية وعصبي ومتبرم إلى حد ما.

إن ضعفه الجسدي قد جعله خاضعًا لنوبات سريعة من الانفعالات المستثارة مع مزاج دائم للعناد الشديد، وهو غير طموح لنفسه ولكن يتغير إلى حد ما بسهولة وفق رغبات الآخرين. وهو ميال للمطالعة وله اطلاع في الدين والقانون".

إن علي يستحق أفضل من هذا الرداء الملكي لدولة حجازية مفلسة ومتداعية. في عام ١٩٢٤، بقيت هناك مشكلة واحدة لم يتنبأ بها أحد. فالحسين قد يستقيل ولكنه لم يبدو أية إمارة لترك الحجاز. فقد جلس مكتئبًا في الظلمة في مكة حتى أبرق إليه الشجاع الدباغ قائلاً: "شكرًا لله فقد حصل هذا اليوم تتويج ولدكم لذلك فإننا نتوقع من جلالتكم المغادرة مع احترامنا الكبير". وقد وافق الحسين على الذهاب وكان قد أسرّ بولارد: "إلى حين أن يغادر فعلا، فإن علي سيستمر صفرًا وسوف لن يبدأ بأي عمل جدي". وبعد خمسة أيام من العمل في رزم

حاجيات الحسين الحياتية في سيارته المرسيدس التي غنمت في إحدى المعارك. غادر الحرمين إلى الأبد في (٩) تشرين الأول ١٩٢٤، وفي جدة استقبل موكبه ذو الخمس سيارات بحفاوة فقد ظهر سكان جدة الآن كرماء حين كان يغادر البلاد. مع ذلك شعروا بتأثر عميق تجاه سيدهم الذي كان لزمن طويل جزءًا كبيرًا من حياتهم وفي (١٥) تشرين الأول كتب آخر نصيحة له إلى الحجازيين: لقد عينت اللجنة ولدي علي ملكا على الحجاز لوحده وإن الحكومة يجب أن تستند على الدستور. وبما أن نهضتنا تستند على استقلال جميع البلاد العربية بغض النظر عن الحدود وبما أن أرض الحرمين يجب أن تحكم بموجب القرآن وسنّة نبيه ﷺ، فإن اقتصار السلطة على الحجاز فقط يعتبر أمر غير صحيح. وإن جعل الحكومة دستورية سيجعل من المستحيل حينذاك الحكم بالقرآن والسنّة سيتطلب ذلك تعزيز القوانين الديمقراطية والتي هي نقيضة للإسلام وضد نهضتنا التي قاتل من أجلها العديد في الحجاز لذلك أطلب منكم إبلاغ اللجنة الموقرة احتجاجي الأخير على تقييد الحجاز لأن هذا سوف يقود إلى تجزئة العرب وضياع حقوقهم الأساسية. وفي اليوم التالي أي يوم (١٦) من الشهر ودّع مؤسسة جدة والقناصل الأجانب وصعد الشريف على ظهر باخرته اليونانية (الرقماطين) والتحق بالملكة السابقة جليلة زوجته التركية التي يقال أنها أقنعته في الآخر بالحاجة إلى التنازل وأبحر نحو العقبة وموطن اعتزاله. مع ذلك حتى هناك لم ينته ذله. وعندما كان الحسين خارجًا في طريقه بدأ حزب الحجاز الوطني - هكذا أصبحت تسمى لجنة الوجهاء - بدأ بتأسيس أول حكومة ديمقراطية دستورية، رغم أن الوقت لم يسمح مع الأسف لا لتكوين الدستور ولا للانتخابات. وقد ضم مجلس الوزراء العديد من الوجوه المعروفة ولكن في مظهرهم الجديد كانوا يأملون بأن يكونوا مقبولين من السلطان عبدالعزيز وكان من ضمنهم:

- الشيخ عبدالله السراج - رئيس وزراء (مفتي مكة).
- طاهر الدباغ - وزير المالية.
- محمد الطويل - وزير الضرائب (القوة الحقيقية في الحزب).
- الشريف محسن بن منصور - وزير الداخلية.

- فؤاد الخطيب - وزير الخارجية (كما كان دائمًا).
- تحسين باشا الفقير - وزير الدفاع (سوري متفائل شديد).
- عبدالقادر الغزاوي - وزير المواصلات.
- الدكتور الخطيب - وزير الصحة.

وقد تم تحديد الأهداف الحالية بالشكل التالي:

١. التفاوض مع ابن سعود لتحقيق المصالحة.

٢. الاتصال بالعالم الإسلامي للحصول على الاعتراف والتوسط في الأزمة.

٣. تقوية الجيش والسعي للحصول على تعزيزات من شرق الأردن والعراق.

٤. توقيع معاهدة مع بريطانيا.

وكان للنقطة الأخيرة أولوية أكبر لأن حكومة الحجاز تعتمد على تنازل الحسين لإزالة العائق الذي يحول دون التوقيع. وقد اقترح علي برفقة عبدالله، على مجلس التاج في عام ١٩٢٣ بأن توقع المعاهدة وتقدر حق قدرها إلا أن عناد الحسين حول موضوع فلسطين هو الذي حال دون التصديق عليها.

لا توجد مثل هذه المخاوف الآن، لذلك أرسل زيد إلى لندن وعاود الدكتور ناجي نشاطه. لقد طلب منه علي في (١٦) تشرين الأول توقيع المعاهدة الإنكلو - حجازية ولكن كم كانت إهانة له عندما أبلغه البريطانيون أن وزارة الخارجية ترى من الأفضل الانتظار قليلا قبل التعهد بأية التزامات إلى الأمير الذي قد يكون في موقع لا يسمح له بتنفيذ التزاماته بموجب الاتفاقية. كانت وزارة الخارجية، التي كانت تضغط من أجل إرجاع الدكتور ناجي لعمله تقدر الأسباب التي تدفع الحجازيين للمعاهدة وحطمت جميع آمالهم بالإشارة إلى أن مسودة المعاهدة لم تحتوي على فقرات للدفاع المتبادل بل هي مجرد اتفاقية لاستخدام جميع الوسائل العملية المتوفرة لدى بريطانيا للدفع لإحلال تسوية سلمية بين الحجاز وسلطان نجد ابن سعود.

وفي جدة، استقبلت الأنباء بحزن عميق رغم وصول (٣٠٠) متطوع جندوا من شرق الأردن وأرسلوا نتيجة مساعي الحسين الحميدة في العقبة. وشرع تحسين باشا وزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة بحفر الخنادق حول جدة ورمي الأسلاك الشائكة. وقد سعى عبدالملك الخطيب، الوكيل الهاشمي في القاهرة بنشاط، لتأمين الأسلحة والذخيرة.

وتحول وجود بولارد الآن إلى وجود رهباني في القنصلية المواجهة للبحر بعد رحيل الرعايا البريطانيين على ظهر الباخرة (كليمايتس) بعد أن أجروا زيارة مجاملة لعلي،لأن بريطانيا لم ولن تعترف بالملك الجديد وقد حضر بولارد الذي كان على حق حتى الآخر ببدلة استراحة متخليًا عن اللباس الرسمي وقد بقي الاثنان أصدقاء رغم المآزق الدبلوماسية العديدة التي فرقت بين الدولتين اللتين يمثلونهما. وقد كشفت تقارير ظهرت في صحيفة التايمز اللندنية كالتي نشرت في (٣) تشرين الأول انتهاء أسطورة الحماية البريطانية للحجاز من المؤكد أن الحكومة البريطانية تقف على الحياد، وإذا ما وصلها أي طلب بالمساعدة العسكرية أو الجوية فإنه سيقابل برفض مؤدب ولكنه شديد. وفي (٥) تشرين الأول ذكر أن رامسي مكدونالد قال: إن حكومته ترفض أن تتدخل بنزاع ديني. مع ذلك يبدو من الصعب التصديق أن بريطانيا قد تتخلى فجأة عن هذه الفرصة الكبيرة. كان علي يعرف أن قواته غير كافية للسيطرة على مكة حيث يمكن بسهولة تطويقها إذ ليس للمدينة أية أسوار وتحتاج يوميًا إلى ٣٠٠-٤٠٠ جمل محمل لإمداد مواطنيها. وخشية من خسارة نصف جيشه إذا ما سقطت مكة في المعركة، كرر الملك الفعل الذي أكسبه احتقار شعب الطائف. ففي مساء (١٣) من الشهر أصدر أوامر سرية لرجاله الأربعمائة للجندرمة بالانسحاب بهدوء إلى البحرة، والتي تقع في منتصف الطريق بين مكة وجدة. وهكذا كان، ففي صباح يوم (١٤) وجد المكيون أنفسهم دون دفاع أمام الوهابيين ولكن كان البدو وليس الإخوان هم الذين استفادوا من الوضع. فقد نهبوا وسلبوا شوارع المدينة المقدسة في حين لزم المواطنون الفزعون بيوتهم. وقد وصلت أنباء هذا التغير إلى ابن لؤي الذي شق طريقه إلى مكة رغم أوامر السلطان له بالتوقف. وفي يوم ١٦ دخل النجديون مكة ولكنهم وجدوا أن

البدو قد غادروا للتو بعد عمل الشريف حمزة الفعر الشجاع الذي اخترق شوارع المدينة منزلا ضرباته بهم، وقد استذكر ابن بجاد وابن لؤي، تهديدات عبدالعزيز إذا ما تكررت مذبحة الطائف، لذلك أبقوا قواتهم تحت إمرة مشددة.وبعد أن ترجلوا عند حدود الحرم، أمر القادة جنودهم بالتعسكر في حين لبسوا هم الإحرام ودخلوا المدينة وحدهم. وفي الشوارع المقفرة، جرى إعلان بضم مكة وسلامة مواطنيها. وتدريجيًا تم فتح المداخل الرئيسة وتسلل المواطنون المصابون بالهلع ببطء إلى داخل الشوارع. وصل الإخوان بعد ذلك وصبّوا جام غضبهم المكبوت وقاموا بإحراق السكائر والشيش وحطموا الأضرحة ووعظوا الناس عن خطأ طرائقهم. وبعد أداء العمرة - وهي طقوس للحج تجري في غير موسم الحج - جلس ابن لؤي على عرش الشريف المرصّع وأخذ يتلقى مبايعة الزعماء الدينيين والمدنيين.

وفي نفس الوقت، تلبدت سماء جدة بغيوم سوداء أخرى، حيث استلم علي رسالتين تثيران الحزن، الأولى من عبدالعزيز الذي أوضح بشكل جلي أنه سوف لن يحل السلام طالما هناك هاشمي يحكم في الحجاز، والثانية من لجنة الخلافة التي أعلنت أنها سوف لن تقبل أية حكومة على رأسها أحد أبناء الحسين وأنهم سيقبلون فقط سلطة ديمقراطية يشارك بها جميع المسلمين. وقد كتب قناصل بريطانيا العظمى وإيطاليا وفرنسا وهولندا وإيران إلى السلطان عبدالعزيز[1] مشيرين إلى أنه يجب أن لا يلحق أي أذى رعاياهم محملين النجديين مباشرة المسؤولية ولكنهم أوضحوا في الآخر وبشكل حاسم أنهم محايدون. وقد أرسلت هذه الرسالة من ابن لؤي إلى عبدالعزيز الذي كان في طريقه من الرياض إلى مكة بعد إعلان نيته بعقد مؤتمرٍ لجميع الدول الإسلامية لحل قضية الحجاز. ومن مخيمه رد على القناصل قائلا: "إني أود بإخلاص حقنِ الدماء وتلبية رغبات العالم الإسلامي الذي قاسى كثيرًا خلال السنوات الثماني الأخيرة. ولكن الشريف علي

(١) الرسالة المؤرخة في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٢٤.

ونظرًا للموقف الذي في جدة لم يترك لنا سبيلاً آخر.. ومن أجل إنقاذ شمويكم وحماية ممتلكاتها فإننا نقترح ما يلي:

١. أن تغادروا إلى مكان ما داخل أو خارج جدة حيث سنرسل لكم أحد الرجال لحمايتكم.

٢. إذا ما فضلتم إرسالهم إلى مكة، حيث سيكونون قريبين من الحرم.. فإننا سنرحب بهم[٢].

وقد رفض القناصل كلا المرضين، ولكن عبدالعزيز أرسل فارسًا لتحذير ابن بجاد وابن لؤي بعدم التقدم إلى ما وراء مكة لأن ذلك قد يؤدي إلى عمل انتقامي من قبل الدول العظمى إذا ما اصبح أي من الأجانب ضحية لحرب الحجاز.

وقد كان علي يتردد باستمرار حول ما يجب عمله، ولكنه أخذ مشورة وزير دفاعه الذي يثق به كثيرًا وهو تحسين باشا الذي أبهجه بقصص عن "انتصاراته المذهلة على الجيش التركي". فقد أقنع علي أنه عندما تصل الأمور في النهاية إلى حصول معركة تقليدية، فإن التدريب والمعدات والقيادة الأفضل للجيش الحجازي هي التي تكسب الحرب. وقد قرر الملك القتال.

لم يكن لحزب الحجاز الوطني تصورات واضحة عن حقيقة الوضع وقرروا سرًا السعي لتسوية الخلافات مع الوهابيين والحفاظ على استقلال الحجاز. وكتبوا إلى ابن لؤي في مكة في يوم (٥) كانون الأول عبارات عامة ولكن كان جواب ابن لؤي في يوم (١٨) لا يحمل الكثير من الأمل: "نحن المسلمون، ليس لنا من هدف سوى طاعة أوامر الله، ونحب الذي ينفذ هذه الأوامر حتى لو كان عبدًا حبشيًا ونقاتل الكفار أو المشركين. وكما قال الله في كتابه الكريم (سورة المجادلة):

---

(١) مكتبة ناصيف - جدة، السجل العربي للبرقيات الهاشمية - النجدية.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (المجادلة:٢٢) فإذا ما نظرتم إلى موقفنا ودرستم أفعالنا فإنكم سترون أن هذا هو طريقنا في الدفاع عن الإسلام".

وبخصوص أمن الحجاز، أرفق ابن لؤي نسخة من إعلان السلطان عبدالعزيز إلى شعب جدة ومكة الذي يقترح فيه عقد مؤتمر عن مستقبل المنطقة والتأكيد للحجازيين بضمان سلامتهم وقد أجاب الدبّاغ على الفور: "نود أن نشيركم، أنه خضوعًا لمطالب الشعب، تنازل الحسين عن العرش وقد غادر البلاد[1]، وقد اصبح ابنه علي هو الملك، إن الشعب يعرف أنه ذو أخلاق فاضلة ويحترم الإسلام. وقد وافق، وكانت موافقته مشروطة بقبوله آراء المسلمين بنفس الطريقة التي أوضحها السلطان عبدالعزيز في رسالته[2] نحن نقبل بهذا الوضع، لذلك ليس هناك من سبب يدعو إلى القتال. نحن نطلب موافقتكم على إرسال وفدنا إليكم بسلام من أجل توقيع هدنة لحقن الدماء حتى تصل جميع وفود الدول الإسلامية. وعندما يجتمعون فإننا سنقبل بكل ما يقررون". كان الدباغ يرغب مهما كلف الأمر إبطال الأمر الواقع الذي حققه النجديون الذي يقضي على الطابع المستقل للحجاز. واستمر ابن لؤي يصب الماء البارد على هذه المطامع وذلك بإجابته المتقنة في (٢٠) من الشهر: "لقد طهر الله للتو الحرم المقدس بتخليصه من الحسين.. إننا سوف نقاوم جميع من يستمر بدعم علي". وقد رفض الطويل رئيس حزب الحجاز الوطني التخلي وطلب إرسال وفد إلى مكة لمناقشة الأمور حيث وافق ابن لؤي على ذلك وغادرت مجموعة مؤلفة من ستة رجال جدة في (٢١) من الشهر بواسطة

---

(١) ليس هذا صحيحًا لأن الحسين كان مجرد أن انتقل إلى العقبة التي كانت لا تزال تابعة للحجاز.

(٢) لم يُناقش هذا مع علي.

السيارة[1]. وقد اتخذ النقاش الذي تلا ذلك شكل إنذار من ابن لؤي يتكون من ثلاثة خيارات: إما القبض على علي، أو طرده خارج الحجاز، أو مساعدة النجديين على الاستيلاء على جدة.

وقد اكتشف علي حصول هذه المفاوضات وتحرك بسرعة وقبض على جميع المشتركين بها ومرّة أخرى وقع تحت ضغط تحسين وقدمهم جميعًا إلى محكمة عرفية. وحُكم على بعض المتآمرين بالسجن واثنان منهم بالإعدام بتهمة الخيانة. وقد كان أهالي جدة مذعورين لأن بعضًا من هؤلاء كانوا سليلي أكثر عوائل المدينة احترامًا، لذلك في (١٢) كانون الثاني أعفى علي هؤلاء المتورطين ولكن بعد شهر أرسل أربعة من أعضاء حزب الحجاز الوطني إلى المنفى في العقبة[2]. لقد جاء جواب علي القاسي على مبادرة أعضاء الحزب في جزء منه بسبب وصول فيلبي وأمين الريحاني والسيد طالب من العراق في (٢٩) تشرين الأول. لقد أقنع وجود فيلبي علي بأن تلك بادرة إلى تغيير سري في الموقف البريطاني. وهو خطأ سعى بولارد جاهدًا لتصحيحه. وفي الواقع أن تلك مبادرة شخصية من جانب فيلبي الذي أعد المهمة مع الدكتور ناجي في لندن. وفي كل الأحوال منيت المهمة بفشل ذريع لأن عبدالعزيز لم يصل حتى الآن إلى مكة. وقد مُنِع فيلبي، بصفته عاملا لدى الحكومة البريطانية من التخطي خلف جدة، وبعد وصوله مباشرة لزم الفراش بسبب اعتلال معوي والفنغرينا.

واستمر عبدالعزيز برحلته إلى مكة ووصل إلى الطائف في (٣) كانون الأول، وفي (صايل)، الواقعة على الطريق إلى مكة، ترجل ولبس الإحرام وتوجه نحو المدينة المقدسة. وعند وصوله إلى باب السلام أحيط بالمؤيدين الذين رافقوه إلى مقصده الأول: وهو الجامع الكبير حيث سيصلي فيه ويقدم الشكر. وفي صباح يوم (٦) كانون الأول، اجتمع الناس لتقديم ولائهم إلى السلطان، ولكن عندما تقربوا لتقبيل يده أخبرهم: "إن عاداتنا العربية هي المصافحة فقط". كان لتواضعه

(١) محمد ناصيف والشيوخ الصبّان وعقبة وشلهوب وشطة وسلامة.

(٢) تم إطلاق سراحهم بواسطة تدخل عبدالله السرّاج رئيس وزراء الحجاز، في آذار.

ولرفضه المديح الأثر الكبير على الشعب الذي أصبح يحس يوميًا الفرق بين الحكم النجدي القوي والحكم الشريفي السيئ. وقد رفض عبدالعزيز ديوان الحسين المترف وبقي في معسكر من الخيم في (عتبة) على التلال خارج المدينة. وفي هذا الاجتماع كرر إعرابه عن اسفه لما حصل في الطائف وعرض تعويضًا للضحايا.

وفي الثاني من كانون الثاني ١٩٢٥، اجتمع العلماء الوهابيون وعلماء الطوائف السنية المختلفة الممثلة في مكة وسووا خلافاتهم الدينية بفترة قصيرة غير عادية من الوقت حيث أصدر بعدها عبدالعزيز بيانًا حول مستقبل الحجاز تضمن النقاط الخمس التالية:

١. جئنا لنصرة دين الله وتحريركم.
٢. سوف يكون دورنا استشاريًا حول جميع قضايا الحجاز خلال المؤتمر الإسلامي الذي سيقرر شكل الحكومة في الحجاز في المستقبل.
٣. سوف تستند القوانين على القرآن وسنّة رسول الله.
٤. سيستمر العلماء وكادر الحرم والمطوفين باستلام رواتبهم.
٥. سيكون العدل متساويًا للجميع؛ أي تلغى قوانين أبي نُمي التي تعتبر الأشراف فوق العديد من القوانين.

وقد سرّ شعب مكة بشكل عام بهذا الإعلان ولكنهم عارضوا النقطة الثانية قائلين أنهم هم وليسوا الأجانب الذين يجب أن يقرروا مستقبل الحجاز. وقد قدموا وجهة نظرهم بشكل عاطفي لذلك جمع السلطان في (٢١) كانون الثاني العلماء والناس معًا وأوضح: "لدينا قول مأثور "أن أهل مكة أدرى بشعابها". لذلك فإنكم أفضل من الغرباء في معرفة مدينتكم، ومن الأفضل لكم تحمل مسؤوليتها. إني أطلب منكم تحديد يوم لاستلام الممثلين المنتخبين من العلماء والوجهاء والتجار الأمر في البلد. جميع هذه الشكاوى يجب أن تقدم إلى هذه اللجنة الاستشارية التي ستكون الرابطة بيني وبين الشعب". وقد انتخبت في حينه مجموعة من ١٢ رجلا، وبنفس الوقت أصبح نجل ابن سعود فيصل واليًا على

الحجاز وحافظ وهبة حاكم مكة والشريف (حمزة) أميرًا للبدو. ولم يسمى أو يعين شريفا بديلا لمكة، رغم أن إشاعة انتشرت أن المنصب سيعرض على علي حيدر.

وفي جدة أخذ ملك الحجاز يستعد للدفاع عن بلاده الضعيفة بالمتبقي من جيشه. وقد أضيف إلى الجزء الأساس من الحجاج السود المفلسين المجبرين على الخدمة (متطوعين) يقاتلون براتب مقداره (١٥) باونًا شهريًا، تم تجنيدهم عن طريق مكاتب في شرق الأردن والعراق. وفي المرحلة الأولى، افتتح مكتب في فلسطين ولكنه سرعان ما أغلق من قبل سلطات الاحتلال لأنه يقر بالحياد الذي أعلنته بريطانيا في النزاع. وفي نفس الوقت شق العديد من المغامرين النشطين والأشخاص الغرباء طريقهم إلى جدة لبيع معدات عسكرية مستهلكة مقابل هبات سخية. كان علي مهتم بشكل خاص بتمزيز القوة الجوية الحجازية التي يعمل فيها مرتزقة روس الذين رغم انهماك لطف الله الشديد وسط مجمعات السكراب في إيطاليا[1]. إلا أنهم استمروا بتدمير وشل حركة الأسطول الجوي بأسرع مما يستطيع النجديون إسقاطها. ووفق مشورة تحسين أرسل علي إحدى طائراته إلى مكة لقصف المعسكر النجدي في (عتبة)، إلا أن الوهابيين احتموا بالصخور وانفجرت القنابل الصغيرة التي تحمل باليد ولم تسبب أي أذى حول الخيم الفارغة. وفي تعليق على القوة الجوية الحجازية، الذي يمثل النقطة المحورية في ظرف بولارد اللاذع، كتب في كانون الأول ١٩٢٤: "ولكون شيرخوف يرفض التحليق على أرض العدو بإرتفاع يقل عن (٩٠٠٠) قدم وبما أن المراقب الذي يرافقه هو ضابط أعور وعادة ما يلبس نظارة سوداء عند الطيران، فلا يمكن تصديق أن التقارير التي يضعونها ذات قيمة كبيرة"[2]. كانت عجلات لطف الله المدرعة أفضل قليلا أثناء التقدم في الحرب الحديثة خصوصًا وأنها قد حُوّلت إلى لوريات ذات قوة (٣٦) حصان بعد أن قضت فترة الحرب العالمية الأولى وهي مغمورة تحت الماء حيث تم إكساءها بعد ذلك بصفائح من الحديد يخترقها الرصاص بسهولة.

---

(١) حيث هو الآن سفير.

(٢) PRO/FO 686-29, 19 Dec. 1924

ومرة أخرى كتب بولارد: "وقد اخترقت العديد من الإطلاقات هذه الصفائح وجُرح الروسي الذي كان يقودها بشكل بليغ وقد أراد أحد رفاقه أن يحل محله ويبقي الماكنة تدور ومن الجدير بالاعتبار أن هذه المجلات لا يمكن أن تبدأ بالاشتغال إلا بمجلة تدور من الخارج"[1]. وقد منع علي تحرك أية معدات من ميناء جدة إلى مكة، وهو الأمر الذي دعا شيخ الشيبة للقول له: "كم تختلف أفعالك عن أوامر الله". وقد كتب نيابة عن العلماء وشعب مكة: "ما هو سبب إيقاف طعامنا؟ إننا لسنا مسؤولين عن دخول الجيش النجدي إلى مكة، إنك المسؤول وذلك للأسباب التالية:

١. إنك لم تسوِّ خلافاتك مع سلطان نجد.
٢. عندما دخل الجيش النجدي الطائف طلبنا منك إخلاء عوائلنا وممتلكاتنا، إلا أنك رفضت.

وقد وعدت بحمايتها ولكنك هربت وعندما جئت إلى مكة طلبنا منك ومن والدك حمايتنا وثانية هربت. نود أن نسأل سموكم إن كان جيران بيت الله هم حيوانات. إننا نرجو من سموك مغادرة جدة وتركنا". وقد كان علي غاضبًا وأرسل طائرة لإسقاط جواب يوضح فيه إنه ترك مكة ليمنع تكرار مأساة الطائف، وهو منطق غريب رفضه شعب مكة لأن مذبحة الطائف قد حدثت بعد فراره.

ومن أجل حل أزمة الغذاء، اندفع الإخوان شمال وجنوب جدة للاستيلاء على موانئ رابغ والليث مما شكل تهديدًا للطريق البري الذي يربط المدن الشريفية جدة والمدينة المنورة. وفي نفس الوقت كانت القوات الوهابية مستعدة لمهاجمة جدة. ونظرًا لرفض القناصل ضمانات السلطان بالأمن خارج المدينة، كان على عبدالعزيز أن يتحرك بحذر شديد ولا يمكن له أن يخاطر باقتحام مواضع علي. وعندما كان يعد قواته لفرض الحصار وإسكات المدفعية الهاشمية الأسيرة

(١) PRO/FO 686-29, 28 Feb. 1925

في الطائف ومكة، تلقى السلطان رسالة من الريحاني وهو كاتب وشاعر رحالة استقر هناك بعد مغادرة فيلبي. وقد كتب إلى السلطان في ٤ كانون الأول بعد تردد إشاعات حول نوايا الوهابيين: "إن أصدقائي والحكومة والجيش يشعرون بالقلق حول الأنباء التي وردتنا الليلة بأنكم ستباشرون زحفكم على جدة. لهذا رفضوا إيقاف نشاطاتهم العسكرية (لقد أصابت الريحاني الدهشة لاستخدام الطائرات على مكة)، ولكني أستطيع أن أقنعهم بالانتظار (يومين)". لم يوضح الريحاني بدقة كيف سيقنع عليّ بالانتظار، ولكن لم يكن لذلك أي تأثير، لأن جواب السلطان الشديد واضح تمامًا: "إنك قلت أن باستطاعتك إقناعهم بالانتظار، نحن نرى لم تقدم لنا أي فضل ونرجو منك أن تسمح لهم بالبدء. قال الأمير علي إنه سوف لن يقاتلنا في الحرم لذلك زحفنا نحن إلى الخارج ونحن مستعدون للقتال". وبهذا اختفى الريحاني من المسرح الحجازي وفي ٦ كانون الأول بدأ حصار جدة.

* * *

الفصل السابع عشر

انتهاء الألفية الشريفية

▫ في البداية، أفزع سقوط القنابل سكان جدة. واخترقت إحداها جدار غرف نوم بولارد مسببة خرقا بسيطا فيه ولكن المعتمد كان في جزء آخر من المبنى في ذلك الوقت. ومما يثير الأسى، غالبًا ما كانت القذائف وبسبب نزولها العمودي تخرب دائمًا الأجزاء العلوية من المباني العالية التي تأوي النساء والأطفال. ولكن برزت مشكلة خطيرة تهدد استمرار وجود حكومة الحجاز من الداخل. إنها الإفلاس وذلك يعني أن جيشها الأساسي من المرتزقة على وشك الانهيار. ففي نهاية كانون الثاني توقف صرف الرواتب الشهرية للقوات حيث تدفع لهم أموالا أكثر عندما تتوفر. وقد باع أعضاء الحكومة الممتلكات والأراضي وجمع الحسين وأولاده أقصى ما كانوا يستطيعون. وقد صفى الحسين ممتلكاته في مصر للحصول على الذهب. وقد فقد الجنود الحماسة في الحرب. حيث قام بعض منهم، كما ذكر بولارد، بجرح أنفسهم في الأجزاء الثانوية من الجسم. لم تكن الحيلة الاعتيادية للضغط على التجار ذات فائدة لأن التجارة قد اضمحلت وماتت منذ زمن بعيد. وقد طلب أهالي جدة السماح لهم، إما بالنزوح إلى مكة، أو للتعبير عن درجة يأسهم، إلى الجزيرة التي يحتجز فيها الحسين. وفي نيسان عرض علي حق جباية عوائد الكمارك في الحجاز إلى شركة Gellotly Honkey التي رفضت بأدب هذا

العرض للذهب الوهمي. وقد أنقذت الموقف إعانة مالية من الحسين قدرها (٢٠,٠٠٠) باود في نيسان.

كان الخوف متزايدًا من موسم الحج القادم لأن النجديين أصبحوا قادرين على تحقيق الركن الخامس من الإسلام لأول مرة منذ ١٩١٩، مما يشجع على شن هجوم عسكري نهائي على جدة. وقد خارت قوى علي، الذي لم يكن أكثر القادة عزمًا، رغم كلام تحسين الطنان المستمر. لذلك كان مستعدًا للتشبث بأية قشة بما فيها تلك التي مثلها الرفيق حكيموف القنصل الروسي في نيسان. فقد طلب حكيموف وهو آسيوي و"مسلم" روسي مفرط في الشرب، السماح له بالتوسط. وقد سمح لهم علي بذلك وشق الروسي ونظيره الإيراني لاري طريقهم إلى مكة حيث التقوا مع عبدالعزيز. ولم يتأثر السلطان بعرض حكيموف للمكائد الإمبريالية حيث صبغ حكيموف كل نزاع الحجاز بألوان لينينية تقليدية. ولم يكن يتوقع أن يحقق معتمد البلشفية الملحدة أي تأثير كبير على الوهابيين، إلا أنه حصل على موافقة السلطان بأن يتفاوض وزير الخارجية الحجازي مع الزعيم السعودي. وقد قبل علي بحماسة هذا التغير الظاهر في الموقف وفي (٢) مارس أرسل ممثله السياسي الصغير الخطيب إلى مكة، حيث التقى عبدالعزيز في المقهى الصغير في القائم الذي يتوسط المعسكرين المتقاتلين. لم يكن فؤاد الخطيب يمتلك أي تصور لما سيحدث ووجد القائد الوهابي لطيفا للغاية نظرًا لتواضعه وكياسته الرزينة. وفي نفس الوقت أثبت السلطان إنه أكثر من كفء للحجازي المهذب ومناوراته الدبلوماسية. وقد افتتح عبدالعزيز المفاوضات بالتعبير عن قلقه حول وجود الحسين المستمر في العقبة وشكوكه من أن يقوم بإدارة الأمور عن بُعد (ألم تكن هناك محطة بث في العقبة؟). ومن الواضح أن السلطان يرى أن علي لا يختلف عن والده (كما قال الحسين أنه سيكون) لذلك لا يكون هناك أي حل طالما ضل الهاشميون. وأكد عبدالعزيز أن الضغط عليه شديد عند مرور ذكر هذه العائلة بين أتباعه لأنها شيئًا بغيضًا على الإخوان. وقد ألح: "دعنا نغير الموضوع". ثم استمر بعد ذلك يعبر عن أمله بأن السوريين والفلسطينيين يحملون السلاح ضده،

الأمر الذي أحزنه بعمق. وفي ختام الاجتماع غير الحاسم، سُئل فؤاد بدقة عما تحتويه المعاهدة الإنكلو - حجازية. وقد كان وزير الخارجية حذرًا بحيث لم يكشف حقيقة أن المعاهدة لم توقع أبدًا ولكنه مع ذلك، اعترف بصدق بأنه ليست لديه فكرة عن محتوياتها. "ولكن، ألم تكن أنت وزيرًا للخارجية؟"، رد السلطان وجاء الجواب "نعم ولكن للتوقيع فقط وليس للمناقشة، وفي الواقع أن الرسائل عادة ما ترسل بتوقيعي الذي لم أره أبدًا". وانتهى الاجتماع.

وعند عودته إلى جدة، كتب فؤاد رأيه الصريح بأنه لا مستقبل لحكومة الحجاز إذا لم يغادر علي. وتذكروا المصير السيئ لناصيف[1] ولمهمته المشابهة، ألح زملاء الخطيب عليه بالكتمان وأسقط هذا الموضوع من النسخة التي قدمها إلى الملك. وقد فكر علي مليًا بمشكلة والده في العقبة والحاجة إلى إبعاده نهائيًا عن منطقة النزاع لأن الحسين لم يستقر في معتزل هادئ. وفي بداية الصيف، رفع الحصار الوهابي، أو على الأقل توقف إطلاق القذائف وبدا إنها لحظة مؤاتية للقيام بإشارة ودية نحو السلطان. وقد كتب عبدالله إلى علي مشيرًا إلى نفس النقطة حول وجود الحسين المثير للقلق، رغم إنه في حالة عبدالله، كان مبعث قلقه هو وجود ما يجذب الإخوان نحو حدوده السهلة الاختراق. وقد وافق علي واقترب البريطانيون للتعامل مع هذه المسألة الحساسة. وقد كتب وزير الخارجية أوستن تشامبرلين في مذكرة يجيب فيها على احتجاجات ل. س. أميري وزير المستعمرات بأنه يبدو من غير الملائم إخراج الحسين بالقوة، فقد كتب: "أنا أعتقد إنه من الضروري أن يخرج الملك السابق الحسين دون إبطاء عن طريق دعوة إن أمكن أو إذا كان ضروريًا. ثم لماذا يجب أن نتورط في حرب من أجل الحسين[2]؟"

---

(١) كان أحمد ناصيف أحد المتآمرين الأربعة من عوائل جدة الذين تم نفيهم إلى العقبة.

(٢) مذكرة بقلم تشمبرلين، ٢٥ مارس ١٩٢٩، يجب أن تكون هذه المذكرة آخر شاهد على مبدأ "أن سياستنا هي تأييد نهج الحسين" Pro/Fo 371-10808, No. 10

وفي (٢٨) مارس، استدعيت سفينة من البحرية البريطانية لتسليم رسالة من وزارة الخارجية توضح: "إن حكومة صاحب الجلالة قد استلمت معلومات تفيد أن سلطان نجد يعد جيشاً لمهاجمة العقبة إذا ما بقيتم هناك. لقد تعرضت معان والعقبة نشاطات عسكرية موجهة ضده. لذلك، تطلب الحكومة البريطانية منكم مغادرة العقبة لتجنيب المزيد من المشاكل بين بريطانيا والسلطان. ويقر صاحب الجلالة أن تغادروا في غضون ثلاثة أسابيع".

وهنا في الواقع شيء يمت على السخرية التامة، فالمخلص الحقيقي لبريطانيا والذي قدم لها العون ضد الأتراك، قد أُلقي به خارج بلاده. أو على الأقل كان هذا تفسيره للأحداث. وقد كتب رسالة احتجاج إلى الحكومة البريطانية قائلاً: "منذ بداية النهضة العربية وحتى هذه الساعة، كنت في غاية الإخلاص إلى البريطانيين، وعلى ثقة بأن الحكومة ستلتزم بسياستها والاتفاقيات المعقودة بخصوص الحقوق العربية والوحدة العربية وحياة هؤلاء العرب الذين قاتلوا كحلفاء لكم. وقد وفينا من جانبنا كل الوفاء بالاتفاق.. لقد تركت كل شيء، عرشي وبلادي، من أجل السلام فقط،وجئت إلى العقبة لأثبت للعالم إنه ليس لدي أي مطامع سوى خير شعبي وحرية بلدي.. أنا لا أضمن أن الشعب العربي سوف لن يشعر بالغضب (بسبب الأعمال ضده) ومن ثم التظاهر ضد الحلفاء. لذلك لا أجد بديلا للبقاء حيث أنا.. ويبدو أن حكومة صاحب الجلالة قد نسيت وعودها وأرسلت إحدى السفن الحربية لتعريضي وعائلتي للخطر.. إن القوات المرابطة في معان (المحافظة الشمالية للحجاز والمتنازع عليها) هي لحماية خط سكة حديد الحجاز وللدفاع عن المدينة ضد أي عدوان. لقد هاجم ابن سعود شرق الأردن أكثر من مرة خلال العام الماضي دون أي استفزاز من حكومة الحجاز أو القوات في معان، لماذا لا توقفوه عند حدوده؟". وبعد سلسلة من الاحتجاجات على الانتداب والصهيونية والاهتمام المفاجئ الذي تبديه بريطانيا إزاء العقبة مقارنةً بلا

مبالاتهم إزاء الطائف، اختتم احتجاجه: "سوف لن أغادر العقبة إلا إذا أقنعوني أن هذه الرسالة هي هراء". على أية حال، كان هذا مجرد كلام طنان لأنه كان يعرف أن ليس لديه الوسائل لمقاومة الرغبات البريطانية خاصة وأن هذه الرغبات تحظى بدعم أبنائه الحاكمين الثلاثة. ثم قبل بمصيره وأعلن أنه سوف لن يغادر إلا إلى بلد عربي ولكن لم يلاقِ أي ترحيب في جميع البلدان العربية. وفي الثلاثاء ١٦ حزيران رست سفينة صاحب الجلالة (دلهي) في العقبة وحسمت القضية رغم تردد الملك السابق حتى آخر لحظة، ففي البداية أصرّ أن يؤخذ إلى حيفا حيث أعطى ذلك للسير هربرت صموئيل عدة تصورات، ثم طلب بعد ذلك السفر في يخته الخاص "ربما إلى الحجاز". كانت أوامر القائد الحازمة هي "إلى قبرص". وفي صباح الأربعاء، غادرت الأسرة المالكة بضمنها الملكة وابنتاها الاثنتان مبنى الكمارك حيث كانوا يقيمون وصعدوا على ظهر الباخرة (دلهي) وغادروا الحجاز إلى الأبد. ولم يرَ الشريف أبدًا مرة أخرى صنيعة يده الحجاز. وفي السويس، جاء عبدالملك الخطيب الوكيل الهاشمي والعاملين معه لتحية ملكهم المغادر، ولكنه كان قد ذهب إلى النوم، لذلك انضم كادر دار الاعتماد إلى السفينة في رحلتها إلى بور سعيد. وعند الفطور اعترف الحسين إلى عبدالله إنه مستغرب فيما إذا كان مخطئًا في عدم توقيعه للمعاهدة الإنكلو - حجازية. ولكنه يفضل أن يضحي بعرشه "من أن يسجل التاريخ أنه فرّط بالحقوق العربية". ولكن مع ذلك، لم يكن التاريخ وديًا مع الحسين، فقد أُدين بقسوة بكونه إما خائن أو مصاب بجنون العظمة.

كان الحسين بمزاج تأملي وهادئ ومن الممكن التحدث إليه أثناء إبحار السفينة خلال القناة. واستمر يقول: "أنا لم أوقع المعاهدة مع بريطانيا.. ماذا أستطيع أن أقول للعرب لو كنت قد تنازلت عن حقوقي من أجل الحفاظ على عرشي؟ إني واثق أن نهجي لم يكن خاطئًا، إن غلطتي هي الوثوق في بريطانيا والاعتقاد بالنزاهة الأوروبية". وبخصوص الخلافة أعلن: "كانت تلك غلطة.. لم

أكن أرغب بها.. ولكن عرب سوريا وشرق الأردن قد اختاروني في الوقت الذي أصرّ فيه عبدالله بأنه يجب أن أقبل لأن ذلك قد يفرض ضغطا على بريطانيا[1]. وفي بور سعيد غادر فريق دار الاعتماد الهاشمي مغرورقا بالدموع وغادر الحسين شمالا نحو المنفى التقليدي في الجزيرة البريطانية مأوى الناقمين السياسيين.

وقد أسرعت بريطانيا لاستغلال الموقف الذي خلفه فراغ العقبة من الحسين فعملوا بإلحاح على ضم ولاية معان الحجازية إلى منطقة شرق الأردن الخاضعة للانتداب. كانت هذه المنطقة موضع النزاع التي تضم معان والعقبة والبتراء في الأصل جزءًا من ولاية دمشق خلال العهد العثماني رغم أن الحدود لم تكن محددة بدقة. لقد سيطر عليها الجيش في بادئ الأمر عندما تقدم شمالا من العقبة بعد ١٩١٧ ثم ضمت بعد ذلك إلى منطقة شرق الأراضي العربية المحتلة ثم بعد ذلك إلى مملكة فيصل في سوريا. إلا أن الحسين لم يقبل بذلك وعيّن واليًا مع والي فيصل، ولكن الرجلين عملا بانسجام لذلك لم يصل الصراع إلى نزاع صريح. وبعد نفي فيصل، اقتطعت هذه المنطقة من حدود الانتداب الفرنسي، واعتبرها البريطانيون جزءًا من مؤخرة سوريا التي أصبحت شرق الأردن، رغم إنه لم يجر أي عمل لتحقيق هذا المطلب، لذلك فرضت الإدارة الحجازية سيطرة الأمر الواقع. إلا أن بريطانيا أوضحت موقفها في آب ١٩٢٤ عندما أبرقت إلى بولارد: "يرجى إبلاغ الملك الحسين رسميًا بأن حكومة صاحب الجلالة لا تقبل بمطلبه بإشراك نفسه بإدارة أي جزء من منطقة شرق الأردن التي تعتبر حكومة صاحب الجلالة مسؤولة عنها بموجب الانتداب على فلسطين. إن حكومة صاحب الجلالة ترى أن هذه المنطقة تمتد إلى نقطة جنوب معان.. إلا أنها مستعدة لتثبيت نقطة دقيقة عن طريق المفاوضات مع الملك الحسين. كما أنها تسعى لأن يكون لشرق الأردن منفذًا

(١) أُخذ تدوين هذه المحادثة من أوراق ناصيف / جدة. قرر البريطانيون في ٢٣ آذار ١٩١٨ بخصوص الخلافة، خلال اجتماع ترأسه السير ريجنالد وينكيت: "إنه إذا اتخذ الملك هذه الخطوة دون سابق إنذار وتلاها بطلب للاعتراف به، فسيكون من واجب حكومة صاحب الجلالة عدم اتخاذ أي موقف واضح". Graves, P. The Life of Sir Percy Cox, P. 239.

إلى البحر قرب العقبة. إن حكومة صاحب الجلالة ليست لديها الرغبة بإشراك نفسها بإدارة المنطقة التي أعلنها الحسين مؤخرًا ولاية، إلا أنها تعتبر أن هذه المنطقة تقع ضمن المنطقة التي تعتبر شرق الأردن مسؤولة عنها"(١).

وقد كتب عبدالله إلى علي في مارس ١٩٢٥ موضحًا أن بريطانيا قد تتدخل لصالح الحجاز إذا ما تم تسليم ولاية معان إلى شرق الأردن. وعندما عرض فؤاد الخطيب هذه الرسالة إلى بولارد، أنكر المعتمد البريطاني حقيقة الأمر على الفور وأضاف: "إن معان تعود إلى شرق الأردن بأية حال من الأحوال"(٢) وعندما كتب المعتمد البريطاني في مايس أن عبدالعزيز يحشد جيشًا للهجوم على العقبة قرر البريطانيون استباقه بضم الولاية. كان صموئيل يرغب أن تضم المنطقة إلى فلسطين لأغراض الاستيطان اليهودي، ولكن في اجتماع الأمانة العامة في القدس، ناقش إليك كيركبرايد، بأقلية من صوت واحد، قضية شرق الأردن محتجًا بأن حاجة الإمارة إلى منفذ على البحر تطغى على جميع الحجج الأخرى، وتم التخلي عن القضية. وقد وافق علي على مقترحات عبدالله بخصوص نقل الولاية شريطة أن تكون للحجاز سيطرة على سكة الحديد وقاطراتها وأن يكون هذا النقل مؤقتًا إلى حين "انتصار الحجاز". لذلك في ٢٠(٣) تموز أصدر عبدالله بيانًا بضم الولاية ورفع علم شرق الأردن على معان. ولأنه شعر بأن هذه الخطة جاءت بدفع بريطاني ولأنه ظهر كما لو أنه يستغل ظروف شقيقه المسيرة، فإنه أبقى المراسيم على

---

(١) PRO/FO 686-96 F.O.-Brit Agent Jeddah 9.8.1924 N. 21

(٢) PRO/FO 686-292, I May 1925

(٣) هناك شك حول التواريخ. فقد أعطى موسى في كتابه المملكة الأردنية الهاشمية الأرض والشعب ص ٤٠ تاريخ ٥ حزيران، بينما يتحدث عبدالله عن الحدث قائلا بعد "عدة أيام" من مغادرة الحسين للعقبة في يوم ٧ الشهر. (مذكرات عبدالله ص٢١٧). يبدو من المؤكد أن الحسين قد علم بالنبأ بعد رحيله.

حدودها الدنيا[1]. وقد لاحظ علي إنه كان في غاية القلق حول احتمال ضم المنطقة من قبل أعدائه. وأصبح قلقه أكبر عندما ضُمت تلك المنطقة من قبل "أصدقائه". وقد ولد ضم المنطقة الرسائل العاصفة التالية إلى صحيفة التايمز.

(٢٩) حزيران ١٩٢٥:

"كتب السيد أميري في التايمز هذا اليوم بأن حكومة صاحب الجلالة لا تعتبر مدينة العقبة واقعة ضمن حدود الحجاز ولم يحظ احتلالها من قبل الحجاز بأي قبول رسمي من جانبها (أي حكومة صاحب الجلالة). إن مثل هذا التصريح الذي أدلى به وزير دولة مسؤول لا يمكن أن ندعه يمر دون اعتراض. إنها مراوغة غير عادلة من جانب بريطانيا العظمى، وكأحد الأشخاص الذين احتلوا منصب الممثل البريطاني الرئيسي في شرق الأردن لمدة سنتين ونصف، فإني لا أتردد في القول إنه لا تعتبر مدينة العقبة وحدها بل والمنطقة المحيطة بها (ولاية معان الحجازية) ومنذ سقوط مملكة فيصل في سوريا واقعة ضمن حدود أي بلد آخر غير الحجاز. ولم تدر تلك المنطقة مع المناطق الخاضعة لانتداب بريطانيا العظمى. إن الامتداد الحالي لمنطقة فلسطين الخاضعة للانتداب على حساب الحجاز دون مصادقة عصبة الأمم ورغم إعلانها الحياد في النزاع بين الوهابيين والحجاز، يعتبر عملاً عدائيًا لا يغتفر ضد دولة ضعيفة. والحقيقة أن ضم الحجاز للعقبة لم يحظ بموافقة رسمية من جانب حكومة صاحب الجلالة، ولا نخرج عن صلب الموضوع إذا ما ذكرنا حكومة صاحب الجلالة، التي تتميز بذاكرتها الضعيفة، بأن العقبة قد حررت من قبل الجيش الحجازي بالتعاون مع قوات صاحب الجلالة،

---

(١) في اتصال شخصي مع السير إليك، كيركبرايد في كانون الثاني ١٩٧٤. قال أنه تم التوضيح إلى عبدالله إن هذا النقل سيجري سواء بموافقته أو بعدمها لأن عبدالله قد احتج بأن هذه المنطقة كانت تعود دائمًا إلى الحجاز ولا يمكنني أن أسرق أرضًا من والدي أو أشقائي".

ولكن ذلك، كان قبل إعلان بلفور الذي جعل من العسير علينا المحافظة على وعودنا مع العرب".

هاري سنت
جون فيليبي

(٢) حزيران ١٩٢٥:

لكوني أول ممثل بريطاني في عمان بعد انهيار دولة الأمير فيصل في ١٩٢٠. أستطيع أن أؤكد أن العقبة كانت تعتبر جزءًا من الحجاز وليس شرق الأردن. لو لم تكن الحكومة البريطانية تعتبرها إنها تعود إلى الحجاز فلماذا بقي هذا الرأي سرًّا؟ ولماذا تم السماح بقيام إدارة حجازية على العقبة طيلة سبع سنوات دون اعتراض؟"

الكابتن سي. دي. برنتون.

علم الحسين بالأنباء لدى وصوله إلى نيقوسيا وأرسل رسالة غاضبة إلى عصبة الأمم (التي رفض الانضمام إليها سابقًا) طالبًا منها التدخل "وإلا فسوف لا يشعر العرب بالفخر لكونهم قد ضحوا من أجل الحلفاء وتقاليد الحضارة الحديثة". كان علي أيضًا يأمل أن تتدخل العصبة وعرض أن تدخل الحجاز في تلك المنظمة وتوقع معاهدة فرساي، ولكن كل ذلك كان دون جدوى، فالعصبة كانت مقاتلا أعزلا للدول الصغيرة.

اتسم الصيف بفترة من الحرب الباردة بسبب اقتراب[1] موسم الحج، ومجاراة مع الممارسات التقليدية أوقفت الجيوش أعمالها، رغم أن حصار جدة قد استمر، مما جعل مرور الحجاج عبر الميناء أمرًا مستحيلا. كان السلطان عبدالعزيز يرغب في إظهار سيطرته الفعلية على مكة وقدرة الوهابيين على إدارة الحج، لذلك فإنه دعا المسلمين لأداء حجهم تحت حماية الإخوان. وقد استجاب

(١) ٢٣ حزيران إلى ٢٢ تموز ١٩٢٥.

القليل، ولكن لجنة الخلافة في الهند قد أقنعت نفسها أن نجد لم تدخل في أي شراك أجنبية، لذلك، وبتشجيع منها، أجرى (٣٠٠٠) مسلم هندي رحلاتهم إلى مكة عن طريق موانئ رابغ والليث والقنفذة المستولى عليها. وبالنسبة إلى علي فإن المهانة وخسارة العوائد تعتبر أمرًا لا يحتمل، لذلك أرسل (البحرية الحجازية) لحصار الموانئ الواقعة في الأراضي السعودية، وقد سجّل تأثير هذه المناورة إلدن روتر. وهو حاج إنجليزي، عندما نزل في القنفذة: "تتكون تدابير الحصار الفعّال من زيارات متقطعة لزورق بخاري متداعي مسلح ببندقية صغيرة". ولم تتحسن العلاقات مع بريطانيا خلال الحصار وذلك بعد صدور إعلان في حزيران مفاده "تعلن الحكومة الحجازية أن موانئ رابغ والليث والقنفذة والوجه والتي تقع تحت سيطرة الوهابيين موانئًا غير صالحة لمرور الحجاج، لأن السفن الحجازية عادة ما تضطر لقصفها"[(١)]. وقد وضع الطويل قنبلة على مقدمة سفينة حج هندية كانت تدخل إلى رابغ. ومن نواحٍ أخرى كان حج ١٩٢٥ حجًا ناجحًا وهذا ما أكسب النظام النجدي دعمًا كبيرًا.

كانت فترة الراحة الصيفية بالنسبة لأهالي جدة وحكومتهم قصيرة فحالما غادر آخر حاج حتى بدأت القنابل تسقط على المدينة مرة أخرى. ومما زاد الكرب، أن المتطوعين الفلسطينيين أعلنوا أنهم سيغادرون لأن رواتب نصف سنة تقريبًا لم تدفع لهم وأن التجهيزات كانت قليلة. وقد بحث علي بشكل يائس عن المال طالبًا قرضًا بمبلغ (٢٠,٠٠٠) باونًا من تجار المدينة. وقد رفضوا، ولم يتزحزحوا عندما خُفض الطلب إلى (١٠,٠٠٠) باون. وقد أرسل فيصل دعمًا ماليًا من بغداد وقال إنه سيسعى لجمع (١٤,٠٠٠) باون ولكن عبدالله لم يفعل أي شيء. ثم تم تخويل رئيس وزراء الحجاز عبدالله السراج لتصفية جميع الممتلكات الهاشمية في مصر وباع علي أيضًا الحوانيت التي تمتلكها عائلته في جدة، مع ذلك لم يتوفر ما يكفي من الذهب لأن الجنود لا يقبلون بالأقل. وفي جميع أنحاء المدينة

(١) The Times, 4 June 1925

المحاصرة، كانت الظروف تبعث على الأسى، ليس بسبب فقدان الطعام الذي يمكن دائمًا تأمينه عن طريق البحر ولكن بسبب نقص مياه الشرب، فالمكثف ذو الصرير ينتج سائلاً بنيًا يتم نقله على أنه ماء عذب ويباع بأثمان مبالغ فيها كتب عنها بولارد: "يستطيع المرء أن يعيش في مكة بما يدفعه شخص نظيف اعتيادي مقابل الماء في جدة". وفي نفس الوقت ارتفع سعر الدقيق من (٤) مجيديات إلى (١٢٠) خلال الحصار، لذلك، ومرة أخرى، كان الفقير هو الذي يعاني بقسوة. وقد وضع أهالي جدة من ذوي الرحمة خزانات من الماء المستخرج من آبارهم الخاصة خارج أبواب منازلهم لإرواء عطش البدو المعوزين الذين كانوا يبحثون عن ملاذ داخل أسوار المدينة. وبالنسبة إلى السكان كان الموقف يبدو ميئوسًا منه كونهم كانوا خائفين من الإخوان ويمنع الهاشميون عليهم المغادرة، و"يحميهم" جيش من المرتزقة يهدد يوميًا بالتمرد أو الفرار. واختتم المعتمد البريطاني قوله: "إن شخصية أكثر حسمًا من علي قد تستسلم قبل هذا الوقت، إلا أنه يعوزه القرار الحاسم حتى بالفرار"[1].

وفي كل وقت يبدو الانهيار وشيكًا، وقد ينقذ الحظ الهاشمي التقليدي الموقف: فقد تصل ستة طائرات من إيطاليا أو قد يشق قطار آخر طريقه إلى المدينة المنورة. ثم وقعت كارثة أخرى: ففي أيلول ارتدت قبيلة حرب إلى جانب النجديين حيث عزلت في النهاية جدة عن المدينة المنورة، وفي تموز رفض البريطانيون قبول أي ممثل هاشمي آخر في لندن "تحت مثل هذه الظروف" وهلم جرا. لقد أصبح القتال صراعًا يوميًا على جميع الأصعدة من أجل الوجود. مع ذلك، ازدادت آمال الحكومة الحجازية باستمرار بسبب تدفق الوفود والبعثات الأجنبية إلى جدة ولكن يبدو إنها لم تأتِ لإنقاذ الموقف الصالح الهاشميين. فعلى سبيل المثال، حاول في ٢١ أيلول البريطاني الذي وافق على التوسط إذا ما جاء

---

(١) PRO/FO 686-29, June 1925

الطلب من كلا الطرفين، تأمين موافقة عبدالعزيز على هذا المقترح إلا أنه أجاب: "إني مخول من العالم الإسلامي لتطهير الحجاز من البغاة".

وهكذا أُهمل العرض مؤقتًا. وفي نفس الشهر وصل وفد مصري للتوسط في ظروف مشبوهة إلى حد ما حيث كتب بولارد في آب أن علي قد عرض على الملك فؤاد تنصيبه خليفة إذا ما عمل كوسيط. وقد التقى الوفد بعبدالعزيز ووهبة، أوضح السلطان إنه سيكون أمرًا محرجًا مع بريطانيا فيما لو تم قبول توسط مصر في الوقت الذي تم فيه رفض وساطة المبعوث البريطاني، إلا أنه قد وضع تسع شروط شعر أنها أساسية لتسوية نزاع الحجاز:

١. لا حاكم من الأشراف على الحجاز إلا إذا كانت تلك رغبة جميع المسلمين.
٢. يجب أن يقرر أهل الحجاز حكومتهم المستقبلية بموافقة العالم الإسلامي.
٣. يجب أن يجري استفتاء عام لاختيار حاكم جديد للحجاز.
٤. يجب أن يكون دستور البلاد هو الشريعة الإسلامية.
٥. يجب أن يكون للحجاز استقلال ذاتي.
٦. يجب أن يكون الحجاز محايد.
٧. يجب أن لا تعقد الحجاز اتفاقيات اقتصادية مع بلدان غير إسلامية.
٨. يجب أن تقرر الحدود والنظام الداخلي للحجاز من قبل العالم الإسلامي.
٩. يتم استشارة المسلمين عن شكل الحكومة المقترحة للحجاز.

طلب عبدالعزيز بعد ذلك من فؤاد ملك مصر عقد اجتماع للوفود الإسلامية لبحث هذه المقترحات وغادر الوفد. كان رد فعل الملك فؤاد بطيئًا وحلت الأحداث في الحجاز نفسها بنفسها في الوقت الذي قرر فيه الملك العمل.

تلا ذلك أيضًا وفد آخر من بلاد فارس للتقصي عن إشاعات بأن المدفعية الوهابية قد دمرت القبة الخضراء المقامة على ضريح الرسول ﷺ في المدينة

المنورة، حيث قدموا إليه أيضًا مقترحات السلطان التسعة ولكن حالما علم الوفد أن فؤاد مشترك في القضية، حتى تراجعوا إذ يعتبر الملك المصري مرتبط بشكل وثيق بالمصالح البريطانية، ويقال همسًا، أن لديه خططًا لتكوين محمية مصرية على الحجاز. وقد رفع شهر تشرين الثاني آمال علي مرة أخرى مع وصول جلبرت كلايتون[1] وجورج أنطونيوس[2] الذين أجري لهما استقبال رسمي، ولكن سرعان ما تحطمت هذه الآمال. وقد بيّن السير جلبرت موقفه بوضوح تام. أي أنه كان في الحجاز لمجرد تعيين الحدود بين النجديين ومنطقة الانتداب البريطاني إلى الشمال أي "انتشال جثة حية" كما يصف على مهمته. أوقف الملك جميع الفعاليات الجوية أثناء ما كانت المفاوضات تسير بتقدم مع النجديين في البحرة الواقعة في منتصف الطريق إلى مكة. ولكن بعد شهر وعندما عاد كلايتون، فإنه كان صادق الوعد[3] فلم يقدم إلى الملك إلا العزاء، لا الأخبار السارة. فقد انهمك بحديث صغير مدة نصف ساعة ثم أصغى لالتماسات علي. "كانت مقابلة مثيرة للمشاعر" هكذا كتب في مفكرته في ٤ تشرين الثاني. كان علي المسكين المطوف والوقور على شفا النهاية من صوابه وكان يُشد هنا وهناك من قبل الخبثاء المحيطين به. لقد رجاني أن أطلب من حكومة صاحب الجلالة مساعدته وإنه مستعد لقطع أي وعد من أجل الحصول على المساعدة والمال. قلت إني لا أستطيع أن أفعل شيئًا مهما كان رسميًا.."[4] وعندما أبحر كلايتون على ظهر الباخرة (كليماتس) في الخامس من الشهر، تبددت جميع آمال علي بالدعم البريطاني معه.

وقد رفعت عودة فيلبي من معنويات علي مرة أخرى، ولكن دون نتيجة لأن فيلبي كان مجرد فرد بعد تنازلات شخصية واحتكارات تجارية. فقد حذّر المعتمد البريطاني الجديد السيد أس. آر. جوردن، فيلبي بأن لا يرحل إلى الداخل لمقابلة

---

(١) السكرتير الأول لحكومة فلسطين.

(٢) كبير مفتشي التربية في فلسطين.

(٣) لقد وقع اتفاقيات حدا والبحرة لصالح العراق وشرق الأردن.

(٤) Collins, R.O. An Arabian Diary, California, 1969, P.133

عبدالعزيز لأن ذلك قد يربك الحكومة البريطانية. وقد أبلغ علي أيضًا أنه لم تعد له أية مكانة رسمية على الإطلاق. وقد أجرى فيلبي، متجاهلا جميع التحذيرات، رحلة سرية إلى عبدالعزيز عن طريق رابغ، ولكن السلطان لم يكن مستعدًا لمناقشة أي شيء معه في ذلك الوقت.

إن الوهم وحده هو الذي يبقي حكومة جدة في الوجود. فرغم السقوط الحتمي الذي لا جدال فيه لجدة والذي هو الآن مجرد مسألة وقت، استمر علي بعقد مجلسه الأسبوعي أيام الجمع. واستمرت البقية الممزقة من الفرقة الموسيقية العسكرية تعزف، وبشكل في غير محله تمامًا في مثل هذه الظروف، "ثلاثة هتافات من أجل الأحمر والأبيض والأزرق". وقد نصبت إعلانات الحسين وحملت القطارات الثلاثة التي دخلت المدينة المنورة آخر الإمدادات الواصلة إلى الحجاز المعدوم. وفي المدينة المنورة وصلت الأمور إلى نهاية حدها. ففي بداية شهر تشرين الأول، أدرك عبدالمجيد الرفاعي قائد الحامية أن لديه تجهيزات تكفي لـ (٢٠) يوم أخرى فقط وإن السكان يغادرون المدينة للعيش تحت حماية الوهابيين الذين يقودهم محمد شقيق عبدالعزيز الذي يحاصر المدينة. إن وصول القطارات الثلاثة من معان هو الذي أنقذ الموقف ولكن مؤقتًا. وفي نهاية شهر تشرين الثاني، فاتح المواطنون المتبقون في المدينة المنورة التي تخضع للحصار طيلة (١٠)[1] شهور، عبدالمجيد وعزة أفندي المشرف على سكة حديد الحجاز وطلبوا منه التفاوض حول الاستسلام. وقد ناقش الرجلان الشروط مع السعوديين واتفق على أن يفتح الأشراف المداخل شريطة أن يؤمن الإخوان سلامة الجند والشعب وأن يعلن السعوديين عفوًا تامًا. لذلك في ٥ كانون الأول قبِلَ الأمير ناصر بن سعود والشيخ عبدالله بن فاضل الاستسلام. احتل الإخوان بسرعة قلعة صلاح، ولكن كما اتفق ليس المدينة المنورة، ثم انتظر الناس بعد ذلك وصول الأمير محمد. وقد دخل المدينة المنورة في السادس من الشهر. وذهب في البداية إلى جامع الرسول ﷺ وصلى هناك. كانت أول أوامره إلى قواته عند مغادرة الجامع هي توزيع ألف كيس

(١) دام الحصار السابق سنتين ونصف السنة.

من الدقيق إلى الشعب حيث قضت تلك الكمية على الأزمة وأكسبته شكر السكان الجياع. أصبحت الحجاز الآن هي دولة مدينة جدة.

وصلت أنباء استسلام المدينة المنورة في ذروة التمرد في جدة وسببت ذعراً في أوساط الحكومة والجند. واصبح من المناسب في هذا الوقت لأكثر أنصار الأشراف إخلاصاً أن يرحلوا. فقد حزم رئيس الوزراء عبدالله السراج وفؤاد الخطيب الذي كان يخطط لاغتيال عبدالعزيز وهو في طريقه إلى الجامع[1] حزموا حقائبهم إلى مصر، ظاهريًا "من أجل تأمين المساعدة". وحتى الألمعي علي لم تكن تساوره الشكوك حول نواياهم الحقيقية، ولكن بنفس الوقت كانت لديه مشاكل أخرى لأن عليه أن يتفاوض مع "لواء النصر" التابع لتحسين الذي حجز نفسه في جامع حتى تلبى مطالبه (وهي تقريبًا رواتب سنة مستحقة متأخرة). كان هناك خوفا كبيرًا من أن تتعرض المدينة للسلب ليس من قبل الإخوان فحسب بل من قبل الناقمين المسكريين الهاشميين، وهذا حقا سيحصل لو لم يكن قد وصل جميع السكان حاليًا إلى حالة من الفاقة. اتصل علي بفيصل في بغداد طالبًا المشورة لأن مستشاريه الخاصين قد غادروا. أبلغه فيصل أن يأتي إلى العراق لحين حل قضية الحجاز. وقد وافق علي آخر الأمر أيضًا عن طيب خاطر وأعلن قرار تنازله عن العرش إلى وزرائه الباقين الذين ساورهم الخوف من أنهم ربما يدفعوا إلى الخط الأمامي، ألحوا عليه بالبقاء: فإذا ما قرر هو الذهاب فإن عليهم أن يهيئوا أمر الاستسلام وهذا هو واجب الملك. كان علي عنيدًا، لذلك اتفق الوزراء أن عليه على الأقل أن يهيئ شروط التسليم قبل أن يهاجر وقد وافق على ذلك.

وفي الثلاثاء (١٥) كانون الأول، اتصل علي بجوردن المعتمد البريطاني الذي وافق على ترتيب الاستسلام حتى تصل الموافقة من لندن. وقد أبرق ذلك على الفور وأعطي بالمقابل التخويل وأرسل ممثله الهنديَ نائب القنصل بسرعة لإبلاغ السلطان. وقد وضع علي خمسة شروط للاستسلام:

---

(١) PRO/FO 686-29, Dec. 1925

١. عفوًا عامًا لجميع الأفراد المدنيين والعسكريين والأشراف وأنصار الحكومة الحجازية.

٢. إخلاء جميع الجنود والضابط الذين جاءوا من البلاد العربية مع صرف نفقات سفرهم ومبلغ (٥,٠٠٠) باون لتوزيعه عليهم.

٣. أن يستعيد جميع الموظفين الحكوميين وظائفهم.

٤. تسري هذه الشروط على الصامدين في ينبع.

٥. الحفاظ على ممتلكات الأسرة الهاشمية في الحجاز.

وقد وافق عبدالعزيز على مقابلة المعتمد البريطاني في (١٧) كانون الأول واجتمع الطرفان في مقر مخيم النجديين الذي يبعد بضعة أميال عن جدة. وقد شرح جوردن، وهو أسترالي مخادع، الظروف إلى السلطان الذي لم يجد شيئًا لا يتفق به معهم، بل حتى العرض بإرجاع علي كشريف أمير، كما قد تم إقناعه بنواياه الحسنة. وقد تم توقيع الاتفاقية وأسرع جوردن عائدًا عبر الأسلاك الشائكة، فلم يُتعب قليل من الجنود أنفسهم بالبقاء في مواقعهم في جدة، فتحسين نفسه الآن قد هاجر، مكذبًا بذلك جميع قصصه البطولية. وذهب جوردن مباشرة إلى الأسرة الشريفية قرب دار الاعتماد حيث وجد علي "يرتجف في قصره في حالة من الرعب الذهني والحيرة التي يرثى لها"[(١)]. كانت راحة الملك عندما سمع الأنباء بالموافقة على العفو العام وقد أراح كاهله فجأة من عبء الواجب المهين في الحفاظ على تمثيلية الحجاز إلى مدى أبعد من ذلك. وبعد منتصف الليل مباشرة وقع الشروط ونام لأول مرة منذ عدة أيام.

وفي الصباح التالي، وصلت سفينة صاحب الجلالة (كورن فلاور Cornflower) لجمع الأمتعة الملكية ونقله إلى المنفى مع أخيه في العراق. ولكن قبل المغادرة، ألقى علي خطابًا وداعيًا قصيرًا على المتجمعين على المرسى: "إلى

---

(١) PRO/FO 686-29, Dec. 1925

جيشي الشجاع وشعبي الكريم"، هكذا بدأ الملك المرتبك النحيل خطابه: "إني أشكر الله في السراء والضراء، منذ وطأت قدمي لأول مرة هذه الأرض المقدسة مع والدي اعتبرت نفسي جزءًا من هذا الشعب.. حتى تنازل أبي واخترتموني لتولي الأمر. في ذلك الوقت العصيب عندما كان العدو على الأبواب، ألححتم وقبلت أنا. لقد أعددت ما رأيتموه من جند وأسلحة وانتظرت معكم بصبر حتى انتهت عدتنا ومالنا. إني مجبر هذا اليوم لأبلغكم بفخر بأني أفضل أن أنسحب من هذه الحرب واني قدتوصلت إلى اتفاقية تمنح السلام وتضمن الحقوق. إني أطلب منكم الامتثال لهذه الاتفاقية. أتمنى لكم مستقبلا جيدًا وأرجو أن تغفروا لي أخطائي".

ليس هناك من لا يمتثل للطلب الأخير لأنه ليس أمرًا مهمًا بل هو تمثيل بائس لدوره كملك، فأخطاؤه كانت نتيجة نواياه الطيبة. فلم يرث أحد أبدًا مثل هذه التركة الثقيلة. ولم تكن هناك أية إشارة في خطابه إلى والده أو إلى الحقوق العربية أو الظلم البريطاني أو "اللصوص وقطاع الطرق"، كما يسمي الحسين الوهابيين. كان وداعًا هادئًا، وداعًا اعتذاريًا بسيطًا وأمنيات طيبة صادقة للمستقبل.

سلّم الملك البقايا المتهرئة من السلطة إلى حكومة مؤقتة بقيادة الشيخ عبدالله علي رضا، القائمقام. ثم صافح بعد ذلك وودع بخجل القناصل الأجانب ثم دخل في الآخر إلى قارب صغير حيث نقل إلى سفينة (كورن فلاور)، ثم أبحر بعد ذلك إلى عدن والبصرة. وقد تميز مساء الأحد (٢٠) كانون الأول بنهاية هادئة لـ (١١٠٠) سنة من الإمارة الشريفية الهاشمية على مكة وحياة تسع سنوات ونصف لمملكة الحجاز و(١١) شهرًا من الشقاء التام لمليكها الأخير.

* * *

الفصل الثامن عشر

المملكة المزدوجة

■ في صباح يوم الاثنين (٢١) كانون الأول ١٩٢٥، قام جوردن والمقدم محمد عبدالله صادق، خليفة الزعيم الشريفي المغادر، برحلة لمقابلة السلطان النجدي لإبلاغه برحيل علي. وقد أطرى عبدالعزيز بلباقة جوردن لتدخله وعبّر عن سعادته لانتهاء الحرب بعد (١٥) سنة. وفي اليوم التالي، أرسل موظفون من الديوان إلى جدة للإشراف على ضمانات الاستسلام والتحضير للدخول المنتصر للسلطان في الأربعاء. تم بناء سرادق في (كندرة) على جانب المدينة المنورة من سور مدينة جدة وهناك في (٢٣) كانون الأول، ألقى الناس أول نظرة لهم على أعدائهم في آخر سنة: الأول عبدالله بن عبدالرحمن شقيق السلطان وقائد قوات الإخوان التي تحاصر جدة. ثم عبدالعزيز نفسه. وقد سُرَّ كثيرًا بالترحيب التي أستقبل به من جانب القائمقام (رئيس الحكومة المؤقتة) وأعضاء السلك الدبلوماسي. وقد قدم علماء جدة وبقايا الجيش الحجازي ووجهاء المدينة بأجمعهم لإعلان ولائهم إلى فاتح الحجاز حتى حلّ الظلام وعاد عبدالعزيز إلى خيمته.

وفي (٢٤) كانون الأول، دخل عبدالعزيز رسميًا إلى جدة عبر باب المدينة المنورة قرب المعسكر النجدي في (كندرة) يصاحبه أطفال المدارس وهم ينشدون. وكانوا مصطفين على امتداد الشوارع حتى بيت محمد ناصيف حيث سيمكث عبدالعزيز. وفي حديثه مع وجهاء المدينة في غرفة الاستقبال في بيت ناصيف، أعاد السلطان تأكيد نيته بتسوية مستقبل الحجاز عن طريق مؤتمر إسلامي دولي. مع ذلك أرسل أهالي جدة وفدًا إلى مكة لتقييم سنة من الحكم الوهابي عليها، وقد عادوا متأثرين بالأمن، والحكومة الجيدة وباللجنة الاستشارية التي تم تأسيسها. وأخذ أهالي جدة زمام المبادرة وأثاروا قضية العرش الشاغر آملين استعادة وحدة الحجاز. وكان حلهم مبتكرًا وبدا إنه يلائم مطالب الحجازيين والنجديين: حيث يصبح عبدالعزيز ملكا على الحجاز كما اعتلى فرانس - جوزيف عرشي النمسا والمجر. وقد تم تقديم المقترح رسميًا خلال جلسة عقدت في كانون الثاني ١٩٢٦ وبعد مغادرة الوفد، دعا السلطان العلماء والوجهاء البارزين للاجتماع وأبلغهم الطلب. كان هناك شيئًا من التردد من جانب العلماء لأن مثل هذا القرار يبدو متعارضًا مع تصريحات السلطان العديدة بخصوص حل إسلامي دولي لمشكلة الحجاز، ولكن في نهاية الاجتماع، تم الاتفاق بالإجماع على أن يصبح عبدالعزيز السعود، بقدراته الذاتية، ملكا على الحجاز، إضافة إلى ألقابه الأخرى. وفي السابع من الشهر أصدر بيانًا رسميًا عن أهدافه موضحًا حقيقة أنه لم تكن هناك أية استجابة لدعوته (عن طريق الملك فؤاد) لعقد مؤتمر، "لذلك وبما أن العالم الإسلامي غير مكترث بهذه القضية المهمة، فإني قد منحتهم "أي شعب الحجاز" الحرية باتخاذ قرار حول مستقبلهم". وقد تجلت أماني "شعب الحجاز" عن نفسها في نفس المساء بشكل طلب يؤكدون فيه مساندتهم لعبدالعزيز: "نحن نعترف لك، أيها السلطان عبدالعزيز، بأن تكون ملكا على الحجاز، بموجب القرآن الكريم والسنّة النبوية، وأن الحجاز سوف تكون للحجازيين، وتكون مكة هي العاصمة وتحت حمايتكم".

وشهد صباح يوم الجمعة (٨) كانون الثاني تولي ملك جديد وأخير للحجاز في زاوية الصفا خارج الجامع الكبير في مكة. وبعد صلاة الظهر اجتمع جمع غفير من الناس، ولاحت هيئة السلطان الوهابي الطويلة يرافقه الشيخ عبدالملك مراد، شيخ الحرم، الذي أعلن اسم الحاكم الجديد بمصاحبة سلام ملكي من حصن سياد. كان ذلك في حزيران عام ١٩١٦،عندما بدأت سلسلة الأحداث التي، وحدت بوسائل غير متوقعة، الجزيرة العربية من الساحل إلى الساحل. وبما أن ذلك كان الهدف الأساسي للحسين الذي يعيش في المنفى حاليًا، فإن سخرية الموقف لا يمكن أن تكون قد مرّت دون أن يدركها عندما كان يقرأ ذلك في منزله بقبرص.

* * *

ملحق

■ أمضى الحسين، باستثناء أيامه القليلة الأخيرة، بقية حياته في المنفى في جزيرة قبرص[1]، بعيدًا عن الأرض العربية التي لعب دورًا في تحريرها من قبل البريطانيين الذين وضع فيهم ثقته. وبمنعطف آخر من منعطفات السخرية كان حاكم الجزيرة في ذلك الوقت هو نفسه السيد رونالد ستورز الذي لعبت لقاءاته مع العائلة الشريفية في السنوات الأولى من الحرب العالمية الأولى دورًا حيويًا في نشوب الثورة العربية. لقد أمضى الملك السابق الأيام في منزله بهدوء حيث يقرأ له ابنه الأصغر زيد عندما كان يأتي من كلية Balliol في أكسفورد. كان غضب الحسين متفردًا على التجار الذين يتهمهم دائمًا بسرقته، وكان حزنه الأكبر هو إنه في سنّه الكبير هذا (كان عمره ٧١ عامًا عندما غادر العقبة) يحيطه أناس لا يشاركونه لا دينه الإسلامي ولا لغته. وقد انتهت آخر علامة رسمية بين الحسين والبريطانيين بمراسيم فظة جرت في المكتبة العامة في نيقوسيا حيث قلده ستورز، سجّان الملك غير الرسمي، وسام الصليب الكبير ووشاح الفارس.

---

(١) عانى رئيس أساقفة قبرص مكاريوس من مصير مشابه وذلك عندما أُرسل إلى جزيرة سيشل البعيدة.

مع ذلك، ورغم إبعاد نفسه بشدة وامتناعه عن الترف أو الانغماس في الملذات، فقد بدأت صحة الملك السابق بالتدهور. وعندما زاره السير أليك كيركبرايد في عام ١٩٢٨، أصابته الدهشة لرؤية مقدار هزال الرجل العجوز ووجده يقاسي من ضجر شديد. وبعد سنتين عانى الحسين من سكتة دماغية وأصبح طريح الفراش، وفي هذا الوقت، طلب الإذن له بالوفاة في بلد عربي. وقد مُنح إذنًا في المكوث مع عبدالله في عمان. وهناك عاش في فترات من صفاء الذهن، ولكن غالبًا ما تكون طفيفة، حتى وفاته في (٤) تموز عام ١٩٣١ عن عمر يناهز التاسعة والسبعين. نُقِل جثمانه إلى القدس وهناك دُفن الرجل الذي حكم طويلا أقدس مدينتين في الإسلام ليُدفن في ثالث أهم المواقع المقدسة في الإسلام: الحرم الأشرف أو قبة الصخرة. ومن سخرية الأقدار، حتى أن حرس الشرف الذي رافق جنازته كانوا من البريطانيين. يرقد رفاته الآن في الدولة اليهودية التي قاوم هو إنشاءها ببالغ الشدة: وهذا تذكير مستمر لما يعتبره هو خيانة له. وبعد سنوات أي في عام ١٩٧٤، ألقى أليك كيركبرايد الذي كان يقوم بمهمة حساسة تتناول حلّ بعض مشكلات الملك الحسين في شرق الأردن، كلمة إحياءً لذكرى الملك السابق، أبلغ المؤلف: "إنه حقًا ضحّى بموقعه من أجل فلسطين ولم يحظ بأي شكر مهما كان على ذلك".

ولم يحضر فيصل، الذي لم يتصالح مع والده أبدًا، إلى المراسيم الجنائزية، مدعيًا إنه مشغول جدًا في شؤون البلاد. وقد اعتبر عبدالله ذلك قساوة ووحشية ولم يغفر له ذلك أبدًا. مع ذلك لم يعمّر فيصل طويلا وتوفي في دار للتمريض في أوروبا في عام ١٩٣٣. وقد عاش علي بهدوء في العراق، حيث يحل أحيانًا محل شقيقه وخليفته، ولكن حياته الكئيبة قد انتهت في عام ١٩٣٥. وحتى إن مراسيم جنازته قد قطعتها عاصفة غريبة أدت إلى تفرّق العديد من المفجوعين في فوضى قبل هبوب الريح والرمال. وقد استمر عبدالله رغم الجروح التي سببها خلق دولة إسرائيل والغمّ المثير للمتاعب للضفة الغربية. لقد كانت خطوة الأخير السياسية التي خلقت دولة الأردن والتي أدت في النهاية إلى اغتيال الملك في (٢١) حزيران

عام ١٩٥١ من قِبل أحد الفلسطينيين. لقد أُطلِقت عليه النار على بُعد ياردات قليلة من ضريح والده في مدخل الحرم الأشرف وتوفي أمام أنظار خليفته الصغير الملك حسين. ورغم التنبؤات العديدة، فقد ظلت الأردن باقية لتكون المملكة الهاشمية الوحيدة الباقية في السبعينات. فقد أسقط العراق الأسرة الحاكمة في مذبحة عام ١٩٥٨ قادت الجيش على رأس السلطة على أجساد الأسرة المالكة. وقد عمّر زيد أكثر من أشقائه وتوفي في عام ١٩٧٢ بعد أن مثّل حكومة العراق الهاشمية في لندن سنوات عديدة.

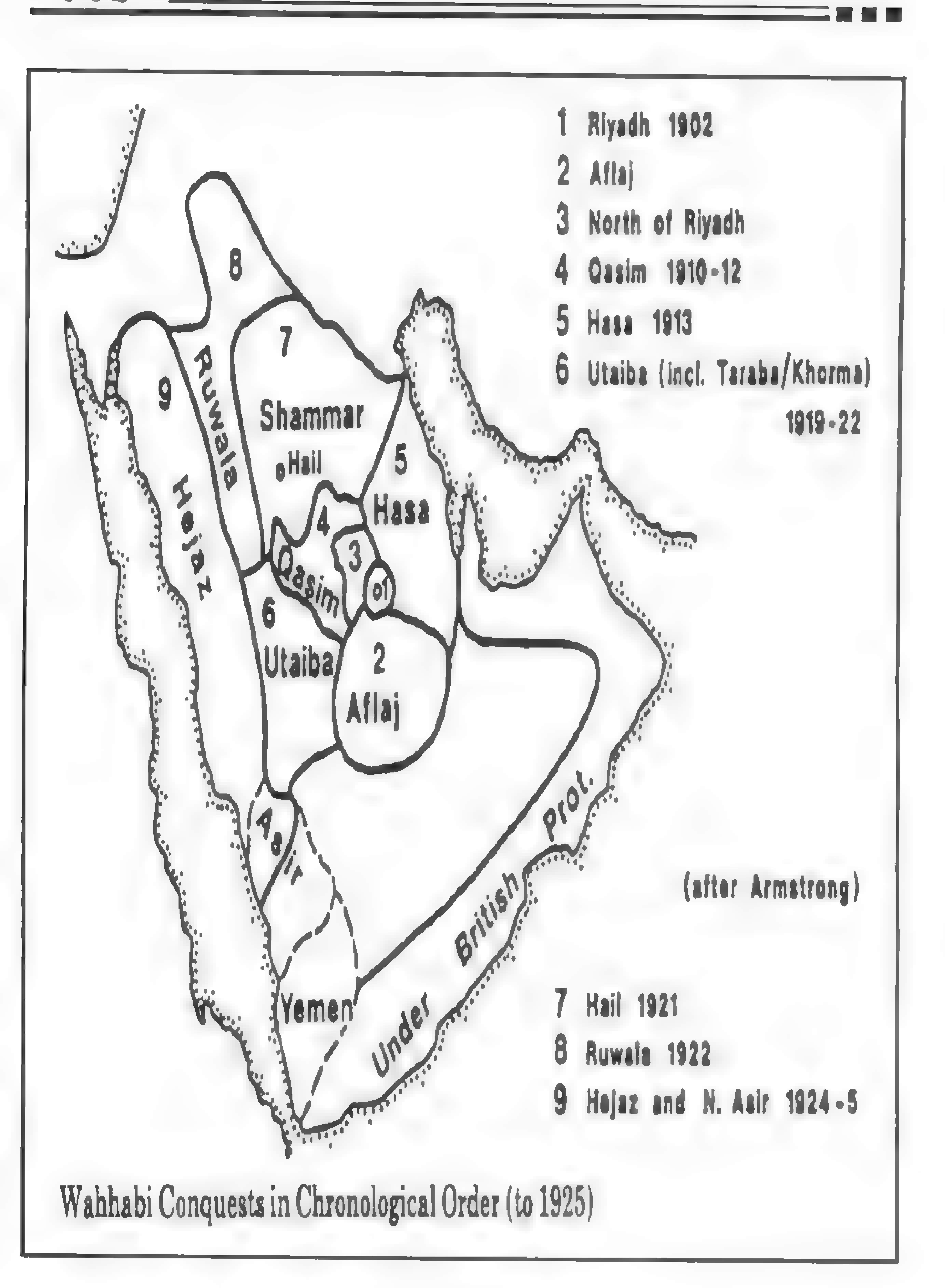
وقد أدخل الملك عبد العزيز بن سعود إلى الحجاز عصرًا من الأمن والرخاء لم يسبق لـه مثيل، حيث أدخلها في عـام ١٩٣٢ إلى المملكة الجديدة والموحدة، المملكة العربية السعودية. وتحت ظل حكمه الحازم والرحيم، انتهت أعمال السلب التي يقوم بها البدو بشكل سريع. وقد تم حل الإخوان، وتمت المباشر بوضع أساس الإدارة حديثة للحكم. وقد استفاد الحجاج كثيرًا من التغيير حيث أصبح الحجاج قادرون على السفر بأمان. ويتوضح كم كان التغيير سريعًا وحاسمًا بحقيقة أنه قد سجل أن الحج عام ١٩٢٦ كان أفضل حج من ناحية الحضور والإدارة حتى ذلك الوقت. وقد تم وضع الحجاز تحت مسؤولية فيصل أحد أبناء ابن سعود حيث عمل كنائب لوالده.

وبعد عام ١٩٣٩، وبعد ازدهار صناعة النفط في المنطقة الشرقية، بدأت ثروة كبيرة بالتدفق إلى الخزينة. ولكونها جزءًا من السعودية العربية، استفادت الحجاز من هذه الثروة الجديدة وأنفقت مبالغ ضخمة على تطوير المنشآت التي تخدم الحجاج لذلك فإن نفقات الحكومة الآن على الحجاج تفوق العوائد التي تحصل عليها منهم.

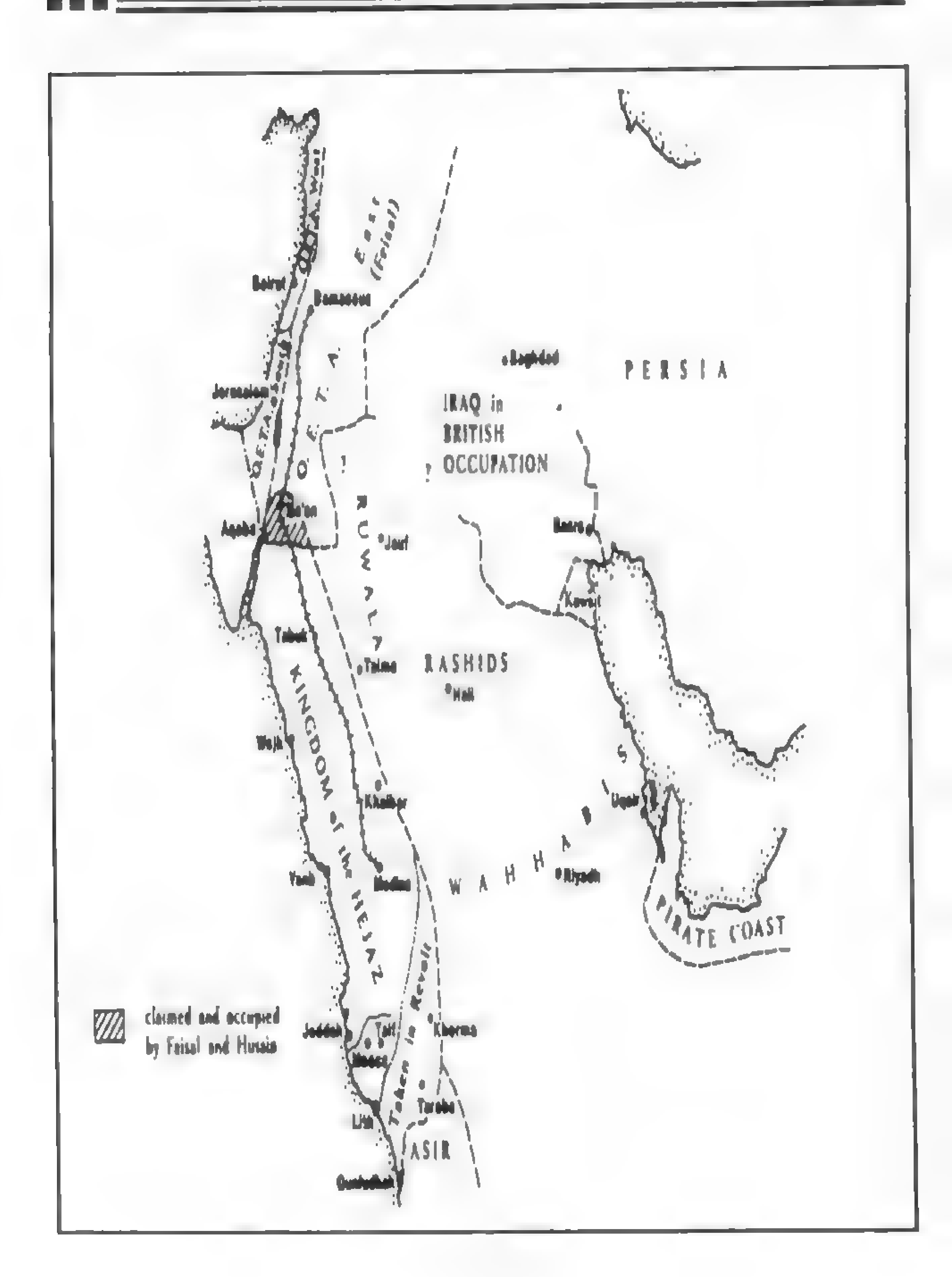
واختفت الحجاز ككيان سياسي لتحل محلها تقسيمات إدارية متعددة بعد عام ١٩٣٢. وبعد الحسين، لم يحصل أي تعيين آخر لإمارة مكة ولم يظهر أي مطالب جدي آخر بالخلافة التي دخلت في غياهب النسيان. وقد اختفت المدن القديمة كجدة والمدينة المنورة ومكة بسرعة حيث حلت كتل جديدة من المباني

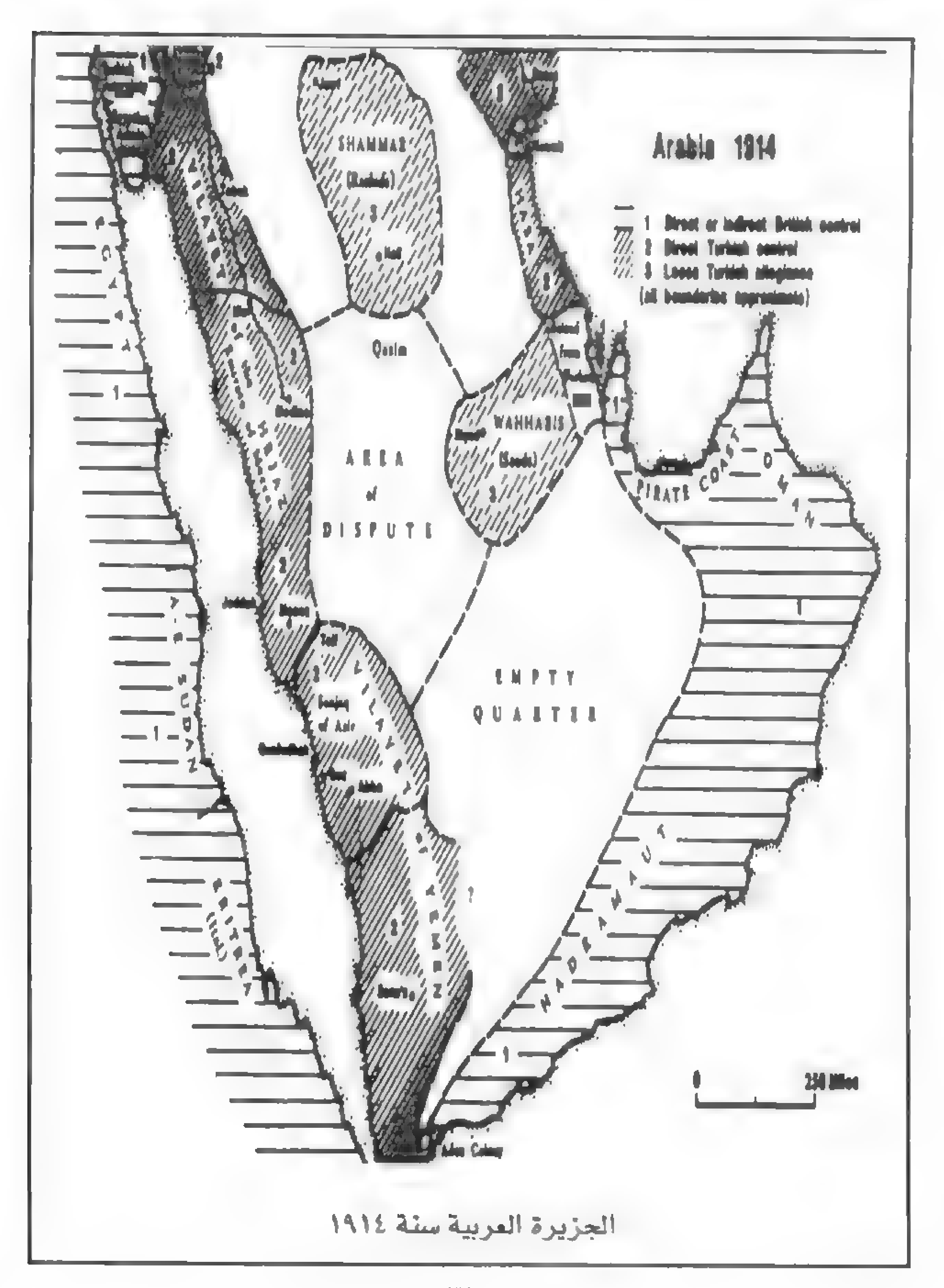
والدوائر والجوامع والحوانيت محل الأزقة الضيقة بانعطافاتها والتواءاتها الحادة وشرفاتها الناتئة. دار الاعتماد البريطاني مهجورة الآن وفارغة. ولم تعد الآن أرتال من الحجاج الهنود المفلسين الساعين لطلب المساعدة، بل من أغنياء جدة الذين ينتظرون الحصول على رخص التخطيط من بناية البلدية المجاورة. وعلى شرفة علوية من دار الاعتماد، تقبع سارية علم زائلة يعلوها الغبار تشير إلى حيث كان مستقبل الجزيرة يشكل ذات مرة موضوع حديث بعد الغداء.

* * *

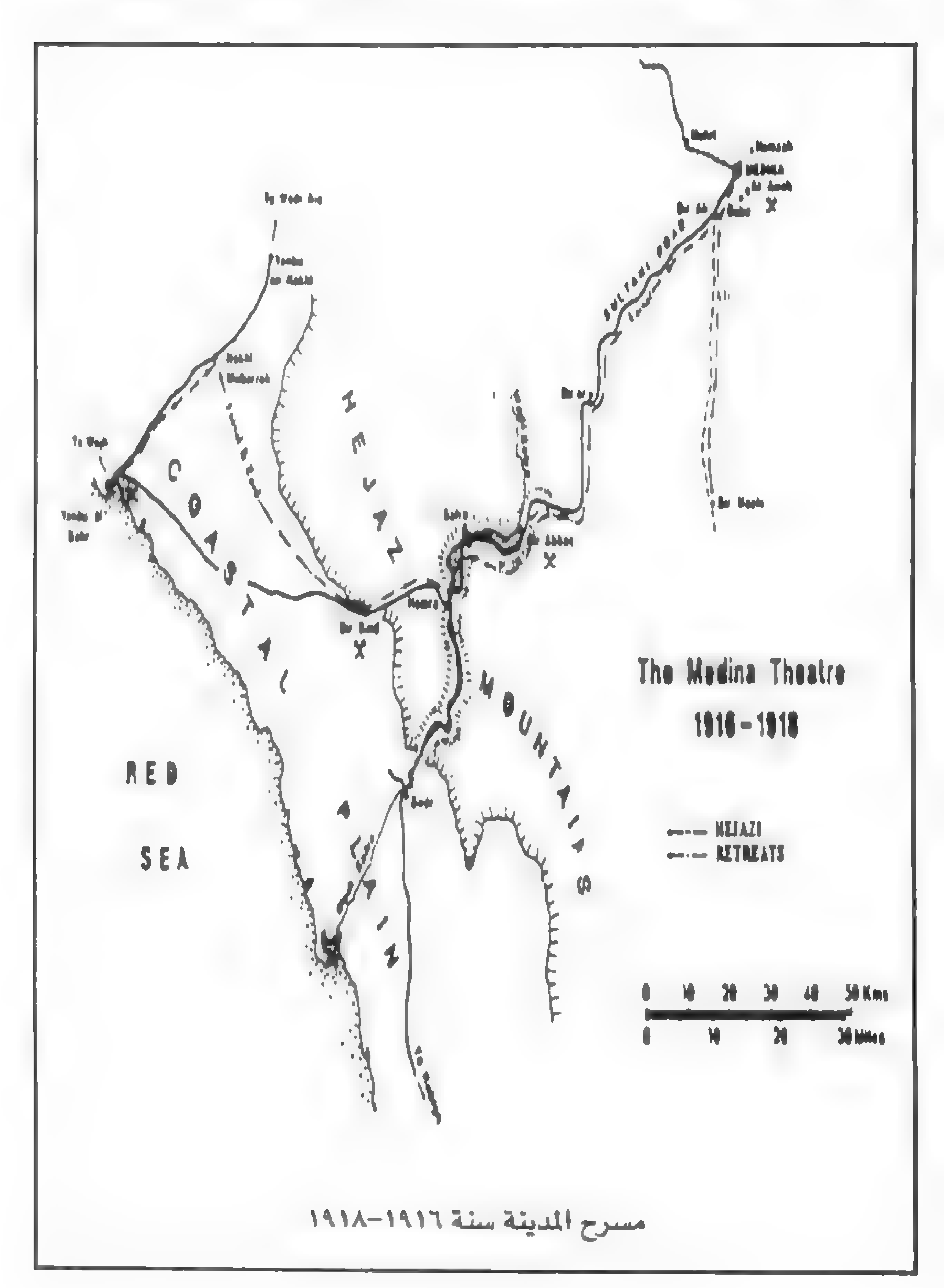


Wahhabi Conquests in Chronological Order (to 1925)

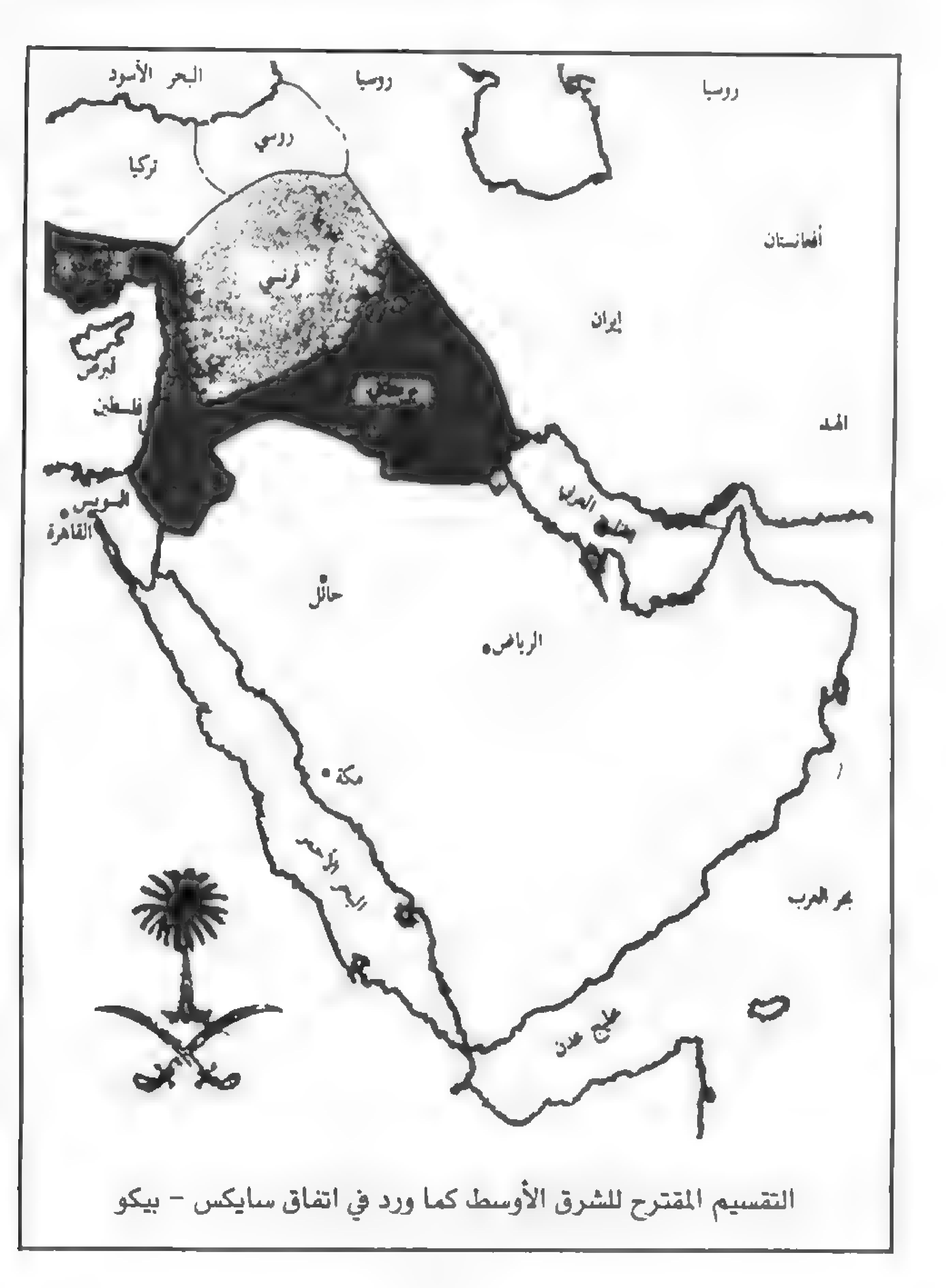

Beirut
Damascus
PERSIA
IRAQ in
BRITISH
OCCUPATION
Aqaba
RUWALA
Jauf
Kuwait
Tabuk
RASHIDS
Wejh
KINGDOM of the HEJAZ
Khaibar
Medina
Riyadh
PIRATE COAST
Taken in Revolt
Jeddah
Taif
Khorma
Mecca
Lith
ASIR
claimed and occupied
by Faisal and Husain



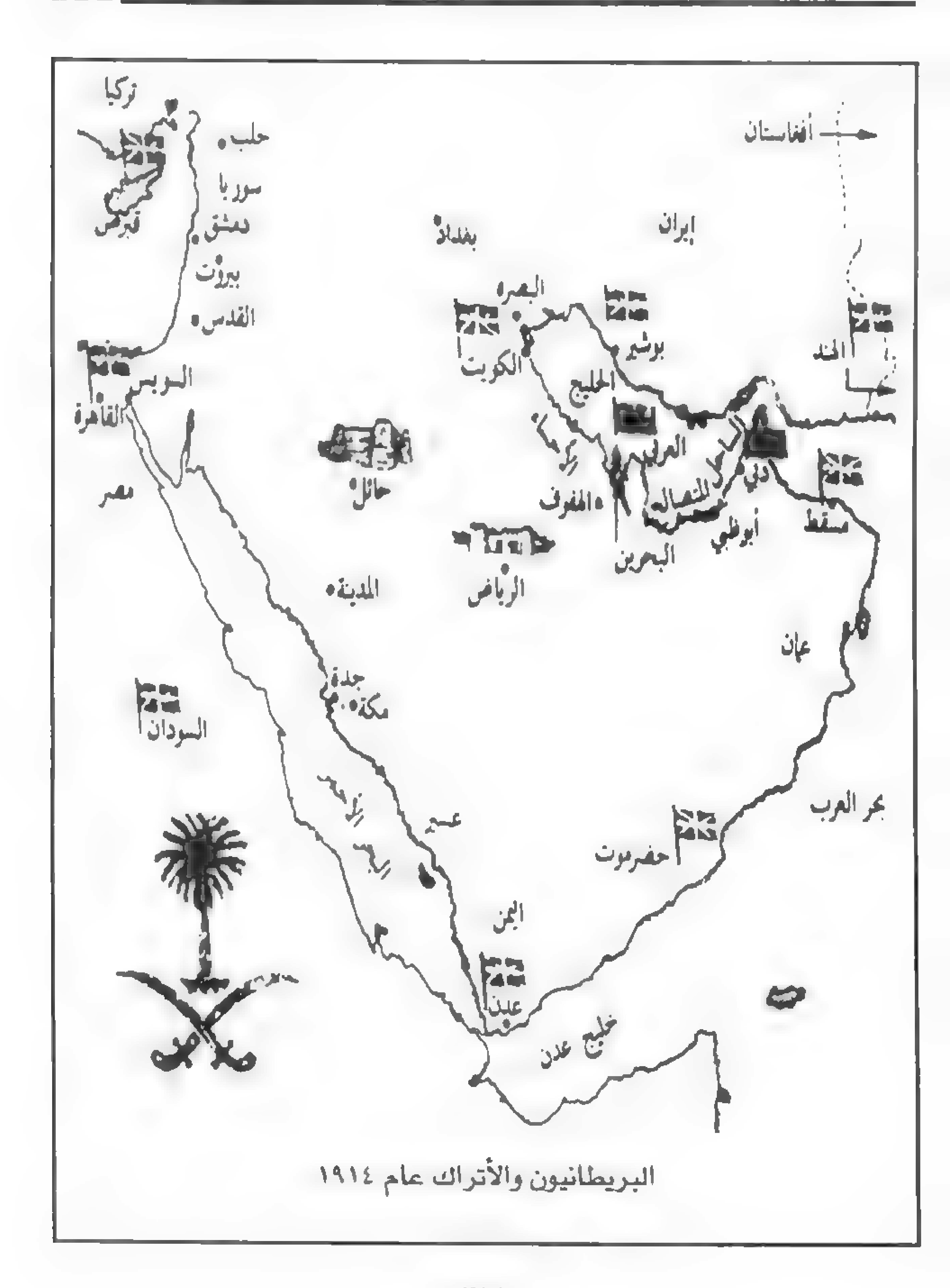
الجزيرة العربية سنة ١٩١٤



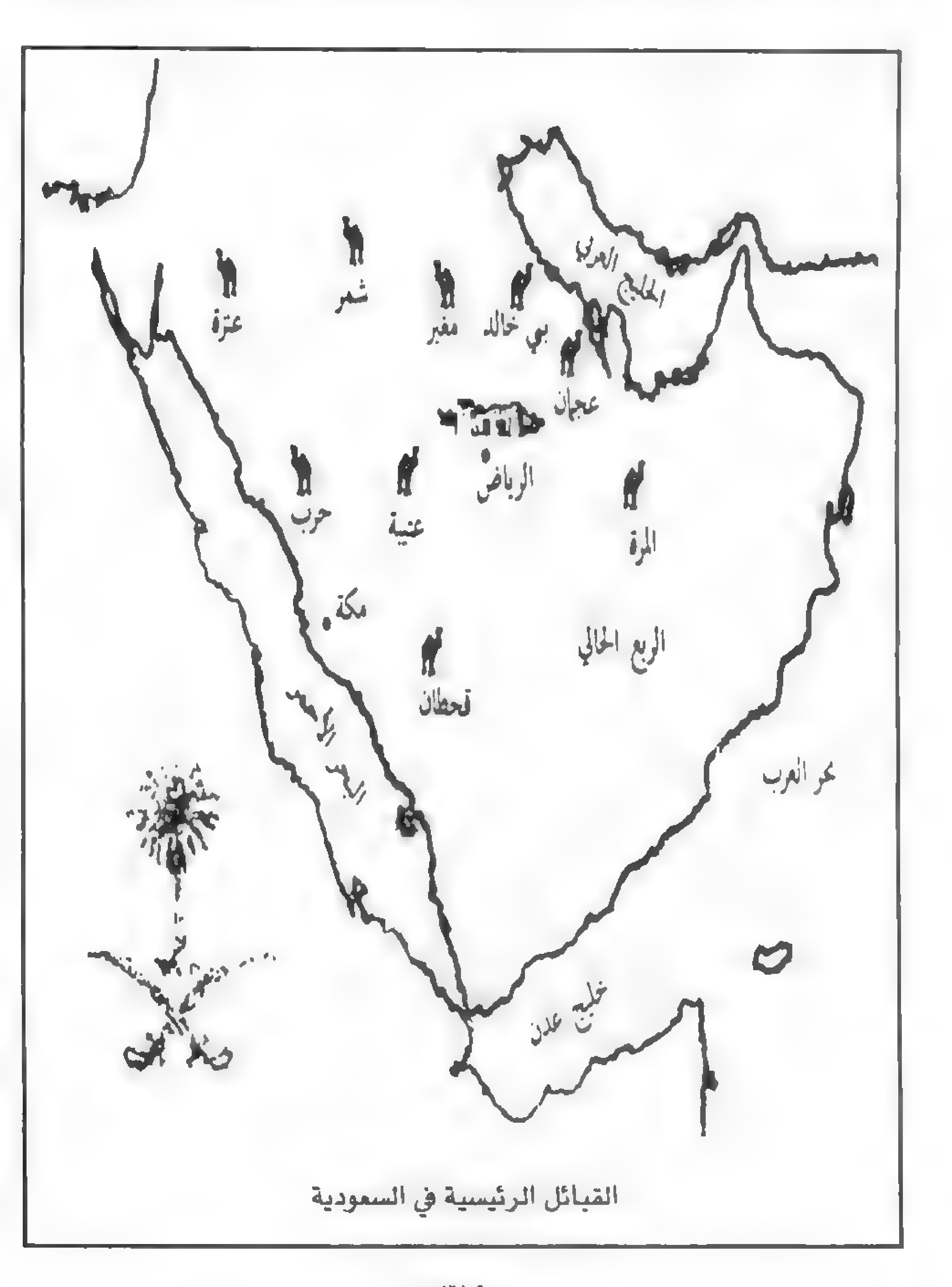
مسرح المدينة سنة ١٩١٦-١٩١٨



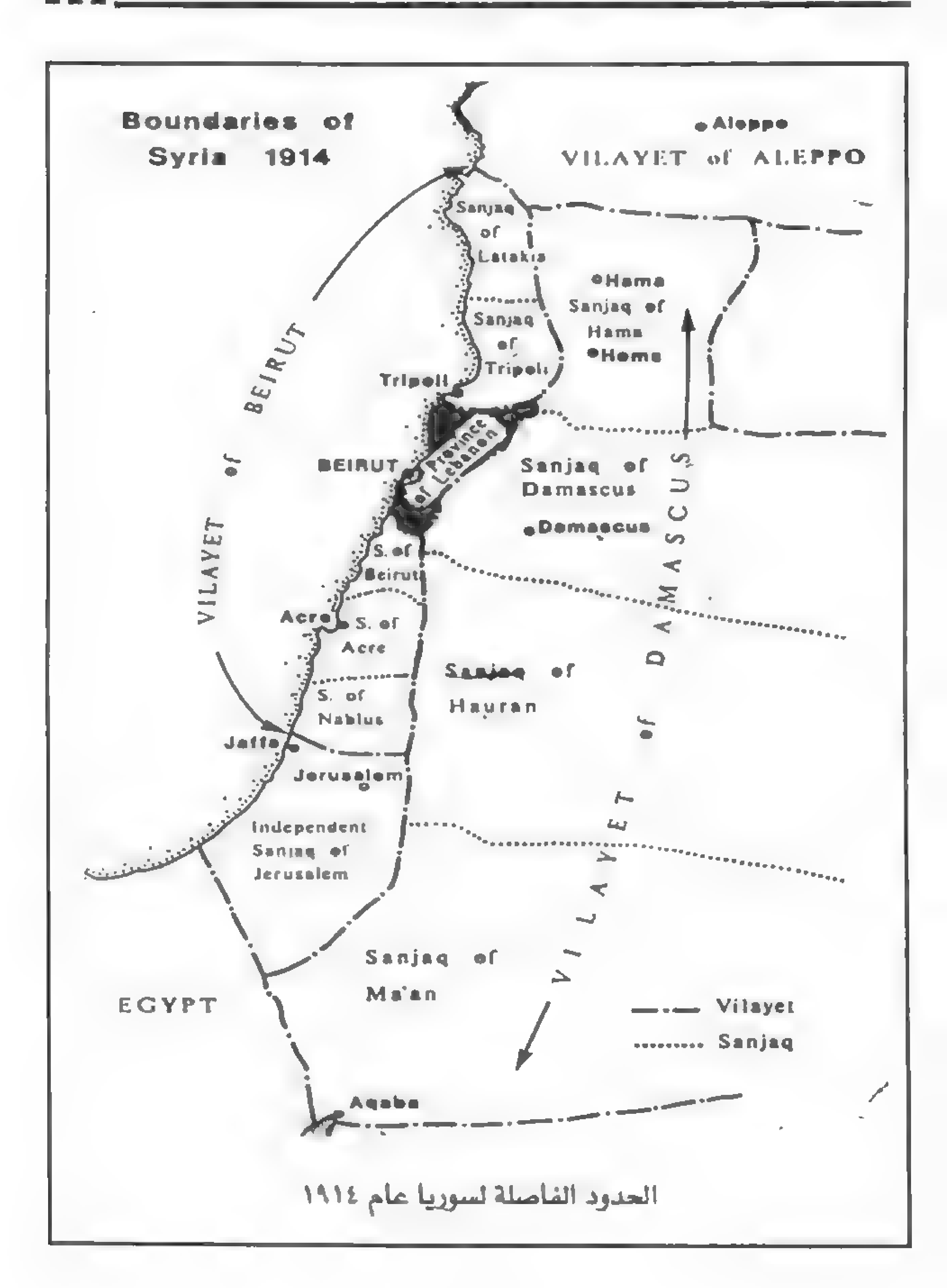
التقسيم المقترح للشرق الأوسط كما ورد في اتفاق سايكس - بيكو



البريطانيون والأتراك عام ١٩١٤



القبائل الرئيسية في السعودية



الحدود الفاصلة لسوريا عام ١٩١٤

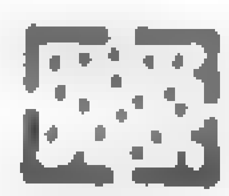
CILICIA

BAGHDAD

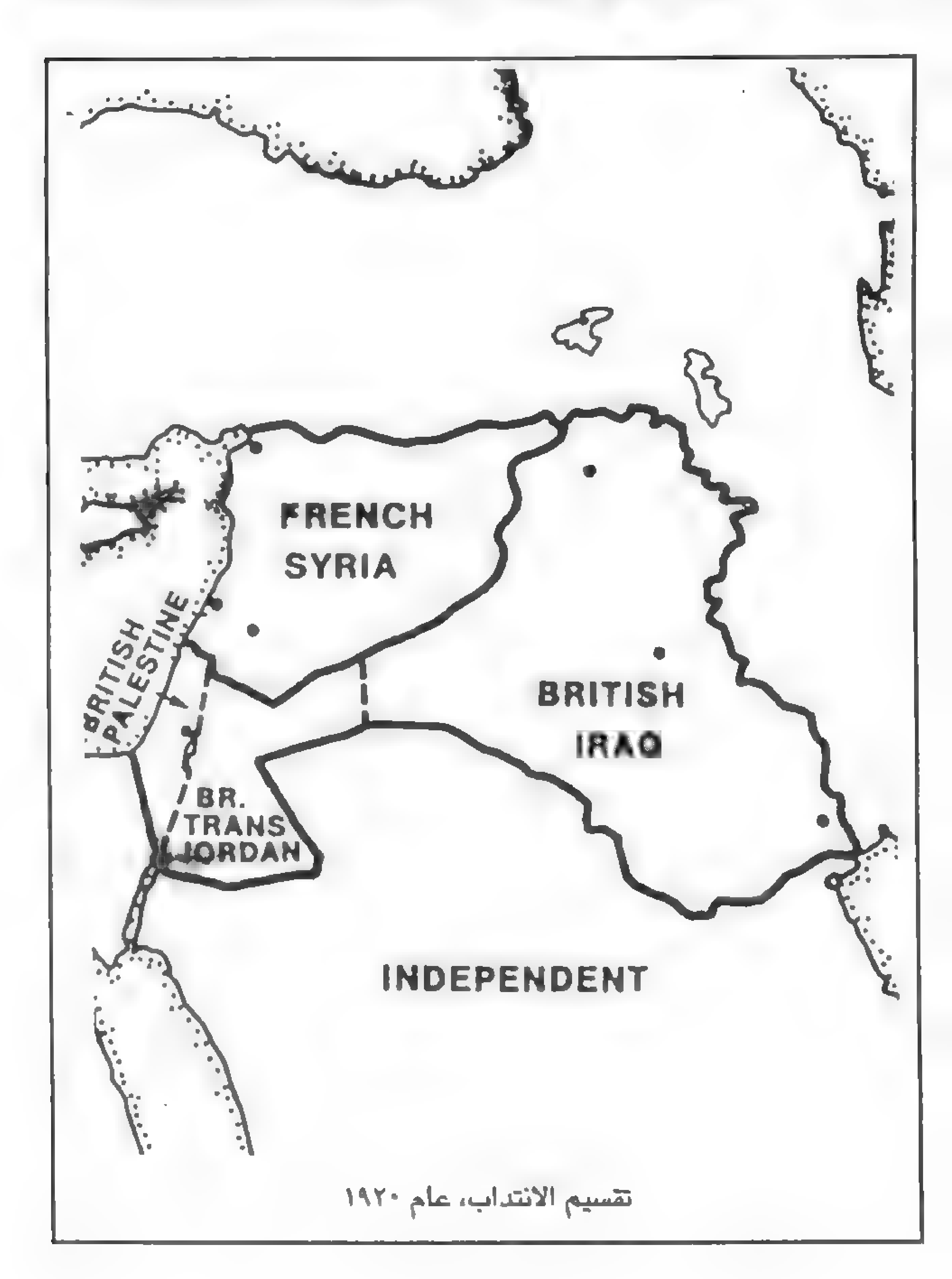
JERUSALEM

ADEN


Area of Arab Independence as in the Damascus Protocol and Husain's Note of July 14, 1915


Concessions made by Husain (Sovereignty only in Cilicia)

المناطق العربية المستقلة عام ١٩١٥



تقسيم الانتداب، عام ١٩٢٠



بطاقة بريدية صدرت في الحجاز في عهد الشريف حسين بن علي



عبدالعزيز مع أخوته وأبنائه بتاريخ ١١ مارس (آذار) عام ١٩١١

ابن سعود والسير بيرسي كوكس في مؤتمر العقير وقد وقف خلفهما الرائد هولمز


الملك فيصل عام ١٩١٥


لورنس


الملك علي، ملك الحجاز، يصل البصرة من جدة وهو في طريقه إلى بغداد، بعد أن تخلى عن عرشه



أشراف مكة المكرمة وكبار المسؤولين الأتراك قبل موسم حج عام ١٩١٤ ويبدو الشريف حسين بن علي على يمين الخطيب. بينما وقف حاكم المدينة التركي على يساره



الأمير زيد، الابن الرابع للملك الحسين الأول



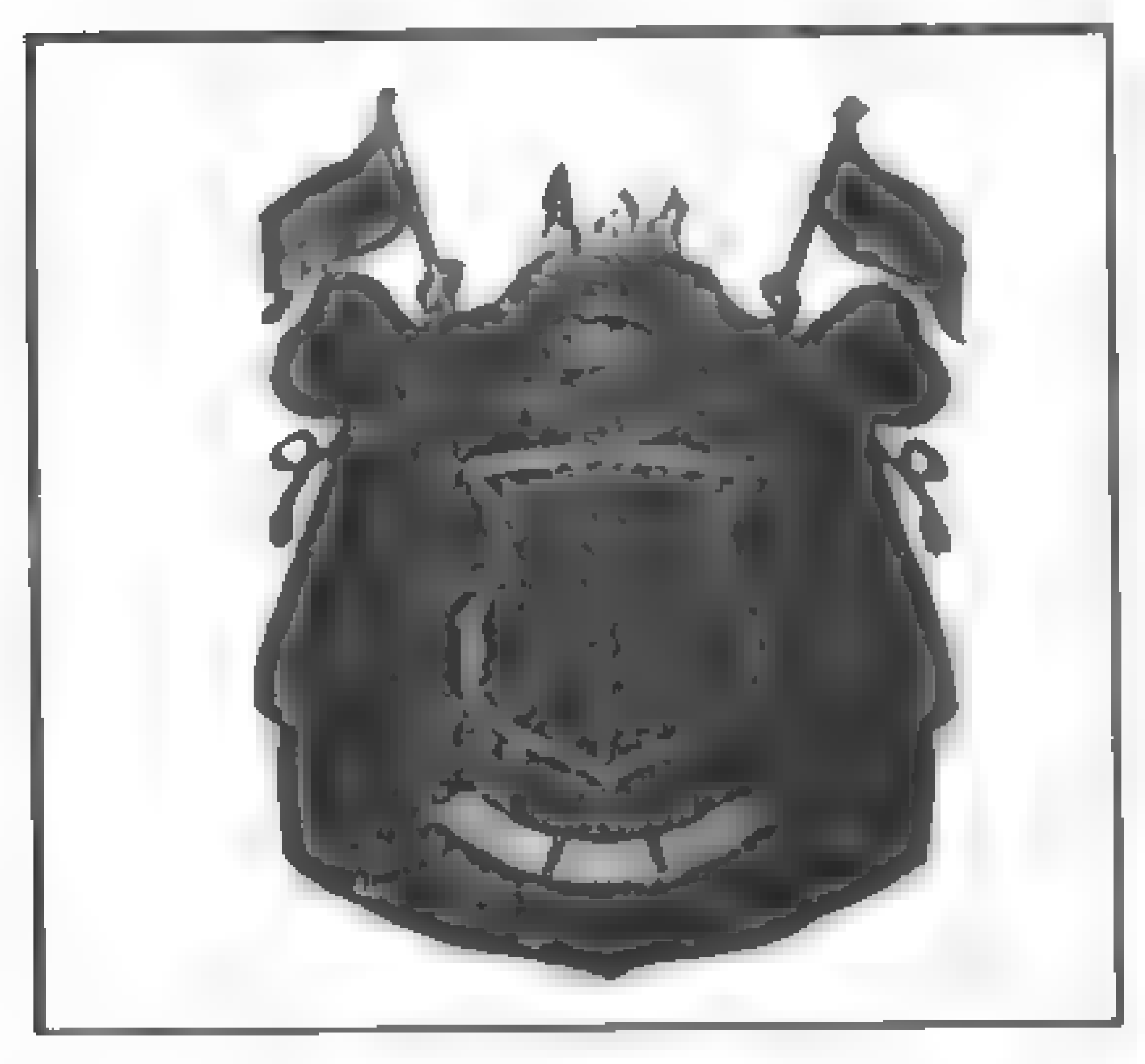
الملك علي



قصر شبرا في الطائف، المسكن الصيفي الشريفي



الملك الحسين في عمّان عام ١٩٢٤،
(الأمير عبدالله الثاني من الشمال)



شعار جيش مملكة الحجاز



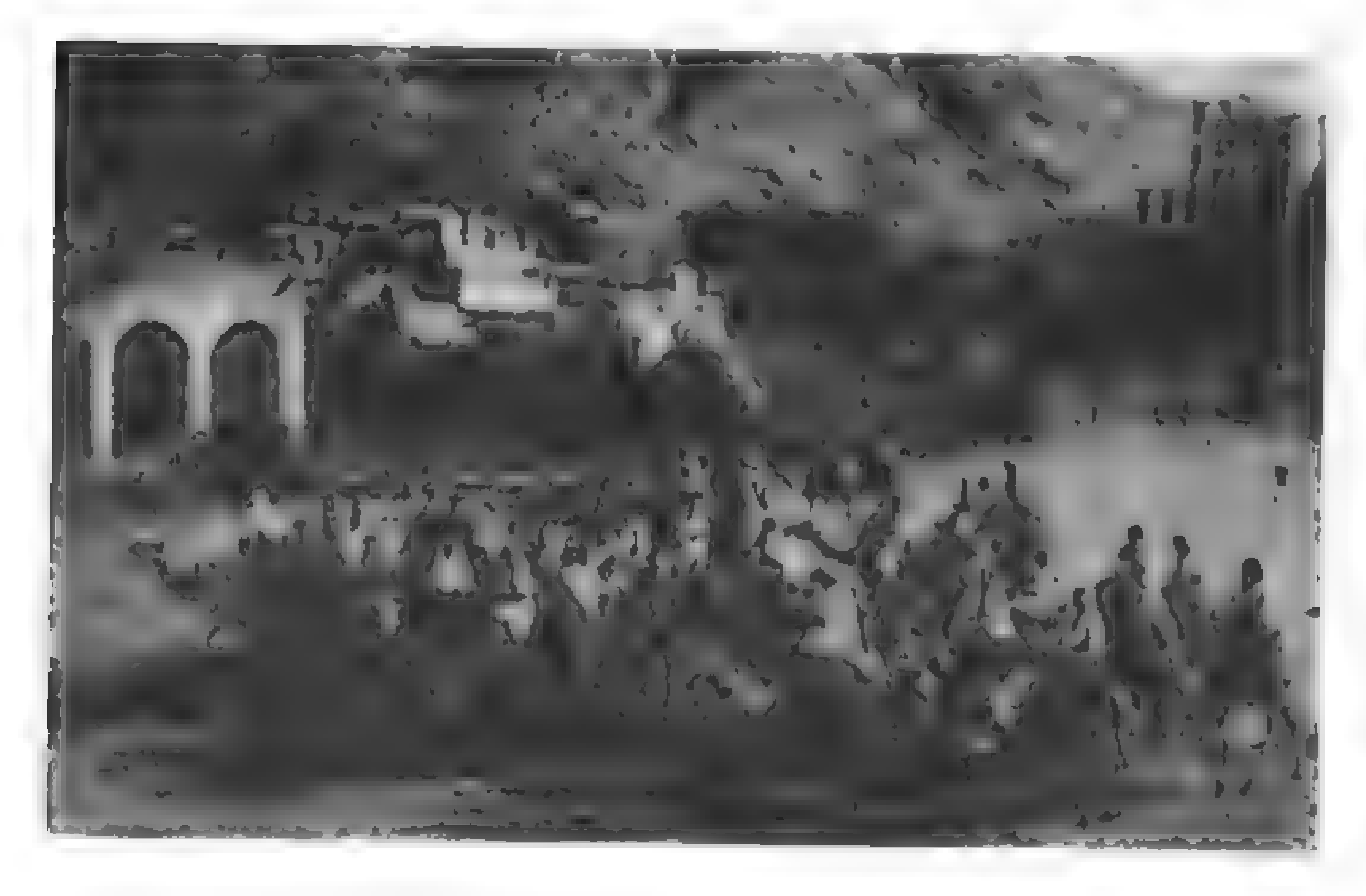
السلطان عبدالحميد (١٨٧٦-١٩٠٩)



جعفر العسكري، قائد الجيش النظامي الحجازي



الشارع الرئيسي في جدة، عام ١٩٢٤



سرية بدو الحجاز الهجّانة، عام ١٩٢٠



موكب ملك الحجاز وحاشيته إلى مكة الشريفة. عام ١٩٢٠



جبل عرفات، عام ١٩٢٠



الملك الحسين



الأمير عبدالله



فخري باشا، قائد وحاكم المدينة المنورة، (١٩١٦-١٩١٩)



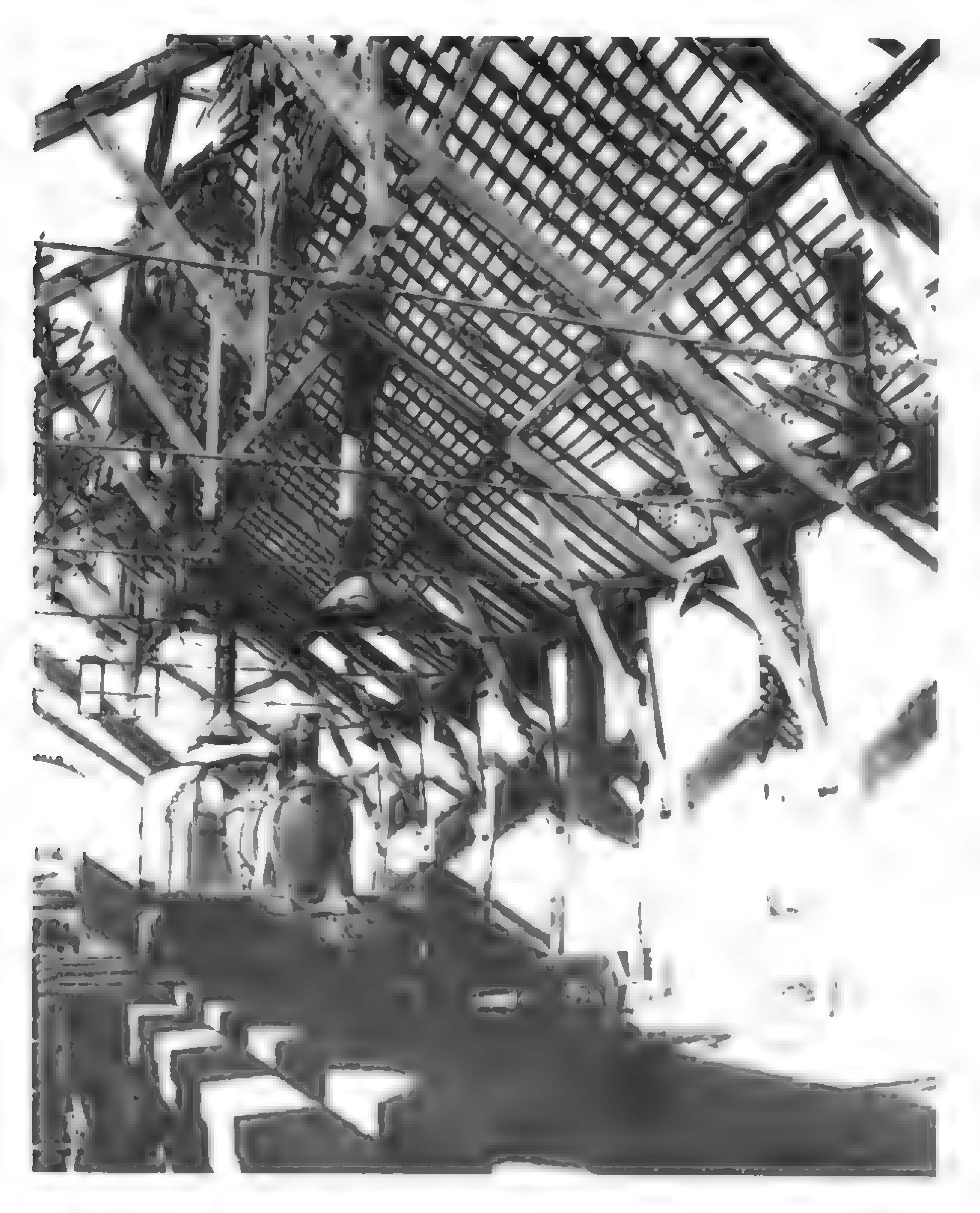
فيصل بن الحسين أثناء مفاوضات فرساي، عام ١٩١٩



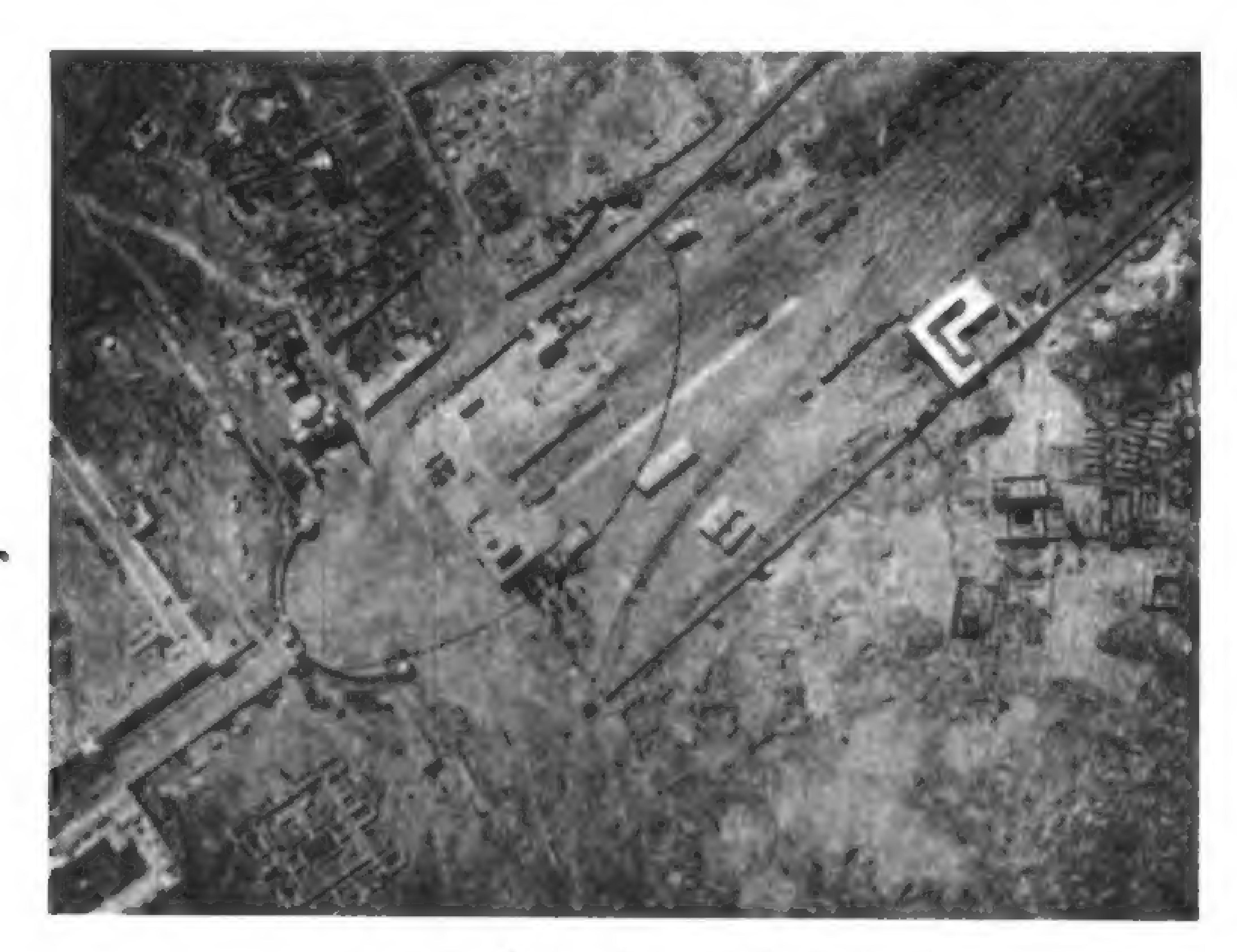
الأمير فيصل وحاشيته (جعفر العسكري على يمينه)



الشريف حسين بن علي يستقبل رونالد ستورز بتاريخ ١٢/١٢/١٩١٦



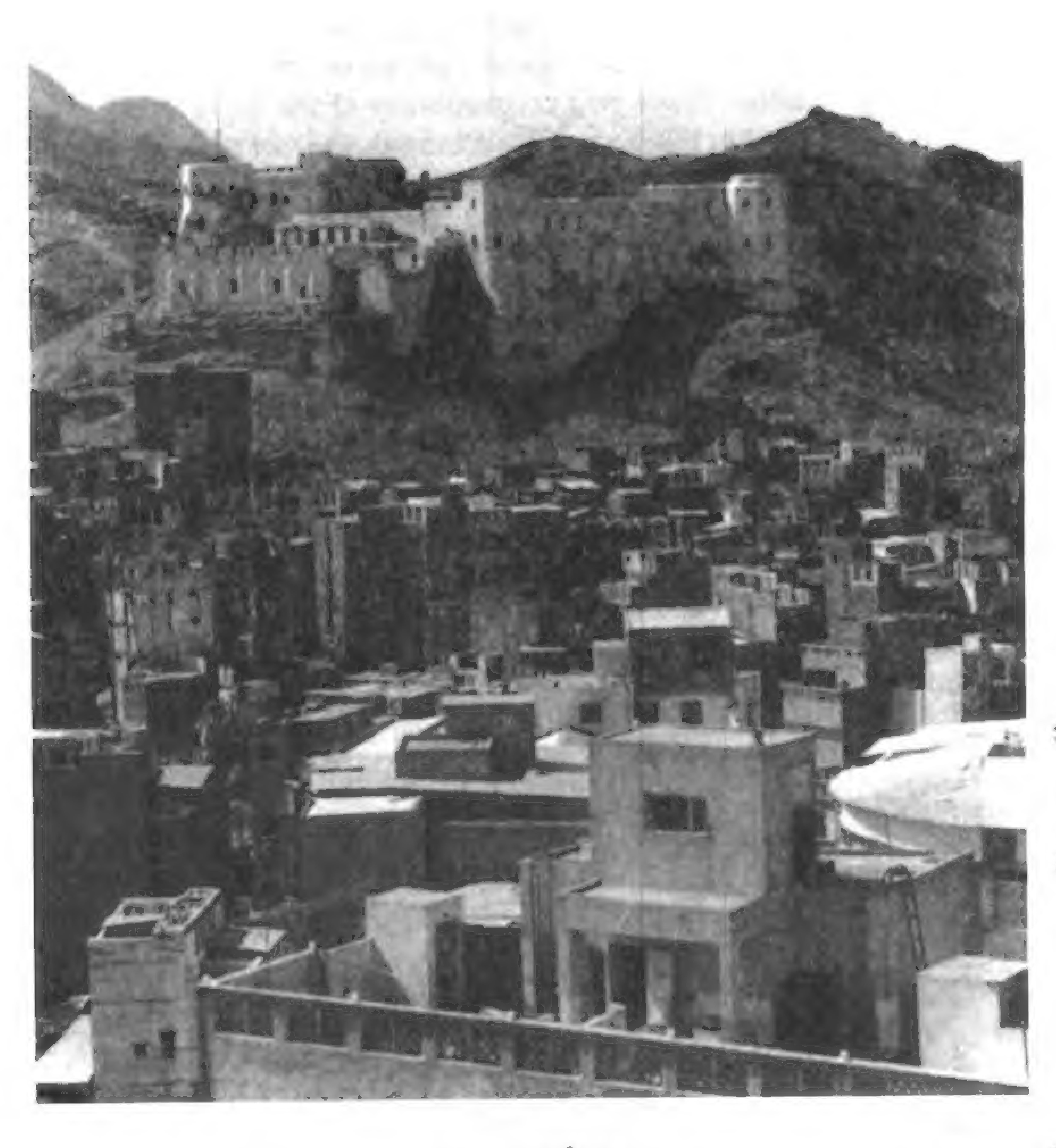
المدينة المنورة. هندسة أسقف سكة حديد الحجاز، كما كانت عام ١٩٧١



المحطة النهائية لسكة الحديد ومدخل دمشق



المدينة المنورة في عام ١٨٨٠ (تصوير ضابط تركي)



قلعة أجياد في مكة



علي حيدر (يسار الصف الأمامي) عند عودته من المدينة، مع الأمير عبدالمجيد (الخليفة الأخير) وسعد حميد باشا (يمين الصف الأمامي)



جمال باشا وطاقم القوة المسلحة الألمانية المبعوثة للهجوم على مصر، عام ١٩١٥-١٩١٦

مملكة الحجاز

الصراع بين الشريف حسين وآل سعود

يتناول هذا الكتاب قصة حياة الشريف حسين بن علي ودوره في قيادة الثورة العربية الكبرى في عام ١٩١٦، ونشوء مملكة الحجاز وسقوطها، وكيفية استيلاء الملك عبد العزيز بن سعود على المدن الحجازية الواحدة تلو الأخرى. وكذلك يتطرق إلى مقاومة الحسين العنيدة للمطامع البريطانية والفرنسية في المنطقة ولا سيما مخططاتهم إزاء فلسطين، حيث كلفه التزامه بمبادئه فقدان عرشه ومملكته ونفيه إلى جزيرة قبرص ليقضي فيها بقية حياته كهلاً محطم النفس مظلوماً من الجميع، ويصل المؤلف إلى استنتاج مفاده أن الحسين لم يخن القضية العربية، رغم أن بعض العرب قد عارضوا وجهات نظره، ولم يكونوا يودون أن يصبح ملكاً عليهم، إلا أنه قد مثل قضيتهم بأمانة ولكن بثمن باهظ.

الأهلية للنشر والتوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية - عمّان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ◆ منشورات في العام ٢٠٠٤م
◆ الغلاف: زهير أبو شايب .